الأدب العربى فى شبه القارة الهندية
حتى أواخر القرن العشرين

تأليف
الدكتور / أحمد إدريس

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : منى العيسوى

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: ʿEIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

5, Maryoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

إهـــداء . . .

إلــى أمـــى وأبـــى

مقدمـــة

وددت لو أن ألفاً أو نصف ألف من الباحثين العرب قسموا أنفسهم بين مكتبات شبه القارة التى تضم الهند وباكستان وبنغلاديش، ونفضوا التراب عن ألوف الكتب العربية التى كتبها أبناء هذه الدول وقت أن كانوا دولة واحدة، يحكمها ملوك باسم الإسلام، وينشرالإسلام فيها علماء أجلاء ذابت أجسادهم تحت الثرى، وبقيت لنا كتبهم، أو بعض كتبهم، لتعلن أن اللغة العربية توجد فى كل مكان وصلت إليه أشعه نور القرآن، فهو الكتاب الوحيد الذى لولاه لربما انطوت لغة العرب فى قبور الأجداد بموتهم.

ذلك أن ما كتبه أهل هذه المنطقة من مؤلفات مطبوعة ومخطوطة، بل ما بقى منه بعد أن امتدت أصابع الإحراق والإتلاف عمداً أو سهواً فأضاعت منه الكثير، يفوق خيال كل عربى، وينحنى له الباحث إجلالاً وتقديراً لوفرته وتنوعه وجودته.

هذا التقدير والاحترام يضم تحت جناحيه أيضاً أصحاب المطابع الهندوس الذين نشروا أكثر المطبوعات من المصنفات العربية والإسلامية، ولوكان الدافع تجارياً خالصاً، فقد تجشموا - بلا ريب - كثيراً من المصاعب فى زمن كانت الطباعة فيه أمراً شاقاً، والآلات آنذاك بدائية لا تعين، فساهموا فى نشر العلوم العربية والإسلامية بما لا ينكره أهل النزاهة والإنصاف.

وهذا الكتاب عجالة خاطفة شاءت الظروف أن يكون كذلك، لم نخرج فيه عن جدران مكتبة واحدة فى مدينة جديدة هى مكتبة مجمع البحوث الإسلامية فى إسلام أباد وهى

مكتبة صغيرة فما بالك لو تجولنا فى مكتبات لاهور وملتان وكراتشي وبيشاور وغيرها من مدن باكستان أو فى مكتبات رامبور ودلهى ولكنو وكلكته وحيدر آباد وعشرات غيرها فى مدن الهند التى حكمها المسلمون ما يربو على سبعة قرون ؟

مادة الكتاب إذن مفروضة فرضاً، فالكتب التى وجدت بين أيدينا هى التى حددت هذه المادة وأملت علينا اختيار النماذج دون كبير رأى منا واختيار، وقد اعتبرنا ذلك كافياً إذ كان الغرض من الكتاب مجرد التعريف بما يوجد من صنوف الأدب العربى فى منطقتنا وتركنا مهمة التلذذ بطعم كل نوع على حدة لمن اشتهوا ذلك.

غير أنى - كأى باحث - حاولت أن استخلص من النتف المجتمعة قواعد أدبية وأصل إلى ظواهر فنية قدر الإمكان سعياً للتعرف على خصائص هذا الأدب - نثره وشعره - ورسم صورة لقسمات وجهه بالقلم الرصاص قد تشبه الأصل، لكننى أدرك تمام الإدراك أن المحفوظ فى عشرات المكتبات على الأرفف يعلوه التراب الكثيف قد يرسم صورة أخرى أقرب إلى الأصل من التى رسمتها إذا ما نفض التراب عنه باحثون غيرى وأبانوا لنا ملامحه، فما توصلت إليه لا أزعم أنه ثابت مؤكد بل هو قابل فى أى وقت للنقض كما هو قابل للتأكيد.

أسأل الله العون والسداد

إسلام آباد : ١٩ / ٣ / ١٤١٤هـ

٩ / ٩ / ١٩٩٣م

د. أحمد إدريس

تمهيد

١- تحديدات

ما المقصود بالأدب العربى فى هذا الكتاب ؟

الحقيقة أن الباحث فى هذا المجال لا يستطيع أن يحصر المؤلفات العربية فى شبه القارة إذا اعتبر الأدب العربى - كما فعل كثير من الباحثين قديماً وحديثاً وشرقاً وغرباً - هو كل ما كتب باللغة العربية، ذلك أنه سيواجه تلالاً من المصنفات فى الحديث وعلومه، وفى التفسير والفقه والتصوف والفلسفة والحكمة والكلام والمنطق والمناظرات والعقيدة وعلوم القرآن والرجال والجغرافيه والطب والطبقات واللغة والإنشاء والرسائل والشعر والعروض والبلاغة والمعاجم والنحو وغير ذلك مما يحتاج إثباته إلى أسفار وموسوعات لن تخرج فى النهاية عن كونها مجرد قيد وتدوين لهذه المؤلفات ومؤلفيها دون فحص لمحتويات هذا الأدب لمعرفة ما له و ما عليه. فأمير مثل النواب صديق حسن القنوجى المتوفى فى ١٣٠٧ هـ له ستة وخمسون كتاباً باللغة العربية وللشيخ أحمد رضا البريلوى المتوفى ١٣٤٠ هـ ثلاثمائة مصنف كما للشيخ عبد الحى بن عبد الحليم اللكنوى المتوفى فى ١٣٠٤ هـ ستة وثمانون، وللشيخ أشرف على التهانوى المتوفى فى سنة ١٣٦٢ هـ ثلاثة عشر كتاباً. فكيف يمكن الحديث بإنصاف - إذن - عن الأدب العربى فى شبه القارة التى أنجبت خلال ما يزيد على سبعة قرون من غلبة المسلمين عليها ألوفاً من العلماء والأدباء إذا أدخلنا فى نطاق الأدب العربى كل ما كتب باللغة العربية ؟ فضلاً عن أن هذا المفهوم الواسع يجعل الأدب العربى مرادفاً للثقافة الإسلامية التى يحتاج تدوينها ونقدها إلى أعمار قد لا تتاح لفرد واحد.

لذلك أخرجنا من نطاق بحثنا ما يتعلق بالدارسات الإسلامية والطبقات والترجمات، وقصرناه على الشعر وما يتصل من النثر بفنون اللغة العربية بسبيل كالنحو والصرف وعلم اللغة والمعاجم والإنشاء والبلاغة والمقامات والأمثال، فتحدد معنى الأدب في كتابنا بهذا الذي ذكرناه.

ومع ذلك فقد أدخلنا فيه نموذجاً واحداً من التفاسير العربية وهو تفسير سواطع الإلهام لأبي الفيض الفيضي المتوفى عام ١٠٠٤ هـ لكونه يمثل صنعة لغوية هي الكتابة غير المنقوطة بصرف النظر عما فيه من تفسير، فالكتاب تفسير للقرآن كله من قبل أعجمي باللغة العربية ليس فيه لفظ منقوط ، ومن ثم ارتبط بموضوعنا .

وكما أن مفهوم الأدب العربي في شبه القارة يضيق ويتسع، كذلك فإن مفهوم شبه القارة يكبر ويصغر. فالهند في عصورها الإسلامية لم تثبت عند حدود جغرافية بعينها، وإنما أخضعها للمد و الجزر رغبة سلاطينها، وبصيرتهم الإدارية، ووضعهم السياسي، وعلاقاتهم بالدول المجاورة حبا وبغضا، وأحيانا طمعهم في الثروات، فكانت تضيق حيناً وتتسع أحياناً ، فإن اتسعت دخل في زمرة أدبائها جهابذة مثل بديع الزمان والبيروني والخوارزمي والزوزني وغيرهم ممن ارتبطوا بمراكز الثقافة العربية في هراة وغزنة وغيرها، وإن انكمشت خرجوا.

ونحن في تحديدنا للمقصود بشبه القارة جغرافياً اقتصرنا على الهند وباكستان - كما هما اليوم - فصار المراد بشبه القارة هو شبه القارة الهندية الباكستانية.

ونتج عن تحديدنا لشبه القارة تحديد آخر لمن يخرج من زمرة أدبائنا في هذا البحث و من يدخل فيها ، فأخرجنا قوماً وأدخلنا آخرين.

أخرجنا من هاجر آباؤهم إلى ديار العرب وولدوا هم بها ، وتربوا في أهلها ، ونشأوا على ترابها كابن الأعرابي ، وأبي الغراف السلمي وأعشى همدان والمنتجع بن نبهان وكشاجم محمود بن الحسن [١] وكثير آخرين ، لكننا أدخلنا من هؤلاء أبا عطاء

١- راجع سيرة هؤلاء تحت أسمائهم في رجال السند والهند إلى القرن السابع للقاضي أبي المعالي أطهر المباركبوري، مصر ١٣٩٨ هـ

السندي لأنه يمثل ظاهرة تمس بحثنا، إذ رغم ولادته ونشأته في ديار العرب، بقى على عجمته فى النثر، لكنه اشتهر بشعره كما سيأتيك بيانه.

وأخرجنا أيضاً من ارتبط ببلاط سلطان من سلاطين الهند وكان من قوم آخرين، وهؤلاء جمع غفير.

كذلك أخرجنا من جاء من العرب إلى هذا السلطان أو ذاك طمعاً فى البذل والعطاء فألف له كتاباً فى فن يعجبه، ثم بقى فى الهند آخر حياته كمحمد بن أبى بكر بن عمر الدمامينى المصرى الذى اتصل فى أواخر عمره ببلاط أحمد شاه أحد سلاطين الكجرات (٨١٤ - ٨٤٦ هـ) وكتب له كتابه المعروف بتعليق الفرائد، وهو شرح لتحصيل الفوائد وتكميل المقاصد فى النحو لابن مالك.

واستثنينا من هؤلاء أبا بكر بن محسن باعبود صاحب المقامة الهندية لأنه هاجر من اليمن فى سن مبكره وعاش ومات بها، وفسدت لغته العربية وغلبت عليها هنديته فى مواقع كثيرة.

وأخرجنا من عاش فى الهند من شعراء وأدباء العرب حيناً طال أم قصر، طوعاً كان عيشه فيها أم كرهاً. كالبحترى وذى الرمة ومنصور بن حاتم النحوى وابن المهلهل البغدادى ومطيع بن اياس وابن عنين ويزيد بن مفرغ وأحمد بن أبى نعيم وغيرهم [١].

ثم قصرنا بحثنا - بعد ذلك - على من كانت أرومته هندية نقية، وولد ونشأ فى شبه القارة - بالتحديد الذى ذكرناه - ولو تنقل من بعد فى ديار العرب، واختلط بأهلها كالصغانى ومرتضى الزبيدى وآخرين.

وأنت ترى أن الإخراج والإدخال خضع لأسباب فنية جلية، إذ المراد من بحثنا التعرف على الأدب العربى الذى كتبه أبناء شبه القارة، لا من عداهم. وكنا فى ذلك كله مقيدين - كما أسلفنا - بما توفّر فى أيدينا من مادة قليلة يوجد أفضل وأغزر منها فى مكتبات أخر.

١- راجع سير هؤلاء تحت أسمائهم فى المصدر السابق.

وراعينا - مع ذلك - أن تغطى هذه المادة قدر المستطاع دهراً طويلاً امتد من العصر الأموى إلى القرن العشرين الميلادى، ولم نضرب صفحاً عن هذا أو ذاك من الأدباء لحاجة فى نفوسنا بل لأن إنتاجه لم يصل إلى أيدينا أو لم تصل أيدينا إليه. كما أن كل عالم دين من مفسر أو محدث أو فقيه فى شبه القارة - تقريبا - قرض الشعرأو كتب الرسائل ، وترك ديوانا - صغر أم كبر - أو مجموعة رسائل أو كتاباً فى فن من الفنون، طبع أم ما زال مخطوطا ، والوقوف على كل هذا التراث أمر - كما تعلم - عسير. فما تيسر لنا تناولناه بالشرح والتعليق. وما صعب علينا تركناه دون تحمل عناء السفر إلى البلدان، ونفض التراب عما فى مكتباتها.

٢- خصائص الأدب العربى فى شبه القارة

لكل أدب - بلا ريب - خصائص عامة ترسم سماته الرئيسية، وهذا ما نتناوله هنا تناولاً خفيفاً عاماً، تاركين التفاصيل الفنية لكل ضرب من فنونه إلى ما بعد، حين نفحص كل فن منها على حدة.

فأول ما نراه من خصائص لهذا الأدب العربى : أنه أدب لم يساهم العرب فيه مباشرة كما لم يأخذه الهنود عن أصحاب اللغة وأهلها بلا واسطة، وإنما أخذوه عن عجم آخرين مثلهم فكان أدباً عربياً أنتجة الهنود وهم ليسوا عرباً، بعد أن تعلموا العربية على يد الفرس وهم عجم .... هكذا كان فى أغلبه. فالذين نشروا الإسلام ولغته وعلومه فى شبه القارة كانوا عجماً ولم يكونوا عرباً، وهذه نقطة هامة سنرى آثارها على هذا الأدب ونحن نبحث فى تفاصيله.

وتحقيق ذلك أن غزوات العرب فى بلاد السند لم يكن لها الأثر الذى بالغ بعض المؤرخين فى ذكره وتصويره. كما أن الصلات بين العرب والهنود وان تعاظمت قبل الإسلام الا أن مؤرخينا أهملوا العصر الجاهلى، ثم لما أعادوا صياغته اعتبروه شراً كله وكفراً وفسوقاً فضاعت حقيقة تاريخ هذا الدور. ومن هنا لم نقف على شئ من التأثير والتأثر على نحو أدبى واضح باستثناء نتف متناثره هنا وهناك. (١)

١- لمزيد من الترضيح انظر تاريخ العرب القديم ، د . توفيق برو ، ص ١٦ وما بعدها ، دمشق ١٩٨٤ والمفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، د . جواد على ٧/ ٢٤٠ وما بعدها ، بيروت ١٩٨٠ .

وكما بالغ مؤرخونا في تشويه وطمس كل ما كان في عصور ما قبل الإسلام بين العرب وغيرهم بل وما كان في البيئة العربية ذاتها، بالغوا أيضاً في صياغة الحروب والغزوات ومنها غزوة محمد بن قاسم فنسبوا إليه نشرالإسلام ولغته في الهند، وما في قولهم شئ من الإنصاف. (١) فالحجاج الذي سفك دماء مئات الألوف من المسلمين في دارالإسلام، ولم يأبه بشرع أو دين ما كان ليهمه أمر نشر الدين في خارجها. (٢) وسلوك محمد بن القاسم في بلاد الهند لم يكن سلوك داعية ينشرالإسلام ويحرص عليه فحين وصل إلى الديبل مثلاً مكث يقتل في أهلها ثلاثة أيام (٣) وقتل من أهل برهمناباد ستة وعشرين ألفاً وتركها خراباً (٤) حتى إذا وصل إلى ملتان وانهزم أهلها بعد حصار شديد قتل منهم محمد بن قاسم المقاتلة وسبى الذرية (٥) وليس هذا شأن الدعاة وخاصة إذا أخذنا بالروايات التي تقول إن دافع حملة الحجاج على بلاد السند لم يكن نشرالإسلام ولغته بل كان ملاحقة المعارضين لاستبداده من بني هاشم بعد أن فروا من ظلمه إلى الهند. (٦) كذلك لم تكن سياسة الدولة الأموية وتفضيلها العرب على غيرهم وتعصبها في ذلك سياسة تجذب إليها قلوب العجم بل نفرتهم في الداخل والخارج، والدليل على أن الحجاج وابن أخيه لم يبتغيا بسفك دماء الهنود نشر دين الله السمح أن خبر الفتح حين بلغه قال متشفيا: شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم (علاوة على نفقات الغزوة) ورأس داهر. (٧) ولو كان فيما فعله ابن القاسم في

١- انظر مثلا تاريخ الاسلام في الهند لعبد المنعم النمر ص ٧٤ مصر ١٩٥٩ ، تاريخ العالم الاسلامي د . محمد الطيب النجار ١٨٥ -١٨٧ ، جدة ١٩٨٥ وفتوح البلدان للبلاذري ٤٣٥-٤٤١ ليدن ١٨٦٦ وحركة التأليف باللغة العربية د . جميل احمد ص ٥ ، كراتشي بدون تاريخ . ومؤلفات أطهر المباركبوري.

٢- للاطلاع على أحوال الحجاج انظر البداية والنهاية لابن كثير ٩ / ١ -١٣٩ بيروت ١٩٨٨ .

٣- فتورح البلدان ص ٤٤٠، الكامل لابن الأثير ٤ / ٢٢١ مطبعة السعادة مصر بدون تاريخ .

٤- فتوح البلدان ٤٣٧.

٥- نفس المصدر .

٦- تاريخ المسلمين في شبه القارة ، د .أحمد الساداتي ، ١ / ٥٧ ، مصر ١٩٥٧ ، تاريخ الإسلام في الهند ص ٧٣ - ٧٤ .

٧- فتوح البلدان ، البلاذري ٤٤٠ ، الكامل لابن الأثير ٤ / ٢٢٠ .

الهند خير للدولة ما أمر بعزله سليمان بن عبد الملك بعد وفاة الوليد وما حبسه فى سجن واسط بالعراق واشتد فى تعذيبه حتى مات فلم يكن أهله يرونه كما رآه مؤرخونا بل كان عندهم سفاحاً يستحق القتل.

نعم أسفرت حملته عن استقرار بعض الأسر العربية فى السند كالماهانيه فى سنجان (١٩٨ - ٢٢٧ هـ) والهبارية فى المنصورة (٢٤٧ - ٤١٦ هـ) والسامية فى ملتان (٢٨٠ - ٣٦٠ هـ) والمعدانية فى مكران (٤٣٠ - ٤٧١ هـ) والمتغلبية فى قصدار على ما ذكر بعض المؤرخين [١] إلا أن هذه الأسر بقيت فى أماكنها فى الجزء الشمالى الغربى فى مقاطعة السند «فلم يكن فتح العرب للسند إلا احتلالاً لولاية واحدة فى أقصى الغرب، لا هى بالواسعة الرقعة ولا بذات الموارد الغنية والأرض الخصبة». [٢] لأن المسلمين خرجوا بعد قليل عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم، وقد كفر أهل الهند الا أهل قَصّة فلم ير للمسلمين ملجأ يلجأون إليه إلى أن وجهت إليها حملات فى العصر العباسى. [٣]

والواقع أن انتشار الإسلام وماتبع ذلك من إنتشارلغته فى شبه القارة الهندية كانت وراءه عوامل أخرى أقلها التأثير العربى. منها أن بعض حكام الهنود مثل الملك زامورين فى ساحل مالابار فى القرن التاسع الميلادى أراد التودد الى المسلمين ودولتهم القوية سياسياً واقتصادياً حفاظاً على مصالحه، فأصدر أمراً يفرض على كل أسرة من السماكين فى دولته أن تربى واحداً أو اثنين من أبنائها على الديانة الإسلامية [٤] وهذا نموذج لعله تكرر فى ولايات ومملكات هندية أخرى تماما كما تفعل الدول الصغرى فى عصرنا مع القوى العظمى بمختلف الأساليب.

١- هندوستان مين عربون كي حكومتين ، القاضى أبو المعالى أطهر المباركبورى، كراتشى ١٩٦٧ ، ص ٢٢

٢- تاريخ المسلمين في شبه القارة : ١ / ٨١ .

٣- فتوح البلدان ٤٤٣ - ٤٤٤.

٤- تاريخ الاسلام فى الهند ، ص ٦٧.

ومنها أن المجتمع الهندي في زمان ازدهار الدولة الإسلامية ساده الضعف السياسي بسبب الصراع الدامي بين الديانات الهندوسية والبوذية والجينية ومن تبع كلا منها من الملوك فكانت الهند مشغولة بانقساماتها، مستاءة من دياناتها، تتوق إلى جديد وتشتاق إلى معرفة دين تلك الدولة العظمى التي يفصلها عنها بحر يعبره تجارها ويحملون معهم أخبارها [١]

غير أن أهم عاملين في نشر الإسلام ولغته العربية هما :

الأول : هجرة العلماء على نحو واسع من أكناف الدولة الاسلامية في فارس وما وراء النهر بسبب القلاقل السياسية بحثا عن ملجأ آمن يستقرون فيه سواء في عصر اضمحلال الدولة العباسية وما صحبه من نشوء دويلات مختلفة في بلاد فارس، أو بعد سقوط الخلافة العباسية واجتياح المغول لها، وإحراقهم وتدميرهم للمكتبات ودور الثقافة الإسلامية ومراكزها، ولم يكن أمام العلماء إلا الاتجاه من الشمال إلى الجنوب طلباً للأمن والدعة عند ملوك الدول التي نشأت في الهند من القرن الحادي عشر حتى القرن الثامن عشر الميلادي ومن بينها دول فتية شجع سلاطينها العلم والعلماء، كالدولة الغزنوية والغورية والمغولية. هؤلاء العلماء أسسوا مدارس تحولت إلى مراكز إشعاع، انخرط فيها الطلاب.

الثاني : أقطاب العرفان الذين ساحوا في شبه القارة منذ أيام الغزنوي في القرن الخامس وظلوا يفدون إلى الهند من بلاد فارس حتى القرن الرابع عشر كالشيخ الهجويري والشيخ اسماعيل البخاري وفريد الدين العطار ومعين الدين الجشتي وجلال الدين التبريزي وجلال الدين البخاري وبابا فريد شكركنج وعبد الكريم الجيلي تلميذ ابن عربي ومير شاه الجيلاني وبهاء الدين زكريا وقطب الدين بختياركاكي وجلال الدين سرخ بوش وغيرهم. [٢]

١- تمدن هند بر اسلامى اثرات ، د . تاراجند ، الترجمة الأردية ، لاهور ١٩٦٤ ، ص ٥٩ وانتشار الاسلام في العالم ، د . عبد الله الطرازي : ١ / ٤١ ، جدة ١٩٨٥.

٢- تمدن هند پر إسلامى اثرات ، ص ٧٩ وما بعدها.

أما التأثير العربى المباشر فى الأدب العربى فى شبه القارة فكان فى ساحل مليبار أو مالابار بجنوب الهند بعد أن استقرت به بعض الأسر الفارة من اضطهاد الحجاج ثم تلتها قوافل التجار خاصة فى العصر العباسى ولكن ما يؤسف له أن مصادر هذا التأثير لم يصل إلى أيدينا منها إلا قليل كما سيأتى بيانه وإن كان هذا لا يعنى عدم وجود مصادر وافية بلغات هذه المنطقة وفى مكتباتها وتحتاج إلى من يكشف عنها من الباحثين. وما ينبغى ذكره هنا هو أن الأدب العربى فى ساحل مليبار الذى يقطنه الشافعية من المسلمين الهنود - وهو ما سندرس نماذج منه - يعتبر نموذجاً للتأثير العربى المباشر فى شكل جماعى يمكن دراسته كظاهره أدبية على عكس الحال فى شمال شبه القارة الذى تأثر الأدب العربى فيه فى أغلبه بالثقافة الفارسية. ومع ذلك فإن التأثير العربى المباشر فى شمال شبه القارة لمسناه فى شكل حالات فردية انصبت فى معظمها على الفرص التى أتيحت لهذا أو ذاك من الأدباء فى الاتصال بالبيئة العربية والاستفادة منها فاختلف أسلوبه عن أساليب الآخرين كما سنرى فى باب النثر وعند الحديث عن أعمال رضى الدين الصغانى ومرتضى الزبيدى وعبد العزيز الميمنى، لكن هذا التأثير بقى كما قلنا رهن ظروف كل فرد على حدة ، فكأن التأثير الفارسى ساد أغلب إنتاج الأدباء فى الشمال، بينما ساد التأثير العربى معظم إنتاج أدباء العربية فى الجنوب.

وقصدنا من هذا كله باختصار أن الإسلام واللغة العربية زحفا على أغلب الهند عبر فارس يشهد بذلك أهل الهند نفسها كما يشهد به أهل الغرب.

يقول الدكتور عبد الله مبشر الطرازى إن أول حملة بحرية للعرب على سواحل الهند كانت عام ١٥ هجرية فى عهد عمر بن الخطاب بقيادة عثمان بن أبى العاص واليه على البحرين دون أمر الخليفة الذى غضب عليه وهدده وتوعده ثم وافق بعد ذلك على فتح الهند «ولكنه اشترط أن تكون الحملة حملة برية عن طريق بلاد فارس»[١]، بل إن حملة ابن القاسم ثم حملة الخراسانى فى العصر العباسى تمت عن طريق فارس[٢].

١- انتشار الاسلام في العالم : ١ / ٤٦

٢- فتوح البلدان ٤٣٧ .

ويقول عبد الحى الحسنى اللكنوى : «اعلم أن الإسلام ورد الهند من جهة خراسان وما وراء النهر فانعكست أشعة العلم على الهند من قبل تلك البلاد »[١].

ويقول جوستاف لوبون : «فغزاة المسلمين الأولون كانوا من الأفغان والترك وغزاة المسلمين الآخرون كانوا من المغول مع شئ من التمازج، وأما العرب الذين هم من أتباع محمد السابقين فلم يقيموا مستعمرات مهمه فى الهند و إن كانوا يجيئون إليها فى الغالب من بلادهم مجاوزين بحر عمان للتجارة فينشئون المستودعات ويستولون عنوة على أملاك فى السواحل الغربية نحو مصب نهر السند : [٢]

«فمسلمو الهند لم يدخلوا إلى الهند فى الحقيقة سوى حضارة العرب بعد أن تحولت بعض التحول فى بلاد فارس بفعل الأزمنة والأمكنة والاختلاط بالشعوب المغلوبة وذلك على درجات مختلفة ومع دوامها على التحول، وأدخل المسلمون معهم الى الهند نظم الدول العربية القديمة السياسية أيضاً وكانت هذه النظم السياسية تحمل فى تضاعيفها المحاسن التى أدت الى ازدهار الدول العربية فى ما مضى والمساوئ التى أوجبت انحطاطها » [٣].

هذا الاستطراد التاريخى اضطرنا إليه اضطراراً لأن السائد بين الدارسين أن ابن القاسم هو صاحب الفضل فى نشر اللغة العربية والدين الحنيف فى شبه القارة، وليس هذا بصحيح فإن اللغة العربية انتشرت بانتشار الإسلام على أيدى العجم وكان أكثرهم من أهل فارس، وإنما أردنا تأكيد هذه الحقيقة ونحن بصدد الحديث عن خصائص الأدب العربى فى شبه القارة لنعرف مكانة هذا الأدب وما عمل فيه من مؤثرات، ولننظر إليه نظرة تقدير لكونه أدباً عربياً أنتجة عجم خلص دون أن يكون للعرب فيه أكبر يد.

١- الثقافة الإسلامية ، دمشق ١٩٨٣ ، ص ٩

٢- حضارة الهند ، الترجمة العربية . مصر ١٩٤٨ ، ص ٤١٨ .

٣- نفس المصدر ص ٤٢٢.

ومن أراد الاطلاع على حقيقة أن العرب ما اهتموا بنشر اللغة العربية وكتبها في شبه القارة كما اهتم بذلك المستشرقون والهندوس حتى أن منشى نولكشور الهندوسى نشر أربعة آلاف كتاب معظمها من الكتب العربة والفارسية، فليراجع مقال الدكتور أحمد خان عن إسهام علماء شبه القارة فى نشر الكتاب العربى، وهو مقال تناول بالتفصيل تاريخ دخول الطباعة فى شبه القارة ودور المستشرقين والإدارات العامة والخاصة والمؤسسات العلمية فى الهند وباكستان فى نشر الثقافة العربية، والمقال قرىء فى الموسم الثقافى الدولى بالكويت فى نوفمبر عام ١٩٩٣م(١).

ومن الأدباء من صرح بكون الفارسية وسيطاً له من النفوذ والأثر مثل محمد زمان خان (ت ١٢٩٢ هـ) فى كتابه سفينة البلاغة فى صناعة الانشاء والرسائل حيث قال فى مقدمته :

«. . . غير أنى غيرت ترتيب الكلام حيثما اقتضاه المقام، واختصرت بعض التراكيب أخذاً للمرام، وحين نقلت بعض المآرب من الكتب الفارسية صرت ترجماناً بين العجم وأهل العربية» (٢)

ومنهم من خلط الفارسية بالعربية فى نظمه مثل محمد عباس التسترى (ت ١٣٠٦ هـ) فى منظومته أجناس الجناس، وأحمد الرسولبورى (ت ١٣٥٩ هـ) ومنهم من نقل المحسنات والبدائع الفارسية وتأثر بها حتى صار شعره العربى بعيداً عن مزاج اللغة وأهلها مثل غلام على آزاد البلكرامى (ت ١٢٠٠ هـ) وكل هذا سنراه سوياً بالتفصيل فى فصول الكتاب .

وقد عقدت فى إسلام آباد ندوة دولية فى سبتمبر عام ١٩٩٣ م عن الروابط الثقافية بين إيران وشبه القارة ثم طبعت أبحاث المشاركين فيها فى مجلدين

١- أطلعنى الدكتور أحمد خان رئيس قسم إحياء التراث الإسلامى بالجامعة الإسلامية الدولية باسلام آباد على هذا المقال قبل سفره الى المؤتمر .

٢- سفينة البلاغة : ص ١٢ - ١٣، الهند ١٣١١ هـ .

يمكن لمن أراد المزيد مراجعتها ففيها كثير من الجوانب الهامة التى يضيق المجال لذكرها هنا ونشير إلى مقال الدكتور ساجد الله تفهيمى ومقال على جنتى ومقال الدكتور غلام سرور ففى هذه المقالات مادة كثيرة تؤيد ما نريد قوله هنا.(١)

ولنا أن نتخيل مدى تأثير الفارسية على بيئه الثقافة والأدب فى شبه القارة من كتاب الأستاذ أحمد كلجين معانى المسمى بـ (كاروان هند) أى قافلة الهند والذى يقع فى مجلدين عظيمين حيث أعد فيه قائمة بالشعراء الفرس الذين هاجروا إلى شبه القارة فى العهد الصفوى فقط بسبب عدم تشجيع الصفويين للأدب ويسبب الأوضاع السياسية فى ايران آنذاك، وقد بلغ عدد هؤلاء ما يقرب من ثمانمائة شاعر.(٢)

والذى لا شك فيه أن هجرات العلماء والأدباء من فارس إلى شبه القارة كان لها أكبر الأثر فى نشر الأدب والدين واللغة العربية فى شبه القارة وهو ما لم يتيسر للعلماء و الأدباء العرب الذين بقوا مقطوعى الصلة عن منطقتنا فى أغلب الأحوال فلم يكن لهم تأثير يذكر.

ومن خصائص الأدب العربى فى شبه القارة - ثانياً - أنه أدب نشأ حول الدراسات الإسلامية وفى أحضان المدارس الدينية، فلا عجب أن نرى فيه كثيراً من الشروح للكتب التى أدخلها العلماء فى مقررات الدرس فى مجال الأدب كالمعلقات وديوان المتنبى ومقامات الحريرى والمطول والكافية والشافية و ديوان الحماسة وقصائد البردة وبانت سعاد وألفية ابن مالك.

ومع أن أديباً كبديع الزمان الهمدانى جاء الى الهند واشتهر أمره فيها زمان السلطان محمود الغزنوى واشتهرت مقاماته ورسائله بين أدبائها وعلمائها وتوفى

١- مجموعة سخنرانيهاى نخستين سمينار بيوستكيهاي فرهنكي ايران وشبه قاره ، جـ ١ / ٢٠٨ - ٢١٤ ، ١٦/١ - ٢٠ ، ١ / ٢١ -٣٣ ، طبع باكستان ١٩٩٣ م .
٢- كاروان هند ، أحمد كلجين معانى ، ايران ١٣٦٩ هـ ش .

فى ٣٩٨ هـ بينما توفى الحريرى فى ٥١٦ هـ، إلا أن شيئاً من مقاماته أو شعره أو رسائله لم ينل حظه من اهتمام أدباء العربية فى الهند رغم رقة مقاماته وجودة رسائله وعذوبة شعره. فلم أعثر إلا على شرح واحد لمقاماته ذكره عبد الحى الحسنى فى الثقافة الإسلامية بعنوان الياقوت الرمانى شرح مقامات الهمدانى لوكيل أحمد السكندربورى (١) وليس ذلك إلا لأن كتب الهمدانى لم تكن داخلة فى مناهج المدارس الدينية، وقد ذكر الحسنى فى كتابه مناهج هذه المدارس فى أدوارها المختلفة وما أدخله علماء ايران فيها من كتب ذكراً مفصلاً فليرجع إليه من يشاء. (٢)

ولأنه أدب نشأ حول الدارسات الإسلامية نجد أدباءه إذا صنفوا فى فنون الأدب المحضة أصروا فى مقدمات كتبهم على أن هذا خدمة للدين ولغته، أو ربطوا بين موضوع الكتاب وبين الدين بشكل أو بآخر، فصديق حسن القنوجى (ت ١٣٠٧ هـ) يقول فى مقدمة كتابه «نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان» :

«نحمد من زين رياض الوجوه بنرجس اللحاظ وورد الخدود وثمر أغصان القدود برمان النهود حمد من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وشبب بذكر محبوبه إن كان تهاميا فى حجاز أو شامياً فى توى. ونصلى ونسلم على من حث على تهذيب النفس الأبية عن الرذائل الدنية سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين يحبهم ويحبونه، ويقفون عندما أمرهم ولا يتعدونه، ما ذر شارق وهام عاشق وبعد، هذا بيان العشق والعشاق والمعشوقات من النسوان وما يتصل بذلك من تطورات الصبوة والهيمان ...... (٣)

١- الثقافة الإسلامية : ص ٥٤ .

٢- نفس المصدر : ص ٩ وما بعدها.

٣- نشوة السكران : ص ٢ ، الهند ١٢٩٤ هـ

وفى مقدمة ديوان أحمد الرسولبورى : «لا يخفى أن علم العربية من العلوم الدينيه الإسلامية كما لا يخفى أن مسلمى الهند من أقدم العصور بذلوا سعيهم فى سبيل تعليم اللغة العربية ونشر المعارف الأدبية وكيف لا وبين الإسلام وبين علم اللغة العربية علاقة لا يستغنى عنها كل من أراد علم الدين والشريعة» (١).

ومن خصائص الأدب العربى فى شبه القارة - ثالثاً - أنه أدب سلطانى تمحور حول الأبلطة، ورعاه السلاطين والأمراء والأغنياء، ومن ثم فهو أدب مبتور الصلة بالواقع، يمدح السلطان لأنه يبسط يده بالنعم والعطايا، ويرثيه إذا مات، أو مات له قريب، أما البؤساء والفقراء و المجتمع بصورته الحقيقية فلا ذكر له فى هذا الأدب ذلك لأنه يدور مع السلطان حيث داء، حتى المناهج التعليمية فى المدارس الدينية وضعت تحت إشراف الأمراء والسلاطين والأغنياء (٢)

وتحركت الحركة الأدبية وفق حركة السلاطين وأمراء الدويلات فى مختلف المدن الهندية فلما صارت ملتان مدينة العلم نهض منها كثير من العلماء، ثم لما صارت مدينة لاهور قاعدة الملك أيام الغزنوية صارت مركزاً للعلوم والفنون، ثم لما افتتح الغورى مدينة دلهى وجعلوها عاصمة البلاد المفتوحة من الهند صارت مرجعاً ومأرباً للعلماء إلى آخر الدولة التيمورية (٣) و كذلك حدث فى كجرات والدكن و جونبور ولكنو وأوده بمدنها مثل بكرام وهركام و جائس و كاكورى وخير آباد و غيرها.

ونظراً لأن السلطان - أى سلطان - لا يحب العلماء المعارضين لتصرفاته ونزواته المخالفة للدين الذى يحكم الناس باسمه، انقسم العلماء إلى قسمين : أولهما : لا يعارض، وهؤلاء عاشوا منعمين مترفين، وثانيهما : يقول كلمة الحق

١- ديوان أحمد : ص١ ، الهند ١٩٥٨ م

٢- المسلمون في الهند ، أبو الحسن الندوي ، ص ٨٤ ، الهند ١٩٨٧ م وانظر حركة التأليف باللغة العربية في الاقليم الشمالي الهندي ، د . جميل أحمد : ص ٥٤ ، كراتشى بدون تاريخ.

٣- الثقافة الإسلامية : ص ١٠ .

ويلقى في سبيلها الهوان والاضطهاد، ذلك أن ممارسات وسياسات أغلب سلاطين الهند لم يكن للإسلام فيها كبير اهتمام بل خالفوا الشرع في أكثر أمور حياتهم. (١)

جاء في مذكرات الملك جهانكير ابن الملك أكبر: «علمت وأنا في دلهي أن فتنة اشتعلت في قنوج فأرسلت كتائب لإطفائها فقتل ثلاثون ألفاً من العصاة، وأرسل عشرة آلاف رأس مقطوع الى دلهي، وصلبت عشرة آلاف جثه صلباً معكوساً في سوق الشجر المغروس على جوانب الطرق العامة، وعلى ما ترى من المذابح لم تفتأ الفتن تنشب في الهندوستان ولا تجد ولاية من ولايات الدولة لم يذبح فيها خمسمائة ألف شخص في عهدي وعهد أبي». (٢)

ولعل رسائل الشيخ أحمد السرهندي إلى أتباعه تصور لنا شيئاً من واقع المجتمع وسياسة من حكموا باسم الدين، يقول في رسالة له: «واحزناه، واحسرتاه، وامصيبتاه . . إن أتباع محمد ﷺ و هو محبوب رب العالمين غرباء مهانون في بلادهم، وأعداءه مكرمون. إن الباطل بارز منصور، و إن الحق مخذول مستور» ويقول في رسالة أخرى: «لقد أتى على الانسان والمسلمين حين من الدهر في هذه الديار إذا عمل مسلم بحكم شرعي يسجن ويعاقب ويهان ويعذب، والديانات كلها حرة متمتعه بكل حق، لقد شمت بالمسلمين الأعداء، وسخروا منهم، وأصبحوا هدفا لكل تجريح وإهانة». (٣)

لكن شيئاً من هذا كله لم يحرك قرائح الأدباء والعلماء، فلم نجد عنه حرفاً في ما أثر عنهم من نثر أو شعر عربي، لأن هذا الأدب سلطاني ولأن السلطان كان يعرف كيف يرضي الأدباء، فقد وزن الملك شاهجهان الملا عبد الحكيم السيالكوتي بالفضة مرتين

١- انظر تفاصيل ذلك في حضارة الهند ص ٤٢٩ وما بعدها.
٢- نقلا عن حضارة الهند ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .
٣- الدعوة الإسلامية في الهند ، أبو الحسن الندوي ص ١٦ ، الهند ١٣٧٨ هـ

كما وزن القاضى محمد أسلم الهروى مرة بالذهب [1] وكانت هذه طريقة السلاطين مع أدباء وعلماء البلاط، وكانوا يعطونهم هذه الأموال. وقد وقعت فى عهد شاهجهان هذا مجاعات حتى ذبح الناس أولادهم وأكلوهم بفتوى من العلماء [2] وفى عهده تغلغل البرتغاليون، وسيطر تجارهم على الدولة وتعاظم خطر المبشرين. [3] ولم يحرك شئ من هذا مشاعر أدبائنا، فبقى أدبهم حبيس أسوار البلاط، لا يرى ما فى خارجها فى أغلب الأحوال، وإذا رآه لم ينفعل به، وسنمر على ذلك مرة أخرى حين نتحدث عن الأدب السياسى.

وفى مقابل هؤلاء العلماء أحباء السلاطين ، كان هناك أقطاب التصوف وأهل العرفان الذين شكلوا فى الهند دولة داخل الدولة خلال جميع العصور الإسلامية تقريباً. لكن السلاطين كان لهم معهم أسلوب آخر . حكى الاستاذ أبو الحسن الندوى يقول: «كان السيد آدم البنورى دفين البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل، ويمشى فى ركابه ألوف من الرجال ومئات من العلماء. ولما دخل السيد فى لاهور عام ١٠٥٣ هـ كان فى معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم حتى توجس شاهجهان ملك الهند منه خيفة فأرسل إليه بمبلغ من المال ثم قال له قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز ، فعرف إيعاز الملك وسافر الى الحرمين حيث مات». [4]

وتاريخ الهند ملئ بما فعله السلاطين مع من لم يخضع لهم من العلماء، ومن الطريف أن أحد الباحثين هو الأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن ألف كتاباً ممتعاً عن العلاقة بين سلاطين الهند المسلمين وبين العلماء والمشايخ، وكيف كان سلوك السلاطين مع المعارضين معهم وسلوكهم مع العلماء الدواجن ، وقسم العلماء والمشايخ

١- المسلمون فى الهند : ص ١٣٦ .
٢- هندوستان كى سلاطين ، علما اور مشائخ كى تعلقات برايك نظر ، سيد صباح الدين عبد الرحمن، ص ١١ - ٣٤ ، الهند ١٩٦٤ م .
٣- الثقافة الإسلامية : ص ٥٤ .
٤- المسلمون فى الهند ، ابو الحسن الندوى ص ١٠٦ .

الى أقسام كأصحاب الفطرة الطاهرة النقية، والمشغولين بالتدريس والمدارس، ومعاوني السلاطين والحكام، والعلماء النفعيين، والشجعان الجاهرين بالحق، والناقدين للسلاطين وما إلى ذلك، فمن أراد المزيد فليرجع إليه. (١)

والأدب العربى فى شبه القارة - رابعاً - لم يعكس العمق الحضارى الذي تيسر له بعد أن التقت على تراب أرضه حضارة فارس العريضة بحضارة الهند الخصيبة. وكان بوسع أدبائه الاستفادة من الأدب الفارسي وأخيلته وتنوع موضوعاته شعراً ونثراً، وتلقيحه بالآداب الهندية وأخيلتها، وانتاجها العريض المنظوم والمنثور، فتلد لنا قرائحهم بنات أفكار أدبية شكلاً وموضوعاً غاية فى الحسن وآية فى الجمال، خاصة وأنهم جميعاً عرفوا الفارسية وكتبوا بها، وتزاوجوا بها وعاشوها ومارسوها بكل أبعادها ونظموا فيها، ولذلك اختفت - تقريباً - القصة والرواية نثراً وشعراً من هذا الأدب، وكان بوسعهم الاستفادة من فن المثنوى فى نظم الروايات التاريخية أو قصص العشق التى امتلأت بها بيئة الهند و راجت فى الأدب الفارسي رواجا كبيراً.

كذلك اختفت القصة على لسان الحيوان وهو فن راج فى الأدبين الهندى والفارسى. ولم أعثر إلا على نظم واحد فى هذا المجال لكليلة ودمنة ذكره عبد الحى الحسنى فى الثقافة الإسلامية (٢) مجرد ذكر ولا أظنه موجودا فى المكتبات إذ لم يذكر مؤلفه بل قال لبعض علماء البواهر أى طائفة البهرة.

واختص الأدب العربى فى شبه القارة - خامساً - بتقليدية الموضوعات فى أغلبه فمدح الرسول والأصدقاء والأمراء ورثاء الأحبة وأبناء الأمراء والسلاطين و الزهد والعرفان هى الموضوعات الأساسية التى شكلت العمود الفقرى للشعر العربى فى شبه القارة، اللهم الاعند بعض الشعراء المتأخرين مثل فيض الحسن السهارنبورى فى القرن العشرين حيث هجا مدينة لم تعجبه، وكتب مشاعره حين دخل اللصوص بيته

١- نزهة الخواطر، عبد الحى الحسني اللكنوي: ٥ / ٣٠، الهند ١٩٧٦ م.
٢- تاريخ المسلمين فى الهند: ١ / ٢٤ - ٢٥.

وسرقوا متاعه، ووصف حاله وبعض جوانب مجتمعه كما سنقف على ذلك ونحن نتحدث عن ديوانه.

وتقليدية الموضوعات استلزمت عدم التجديد إلا في قليل. أما الشكل فقد وقفنا على محاولات عند شعراء كالمفتى محمد عباس التسترى الذى استفاد من المثنوى (المزدوج) فى منظومته أجناس الجناس، وآزاد البلكرامى الذى حاول ادخال الغزل - وهو قالب من قوالب النظم الفارسى والأردى - ليستوعب معانى عربية، وكذلك نظمه فى المستزاد والترجيع بند وهى قوالب تشبه المخمسات والمسدسات والمسمطات التى اشتهرت فى عصور اضمحلال الشعر العربى فى البيئه العربية، ومثل الرباعيات على الأوزان الفارسية التى نظمها محمد أفضل فقير أو محاولة النظم الحر الحديث عند الدكتور خورشيد رضوى وكلاهما شاعر معاصر.

غير أن هذه المحاولات فى مجملها لم يكتب لها الاشتهار لأنها اختارت قوالب هندية أو فارسية خالصة لم يعرفها العرب، باستثناء محاولة الدكتور رضوى. وقد ناقشنا ذلك كله بارتياح فى الفصل الذى عقدناه لمحاولات التجديد. وبالجملة فإن الأدب العربى فى شبه القارة لم يجدد أصحابه فى الموضوعات بقدر ما حاولوا ذلك فى القوالب والأشكال.

والخصوصية السادسة للأدب العربى فى شبه القارة أنه أدب ارتبط بحقبة تاريخية معينة كانت للمسلمين فيها السيطرة على مقاليد الحكم حتى وإن كانت سيطرة ضعيفة، فلما زال حكمهم واحتل الانجليز الهند اضمحل الأدب العربى فلما استقلت الهند انتهى الأدب العربى، وبقى تعليم اللغة العربية فى المدارس الدينية والجامعات سيفاً خشبياً لا يفيد فى شئ، وأصبح تعلم اللغة للبحث عن عمل فى دول العرب الثرية، لا لما فيها من أدب ولا لينتج الدارسون فيها أدباً. ذلك لأن الانجليزية أصبحت لغة الحضارة فقضت على الفارسية والعربية وما ارتبط بهما من لغات وثقافة وأدب. أضف إلى ذلك ضعف المناهج فى مراكز تعليم اللغة العربية فى الجامعات والمعاهد والمدارس الدينية، وانقراض الأساتذة وقحط العلماء.

والخاصة السابعة لهذا الأدب أن نضجه لم يخضع لدورة الحياة الطبيعية فى الآداب بحيث نستطيع تمييز أدواره ومميزات كل دور منها كما هو الحال عند الحديث عن الآداب الأخرى، فنشوء الآداب وارتقاؤها يقتضى أن تسير الحركه الأدبية سيراً طبيعياً فتنشأ ضعيفه ، ثم يشتد ساقها وتورق ثم تثمر الى أن تشيخ وتذبل، لكن هذا لم يحدث فى الأدب العربى فى شبه القارة ، فالإغراق فى الصنعة اللفظية مثلا عند أبى الفيض بن المبارك المتوفى عام ١٠٠٤ هـ نجده أيضا عند عباس التسترى فى القرن الرابع عشر الهجرى، ونجده بعينه عند فضل الحق الخير آبادى المتوفى ١٢٧٨ هـ أى فى القرن الثالث عشر الهجرى. فأبو الفيض بن المبارك يقول فى وصف كتابه سواطع الإلهام : (١)

صراح لأصل الأصل طرس مطهر ... سواء لكل الكل علس مطهم
امام همام للكلا م مؤول ... صلاح سديد للسلام مسلم
مدار مراد للمدارك مطرح ... ملاك كلام للمعلم معلم

ويقول المفتى محمد عباس التسترى : (٢)

لطفت لنا وأنزلت الكتابا ... وتغفر إن يكن ذو الشرك تابا
هو المولى ونحن له عباد ... ومن سلكوا خلاف الشرع بادوا
يكرم بالعطايا من أتاه ... ومن يجحد بنعمته فتاهوا

ويقول فضل الحق الخير آبادى : (٣)

فؤادى هائم والدمع هامى ... وسهدى دائم والجفن دامى
وقلب ما فتى بجوى ولوع ... ولوع فى اضطراب واضطرام

١- نفس المصدر: ١ / ١٩٢ .

٢- الثقافة الإسلامية : ص ٤٩ .

فأنت ترى في هذه الأمثلة أن الصنعة اللفظية هي ما يشغل قائليها على تباعد السنين والأعوام بينهم . كذلك لا نستطيع التفريق بين سهولة نثر عبد الحكيم السيالكوتي المتوفى ١٠٦٧ هـ وبين أسلوب الصغاني المتوفى ٦٥٠ هـ أو عبد الرحيم الصفي بوري المتوفى ١٢٦٧ هـ، على أساس التقسيم الزمني إلى حقب وأدوار.

وهذه الخاصة في اعتقادنا تعود إلى أن الأدب العربي في شبه القارة رغم عظمته قد غرس في بيئة غير بيئته فنما نمواً غير طبيعي، فنحن إن جئنا ببذور أشجار وغرسناها في غير بيئتها قد تصح منها فرادى، ويموت ويذبل كثير، وينشأ بعضها أعوج السوق أو مريض الأغصان أو مر الثمار، فتبقى صحه النشأة مرتبطة بجودة البذرة، وحسن الغرس والتعهد لكل شجره على حدة. وهكذا الأمر في ما وصل إلى أيدينا من إنتاج أدبي بعد فحصه ودرسه، فكل أديب من أدباء العربية في شبه القارة اعتمد انتاجه على مدى صلاحية قريحته ومزاجه وحسه الأدبي وأستاذه وظروف تربيته وتعليمه وربما أصله، دون أن يكون للدور الزمني في رسم سمات إنتاجه دخل.

ويرى الدكتور ظهور أحمد أظهر أن بعض هذه الخصائص كان له دخل في اضمحلال هذا الأدب علاوة على عوامل أخرى ، ففي مقال عن بواكير الشعر العربي في شبه القارة عدد هذه الأسباب كما يلي :

١- القوة السياسية العربية كانت قد انتهت ولم تعد تمد الحكم العربي في السند وملتان وما إليهما من المناطق ، تلك القوة السياسية التي تعول عليها اللغة دائماً في السيادة والنفوذ والتي كانت قد جعلت من العربية لغة البلاط الحكومي والديوان في السند الغابر كما جعلت منها لغة التخاطب والسوق وقد انتهت هذه القوة السياسية بسبب ضعف الخلافة العباسية وانحطاطها ولم يعد الحكام والولاة يستمدون قوتهم واستنادهم من الخليفة في بغداد وإنما كان الحكم لمن غلب وقهر غيره خلال الجو الفوضوي الذي سبق الحكم الغزنوي في هذه المناطق التي تتكون منها باكستان اليوم.

٢- وقد كان من الطبيعى أن تنقطع الصلات الثقافية المباشرة بين بلاد العرب وعواصمها الأدبية والثقافية وبين بلاد شبه القارة وذلك بعد نهايته الحكم العربى واستقلال المتغلبين من الحكام وحين سدت الطرق فى وجوه المتوافدين من جهتين وانقطع التبادل الثقافى المباشر ولم يتصل بعد ذلك حتى يومنا هذا.

٣- وقد كان من بين العقبات التى حالت دون العربية وآدابها فى جنوب آسيا هو ذلك الأسلوب الأدبى المتكلف المتصنع من السجع والقافية والكلمات الوحشية الغريبة ذلك الأسلوب الذى اختاره بديع الزمان الهمذانى وأبو القاسم الحريرى وأضرابهما فقد كان أسلوباً ثقيلاً عقيماً وعقبة خطيرة هائلة فى سبيل العربية بل كان هذا الأسلوب المتكلف العقيم جناية كبرى على العربية وعلى مستقبلها الزاهر كلغة وحيدة للعالم الإسلامى كله فقد عرقل هذا الأسلوب سيرها وأثقلها على الألسنة فلولا هذه الجناية الكبرى على العربية لما كانت الفارسية السهلة السلسة الحلوة التى حلت محل العربية، ولولا الفارسية حلت محل العربية فى إيران وما إليها من البلاد لكانت العربية هى اللغة الوحيدة للموكب الإسلامى الحضارى أينما كان وحيثما حل.

٤- وأما القائمون بخدمة اللغة العربية وآدابها فى شبه القارة فقد ضلوا هم الآخرون طريقهم وغاب كل شئ عن نواظرهم غير الأسلوب المتكلف العقيم من السجع والقافيه فراحوا يتلاعبون بالألفاظ دون المعانى واكتفوا بما وصل إليهم من لعبة الألفاظ وشعوذتها فعكفوا عليها يتلاعبون بها و حين لم يعد من مقدرتهم أن يتلاعبوا بها وقفوا حائرين مندهشين أمام ذلك الأسلوب المتلكف العقيم ولا يزالون كذلك حتى اليوم.

٥- ثم جاءت أخطر مرحلة من تاريخ العربية وآدابها فى شبه القارة وذلك حين لم يقدروا على التعبير أو قل على التكلف والتصنع فقرروا أن يتعلموا العربية ويعلموها كلغة ميتة لا تفهم ولا تكتب كالسينسكريتية والإغريقية واللاتينية من

اللغات القديمة العتيقة الميتة واكتفى المدرسون بأن يقرأوا النص العربى للطلاب ثم يترجموها لهم إلى لغة محلية فقط وهذه هى الحال التى نحن عليها فى باكستان اليوم ». (١)

وقد لا يختلف الحال فى الهند عنه فى باكستان كثيراً، مع كون أدباء العربية فى باكستان فى وضع أفضل، يشجع على تعلم العربية ودراستها وتدريسها والكتابه بها.

وهذه هى خصائص الأدب العربى فى شبه القارة أوجزناها هنا باختصار وإجمال تاركين التفاصيل الى حين نتحدث عن سمات كل فن من فنون هذا الأدب مستقلاً برأسه.

١- مجلة المجمع العربى الباكستانى ، لاهور ، العدد الثانى ، نوفمبر ١٩٩٣ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

٣- محـــاولات التـــجديـــــد

هذا العنوان أطلقناه - متساهلين - على جمبع محاولات الأدباء والشعراء الذين حاولوا إدخال معان أو قوالب شعرية لا يعرفها العرب العاربة، حتى وإن لم يقصد أصحابها التجديد.

فهى محاولات جديرة بالدراسة عند نقاد الأدب العربى فى شبه القارة ، لا يستطيعون أن يمروا عليها مر الكرام ، لكن هذه المحاولات لم تقع فى فنون النثر كلها بل فى فن البلاغة وحده، مع ظهورها فى الشعر بكثرة.

وفارس هذا الميدان هو غلام على آزاد البلكرامى الذى عرف بكثرة إنتاجه مما اقتضى تأمل جهوده بعنايه بغية استكناه المقصود منها. وإن كنا لا نعدم وجود محاولات أخرى تشبهها من قريب أو بعيد.

يقول آزاد فى كتابه الشهير سبحة المرجان فى آثار هندوستان أثناء حديثه عن فنون البديع :

«وأما الأهاند فهم مبدعون فنونهم، وما هصروا إلا غصونهم . . . ثم إن قدماءهم الذين كانوا قبل زمان الإسلام استخرجوا من الكلام بدائع وافية، واستنبطوا من رشحات الأقلام صنائع شافية منها مشتركة بين العرب وبينهم كالتورية وحسن التعليل وتجاهل العارف والمراجعة والاستعارة والتشبيه والجناس والسجع وغيرها. ومنها مختصة بالعرب كاستخدام المضمر وحسن التخلص والتاريخ على قاعدة الجمل وغيرها، ومنها مختصة بالهند، وأنا قصدت أن أنقل القسم الأخير عن الهندية الى العربية، فرأيت بعضها لا يقبل النقل لخصوصيته بلسان الهند، وبعضها يقبل النقل فنقلت عنها نبذة وجدتها

فائقة وألحقت بفن الأدب جملة رائقة، وأرجو من العرب العرباء أن يستحسنوا مخترعات الأهاند كما استحسنوا الأسياف الهندية بين الفراند، ولما شمرت ذيل الجهد فى هذه الميادين، وعمدت على استخراج الأمثلة عن المجاميع والدواوين سخت لى نبذة من الأنواع وظفرت بأقراط ثمينة للأسماع، فاخترت من الأنواع الهندية ثلاثاً وعشرين وسميتها فى العربية بأسماء مناسبة بمسمياتها...»[1]

فأنت ترى فى هذا الكلام أمرين أولهما إثباته السبق فى فنون البديع لفصحاء الهند، وثانيهما أنه نظر فى أنواع البديع عند قدماء الهنود ثم استخرج من شعر العرب ما ينطبق عليها وسماها بأسماء من عنده تناسب حالها وفحواها، وادعى بعد ذلك أنه أول من اخترع كذا وكذا من هذه الفنون ..

ونسوق هنا مثالاً لما فعل، يقول : «التنزيه ، هذا النوع استخرجه بعض الأهاند فى مقابلة التشبيه، وهو أن يبرئ المتكلم شيئاً عن أن يماثله شئ آخر كقوله تعالى ليس كمثله شئ وقوله تعالى إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وقول حسان فى مدح النبى (ﷺ) :

وأحسن منك لم ترقط عينى ... وأحسن منك لم تلد النساء (كذا)
خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

. . . . . . وقول ابن الفارض :

فلم أر مثلى عاشقاً ذا صبابة ... ولا مثلها معشوقة ذات بهجة

وقولى من قصيدة نبوية :

فرد جليل لا يشاهد مثله ... من ثم رؤيته شفاء الأحول

١- ٢ : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ . الهند ١٩٨٠.

ويسوق سبعة أمثلة أخرى من نظمه . (١)

وفات آزاد أن ألوان البديع قدر مشترك بين آداب العالم كله ، يزيد البعض فيها ألواناً هنا ، وينقص آخرون بعضها هناك، ولا يعنى وجود نوع أو أنواع منها عند قوم وفى أدب لغة ما أن لهؤلاء القوم سبقاً على الآخرين، فالهنود تصالحوا على أنواع تناسب أدبهم وخصائصه ، والعرب وضعوا لأنفسهم منها ما يناسب مزاجهم وأدبهم وكذلك فعل اليونان والفرنسيون وغيرهم من الأمم، لأن هذا الضرب من الفنون ينمو نمواً طبيعياً مع اللغة ووفق معايير بيئتها ، ومحاولة فرض البديع العربى على البديع الانجليزى مثلاً عبث وهراء لا يستفاد منه بشئ ولو أن آزاد قارن بين هذه المحسنات فى اللغات التى يعرفها أى العربية والهندية والفارسية، وقدم لنا بحثاً شيقاً حول هذا لكان إمام عصره وعصرنا فى هذا المجال، ولاستفاد من جهده طلاب الأدب فى اللغات الثلاث.

ثم ان آزاد قال فى عبارته السابقة : «وأرجو من العرب العرباء أن يستحسنوا مخترعات الأهاند كما استحسنوا الأسياف الهندية بين الفراند» فهذا قياس نظنه فى غير محله لأن الفنون الأدبية لا تقاس بحال على المصنوعات المادية التى تباع فى الأسواق وتشترى، لأنها لا تشبهها فى شئ ، نعم هناك بضائع مستوردة عبر التاريخ فى كل البلاد لكنها أيضاً تخضع للذوق فى كل بلد على حدة، وما سمعنا بفنون بلاغية ومحسنات بديعية استوردها قوم وأدخلوها فى أدبهم ادخالاً، لأن هذه الأشياء مربوطة بحس كل قوم وذوقه ومزاج لغته وطبيعة نشأتها وأدبها وخيالها الذى نما وتشربته أنسجتها عبر قرون ، وشكلتها عناصر النشأة الطبيعية مثلها فى ذلك مثل أى لغة، وليس من الممكن ولا من المعقول إدخال شئ فيها بطلب من أحد.

ومحاولات التجديد التى أثنى هو عليها وأثنى عليها بعض الباحثين (٢) واعتبروا صاحبنا قد امتاز بها على العرب والعجم فى مجال الأخيلة، مبنية فى

١- سبحة المرجان ٣ : ٤٢ الى ٤٥ .
٢- انظر حركة التأليف ، ص ١٣٧ .

أصلها على سوء فهم. خذ لذلك مثلاً إدخاله بعض ما يتعلق ببيئة الهند فى الشعر العربى كقوله :

تعالوا واسمعوا ملح الأغانى عن الورقــاء ثم الكوئلاء.[1]

فطائر الكوئلاء طائر مغرد فى شبه القارة يعرفه أهلها، ويطربون لصوته، ولن يطرب له العرب أو يدركوا ما فى شعر آزاد من صورة ومعنى يتعلق بهذا الطائر، ولو نظم آزاد فيه وفى حسنه ألف بيت ذلك أنه طائر غريب الاسم والصفات عن بيئة العرب.

وكقوله مثلاً عن الغراب :

سمعت غراب الهند يضحى مبشرا بعود حبيب ياله من مبشر
ألا يا غراب النجد أنت شقيقه فمالك تؤذى هائماً بالتطير [2]

فأهل شبه القارة يتفاءلون بالغراب والعرب تتشاءم به ، ولن يتركوا ذلك بمدح آزاد للغراب لأنه مرتبط بتاريخ اجتماعى عريق لا يمكن تغييره ، وسيبقى الغراب فألاً لوصل الأحبة فى شبه القارة كما سيبقى رمز نحس وفراق عند العرب لا يغير ذلك قول الشعراء. وليت آزاد عامل الغراب فى الشعر العربى وفق أحاسيس العرب كما فعل غيره من شعراء العربية فى شبه القارة حين قال : [3]

قصدى لقاء سليمى قصد مفتقد عندى النوى وغراب البين قد نعقا

نظم آزاد بالعربية فى قالب الغزل وهو قالب معروف فى الشعرين الفارسى والأردى ينظم الشاعر فيه أبياتاً لا تزيد عن اثنى عشر ، ومن سماته أن كل بيت فيه وحدة قائمة برأسها وأنه ينتهى بالتخلص وهو الاسم الذى يختاره الشاعر لنفسه. وكأنه يمهر به قصيدته فى النهاية، لكن شاعرنا لم يحافظ على مواصفات الغزل كما هى فى الأردية والفارسية بل خرج عن الحد العددى فى كل ما نظم من هذا النوع، يقول مثلاً :

١- حركة التأليف ص ١٣٧.

٢- نفس المصدر ١٣٨.

٣- هو محمد بن هادى الحسينى الكالبوى ، الثقافة الإسلامية ص ٥٢.

أتعلم فى مـودتهـا رباحى　　فقدت عقيق قلبى بالبطاح
فيا للفوز إن وجدته سلمى　　وتجعله نظيماً فى الوشاح
لقد سفكت دمي بأبى قبيس　　وما اثمى سوى عدم الجناح
ولم أك راجياً من سوحها ان　　توشح عاتقى بدم الذباح
فيالمذاق من حليت دماء　　وأدركت المرارة فى السماح
ذوات الحسن يقتلن البرايا　　ولا يخشين تلويث الصفاح
لواحظهن سافكة وليست　　يلوثها دم ياللسلاح
وألحاظ الخرائد حين تجفو　　مريضات بهن قوى الصحاح
رأيت مطوقاً يبكى حزيناً　　على فقد الشقائق والأقاحى

ويستمر على هذا النهج فى قصيدة تصل الى سبعة وعشرين بيتاً الى أن يقول :

تعالى الله أحيانى نسيم　　أتانى من سليمى فى الرواح
أروم الاستقامة منه عندى　　وأين الاستقامة فى الرياح
أطال النصح توام جهول　　وقانا الله عن هذا النباح
أما يدرى صرط مستقيم　　رضا الانسان بالقدر المتاح
شربنا من مودتها رحيقا　　وفزنا منه بالكأس الصراح
ترقرق فى طلوع السكر دمعى　　وقلبى ضاحك فليبك صاحى
سعى آزادنا سعياً جميلاً　　فألفى العشق من سبل النجاح (١)

١- مختار ديوان آزاد ص ٢٩ - ٣٠ ، الهند ١٣٢٨ هـ .

ولا يخفى عليك ما فى «وقانا الله عن هذا النباح» من مخالفة فإن وقى لا يحتاج إلى حرف جر وإن كان لا بد منه فهو من وليس عن. وما أردنا هنا الا التمثيل لنهجه فى النظم العربى على قوالب الغزل الفارسى والأردى. وقد شاركه فى هذا النهج غيره دون مراعاة لخصائص الغزل مثل طلا محمد (ت ١٣١٠ هـ) وهو شاعر آخر طويل النفس فى النظم، ففى تشطيره للقصيدة العينية لابن الفارض وهو ما جاء فى مائة وستة وعشرين بيتاً أنهاه بالتخلص كما ينهى الغزل فقال :

وأيد بنور كى يقـــول له طلا   أبدر بدا من جانب الغور لامع ؟ (١)

وكذلك فعل فى قصيدة أخرى فى مدح أهل الحديث طولها سبعة وثلاثون بيتاً، وأخرى طولها ستة وأربعون بيتاً. (٢)

كذلك أدخل آزاد الترديف وهو من خصائص الشعرين الفارسى والأردى وهو أن يلزم الشاعر كلمة واحدة أو أكثر يكررها فى المطلع وفى نهاية كل بيت بعد القافية. قال صديق حسن فى كتابه غصن البان يقارن بين خصائص الشعر العربى والفارسى والهندى :

« ... والأوزان الفارسية أكثرها فى غاية المطبوعية بخلاف العربية والهندية، والنظماء من الفرس أو ممن يتقلدهم كأهل الهند ينظمون الشعر من غير علم بالعروض الفارسية ومع هذا لا يخرجون عن الوزن لأن الأوزان الفارسية يعرفها من له أدنى سليقة لما فيها من غاية المطبوعية، وأما العجمى الراغب فى الشعر العربى فعليه أن يتعلم العروض العربية وألا تزل قدمه عن جادة الوزن، نعم قد خرج عن الوزن جماعة من فحول الشعراء من العرب فكيف الأعاجم ؟ ومنهم المتنبى فى قوله :

تفكره علم ومنطقـــه حكم   وباطنه دين وظاهره ظرف

١- طلا محمد خان كے احوال وآثار ، بحث مقدم من الطالب محمد أشرف للحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة البنجاب ، باكستان عام ١٩٨٨ م ، ص ١٣٠ إلى ١٣٥ .

٢- طلا محمد خان كے نفس المصدر ١٦٥ و ص ١٦٩ .

وحال الشعر الهندى أيضاً كذلك لا يعرف أكثر أوزانه إلا بعد تعلم العروض الهندية. ولشعراء الفرس الرديف وهو عبارة عن كلمة مستقلة فصاعداً تتكرر بعد الروى ويسمى الشعر المشتمل عليه مردفاً من الترديف وهو يزيد الشعر جمالاً ويلبس بنات الأفكار خلخالاً، وبه يتنوع النظم الفارسى على أنواع لا تحصى وأقسام لا تستقصى، ولا رديف فى شعر العرب وإن تكلف أحد بالترديف لا تظهر له جلوة مثلما تظهر فى شعر الفرس ولا موجب له إلا خصوصية اللسان. وفى ديوان الشيخ عبد العزيز اللبنانى قصيدة مردفة وكذلك فى ديوان الزمخشرى ولآزاد البلكرامى ديوان مردف» (١)

يقول آزاد :

عين الصواب جناية الحسناء	قتل المحب عناية الحسناء
ترجيم قبرى بعد دفن الجسم من	رجم الغوير رعاية الحسناء
نبكى على قتل النساء ترحماً	شتم القتيل رثاية الحسناء
تعدو على العشاق غزلان الحمى	هذا الجفاء بناية الحسناء
جورالظوالم فى الأباطح شائع	سند لهن بداية الحسناء (٢)

إلى آخر القصيدة . وأنت ترى أن همه فى هذا توفيق الكلمات ولو كانت بلا معنى، وقد نظم قبله مسعود سعد سلمان (ت بعد ٥١٥ هـ) شعرا يشبه المردف بشكل أو آخر مما يسمى بذى القافيتين قال فيه :

يا ليلة أظلمت علينا	ليلاء قارية الدجنة
قد ركضت فى الدجى علينا	دهماء خدارية الأعنة
فبت أقتاسها فكانت	حبلى نهارية الأجنة (٣)

١- ص ٥ ، ٦ ، القسطنطينية ، ١٢٨٦ هـ .
٢- ديوان آزاد ص ٧٨ .
٣- سبحة المرجان : ١ / ٦٩ ..

غير أن أجود محاولة للنظم المردف فى الأدب العربى فى شبه القارة حتى الآن هى ما قام بها محمد حسين اقبال استاذ اللغة العربية بالكلية الحكومية فى مدينة فيصل آباد الباكستانية وهى فى مدح الرئيس العراقى صدام حسين خلال أزمة الكويت عام ١٩٩١ م قال فيها :

ويظنة أهل البلاد حبيبهم   فعلى قرار فؤاد حيران سلام
ملك سديد القول عن حرية   فعلى مقطع قيد إنسان سلام
أضحى مثالا للبطولة فى الورى   فعلى مبيد جنود شيطان سلام
لم ينس فى الهيجا عبادة ربه   فعلى محافظ حصن إيمان سلام
هو ينتمى لسلالة علوية   فعلى مريد ولى جيلان سلام
متمسك بالحق متبع الهدى   فعلى الخبير برمز قرآن سلام
وعلى رشيق القد صدام سلام   وعلى عظيم الجد صدام سلام
وعلى وحيد العصر صدام سلام   وعلى فريد الدهر صدام سلام (١)

ويبدو أن الشاعر حذف من أولها أبياتاً لحاجة فى نفسه ، ومع ذلك فقد خرج على الترديف فى آخر بيتين - هذا القالب الشعرى لا يبدو فى الجمال والفن الذى نراه فيه حين يأتى فى إطار قالب الغزل فى الشعرين الفارسى والأردى وذلك لأنه قالب دخيل على العربية أصلاً وربما لم يوافق مزاج شعرها ومن ثم لم يشتهر .

ولم يخرج عن الاهتمام بالشكل والقالب غير فيض الحسن السهارنبورى لأنه اهتم أكثر بالتجديد فى موضوعات الشعر فنظم به كما ينظم شعراء العرب أحاسيسهم فيقول مثلاً :

عبثن بِصب كان بالبيض عابثا   ولم يك ممن ينكث العهد ناكثا
حلفت ولما لم أجد عنك سلوة   حنثت ولولا أنت ما كنت حانثا
لعمرك لا أنسى غداة لقيتها   وما كان فيها ما سوى الله ثالثا

١- ديوان حديث النفس لمحمد حسين اقبال القادرى ص ١٩٧٦ ، طبع المجمع العربي الباكستاني ، لاهور ١٩٩٥ م .

ومـــــا لـيلة طلق ألذ من التى عـهـدت بهـا فـيـهـا فـبت مـحـادثا
ولولا العـدى لا بارك الله فى العدى لكنت لديهـا سـائر اليـوم لابثـا [1]

ويقول حين سرق متاعه :

كـمـثلى إذا السـراق راحـوا بمنفـسى وغـــودرت كـــالبـيــر التى هى نازح
جلست كـأنى لم تصـبنى مـصـيـبـة ومـــا كـــاد يبـــدو مـــا تكن الجـــوانح
أتانى رجـال من مـحـب ومـبـغـض يعـــزوننى والصـــدق كـــالكذب واضح
فـمـيـزت بين الغش والنصح منهـمـا وهل يستوى فى الطعم عذب ومالح [2]

فكان السهارنپورى أول من خرج بالشعر عن تقليدية الموضوعات ، وسنرى ذلك عند الحديث عن ديوانه. وكما نظم آزاد بالعربية في قالب الغزل نظم كذلك في قوالب أخرى كالترجيع وهو تسعة أبيات يتكرر بينها فاصل بعينه ، وقد نظم فيه الفرس كثيراً، ويشبه المسمط الذى شاع فى عصور الضعف فى الشعر العربى، يقول آزاد :

مـــولاى حـــزنت فى هواكـــا من يكشف غـــمـــتى ســـواكـــا
ألفـيـتك فى الضـيـاء شـمـسـا يذرى العـــبـــران من يراكـــا
والله لقـــد أهنت ضـــيـــفـــا من ينزل بعـــده حـــمـــاكـــا
يـــزداد ضـــنـــاى كـــل آن حـــتـــام أذوب فى نواكـــا
هل تقـــبل فى كـــراى ليـــلاً أو تـطـلـبـنـى إلى كـــراكـــا
شكراً لك أن رفـــعـت قـــدرى مـــا لى شـــركـــاء فى جـفـــاكـــا
لو لم تك ســـاكـنا بقلبى آنـاً لجـــعلتـــه فـــداكـــا
أهلا بك ســـيـــدى وســـهـــلا أهديـت لمقـلـتى سـنـاكـــا
أقـــبلت على مـــســـتـــعـــدا أن تغـــرق فى دمى ظبـــاكـــا

إن ذقـــت المـــوت لا أبـــال
حـــيـــاك الله ذو الجـــلال [3]

١- ديوان الفيض ص ٨ ، الهند ١٣٣٤ هـ . ٢- نفس المصدر ص ١٤ ،
٣- ديوان آزاد ص ١٤.

ويكرر البيت الأخير بين المقاطع . وقد نقل في هذا النظم الطويل بعض الأ
عن شعراء الأردية كقوله :

لا تعـــرف في الهـــوى مكاني   والعـــاشق شـــاهر الحـــســـان

وقوله في بيت آخر :

أنس لك بالكتـــاب لكن   لا تقـــرأ غـــيـــر لن تراني ..
في شـــتـــمك للمـــحب عـــز   يشـريه بقيـمـة الجـمـان [1]

فهذه أخيلة ترددت في الشعر الأردي كثيراً .

كذلك نظم آزاد في شكل آخر فارسي أيضاً هو المستزاد فقال :

وقـفنا على طرة المنحنى بإيمائها   ومـا كـان عـلم لنا ههنا بإيذا
ورت في فؤادي نار الجوى بإيرائها   فمن لي من أهل وادي القرى بإطف
أيا من يسائل عن حالتي   فـقدت فؤادي أمـام الربى بجـر
فياليتني أحتظي بالردى   إلام أقـاسي صنوف الأذى بشـ

وهكذا إلى أن يقول :

همت أدمعي يوم لقيانها   فعطفا على هيـمان الندى بص
أذاب الأطبـاء ابراؤنا   فيـاليت سلمى تزيل الضنا بابرا
آزاد يرغب في دولة   إذا لم يكن فـــائزاً باغنا

ولقد كان من الممكن أن يشتهر آزاد عند العرب لو أنه نظم في هذه القـ
معاني صافية سهلة يتغنى بها الناس، ويلحنها الملحنون كما لحنوا الموشحات.

١- ديوان آزاد ص ١٠٠ .
٢- نفس المصدر ص ٨٨ - ٨٩ .

اشتغل بحشو القوالب بكلمات توافق الوزن بصرف النظر عن معانيها، لأنه اهتم بالقالب والشكل ولم يهتم بالمعنى والمضمون، ولذلك لم يوفق ولم يشتهر وأخفقت محاولاته ومحاولات من حاول مثله وقد استخدم آزاد فى آخر بيت كلمة دولت بمعناها فى اللغة الأردية أي ثروة بعد أن ربط التاء فصار الكلام غير مفهوم البتة. والشعراء بعد آزاد لم يستفيدوا من التجارب رغم مرور سنوات طويلة فصلت بينهم وبين تجاريه، بل كرروا نفس المحاولة ، فهذا محمد أفضل فقير وهو شاعر معاصر ينظم فى قوالب الرباعي الفارسي بأوزانه الأربعة والعشرين فيقول مثلاً :

محبوب المولى ساد الأسلافا كالخير حوى جزاؤه أضعافا
بالنعت لمن والاه استكرام قد كان الرحمن له وصافا

× × × × ×

شمت نفحات لطفه الأقطار قرت بضياء حسنه الأبصار
قد شرفنا به إله الخلق من فى بدء الخلائق المختار

× × × × ×

أخلاق حبيب الكونين الاعجاز تبشير التيسير وللدهر طراز
تعظيم المصطفى القلوب ادخرت ذاك التقوى له العلى والإعزاز (١)

× × × ××

فأنت ترى أن هذه المحاولة تكاد تقترب من النثر لكنه نثر غير مفهوم لأن صاحبها اهتم بملء القالب الفارسى بألفاظ عربية ونسى أن أوزان الشعر ما وضعت فى أى لغة اعتباطا ، وإنما وضعت على نحو يناسب أداء ها للمعانى وحملها لألفاظ تلك اللغة، فما يصلح للفارسية لا يصح بالضرورة للعربية إذ لكل لغة خصائصها.

١- شآبيب الرحمة ، الحافظ محمد أفضل فقير ، لاهور ١٤١٣ هـ ، ص ٧٣ ٨٢ ، ٨٤ .

وهناك صنعة أخرى حاول انشاء ها أبو الفيض بن المبارك وهى صنعة الإهمال وقد برع فيها فى النثر فألف تفسيراً كاملاً للقرآن بها ليس فيه حرف منقوط، كما أنه نظم بها أيضاً فقال مثلاً يصف تفسيره هذا :

سواطع إلهام مكارم سؤدد ... مراحم إرسال هو الله أرحم
عواطل أعراس حلاها دلالها ... ملاح لها سدلا سدوس مسهم
وها كل لوح سطروه مكرما ... ركام ودأماء السواطع أكرم
ومدلولها المعهود مما أراده ... لكسر لهام الوهم طراً عرمرم
ولو طار ملاك الكلام مطاره ... لرد وما كل الأعاور أعصم [1]

وقد عثرت على قصيدة كتبها الشاعر المعاصر الدكتور خورشيد رضوى أستاذ اللغة العربية بالكلية الحكومية بمدينة لاهور وعنوانها «الجمال المنسى» يقول فيها :

نجمة فى الأفق كالزئبق ترنو
عبر أعصر
عين من فى هذه النجمة تحلو
لست أذكر
نجمة أخرى كمثل القرط فى أذن السماء
تتألق
جيد مَن ، مِنْ تحت هذا القرط فى رحب الفضاء
يترقرق
وجبين البدر كالدينار من خلف التلال
يتطلع
وجه مَنْ فى الحلم فى ستر الخيال
يتقنع
إنما الليل حبيب حل فينا
فاتن حلو الشمائل

١- نزهة الخواطر ٥ : ١٣ .

في بهاء وجمال قد نسينا
فهو منبث المخايل (٢)

وأنت ترى أن الشاعر وهو شاعر عمودى، يظلل قلمه فى هذه المحاولة الشعر التقليدى وذلك لانقطاع الصلة بينه وبين الشعر العربى الحديث ودواوينه، ومع هذا فهو شاعر مطبوع من الممكن أن تلد لنا قريحته بنات شعر حديث لا تقل عن بنات العرب الخلص إذا ما توفرله رباط يربطه بالثقافة العربية المعاصرة. أفنلقى باللوم هنا على العرب الذين لم يهتموا بما كتب فى لغتهم خارج المنطقة العربية أم على قله اهتمام الشعراء المعاصرين فى شبه القارة بالثقافة العربية الحديثة ؟

هذه المحاولات ، خاصة القديمة منها، لم تؤت ثمارها لأسباب نوجزها فيما يلى :

الأول : انقطاع الصلة بين أدباء العربية فى شبه القارة وبين إخوانهم العرب الخلص مما أدى إلى فقدان الأنمطة العربية الجيدة التى يستفيد منها هؤلاء الأدباء فى مراحل المحاكاة والتقليد التى يمر بها الكتاب والشعراء إلى أن ترسخ فى نفوسهم ملكة التعبير بحرية بعد الاطلاع على الصور الحديثة وتعبيرات العصر الحاضر، وأساليبه وقوالب الفنون الأدبية المختلفة. ومن أسف أن هذا الانقطاع مازال يحول بين الطرفين رغم تقدم وسائل الاتصال والطباعة.

الثانى : أن محاولات التجديد عند آزاد مثلاً انصبت على القالب والشكل دون المعنى - وكذلك عند غيره - مما أعاق رواج هذه القوالب فى الشعر العربى، لأن المعنى إن لم يجذب العرب فلا وزن للقالب. وإنما أخفق آزاد لأنه - فوق هذا - حاول أن يهنّد العربية لا أن يعرب عربيته، ولم يستفد بما أتيح له من فطرة شاعرة لا شك فيها، وثقافة شعرية أيضاً لا ريب فيها، فى الإتيان بشعر يفصح عمقه عن هذه الخلفية التى ربما لم تتوفر لشاعر عربى أصيل.

وأظن ظناً أن سبب إخفاق آزاد الرئيسى سبب نفسى، ذلك أنه اغتر بنفسه وظن أنه بنظمه الشعر العربى فى قوالب فارسية وهندية قد سبق كل أحد،

٢- بعث بها إلىّ فى رسالة.

وأنـه بتـلفيق أبيـات عربيـة لتبرير ألوان البديع الهندية أو التمثيل لها قد ولد ما لم يلده أحد. والفاحص لشعره ونثره يستطيع أن يضع يده على عقدته فهو مغال في حب بلده حتى قال :

إن تبـتـغـوا مـاء الحـيـاة فـانه في الهند لا في موضع الظلمات [1]

ولا نعيب عليه هذا فحبه لبلده أمر فطرى ، وهو حر في قلبه يحب به ما شاء ومن شاء، وقد نخطئ أيضاً في حقه إذا نقدنا منهجه في كتابه سبحة المرجان الذى خصص جزأه الأول للحديث عن الهند في الكتاب والسنة وجمعه روايات المحدثين في هذا الشأن مما لا يعلم حاله إلا الله والراسخون في العلم، حتى اعتبرها مهبط الرسالات ومنزل الأنبياء والملائكة إلى حد يجعلك تخشى - وأنت تقرأ كلامه - أن يدعى أن الرسالة المحمدية كانت ستنزل في الهند. هذا كله نغمض عنه أعيننا لكن أن يكتب أجزاء الكتاب الأخرى ليمدح نفسه ويقول خلف كل بيت أو فن هذا لم يقله في العربية غيرى، وأنا أول من قاله محاولاً بالتصريح والتلميح إثبات فضل الهنود على العرب في لغتهم العربية وهم أصحابها فهذا ما يشير إلى أسباب نفسية لابد وأنها تحكمت في أفعاله وانفعالاته. [2]

ومع هذا كله فقد جدد آزاد بلا ريب في موضوعات الأدب العربي في شبه القارة حين أدخل الوصف، فوصف أعضاء المعشوقة في قصيدة طويلة بعنوان مرآة الجمال، وقد استعار هذا الفن من الأدب الفارسي، هاك بعضها :

أضـفـيـرتان على بيـاض خدودها أو في كـتـاب الحـسن سلسلتـان
أو ليلتـا العـيـدين أقبلتـا مـعـا أو من قـصـائدهم مـعلقـتـان
لله جـبـهـتـه المضيـئة في الدجى وهـب الإلـه لـه عـلـو مـكـان
هى نصف بدر كـامل لكنهـا تربى على القـمـرين في اللمـعـان

١- حركة التأليف ص ١٣٨.

٢- انظر نماذج هذه الأقوال في سبحة المرجان المجلد الثاني كله ، وغصن البان ص ٦.

أبصر حواجبها وأدرك كنهها غصنان منحنيان وسط البان
أوكافران يشاوران ليوقعا آمالنا فى موقع الحرمان
طرفا الحبيبة ماكران تمارضا وتغافلا عن رؤية الجيران
أو نرجسان على غصين واحد وهما بماء مسكر نضران (١)

ويواصل الوصف المادى لجسم المعشوقة من أعلى إلى أسفل مخصصاً بيتين لكل عضو، وما يلفت النظر فى هذه القصيدة أنه بدأ وصف أول عضو وهو الجبهة بصيغة المذكر، لكن القصيدة كلها تصف أعضاء معشوقة، وفى صيغة المؤنث. وينهيها كعادته فى مدح نفسه بقوله :

ما إن سمعنا مثلها عن شاعر آزاد للطرز المنشط بانى

هكذا رأينا كيف حاول آزاد تهنيد العربية ، وطالب أدباء العرب باستحسان محاولته، ورأينا كيف انصبت هذه المحاوله. كما ارتكزت محاولات غيره ،على الشكل لا المعنى، ولذلك بقى الأدب العربى فى شبه القارة مجهولاً لدى العرب لم يستحوذ على أذواقهم، ولم يثر انتباههم، فظل حبيس قوالبه دون أن يؤثر فى أدب اللغة العربية بشئ، وكان فى مقدور أصحابه أن يصلوا به إلى رتبة لا يعلوها أى أدب عربى آخر خارج ديار العرب. يقول الدكتور شوقى ضيف :

« ومهما يكن فإن تأثير الثقافتين الفارسية والهندية فى الشعر العربى غير واضح المعالم ، وحقاً أنهما لعبتا دوراً واسعاً فى الشعر الشيعى والصوفى، ولكن ليس هذا من التأثير العام فى الشعر العربى إنما هو جانب خاص يعنى به من يبحثون فى الشعر الشيعى والصوفى وأصولهما، أما الذين يبحثون فى الشعر العربى العام فسيجدون تأثير هاتين الثقافتين محدوداً على عكس الثقافة اليونانية التى يظهر تأثيرها فى وضوح ». (٢)

١- نشوة السكران : ص ٧٨.
٢- الفن ومذاهبة فى الشعر العربى ، ص ١٠٢، لبنان ١٩٥٦.

ونحن لم نتعسف نقد آزاد، ولم نظلمه بنقدنا لشعره فهكذا نراه وهكذا رآه أيضاً أهل العلم من أبناء بلده. يقول المؤرخ والناقد والأديب الأستاذ شبلي النعماني رحمه الله :

«إن قصائد آزاد العربية تتصف بالأفكار والأساليب الفارسية والهندية إلى حد أنه لمن المشكل أن تدعى قصائد عربية، وفي الحقيقة كان آزاد يفتخر بأنه قد نجح في إدخال التشبيهات والأفكار الهندية في الأدب العربي، وأياً كان الأمر فإن علماء الأدب يعلمون أن هذا الجانب من شاعريته يبدو وصمة عيب لا وسام شرف وامتياز»[(١)]

كذلك انتقد شعر آزاد الفارسي انتقاداً شديداً وارسته السيالكوتي في تذكرة الشعراء وباقر بن مرتضى في كتابه «جهار صد ايراد بر كلام آزاد» حيث سجل فيه أربعمائة غلطة استخرجها من شعره وهذا الكتاب مخطوط واسمه الآخر عثرات آزاديه.[(٢)]

وسيمر بك نقد المفتي محمد عباس التستري لشعر آزاد في منظومته أجناس الجناس حيث قال :

وقد ذقنا كلام البلجرامي … فما ثمراته غير الجرامي
ترى أنفاسه مسكاً ذكية … وفيها بعد نتن الهندكية

إلى آخر ما قال .[(٣)]

أما اعتبار تهنيد آزاد للعربية إضافة جديدة في الأدب العربي والزعم بأن أدباء العرب أثنوا عليه كما قال بعض الباحثين[(٤)] فقول يحتاج إلى دليل، ولا يعني لقاء آزاد بأحد المشايخ في بلد ما وتشجيع الشيخ له كأعجمي يتكلم العربية أن أدباء العرب مدحوا شعر آزاد فالحقيقة أنهم لا يعرفون آزاد وشعره ولو عرفوه لاشتدوا في نقده.

١- نقلاً عن مقال تطور الشعر العربي في الهند لمحمد أسلم اصلاحي ، الثقافة الهندية مجلد ٣٨ عدد ٢ ص ١٦ ، وانظر مقالات شبلي النعماني : ٥ / ١٢٩ ، الهند ١٩٣٦ .

٢- فقهاى هند ، محمد اسحق بهتي : ج ٥ القسم الثاني ص ٢٨٨ ، وما بعدها باكستان ١٩٧٩ م .

٣- أجناس الجناس : ص ٤١ - ٤٣ ، الهند ١٣٠٦ هـ .

٤٤- حركة التأليف ص ٣٧ ، ومقال محمد أسلم اصلاحي السابق ذكره في الحاشية رقم (١).

٤- الأدب السيـــاســـــى

الأدب السياسي فى أدبنا العربى فى شبه القارة - بخصائصه العامة التى ذكرناها فى صدر البحث - ظاهره تسترعى إلانتباه، وتجعلنا نبحث لها عن أسباب وعلل، تفسر وجودها، وتكشف غموضها، فما كان لأدب نما ونشأ فى غير مجتمعه أن يلمس موضوعات سياسية وينفعل بها، فما هى الأسباب وماهى قيمة هذا الأدب السياسى ؟

فى تقديرنا أن هذا النوع من الأدب لم ينشأ إلابعد تحرر الأدب العربى فى شبه القارة من قبضة الأبلطة والسلاطين، فتحررت الأقلام والقرائح، واتجهت إلى الكتابة فى موضوعات كانت فى القديم شجرة محرمة ممنوعة.

ودليلنا على هذا أن أغلب ما فى أيدينا من هذا الأدب أنتجه أدباء عاشوا فى القرنين التاسع عشر والعشرين بعد زوال سلطان المسلمين فى شبه القارة، وهذا ملمح أساسى من ملامح الأدب السياسى العربى فى شبه القارة.

والملمح الثانى أن هذا الأدب لم يهتم بقضايا السياسة الداخلية فى شبه القارة إلا فى القليل بينما اهتم ببعض قضايا الأوضاع الدولية بشكل أوضح، فسقوط دولة المسلمين فى الهند، وإلاحتلال البريطانى لها، وثورة المسلمين فيها ضد الإحتلال سنة ١٨٥٧م، وتقسيم الهند وقيام باكستان وحروب الدولتين وغير ذلك من أحداث هامة وقعت فى التاريخ الحديث لشبه القارة. لم يلمسها الأدباء من قريب أو بعيد. فزعيم سياسى معروف مثل بهادريار جنك (ت ١٩٤١م / ١٣٦١ هـ) وهو من قادة حركة باكستان عاش حياة سياسية ثرية بالأحداث ورافق مؤسس باكستان محمد على جناح وله مؤلفات سياسية باللغات الأخرى لكنه حين كتب بالعربية. كتب لنا شرح معلقة

امرئ القيس، وشاعر عظيم مثل ألطاف حسين حالى يكتب لنا ملحمة الأمة الإسلامية باللغة الأردية والمعروفة باسم «مسدس حالى» لكنه لم يكتب لنا شيئاً من هذا فى العربية، وليته كتب مسدسه بها.

وقضايا الأمة الإسلامية، أو المسائل الدولية الساخنة كسقوط الخلافة العثمانية وحركة تأييدها التى أسسها العلماء والساسة في شبه القارة، والحرب العالمية الأولى والثانية ومشكلة فلسطين وحركة الوحدة الإسلامية التى دعا إليها جمال الدين الأفغانى، وما وقع فى إيران وأفغانستان المجاورتى .. كل هذا لم تنفعل به قرائح أدبائنا فى كثير.

والملمح الثالث أن الموضوعات التى تطرق إليها بعض الأدباء مما يتعلق بقضايا السياسة الداخلية أو الخارجية لم يتعامل معها أدباؤنا تعاملاً مباشراً بل جاء ذكرهم لها فى ثنايا أغراض أخرى. فالحرب بين العثمانيين وروسيا مثلاً نجد ذكرها فى قصائد المدح التى كتبها السنهارنبورى وذوالفقار على (ت ١٣٢٢ هـ) للسلطان عبد الحميد، والحديث عن مؤتمر القمة الإسلامية الذى عقد فى لاهور سنة ١٩٧٤ يذكره الدكتور صوفى ضياء الحق (ت ١٩٨٩ م) ضمن مدح للملك فيصل بن عبد العزيز، كذلك تأسيس باكستان نجده فى قصيدة له فى رثاء محمد على جناح، والاحتلال الروسى لأفغانستان يذكره الدكتور خورشيد رضوى فى قصيدة له فى مدح المجاهدين.

والملمح الرابع أن هذا الأدب قليل جداً إذا ما قارناه بأحداث الخضم الهائل الذى اجتاح شبه القارة والعالم الإسلامى فى القرين التاسع عشر والعشرين، فقد كان ينبغى أن تهز هذه الأحداث العظيمة وجدان أدبائنا فيصيغوها شعراً ونثراً. ومع هذا فالقليل الذى وصلنا متنوع فى موضاعاته إلى حد يجعلنا نعتقد أن الأدب العربى فى شبه القارة لو أتيحت له الحرية فى القرون السالفة لأنتج الشئ الكثير مما له صلة بالمجتمع وإنما أفسد السلاطين عليه وعلى أصحابه الجو، فانعزل وتقلص.

والملمح الخامس أن تناول الأدباء للموضوعات التى شغلتهم تناول بسيط ساذج خلا من الفكر وبعد عن عمق النظرة وجودة التحليل، فهذه الموضوعات تطرق لها كثير من

أدباء العربية فى ديار العرب وفى ايران مثلاً فكانت كتاباتهم أعمق، وتناولهم أجود، ولعل السبب فى هذا أن الأدب العربى فى شبه القارة حين التفت إلى هذه الموضوعات كان قد تحررلتوه من سطوة السلاطين، فكان طفلاً فى تفكره وتدبره لأنه خرج من بطون القصور المظلمة إلى شارع الحياة ومعركتها يحبو حبواً، وليس من الإنصاف أن يقارن وليد جديد بفتى يافع فى بلاد العرب أو غيرها.

ولعل من أسباب ضعف هذا الأدب - وهو ما يشكل الملمح السادس أيضاً - أنه ما كاد يولد وقت تحرره من السلاطين .. إلا وقضى عليه بانتقال السلطة إلى المستعمر البريطانى ووقوع تطورات وتغيرات كبيرة فى البيئة السياسية والجغرافية لشبه القارة انتهى بها - تقريباً - انتشار اللغة العربية كوسيلة أدب وعلم وتحولت إلى ذريعة كسب وارتزاق.

والملمح السابع أن هذا الأدب يعكس لنا الفصام الذى بينه وبين المجتمع الأدبى فى ديار العرب فى أجلى صوره، اذ رغم تحرره لم يحتك بالتيارات الأدبية فى الدول العربية ولا بالحركات الاجتماعية والسياسية بل لا نجد فيه ذكراً لشاعر كشوقى مثلاً وكان أقرب فى مزاجه الإسلامى إلى أدباء العربية فى شبه القارة.

ونحن فى هذا الفصل نعرض نماذج من هذا الأدب نظنها - مع كل ما قلناه - نماذج متنوعة فى النثر والشعر، وقد حرصنا على تناولها وفق الترتيب الزمنى لأصحابها مقدمين النثر على الشعر.

بين أيدينا تجربة سياسية لقائد من قادة ثورة المسلمين ضد الاحتلال الإنجليزى لشبه القارة عام ١٨٥٧ م وكان قد فر بعد قمع الثورة فأصدرت ملكة بريطانيا عفواً عاماً فلما عاد مطمئناً اعتقلته شرطتها وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ثم نفوه إلى جزيرة أندومان إلى أن وافته المنية فى منفاه عام ١٢٧٨ هـ، ومن حسن حظنا أنه كتب فى منفاه كتاباً وشعراً باللغة العربية سجل فيه خواطره حول أزمته .. يقول فى كتابه (الثورة الهندية) :

« هذا ولما ابتلانى النصارى بالحبس بما اختلقوا من الخدع واللبس، نقلونى من سجن إلى سجن ومن حزن إلى حزن، وزادونى شجناً على شجن، وحزناً على حزن وسلبونى النعال واللباس، ولبسوا على كسى الكساء والكرباس، وأخذوا منى فراشاً ليناً حسناً، ومهدوا لى وطاء مؤلماً خشناً، كأنه شوك تتاد، أو جمر وقاد ولم يتركوا عندى ابريقاً ولا قعبا ولا آنية، وأطعمونى ضنا زنا، وسقونى مياها آنية، فعوضت من حميم دان بحميم آن، وبليت مع مالى من كبر وتوان بصغار وهوان فى كل آن، ثم قذفنى شط الخضم الكالح إلى شط الخضم المالح إلى جبل مستويل راس اسمه راس لا تزال الشمس فيه على سمت الراس. فى شعاب صعاب وعقاب فيها عقاب، وفجاج تغشاها أمواج من بحر لجى ماؤه أجاج، نسيمه أحر من السموم، ونعيمه أضر من السموم، غذاؤه أمر من طعوم العلاقم، وماؤه أضر من سموم الأراقم، سماؤه غمام يمطر الغموم، وسحابه الهموم يفيض الهموم، وأرضه كالجدرى والحصبة حصباء، وريحه من النكبة نكباء، كل بيت فيه من الحشائش والقصب مملوء من الوصب والنصب لا يزال سقفه يكف، قطره كدمع عينى لا يقف لا يزال يتعفن فيه الهواء فجمت فيه الأدواء، وهان الدوى وعز الدواء، وشاعت فيه الأوباء، وعم فيه الجرب والقوباء. ما فيه التئام لكليم، ولا سلامة لسليم، ولا علاج لسقيم، من يداوى فيه يدوى ومن يداوى فيه يودى، ومن آسى أساء وزاد فى الأسى ومن أسى لا يوسى عليه ولا يواسى، وما من كرب فى الدنيا يقاس على كرب ههنا يقاسى، ما فيه سقام إلا وهو داء عقام، فالحمى فى مقدمة الحمام، وعموم علة السرسام، والبرسام علة تامة للسام وكم فيه من مرض وسقم لا يوجد منه اسم ورسم من كتب الطب فى رقم، والساعور يسعر حشا المرضى كالساعور والنطيس لا يحمى المريض ولكن يحمى عليه قبة الوطيس، فهو لا يعرف مرضاً، ويسقى المريض ما يصير به حرضاً. واذا مات فيه أحد من الناس جر رجله أحد من الأنجاس الأدناس وهو كناس كأنه شيطان خناس أو نسناس فيواريه بعد نزع ماله من اللباس فى كثيب من رمل بلا تكفين وغسل، فلا يحفر له لحد ولا يصلى عليه أحد، هذا ولولا للميت فيه هذه الحالة الدنية لكانت فيه المنية هى الأمنية، وكانت فجأة الأجل هى الأمل الأجل، وكان المنى أقصى المنى ولو لم يكن قتل المرء نفسه فى الدين محظوراً، وعذاب يوم الدين فيه محذوراً لم يرهق من جيئ به ههنا مأسوراً معسوراً، وكان النجاء ممن ابتلى به ميسوراً.

هذا وقد ابتليت فيه بأعراض عديدة وأمراض شديدة وقد عيل بها صبرى، وضاق بها صدرى، وامتحق بدرى وهان قدري، وكيف الخلاص والمناص عما شجاني فاعتاص، لا أدرى وبليت مع ما أقاسى من الكرب بشدة القوباء والجرب، أغدوا وأروح وجثمانى كله مصاب بقروح تربو على كلوم وجروح مع مالى من أوجاع تحلل الروح تكاد تفضى بى البثور إلى الثبور والبور بعد ما عشت عمرى فى عافية وجبور ورفاهة وحبور، قد كنت قبل مبتوراً والآن صرت مبثوراً بل مثبوراً وكنت زمناً سليماً فرحاناً واليوم صرت زمنا كليمًا قرحاناً، أعانى شدائد مصائبًا وأكافح من صعائب عصائباً.

حـملنا من الأيام مـا لا نطيـقـه كما حمل العظم الكسير العصـائبا

ومع ذلك كله أحمد الله سبحانه، وأشكره على منه وفضله فانى أرى غيرى من الأسرى مثقلاً بأغلال مبتلى بأعلال يساق فى أقياد ويقاد ويقتاد بقياد، يسوقه ويقوده غليظ شديد حديد فى قيود من حديد يسومه كل مهنة ومحنة، ويبدى له كل حقد واحنة ، ويزيده أوجـاعـاً على أوجـاع، ولا يرثى لـه إذا عطش أو جـاع، فأحمد الله ربى على المعافاة من هذه الآفات، وأشكره على ماله من المنن وصيانته إياى من هذه المحن.

وإنى وإن استيأست نظراً إلى ظاهر الأسباب من نجاتى وقطعت رجائى فان أعدائى يجدون فى إيذائى ويبغون بما يبغون إيذائى، و أودائى لا يستطيعون مداواة دائى، وقد رسخت فى قلوب العدى منى أضغان وحقائد كما ترسخ فى القلوب من الأديان عقائد، وقد شحنت صدورهم الوخيمة بالشحناء والسخيمة لكنى أرجو رحمة ربى العزيز الرحيم، البر الرؤوف الكريم الذى ينجى الضعفاء العاجزين ...» [1] ويذكر ما أصاب الأنبياء وكيف فرج الله عنهم ثم يخلص إلى الدعاء لنفسه.

والنص كما تراه أغفل القضية الأساسية وهى الاحتلال الإنجليزى لبلاده، وركز على وصف المنفى فى عبارات اعتمدت على السجع القصير والتلاعب بالكلمات والمفارقات اللفظية من قبل رجل كان مكرماً وعز عليه أن يهان.

١- باغى هندوستان ، عبد الشاهد خان شرواني ، ص ٢٩٠ - ٢٩٦ ، باكستان ١٩٧٤

ومن الموضوعات التى تناولها بعض الأدباء فى نثرهم العربى فى شبه القارة حركة التجديد التى قادها الدكتور السير السيد أحمد خان والتى شابهت وعاصرت حركة التجديد التى دعا إليها الشيخ محمد عبده فى مصر، وقد كتب حالى مقالاً فى مآثرالسير السيد أحمد خان يصور بذاته معالم حركته وسماه «جملة صالحة» يقول فيه:

«فى مآثر ناصح الملة، وموقظهم من نوم الغفلة، الذاب عنهم فى كل فتنة، والناصر لهم عند كل ملمة، الذى جعل همته مقصورة على إصلاحهم، ورأى لذة حياته فى نجاحهم وفلاحهم، يهيم لهم فى كل واد كصب هائم ولا يخاف فيهم لومة لائم، أعنى الدكتور سيد أحمد خان ابن السيد متقى ابن السيد هادى الحسينى نسباً، والمدنى ثم الهروى محتداً، والدهلوى مولداً.

طلوع الثنايا بالمطايا وسابق إلى غاية من يبتدرها يقدم

فاعلم أيها المخاطب الجليل أن هذا الشيخ الأجل الأمجد الهمام، والسيد الصنديد السميدع القمقام هو أول من تصدى لإصلاح حال مسلمى الهند فى أواخر المائة الثالثة من الألف الثانى، وأفنى عمره كما أفنى ماله فى نصحهم والرأفة بهم والشفقة عليهم والمجاهدة فيهم، وأول من ذب عن الإسلام وسافر لأجل ذلك إلى أوروبا، ونشر هناك محاسن الإسلام بين المسيحيين، وطهر ذيله عما افتروا عليه ونسبوا إليه من المثالب والمساوئ (تعالى عن ذلك علواً كبيراً) وأثبت فضله على أديان أخرى بدلائل بينة، وبراهين متقنة سلك فيها طريق استدلالهم، ونسج على منوالهم، وهو أول من ادعى أن ديناً من الأديان لم يفك رقاب الجوارى والغلمان عن ذل العبودية إلا الإسلام واستدل على دعواه بآيات من كتاب الملك العزيز العلام وأحاديث متصلة مرفوعة صحت عن النبى خير الأنام. وهو أول من عزم على التوفيق بين ما جاء به القرآن وبين ما شهدت به الحكمة الجديدة، وعلى رفع ما يتبادر إلى الأذهان من الاختلاف بينهما كما فعل علماؤنا المتكلمون فى صدر الإسلام لما شاعت الحكمة اليونانية بين المسلمين وخافوا عليهم أن يقعوا فى شبهات الملاحدة والزنادقة .

ولنذكر ههنا شيئاً يسيراً من مساعيه الجميلة التى كانت مستمره مسلسلة فى نصرة الإسلام والمسلمين من سنة ١٨٥٧ ميلادية إلى زمان رحلته التى وقعت فى أوائل سنة ١٨٩٨ ميلادية :

منها أنه لما اضطرمت نار البغى والعدوان فى أقطار الهند من قبل العساكر الهندية سنة ١٨٥٧ ميلادية وكان مسلمو الهند إذ ذاك مظنة لخلاف الدولة الإنكليزية لما كانوا قبل استيلاء الدولة ؛ فى نوع من العز والمكنة والسلطان فى ممالك الهند، بادر الشيخ إلى تأليف كتاب فى بيان أسباب البغى التى كان مرجع أكثرها إلى غفلة أركان الدولة وسوء تدبيرهم فى الأمور السياسية، وكان الزمان زمان الأخذ والبطش والانتقام بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ويؤسرون، ويسجنون ويقتلون ويصلبون، فلم يسكت هناك عن كلمة الحق، وألقى بنفسه إلى التهلكة ليزيل كل شبهه تختلج فى صدور أعيان الدولة من قبل المسلمين ويبرئ ساحتهم من كل سوء ويطهر ذيلهم عن كل رجس»(١).

ويستمر حالي فى عد جهود السيد أحمد خان الإصلاحية فى مجالات التعليم والترجمة والسياسة والصحافة فتتضح ملامح حركة أحمد خان من خلال هذا المقال النثرى الذى لم يرد به حالى الحديث عن الحركة الإصلاحية بقدر ما أراد ذكر مناقب زعيم أعجب به ووافق فكره.

فاذا انتقلنا إلى الشعر وجدناه أكثر كماً وكيفاً فالخيرآبادي الذى مر بك نثره وهو يصف حاله يبدو أن النثر لم يشبعه ولم يشف ما فى صدره، فنظم حاله فى قصيدتين قال فى الأولى بعد أن حكى غدر ملكة بريطانيا به، ووصف نفيه ومنفاه :

الأسر أنأى أسرتى وأقاربى ... ما من حميم فيه إلا الماء
عميت على الأبناء أنبائى كما ... عميت علينا منهم الأنباء
أبكى لبعد أقاربى وأحبتى ... ولهم على فقدى أسى وبكاء
حق البكاء لهم على إذ الردى ... والعيش فى الحبس الردئ سواء
أسكنت وحشاً لا يرى فيه سوى ... الشينين : الغربان والغرباء

---

١ - ضميمه اردو كلبات نظم حالى ، محمد يعقوب مجددى ، ص١٣٤ -١٤٤ ، الهند ١٣٣٢ هـ

مستوبلاً وخماً فما بطعامه شبع ولا في مائه إرواء

فالماء آن ما به ري كما الـ مأكول زن ما له استمراء

ما فيه من عذب يسوغ ولا به طعم يلذ ولا هناك فضاء

زادت على كربي عوارض جثتي الفتق والقولنج والقوباء

وجدي لعافية عفت وعفت لي الـ نكبات فيه وريحه نكباء

كانت لفضل الحق فضل مثالة منها على الأمثال لي استعلاء

ووجاهة بين الوجوه وجاهة تعنو لها الأعيان والرؤساء

وبراعة ورفاعة ورفاهة ونزاهة ونباهة وعلاء

وجد وجد مسعد مع جدة لم تبلها بلوى ولا بلواء

وتمام عافية وعرض زاده عرض يزيد وعزة وقعاء

كم نعمة زالت وكم من نعمة حالت وحل الضر والضراء

الله أقناني علوما يقتني منها علوماً جمة علماء

حال النوى بيني وبين أحبتي حالا وحال الحال والنعماء

هجم الشرور وفاجأت فتن بها ذهب السرور وولت السراء

قد سلط الأنصار في أمصارنا أن صار أنصاراً لهم سفهاء

لم يعلموا أن لا وفاء لهم ولا أن لا لهم مندوحة ووقاء

من قبل ولاهم عليها من لها إذ صده عنها غنى وغناء

والآن إذ نصر النصارى أفرطوا في الظلم فاخترم الضعاف جفاء

أقوى ديار كن آهلة كما أقوى الألى أقووا وهم أمراء

فتفرقوا أيدي سبا واداركت فرقاً كثيراً أخذة وسباء

عــال الغني وذل ذو عــزكــمـا — هان الخطيــر وصــغــر الكبــراء

قـتلوا وغـالوا جل من أخـذوا وهم — مما ادعــوا من جــرمــهم برء اء

غـــالوا برايـاهم برايـا غـــيلة — فجرت كـما انفـجر العـيون دماء

كم خـــربوا بلداً ولـم يدروا بـه — بلداً فـــصــار كـــأنه بيـــداء

هدوا المسـاجد والقـصور كـأنها — لـم تبن لـم يـك ثـم قـط بـنـاء

بخست بخستـهم زورع الأرض من — شـــؤم فـــلا ريع لهـــا ونماء

قدروا على الناس المعاش فقدرهم — أن لا غـــداء عندهم وعـــشـــاء

فـظهــــورهم ثـقـلت بـأوزار بما — شحنت بطون صدورهم شحناء

أفـــهل لعـــدوان تعـــدى حــده — حــد وهل للمــعــتــدين جـزاء؟

لم أقترف ذنباً سوى أن ليس لى — مـع هـؤلاء مـــــــودة وولاء

فــولاؤهم كــفــر بنص مــحكم — مــا فـيــه للمـرء المحق مـراء

كــيف الولاء وهم أعــادى من له — خلق السما والأرض والإنشاء [1]

ويتحول بهذا البيت إلى مـدح النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يتوسل به وبآله وأصحابه كي يفرج الله عنه كربه ويفك أســره، ويهـزم الظـالمين وينـصر المظـلومـين، ولعـلك ترى أنه كـرر نفـس المعـانى التـى ذكـرها فى نثره، وتلاعب بالألفاظ، وأغرق فى المحسنات من جناس بأنـواعه وطباق وتورية ولم يزد فى قصيدته الثانية ومطلعها :

عودى فعودى مريضاً دواؤه عادى — أشفى على الحين حتى عاده العادى

١- باغى هندوستان : ٣٠٥ الى ٣٠٩ .

عن نفس المعانى بل استخدم نفس الألفاظ واتبع ذات المنهج والأسلوب، ونحن ننقل لك جزءاً منها يقص فيه حاله وما جرى له ويصف منفاه، يقول :

حبست فى السجن منجوداً ولم يذروا — عندى رفيقاً كخباز ونجاد
وقد كسونى كساء بعد ما سلبوا الـ — كساء وانتزعوا لبسى وأزوادى
أعطوا وطاء غليظاً شائكاً خشناً — لنوم لين بلين الفرش معتاد
سقوا أجاجاً حميماً إن شكوت صدى — وأعتدوا لى غذاء غير معتاد
لم يقنعوا باحتباسى بل أضيف إلى — حبسى جلائى وتغريبى وإبعادى
فأركبونى وأسرى آخرين على — فلك يمور بموج البحر مياد
وأنزلونى مع الأسرى على جبل — قاص تنسى دونه أوهام قصاد
شط المزار بنا إذ شط حابسنا — بشط بحر له مد بإزباد
أرواحه تنزع الأرواح من خبث — كصرصر أرسلت قبلاً على عاد
خاب المنى والمنى قد عم فيه وما — لميت فيه من دفن وإلحاد
يفيض فيه هموماً جمة أبداً — غيم هموم فسار رائح غاد
فلا يرى فيه يوماً ضوء شمس ضحى — ولا سنا نير بالليل وقاد
يومى كليلى وليلى سرمد تقف الـ — نجوم فيه كأن شدت بأوتاد
كانت كأيامنا بيضاً دياجرنا — وكأن أيامنا أيام أعياد
كيف احتيالى لإطلاقى وقد ضربت — علىّ أرضى أقلتنى بأسداد
كيف الخلاص وخصمى ظالم شكس — ويلاه من كافر بالله كناد
أغرى النصارى بتعذيبى زنادقة — يلونهم وتولوهم لإلحاد
غاظوا وجدوا ولجوا فى معاقبتى — عادوا وبادوا بأضغان وأحقاد
أيست من أملى إذ قطعت حيلى — وصرت كالطير فى أحبول صياد

كالظبى فى جرة أمسى يناوصها	وقد يسالمها من خوف مصطاد
رجوت ناساً رجاء من أملوا سحبا	قد أقلعت بعد إبراق وإرعاد
قطعت عما سوى الله الرجاء فما	ممن سواه رجا رفد وإرفاد
فلا أؤمل إلا رحمة الملك الـ	عدل الذى ذكره حرزى وأورادى [1]

وينتقل الشاعر من هنا إلى الدعاء إلى الله والتوسل بالنبى الكريم لينقذه مما هو فيه ويفك قيده. وواضح أن القضايا السياسية العميقة مما يتعلق بالإحتلال الإنجليزى وزوال ملك المسلمين فى الهند لم تجد لها مكاناً بين أبيات شاعرنا، وإن كانت القصيدتان تصوران ما يمكن تسميته بانتهاكات حقوق الانسان وسوء حاله السجون، كما تشير إلى المظالم التى كان يرتكبها الانجليز ضد العلماء والمعارضين لسلطانهم الظالم على الهند.

ولقد كانت الحرب بين روسيا والعثمانيين سنة ١٢٩٤ هـ من القضايا الدولية التى جذبت التفات شعراء العربية فى شبه القارة، ولكن لم يشحذ قرائحهم أسباب هذه الحرب ولا آثارها على الدولة العثمانية وما أدت إليه من نتائج على العالم الإسلامى إنما انزعجوا لكون الحرب ضد السلطان عبد الحميد رمز الدين وبقية السؤدد الإسلامى، ولم تشغل أصحابنا الحرب العالمية الثانيه وقنابلها النووية وابتلاع فلسطين وتأسيس اسرائيل على أرضها لأن السلطان عبد الحميد أو غيره من سلاطين المسلمين لم يكن موجوداً آنذاك، وربما وجدوا صعوبة فى الإنفعال بهذه الأحداث لعدم وجود من يستحق المدح أو الرثاء لأن أفكارهم حول هذه المفاهيم الدولية، عادة ما عبروا عنها تحت مظلة المدح أو الرثاء.

١- باغى هندوستان : ص ٣٢٢ - ٣٢٤ .

وبين أيدينا قصيدتان طويلتان الأولى لفيض الحسن السهارنبورى (ت ١٣٠٤هـ) والثانية لذى الفقار على الديوبندى (ت ١٣٢٢ هـ) كلاهما يمدح السلطان العثمانى عبد الحميد ويتعرض لحربه مع روسيا .

يقول السهارنبورى :

مـــالى بذى الأرض من وال ولا واق ... ولا طبـــــــــيب ولا آس ولا راق
ولا حـــمـيم ولا جـــار ولا سكن ... ولا نديم ولا كـــأس ولا ســـاق
أبكى علىّ بكاء غـــيـــر منقطع ... فلينظر الناس أجـفـانى وآمـاقى
حـولى كـثـيـر من الأعـداء همـهم ... قـــتلى ومـــالى دون الله من واق
قـوم غـلاظ شداد شيط من دمهم ... شـراسـة وعـتـوا فى سـوء أخـلاق
جـفت نفـوسـهم قـست قلوبهم ... فـــــــلا تميل بشئ من تملاقى
إنى أخـاف على نفـسى تألبـهم ... على أشـفق منهم كل إشـفـاق
فـســوف آوى إلى جلد أخي ثقـة ... ذمر كمى إلى التـقـتـال مشتـاق
حامى الذمار حمى الأنف ذى أنف ... طلق اليـدين طويل البـاع سـواق
عـاد إلى قـتل قـتل غـيـر مكتـرث ... إذ تكشف الحرب للأبطال عن ساق
شـاكى السلاح إلى الرايات مبتـدراً ... صـدق المقـام إلى الغـايات سبـاق
عن آل عـثمان سامى الطرف مبتسم ... إلى الطعـان شـديد البـأس مشـتاق
قـوم إذا مـا غزوا فـازوا ببـغـيتـهم ... ولا يعــودون فى شىء باخــفـــاق
فـتـيـان صـدق أولو بأس ذوو كـرم ... لا يجلســـون لدى قـــوم باطراق
هينونَ لينون لا يرمـــون فى خلق ... بســـوءة وتراهم حـــسن أخـــلاق
بيض كـرام لهم مـجـد ومكرمـة ... غــراء يثنى عليـــهم كل مـــلاق
لا يرغـــبـــون إذا نالوا منالهم ... فى المال والخيل والأحـمـال والناق

إن سيم أصغرهم خسفاً ومظلمة　　يغضب إلى السيف فرداً غير مفتاق

لا يصبرون إلى ما لا يليق بهم　　وإن تمالى عليهم جمع فسّاق

يسقون عذباً فراتاً طاب مورده　　لا يشربون بغسلين وغسّاق

يوفون بالعهد إن يرموا بمنقصة　　فلا يخاف لديهم نقض ميثاق

لا يبخلون على من جاء يسألهم　　وما لأبوابهم عهد بإغلاق

جادوا بأموالهم جادوا بأنفسهم　　ولا يزالون في جود وإنفاق

نثني عليهم وما نثني وقد كبروا　　عن الثناء بتبليغ وإغراق

.... إلى آخر القصيدة (١)

يكرر ذو الفقار على الديوبندى نفس المعانى فى قصيدة من نفس البحر ليس فيها ن شئون الحرب كما فيها من المدح للسلطان عبد الحميد، يقول:

يا قاسى القلب يا من لج فى عذلى　　إليك عنى فانى عنك فى شغل

وكيف تعرف حال المستهام أيا　　من لم تصبه سهام الأعين النجل

نام الخليون فى خفض وفى دعة　　وقد أرقت بدمع سائل همل

قد صادنى عرضًا روسية غنيت　　بحسنها عن جمال الحلى والحلل

سفاكة وحياة العاشقين بها　　فتاكة وهى مع ذا مرهم العلل

هيفاء ضامرة لمساء غادرة　　بيضاء ساحرة بالغنج والكحل

كالشمس تبدو جهاراً غير خافية　　ولا تستتر بالأستار والكلل

رنت إلىّ بعينى جؤذر فغدا　　قلبى جريحاً بجرح غير مندمل

فيا بنى الأصفر التزوير شيمتكم　　تلقيكم خودكم فى الشر والغيل

١- ديوان الفيض : ص ٤٨ - ٥٠ ، ونزهة الخواطر : ٨ / ٣٦٧ - ٣٦٩ ، كراتشى ١٩٧٦ .

قـولوا لـهـا الآن إن شـئـتم فـلا حكم | أن صبّك المبتلى لا تهجرى وصلى
إن لم تتب من جفاها قد عزمت على | ان استغيث بسلطان الورى البطل
عـبد الحـمـيـد أمـان الخائفين مـبـيـ | ـد الظالمين سديد القـول والعـمل
كـهف الأنام مغيث المستضام له | إلى أقـاصى المعالى أقـرب السبل
العـادل البـاذل المرهوب سطوته | فى الجود كالبحر بل كالعارض الهطل
غوث الورى خادم الحرمين معتصم الـ | ـمكروب غيث الندى يهمى بلا مطل
شـهم همـام أمـيـر المؤمنين وسلـ | ـطان السلاطين نجل السادة الأول
رأس الكمـاة إمـام للغـزاة ومـقـ | ـدام الحـمـاة لدين أشرف الملل
غـشـمـشـم ندس قـرم أخى ثقـة | مـاضى العزيمة من خمر العلى ثمل
لله جـيـشـك أبطال النزال ومن | فى الكر كالليث فى التمكين كالجبل
أبناء حـرب قـتـال العلج بغيتهم | آسـاد حـرب لهم غـاب من الأسل
الخـائضـون غـمـار الموت من طرب | والقـادرون على الاقـيـال والبـسـل
قضوا حقوق المعالى بالسلاهب والـ | ـبيض القـواضب والعـتـالة الذبل
عـبد الكريم عظيم الجيش يقدمهم | ثبت الجنان قـوى القلب فى الجلل
النصـر يقـدمـه والفـتـح يخـدمـه | والله يحـمـيـه من زلل ومن خطل
يا آل عـثـمـان يا فـخـر الكرام ويا | خـيـر الأنام لأنتم منتـهى أملى

.... إلى آخر القصيدة (١)

ولعلك ترى فى وضوح تأثر الشاعر إلى حد كبير بالمتنبى حتى فى انتقاء الألفاظ وذلك لأنه كتب شرحاً باللغة الأردية لديوان المتنبى الذى كان جزءاً من مقررات الدرس فى المدارس الدينية فى شبه القارة.

- نزهة الخواطر : ٨/ ١٤١ - ١٤٣.

وحروب العثمانيين كانت هما لأنور الكشميرى (ت ١٣٥٢ هـ) فقال أيضا :

أو مـــاترى لما عـــدت عن طورها غـــدارة اليـــونان والبـــرطانى
حـــتى غـــدوا لا يؤمنون لربهم وتنصلوا من خلقـــة الإنســـان
فـــازداد شـــر فى البـــسيطه منهم مـــا كـــان يحكى منذ جنكيز خـــان
أو مـــا ترقـــرق عـــينهم أو قلبـــهم من رحـــمـــة الصـــبـــيـــان والنســوان
وأتـــوا بما لـم يلف فى سلف المدى ويضـــيق منه نطاق كل بيـــان
وهناك يبدو فـــرق من عـــبد الهـــوى ممن تجـــاه الرب فى إحـــســـان
اجـيـال كـفـر قـد عـدوا حتى رأت عـــينان مـــا لم تـــســـمع الآذان
فـاستـدرجـوا حتى تفـارط أمـرهم فى الغى والطغـيـان والعـدوان
حـــتى تدارك رحـــمـــة من ربنا من دوله الإســـلام من عـــثـــمـــان
المصطفى الغـــازى الكمـــال فـــهـــدهم صـــرعى وهلكى هل ترى من غـــان
من جـهـبـذ مـاضى العزيمة صـارم حـــامى الحـــقـــيـــقـــة فـــارع مـــزدان
وأشـــدهم بأســـاً على أعـــدائه وأســـــدُّ رأيـاً فـى نزال عـــوان
والـهـم هـمـة مـاجـد مـتـمنع كـــالجبن ســـيـــرةَ عـــاجـــز مـــتـــوان
والرأس يرجى فى المدى لملمـــة مـــا كـــان منهـــا للرعـــاء يدان
والسيف أشفى للصدور من العدى والعـــزم أمـــضى منه فى الميـــدان
وبليلة ظلمـــاء يفـــتـــقـــد الورى بدر الدجى لهـــداية الحـــيـــران
والجـــدب يشـكر غـــوره ونجـــاده ديم الندى للعـــارض الهـــتـــان
ولـربما دهـم الزمـــان بـأزمـــة ولهـــا انفـــراج فى مـــدى الابان
والملـك يـأتـى فـى بـنـى قـنـطـورة فـحـوى حـديث أخـرج الطبـرانى
وهم كـــمـــا فى نص تـوراة أتى
من ولد إبراهيم من مـــديان(١)

١- المنتخب من الشـعـر العربى نشرة قسم اللغة العربية بجامعة عليكره ، ص ٢٥١ -٢٥٢ ، الهند ، ١٩٩٠.

ويبدو أن انفراط عقد الخلافة العثمانية وتردى أوضاع المسلمين، وزوال سلطانهم وتقطع امبراطوريتهم وما حل بهم من ضعف أثار عاطفة بعض الأدباء فانفعلوا به ونظموه شعراً، فهذا هو العلامة وحيد الدين العالى الحيدرابادى (ت ١٣٤٤ هـ) ينظم ملحمة فى رثاء الأمة الإسلامية طولها مائة وسبعة عشر بيتاً على غرار مرثية الأندلس التى نظمها صالح بن رندى، ومن أسف أننا لم نعثر على مرثيته كاملة، و ما وصل إلينا منها غير ثلاثين بيتاً يقول فيها :

هل من سبيل إلى وصل الألى بانوا ... بينى وبينهم بيد وقيعان
أو للزمان رجوع ، بالوصال إذا ... كانت له كالرحى فى الدور أحيان
أو للدموع وقود وهى جارية ... تدمى شئون أراقتها وأجفان
أو عن هموم أقاسيها بحبهم ... لقلبى الهائم الولهان سلوان
أنى خمود، لنار فى الغرام بها ... ما فى الجوانح والأحشاء لهبان
من لى بشوقهم هاد يدل إلى ... أرض بها لىَّ أوطار ، وأوطان
أين السروب التى سارت بها ظعن ... لى إثرها كان إعوال ، وإرنان
بيض كواعب مذ شدت ركائبها ... قلبى إليهن مشتاق وحنان
إذا النسيم بأنفاس لهن سرت ... تفوح كالمسك أنقاء وكثبان
لم تخل دورهم لكن بها سكنت ... بعد الخرائب آرام وغزلان
لولا تذكر أيام لهن مضت ... وشوق ربع أقامت فيه جيران
لما ذكا تحت صدرى ما يحرقه ... ولم يذبَّ لى قلب وهو هيمان
أخشى زفيراً وإعوالاً ينازعنى ... ألا يبوح بسر الحب إعلان
عينى تفيض على صدر به حرق ... حباً لتجمع أمواه ، ونيران
وفتية عذلونى حين هيَّج لى ... نوح الطيور بكاء فيه أشجان
تقول مالك تبكى فى اشتياقهم ... لكل طير لها فى الأيك ألحان

فــقلت ويحكم مــهــلاً لأنى بى ... حــزن تــســعــره كــالنار أحــزان

لما مــضــوا طفــقت تعــفــو ديارهم ... كــأنهــا مــصــحــف تمحــوه أزمــان

حــتى غــدت بمرور الدهر طامــســة ... تزعــزعت ســقف منهــا وجــدران

فــقــد وقــفت بهــا ذا وحــشــة وأسى ... إذ أقــفــرت وبهــا أُدم ووحــشــان

قلبى به ألم ، كــالنار مــضطرم ... والدمع منســجم والجــفن مــلآن

أدور ألــثم تــربــاً فــى مــــحلهم ... كــأننى فــيــه ذو الأشــواق نشــوان

ياراكب الخيل قد طارت به عجلاً ... بلغ سلامى صحبى أينما كانوا

طول ادكــارى لهم ليلى يطول به ... وإن يكن منهم للصب نســيــان

مــالى أرى زمناً بالشــر يحــزننى ... وظل يلقف قــومى وهو ثعــبــان

أين الألى ادركوا بالسعى من رتب ... مــا لا يســامــتــه بدر ، وكــيــوان

أين الألى ملكوا شرقاً كما ملكوا ... غــرباً وسادوا الورى حتى لهم دانوا

أين الألى طلعت شــهب العلوم بهم ... حتى استنارت بها فى الأرض بلدان

أين الألى رتقوا فتق الورى وحموا ... ديناً به نســخت فى الناس أديان

أين الألى نور الأرجــا ســراجــهم ... وزال عنهــا بهم كــفــر وطغــيــان (١)

ومن القضايا التى شغلت كثيرا من الأدباء فى العالم الإسلامى فى القرن العشرين ومازالت تشغلهم أنشطة التبشير، والأدب العربى الحديث خاصة خلال النصف الأول من القرن العشرين فيه نماذج غير قليلة من قطع شعريه ونثرية عالجت هذه الظاهرة ، أو تحدثت عنها بشكل أو بآخر يم ولم يكن شبه القارة غير مسرح من المسارح التى شهدت أنشطة مكثفة للمبشرين المسيحيين إبان الاحتلال البريطانى وبعده فلا غرو أن تثير

١- المنتخب من الشعر العربى، نشرة يصدرها قسم اللغة العربية بجامعة عليكرة ، الهند ١٩٩٠ ص ٣٤٧ -٣٤٨ .

هذه الأنشطة مشاعر الأدباء يم يقول مولانا أصغر على روحى المتوفى سنة ١٩٥٤ م فى قصيدة له يخاطب فيها مبشرى النصارى :

أعباد المسيح لنا سؤال ... نريد جوابه ممن وعاه
إذا مات الإله بصنع قوم ... أماتوه فما هذا الإله
وهل أرضاه مانالوه منه ... فبشراهم إذا نالوا رضاه
وإن سخط الذى فعلوه فيه ... فقوتهم إذن أوهت قواه
وهل بقى الوجود بلا إله ... سميع يستجيب لمن دعاه
وهل خلت الطباق السبع لما ... ثوى تحت التراب وقد غلاه
وهل خلت العوالم من إله ... يدبرها وقد سمرت يداه
وكيف تخلت الأملاك عنه ... بنصرهم وقد سمعوا بكاه
وكيف أطاقت الخشبات حمل الـ ... إله الحق شد على قفاه
وكيف دنا الحديد إليه حتى ... يخالطه ويلحقه أذاه
وكيف تمكنت أيدى عداه ... وطالت حيث قد صفعوا قفاه
وهل عاد المسيح إلى حياة ... أم المحيى له رب سواه
ويا عجباً لقبر ضم رباً ... وأعجب منه بطن قد حواه
أقام هناك تسعاً من شهور ... لدى الظلمات من حيض غذاه
وشق الفرج مولوداً صغيراً ... ضعيفاً فاتحاً للثدى فاه
ويأكل ثم يشرب ثم يأتى ... بلازم ذاك هل هذا إله ؟
تعالى الله عن إفك النصارى ... سيسأل كلهم عما افتراه
أعباد الصليب لأى معنى ... يعظم أو يقبح من رماه
وهل تقضى العقول بغير كسر ... وإحراق له ولمن نعاه

إذا ركب الإله عليه كرهاً   وقد شدت لتسمير يداه
فذاك المركب الملعون حقاً   فدسه ، لا تبسه إذا تراه
يهان عليه رب الخلق طراً   وتعبده فإنك من عداه
فإن عظمته من أجل أن قد   حوى رب العباد وقد علاه
وقد فقد الصليب فإن رأينا   له شكلاً تذكرنا سناه
فهلا للقبور سجدت طراً   بضم القبر ربك فى حشاه
فيا عبد المسيح، أفق فهذا   بدايته وهذا منتهاه (١)

ولعلك ترى أن الشاعر لم يمس أنشطة التبشير فى ذاتها وما يكمن وراءها من مخططات ودعم وسلطات، فجاء شعره أشبه بمناقشة لعقائد النصارى وتفنيد لها، ونحن لا نتوقع، ولا ينبغى لنا أن نتوقع من شاعر أن يناقش هذه الأمور كما يناقشها رجل السياسة، إلا أن سطحية التناول واضحة بلا ريب.

ولقد كان تقسيم الهند وتأسيس باكستان أهم حدث فى القرن العشرين فى شبه القارة، ولابد أن هذه الحدث أسعد أناساً كما آلم آخرين، لكن الحدث نفسه لم يهز مشاعر من انفعل به كما هزها موت البطل المؤسس محمد على جناح فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٨وبعد تأسيس الدولة بعام كامل ولقد كان من الطبيعى أن تحرك قرائح الشعراء تلك المذابح التى وقعت ضد المسلمين أثناء التقسيم، وهجرة الهندوس إلى مناطق أكثريتهم فى الهند وترك المسلمين دورهم ومتاعهم فى الهند ورحلتهم إلى باكستان ليقيموا فى مخيمات ويبدأوا حياة جديدة ولقد كان من الطبيعى أن تثير نشوة النصر بتأسيس دولة للمسلمين نفوس الأدباء فيسجلوها لنا شعراً ونثراً، لكن هذا كله لم يحدث لأن الأدب العربى فى شبة القارة ليس أدباً طبيعياً يخاطب

١- مولانا أصغر على روحى، بحث مقدم من ذو الفقار على رانا لنيل الدكتوراه فى الأدب العربى من جامعة البنجاب ، ص٣٨٦ - ٣٨٧.

أهل مجتمعه كما ذكرنا من قبل، ومع هذا فقد وجدنا ذكر شئ من هذه الوقائع عند الدكتور صوفى محمد ضياء الحق المتوفى عام ١٩٨٩م وان كان هذا الأثر مذكوراً ضمن قصيدة فى رثاء مؤسس باكستان محمد على جناح رحمه الله، يقول الدكتور صوفى :

بعقوتنا غراب البين صاحا | أصاب الموت قائدنا الجناحا
إذ الناعى نعاه لنا صباحا | علا صوت الجميع بوا صباحا
رمى الحدثان قوم المسلمينا | فلم يجدوا من القدر البراحا
وما من مسلم فى الدهر إلا | عليه بقلبه بكّى وناحا
أخو ثقة وذو رأى سديد | غيور حازم حاز الرباحا
وفى صادق قولاً وفعلاً | فعرف وفائه كالمسك فاحا
طويل الباع ذو ظرف وسيع | رحيب صدره نال انشراحا
له تدبير ذى حنك حكيم | خبيرماهر طلب اقتراحا
ولوج فى صعوبات خروج | حوالى له العقبان لاحا
أهيل الهند لم يألوا فساداً | فسخرهم وإن كانوا سراحا
مسلمة سياسته لديهم | فإن الله أعطاه الكفاحا
تبصر فى أمور الملك حينا | وفكر فى المقاصد واستلاحا
فطالبهم على حدة نصيبا | من الملكوت كى نجد النجاحا
سعى لحصول باكستان سعياً | وكان له من الميثاق تاحا
وأعمل رأيه لحصول هذا | وصير عقله الصافى سلاحا
وحالت دون مقصده العزيز | عوائق كلها لكن أزاحا
برغم الأنف منهم صار ملكاً | وأخرج عن رؤوسهم المراحا
فما لم يخضع الأعداء قسراً | ولم ينل المقاصد ما استراحا

فلمـا أن تحـصل واسـتـقـرت قـواعـده فلم يلبث وراحـا
وسلمنـا إلـى المولـى الجليـل لعل الله يرزقنا الصـلاحـا
وخلف عبء تشـيـيـد المبـانى على أبنـاء ملتـه لقـاحـا
وحـملنا جـسـامـا من أمـور وقلدنا من الذمم الوشـاحـا
سـبـيل الحق والرشـدى هدانا فـبـان طريق منزلنا ولاحـا
بتـأسيس الحكومـة مسـتـقـلاً حصـون المجد للقـوم استـبـاحـا
فنرفع رأسنا شـرفـاً وعـزاً وباهى كلنا فـخـراً ومـاحـا
ونحن القـائمـون بما علينا بفـضل الله لا نخـشى وقـاحـا
ونـشـكـر ربنـا ذا الـطـول والمن على هذا غـدواً أو رواحـا
فـصـبـراً أهل باكـسـتـان صـبـراً فـأهل الصـبـر يؤتون الفـلاحـا
وربكم اسألوا الغـفـران وادعـوا تجـاوز عن جـرائمـه سـمـاحـا
مـؤرخ مـوته قـال ارتجـالاً «بدار الخلد قد على المراحاً» (١)

والشـاعر هنا سجل تاريخ وفاة جناح فى آخر مصرع من قصيدتـه بحساب الجمل وهو فن راج فى الشعر العربى والفارسى والأردى قبل حين ويأتى فيه الشاعر بجملة تكون أحرفها - ولكل حرف عدد رمزى - تاريخ المناسَبة التى يذكرها. والتكلف - كما ترى - ظاهر على القصيدة من أولها إلى آخرها.

وكـمـا انفـعل الدكتـور صـوفى بموت جناح، انفـعل أيضًا بالحديث عن الوحدة الإسلامية وهى حلم يراود أهل باكستان أكثر من أى شعب آخر، لكن هذ الانفعال مرة أخرى يصاغ فى شكل قصيدة مدح يستقبل بها الملك السعودى فيصل بن عبد العزيز فى مؤتمر القمه الإسلامى الذى عقد فى مدينـه لاهور عام ١٩٧٤، يقول فيها :

١- أمدنى بهذه القصيدة والتى بعدها تلميذه الدكتور خورشيد رضوى الذى لديه كثير من شعره فى أوراق متفرقة.

أيا ضيفنا أهلاً وسهلاً ومرحبا   عليك سلام الله ما هبت الصبا
ويا زائراً من أرض أكرم بلدة   لها الذكر ما أحلاه فينا وأطيبا
حدى بك من بعد هوى للقائنا   صنيعك هذا لم يكن مترقبا
لقد سرنا أن قد وطئت بلادنا   وقد هزنا والله هذا وأطربا
يقول الورى لله درك قادماً   سقينا به من رحمة الله صيبا
ونادى مناد بيننا بقدومه   فشوق منا سامعين ورغبا
فيا ساكنى لاهور بوهوا وأبشروا   على حالنا لا غرو أن نتعجبا
فما كان يأتى البحر عطشى ليشربوا   ولكن أتانا اليوم بحر لنشربا
فلا تستخفوا قدر يومكم ، ألا   يكون له ان شاء ربى غداً نبا
أيا فيصل الملك المعظم لم يكن   لكم نقض أيمان المودة مذهبا
أتانا العدو بغتة متأسدا   ولما رآكم ناصرين تثعلبا
وما كان ريح الوعد بالنصر قلبا   ولا برق ميثاق الصداقة خلبا
فصارت بلاد المسلمين جميعها   بجهدك جسماً واحداً متركبا
سعيت لتوثيق الروابط بينها   فصرت إلى كل القلوب محببا
فنظمتها بالحزم فى سلك وحدة   وصيرت فى عقد الوداد مرتبا
وأوسعتها فضلاً وأمنت خائفا   وواسيت مظلوماً وأخصبت مجدبا
بقيت بقاء الدهر يا ظل ربه   بنعمائه وفق المنى متقلبا
ولا فارقت منك السعاده دائماً   ولا فللت منك الحوادث مضربا
ولا زال دين الله يسمو ويرتقى   بآل سعود السعد شرقاً ومغربا
ويارب شتت شمل أعدائه ولا   تذر موطن الكفار إلا مخربا

وأنت ترى معى أن الشاعر نسى ما هو أهم من استقبال الضيف ومدحه من أحداث خلال المؤتمر الذى يعتبر معلماً من معالم التاريخ الحديث فى باكستان لما صاحبه من ظروف دولية وداخلية، وإن كان ثمة من دلالة فهى أن أدباء العربية فى شبه القارة لم يفردوا للأدب السياسى موضوعات مستقلة برأسها وإنما نظموا ما شاءوا من ذلك فى أنسجة قصائد المدح أو الرثاء فكان أدبهم فى أكثره يدور حول أقطاب الشخصيات لا القضايا والموضوعات، وربما كان ذلك من آثار ارتباط الأدب العربى فى هذه المنطقة بالوجهاء والأمراء والسلاطين كما سترى ذلك بوضوح فى فصول الكتاب القادمة.

ولم يستطع تلميذه الدكتور خورشيد رضوى رغم ما أوتى من سليقة شاعرة وقريحة متقدة أن يخرج عن الإطار التقليدى، فيتحدث عن موضوعات وقضايا بعد فصله لها عن المدح، خاصة إذا كانت قضايا ساخنة كمشكلة أفغانستان مثلاً، ويبدو أن هذه السمة أساس فى مدرسة الشعر العربى فى شبه القارة يحذو الأخلاف فيها حذو الأسلاف. يقول الدكتور خورشيد رضوى فى قصيدة له :

أاخوتنا الأفغان فيكم بسالة	وفى دار أهل الكفر منها زلازل
رددتم ببأس كيدهم فى نحورهم	ولم تخضعوا للخطب والخطب هائل
أقمتم بضرب السيف زيغ قلوبهم	وبالسيف ترتاض النفوس الموائل
يهابونكم رغم الهزال بدا بكم	وتخشى الكلاب الليث والليث ناحل
أباة كماة لا تفل سلاحكم	حوادث دهر خائن وغوائل
إذا مسكم جهد البلاء تناثرت	بقلبى أمان كالزهور ذوابل
وفيكم خصال للمديح كثيرة	وما عندنا إلا قواف قلائل
وتدعو لكم عن ظهر غيب مودة	شعوب تناجى ربها وقبائل
سيغمركم فى الحرب فوز ونصرة	فتعلونهم، لن يغلب الحق باطل[1]

١- مجلة أفغانستان الصادرة فى إسلام آباد، يوليو ١٩٨٦م، ص ٣٣.

ومن تأثر بعاصفة الصحراء وأزمة الكويت لم يخرج أيضاً عن المدح. فمحمد حسين اقبال نظم قصيدة طويلة فى هذه المناسبة جاء معظمها مدحاً فى الرئيس العراقى صدام حسين يقول مثلاً :

يا قلب صبراً فى مجالا بلاء ... لا تجزعن من كثرة اللأواء
دع دكراً «أقوام» فإن قلوبهم ... أبداً مع الأمراء والكبراء
عرجً على بغدادَ مهد حضارة ... والكربلاء «حديقة الزهراء»
ومساكن العبادة والزهاد والشـ ... هداء والعلماء والقراء
قف عند صدام مليا إنه ... أسد وحيد حامل الأعباء
زين الملا غيظ العدى لبقائه ... مرفوعة أيدى الورى بدعاً آد
سعطت على الإسلام شمس سعادة ... والمسلمين وهم كفقع عراء
صارت بصدام وجوه المسلميـ ... ن وضيئة كالبدر فى الظلماء
وعلت روءس المسلمين بسعيه ... من بعد ما عدوا من الضعفاء
وله بدت عليا عواطف غزة ... ومحبة بسرائر الحنفاء
محبوب شعب فى البلاد جميعها ... سيف شديد الوقع للأعداء
نعم الغتى أنسان عين زمانه ... فوق الغتى إن جاء وقت حماء
ردت به أسام يوسف مرة ... أخرى فعاد بعزة قعساء
اكرم بصدام يحافظ قومه ... أعظم به إن صار فى الشهداء
أن جاء بالنبأ العدى فتبينوا ... أنى لعمرك صادق الأنباء
ويلى على سكان نجد إنهم ... يدعون غير الله عند بلا

..... إلى آخر ما قال (١)

١- حديث النفس : ص ٦٣ - ٦٧.

ويبدو أن أفغانستان المجاورة تثير قرائح شعراء شبه القارة بما فيها من أحداث سياسية منذ قديم فنذير أحمد المتوفى سنة ١٣٣٠هـ يقول فى قدوم الأمير حبيب الله خان ملك أفغانستان قصيدة يصف فيها حال المسلمين، عثرنا على بعضها من أولها وفيه :

جمعت فيك التقى والملك والأدبا ... والله إنا نرى فى شأنك العجبا
ذكرتنا الخلفاء الراشيدين فدم ... عل يالهدى واتبع مناهجهم رغبا
إنا لفى زمن فى أهله خبل ... لا يحسنون اكتساب العلم والطلبا
لا سيما المسلمون الغافلون فهم ... يرجون أجراً ولا يقضون ما وجبا
الدهر ذو خول والمرئ مرتهن ... يجزى سواء بما ألفى وما كسبا
الله قدر فى الدنيا بحكمته ... لكل واقعة أو حادث سببا
الأمر والحكم أيام مداولة ... بين الخلآئق والدنيا لمن غلبا
الحرب ترفع أقواماً وتخفضهم ... وإن للناس فى تسليطهم نوبا
أما الحديد فقد زالت مهابته ... كن حامل السيف أو من تحمل الخشبا
لا يعصمنك من ضرب البنادق لا ... وإن تطبقت تحت الجوشن اليبا
فالعلم فى عصرنا اشتدت سواعده ... وعن أن لنا فى جُمعه أربا
وربنا الله لا تحصى مواهبه ... والعلم أكبر ما أعطى وما وهبا
بالعلم كرمنا والعقل فضلنا ... لولاهما للقينا الكد والنصبا
كل يريد علواً لا يليق به ... فإن فى العلم سراً كان محتجبا
المترفون هم الفساق أكثرهم ... يبذرون تلاد المال والنشبا
إن ينتهوا ينتهوا عن سوء فعلهم ... للعجز والضعف لا خوفاً ولا رهبا
أخلاف قوم علوا فى الأرض مرتبة ... وآمنوا بنبى شرف العربا
ضلوا طريق الهدى والدين قد نبذوا ... وراء هم فاستحقوا المقت والغضبا

لتهلك القوم حتى لا معاش لنا ... ولا كفافا إذا لم نأله دأبا
الجهل فقر وداء للا شفاء له ... ولانهاية إلا الموت والعطبا
بالقل والذل دنيانا مكدرة ... والدين فينا ينادى الويل والحرب[١]

والمعانى السياسية فى هذه القصيدة أيضاً أثارها المديح كما أسلفنا ، لكن القاعدة التى نشأ عليها الشعر السياسى العربى فى شبه القارة شذ عنها حميد الدين الفراهى الذى يمكن اعتباره الشاعر السياسى الوحيد فى هذا الأدب. فالفراهى المتوفى ١٣٤٩هـ، لم ينظم كثيراً من أغراض عصره كالمديح والرثاء والمواعظ، بل كان معظم شعره فى السياسة وقد جمع بدر الدين الإصلاحى قصائده العربية كلها فى ديوان خفيف وطبعه عام ١٩٦٧م، ولقد كانت أحوال السلطنة العثمانية فى أواخر عهدها ، والحرب بين ايطاليا وليبيا وصلح العثمانيين مع ايطاليا وثورة البلقان هموماً اسلامية أرقت شاعرنا فنظمها فى قصائد عديدة وربط كل هذه الاحداث بوضع العرب خاصة والمسلمين عامة. يقول :

كيف القرار وقد نكس ... اعلامنا بطرابلس
كيف القرار وحولنا ... الأعداء ترتقب الخلس
من كل ذئب إن رأى ... من عزة فينا اختلس
أو أفعوان مطرق ... إن لم نبادره نهس
نبكى على إخواننا ... بين القتيل ومن حبس
كم من تقى طاهر ... فيهم ونحرير دنس
نبكى لربات الخدو ... رشوقنبالماء السلس
جرت الحتوف على الألو ... ف من الزخوف ومن جلس

١- نزهة الخواطر ٧/ ٤٩٦ - ٤٩٧.

هم أهلنا وعشيرنا ... أفيألمون ولا نحس
يا أمة الإسلام يا ... أبناء آباء شمس
هل تنعسون وخصمكم ... عن كيده ما إن نعس
إلا تهبوا اليوم فال ... إسلام تعيس بل تعس
قد زلزلت أركانه ... حتى تقعقعت الأسس
فالخصم يجهد أن يرى ال ... إسلام فى بؤس يئس
هل لا ذكرتم ما أصاب ... ب المسلمين بأندلس
سلبوكم شطر البلا ... د وما لها من متلمس
أفكل يوم ينكص ال ... إسلام حتى يندرس
هل يذهب الحق النقـ ... ـى ويغلب الكذب الرجس
هل ترتضون بذل ديـ ... ـنكم وليس بملتبس
والله لا نرضى به ... ما دام فينا من نفس
فاليوم إن لم تدفعوا ... فليأتين يوم نحس
إنى أرى فتناً تمو ... ج وقد ظهرن لمن حدس
ناراً تأجج فى البلاد ... د وقدَ تلهبس الأطس
يبغون قسطنطينيـ ... ـة وبعدها أرض القدس
قد صيح فى حجراتها ... ولتسمعن لها الجرس
فلننضحن أو نقتلن ... عن قدسنا القوم النجس
فاحموا ذمار الملة ال ... بيضاء كالأسد الشكس
واستجمعوا عدداً فما ... تجرى السفين على اليبس
أعنى المراكب والمدا ... فع والكتائب والحرس
وتعلموا حيل الحرو ... ب لتغلبوا الخصم الشرس

فـــتـــأهبـــوا وتألبـــوا وتلبـــبـــوا لوغى ضـــرس

واســـتنصـــروا الله المهيـــمن في العـــشي وفي الغلس

ولينصـرن اللـه مـن

ينصره فليحتمـــس (١)

ويقول في قصيدة أخرى عن مظالم الاستعمار الإيطالي في ليبيا :

يا عين بكي بالهـــوامع لا ترقـــأن لك المدامع

قـــتلى طرابلس الذيـ ـن تطحطحت بهم القـــوارع

نبكي على إخـــواننا أهل المكارم والدســـائع

دهمـــتـــهم الروم الفـــوا تـــلك بالمراكب والمدافع

جـــاروا على حـــرد بجمـ ـعهم فضـاق بنا المفـــازع

دخلوا المدينة يقـــتلوا ن بهـــا المشـــائخ والرعـــارع

قـــتلوا المراضع في المضـــا جع والضـــوارع في الشـــوارع

وعلوا بطيـــاراتهم يتـــحـــسســـون لنا المواقع

صـــارت تحلق فـــوقنا مـــثل الغَـــوانيق الطوالع

يرمـــون منهـــا بالكريـ ـن تمج بالزبر القـــوارع

ليـــبـــددوا أفـــراسنا ويحـــرقـــوا منا الوشـــائع

لا ديـــن عـــنـــدهـــم ولا حلم عن العـــدوان وازع

يبـــدون نصـــرانيـــة زورا وقـــد رفـــضـــوا الشـــرائع

بل يشـــمـــئـــز الكفـــر مـ ـا يركـــبـــون من الشنائع

١- ديوان عبد الحميد الفراهي : ص ٨- ١٠، باكستان، ١٩٦٧.

البـــغى من أخـــلاقـــهم　　والغـدر سـيط من الطبـائعن العـرب

غـــروا بأن البـــعـــد بيـ　　ن العـــرب والأتـراك شـــاسع

وبـــأن بـــين قـــلـــوبـــنــا　　صـــدعـــاً من الأضـــغـــان واسع

يـا ضـلـة لـم يـعـلـمـــوا　　أن الخـــلافـــة خـــيـــر جـــامع

فـلـنبـــذلـن لـهـــا الـنفـــو　　س ودون حـــوزتـهـــا نـدافع

مـــا الـتـــرك لا مـــثـل كف　　الـبـــاسـل الـعـــادى الأشـــاجع

والعـرب مثل أصابع

لا كف إلا بالأ صابع (١)

ويعاتب الترك لمصالحتهم ايطاليا قائلاً :

يا ترك لا تبـغـوا الهـوينا　　لا تنعـمـوا الحـسـاد عـينا

أتـســـالمون الـظـالمـيـ　　ـن الغـــانمين لما حـــمـــينا

الـــنــاهـــبـــين بـــلادنـــا　　والـغـــاصـــبـين لنا حـــوينا

أتـســـالمون عـــدونا　　وتـركـــتـــمـــونا بـين بـيـنا

هـل لا ذكـــرتم يـوم ألـ　　ـقـــيـــتـم أمـــوركم إلـينا

كـنـتـم لـنـا الإخـــوان إذ　　فـي الديـن والـود اســـتـــوينا

فـنـفـــوسنا ونـفـــوسكم　　خلطت مـــعـــا لما الـتـــقـــينا

حـــتى تـخـــالـطنا كـــأمـ　　ـواج الخـلـيـج إذا جـــــريـنا

نحـمى الخـلافـة بالسـيـو　　ف البـــاترات إذا انتـــضـــينا

١- ديوان الفراهي : ص ١١، ١٢.

فريت حدائق مجدها   بدمائنا لما سقينا
تنبي عيون الكاشحيـ   ـن الحاسدين لما سعينا
أفبعد ذاك تخاذلو   ن وتذهبون فأين أينا
إن العدو هم هم   لو تبصرون كما رأينا
هل تأمنونهم فقد   غروكم زوراً ومينا
كالنصل يطرق ثم يقـ   ـطرنا به سماً وحينا
فلئن بد لكم مسا   لمة العدو لقد أبينا
لا سلم بالطليان حتـ   ـى يتركوا بلداً ثوينا
ننفيهم عن أرضنا   لا نرعوي عما قضينا
فالموت خير من حيا   ة تحتوي ذلاً وشينا
إنا لأحرار نعـ   ـد القتل للأحرار زينا
صبر إذا لج الوغى   لا نشتكي نصباً وأينا
مثل الجبال الشم نحـ   ـتقر السيول إذا أتينا
لا نرهب الطليان إن   يستكثروا فلقد كفينا
نلقاهم بهتشين نقـ   ـربهم كما كنا قرينا
بيضاً كشحم الكوم لم   تر فوقها صدءاً ورينا
حتى يقال لنا بحق   النازلين لقد وفينا
كم نابنا حرب الملو   ك فلم نمل ولا ونينا
لم يبسطوا الأيدي إلا   ما كسرنا أو لوينا
لم يرفعوا الأعناق إلا   ما قطعنا أو كوينا
حتى انثنوا طراً سوى   جمع قتلنا أو سبينا
لولا الحماسة والحما   ية قفر ليبا ما امتطينا

فــحــرورها وصــخــورها ... ـما ارتدينا واحــتــذينا

نصلى بنار الحــرب أجــسـ ... ـاداً صــهــرنا واســتــوينا

لا نبــتــغى الدنيــا وزهـ ... ـرتهــا فــبــالله اكــتــفــينا

لا هم فى تـرف فــأسـ ... ـباب الغــواية مــا ارتضــينا

فــالله نعــبــده وعــبـ ... ـاد الصليب فــقــد قلينا (١)

ويتألم الفراهى لما عاناه المسلمون من حروب فى البلقان فيقول :

شــبت على بلقــان نار الحــروب ... أشــعلنا بالبــغى أهل الصليب

لم تبق فى الآفــاق أرض بهــا الـ ... إســلام إلا نالهــا من لهــيب

قــد حــزب الشــيطان أحــزابه ... وحــشــهم لكل شــر وحــوب

شنوا على الإســلام غــاراتهم ... يذهل فيــهــا عن حبــيب حبــيب

يا كــرد يا تاتار يا كــابل ... يأكل من لله عــبــد منيب

فى مــشــرق الآفــاق أو مــغــرب ... أو فى شــمــال الأرض أو فى جنوب

يدعــوكم الإســلام جــهــراً إلى ... ذب العــدى عنه فهل من مــجــيب

قــومــوا لنصــر الحق فى فــوركم ... واستنفروا من كل مــرد وشــيب

مــســتنصــرين الله ينصــركم ... بنصــره الموعــود غــيــر الكذوب

كنتم سيــوف الله من وقــعــهــا ... فى الكفــر والأوثان تبــقى ندوب

فــالآن يا إخــوان مــا بالكم ... قــد مــسكم من الجــهــاد لغــوب

مــا بالكم لا تنفــرون وقــد ... حل على الإســلام يوم عــصــيب

يبلوكم الله ببــأس العــدى ... فــإن أمــر الله يبلو القلوب

إن تصــبــروا لله لا يخــزنكم ... فــإن الله علينا رقــيــب

يا قــومنا إن تصــبــروا يأتكم ... نصــر من الله وفــتح قــريب (٢)

١- ديوان عبد الحميد الفراهي : ص ١٣- ١٥.

٢- نفس المصدر : ص ١٨ - ١٩.

ويشمت الفراهى فيما وقع بأوربا من حروب عالمية وما فعل هتلر بهم وبروسيا ويدون ذلك فى قصيدة بعنوان الملحمة الكبرى يقول فيها :

لقـد حل بالروم شـر شـمـر	فنار الحـروب بهم تسـتـعـر
فـهم حـصب كـالهـشيم اليـبيـ	س يصلونهـا زمـراً فـزمـر
رحى الحـرب تطحنهم والدمـا	ء تدير الرحى مـثل جـرى النهـر
فكم ألف ألف وكم مـثلهـا	قـتـيل وكم مـثلهـا قـد أسـر
وكم ألف ألف وكم مـثلهـا	على مـورد مـاله من صـدر
وكم بلد عـامـر قـد خـوى	وكم هد من أطم مـشـمـخـر
فـيـبـابوس حـرب لروعـاتهـا	ترى كل مملكة تقـشـعـر
جنتـهـا أوربا ولكنهـا	إلى منتـهى الشـرق ترمى الشـرر
فـهـل سـمـعت أذن مـثل ذلـ	ـك أو خط فـى أوليـات الزبر
فـمـا هى من سنن جـاريا	ت ولكنهـا هى إحـدى الكبـر
فـإن الإله يجـازى العـبـاد	خـيـراً بخـيـر وشـراً بشـر
ولـكـنـه يمـهـل الـظـالمـيـ	ن يـبلوهم برهة من عـمـر
ببـؤسى ونعـمى لاكى يرعـووا	ويزجـرهم مـا أتت من نذر
فـإن لم يتـوبوا ولم يتـقـو	ه يبطشـهم بطشـة المقـتـدر
كـذا الروم لما طغـوا فى البـلاد	يعـيـشـون فى الأرض بحـراً وبر
أتـاج لهـم ربهـم نقـمـة	وكـانت فـضـاء وأمـراً قـدر
وكم نقـمـة تحتـهـا نعـمـة	فـقـوم يسـار وقـوم يسـر
فـأغـرى بنى أصـفـر الأقـويا	ء وللحـرب مـثل الكلاب العـقـر
ليلبـسـهم شـيـعـاً فـيـذيـ	ق بعـضـاً من البـعض بأسـاً نكر
فـصـار التنافس يحـشـوهم	من الحـقـد بين الضلوع الإبر
وكـانـوا دهـاة ولـكـن إذا	أتى قـدر الله أعـمى البـصـر

فبيناهم يجمعون الأدا ... ة ويخشون يوماً لهم مكفهر
تبادر غليوم من بينهم ... يجاهر بالحرب من غير سر
شديد المحال شديد النكا ... ل حديد الفؤاد حديد النظر
وألمان أمته حوله ... ونمسا حليف له مستمر
فقام يبارز عداءه ... فرنسا وروسيا وانكلترا
وكيف اثنتان بحرب الثلا ... ث ولكن ألمان قوم صبر
وقد جمعوا عدة مدة ... ولم يفش منهم لقوم خبر
فصاغوا مدافع لما يكن ... لها المثل فى قوة وكبر
وزفلين طيارة فى السما ... كالفلك مشحونة بالذخر
ويرمون أعداءهم بالدخا ... ن، يعمى ويرهقهم بالحذر
فجاء بهم كصبير الغمام ... م، أو مثل بحر إذا مازخر
وبلجيك سدت عليه الطريـ ... ق، إذ غرها الحلفاء الختر
بوعد الكذاب كلمع السراب ... وظل السحاب وريح تمر
وظنوا لها موئلا انطور ... ب، حصناً على كتائديه عسر
فأصبح يرمى على سورها ... قنابل، مثل جذوع الشجر
فدمرها وسبى أهلها ... وما كان إلا كلمح البصر
فبلجيك صارت كأن لم تكن ... كذاك الجزاء لقوم كفر
فقد علم الناس ما أنزلت ... على كانجو من عذاب وضر
ولما قضى النحب منا استمـ ... ـر غرباً فأضرم فيه السعر
فبينا يذيق فرنسا الهوا ... ن، أفزعه نبأ من أخر

فكر إلى الشرق فاستعجلت
كتائب روس تولى الدبر [(١)]

١- ديوان الفراهى : ص ٢٣ - ٢٦.

نحن أمام لون مغاير لما مضى لم يهتم فيه الشاعر بالمحسنات والبدائع بل عبر عن أفكاه تعبيراً مباشراً.

ولم يجد مدح ملك من الملوك أو جماعه من الناس فرصة لبيان فكره السياسى، وإنما عالج الموضوعات مباشرة بلا واسطة. ونحن أيضاً نشعر أننا أمام شاعر يحمل فى صدره هموم العالم الإسلامى، يتألم لليبيا اذا احتلت ويفرح للمسلمين إن أصابوا نصراً، ويشمت فى أوربا إذا اشتعلت بالحروب، هو شاعر الوحدة الإسلامية لا تكبل أحاسيسه الحدود الجغرافية ولا القيود النسلية. كأنى وأنا أطالع شعره وفكره أعيش مع شاعر ينتمى إلى إحدى الحركات الإسلامية المعروفة فى عالمنا اليوم وقد مر على رحيله أكثر من خمسة وستين عاماً لا غرو فقد كان مفسراً جيداً له بالشيخ رشيد رضا المصرى روابط، واستفاد منه أبو الأعلى المودودى، وقد انضم إلى حركة الخدام (خاكسار) وهى حركة إسلامية تدعو إلى الوحدة الإسلامية بين الشعوب والمذاهب كانت اتخذت من الكفاح المسلح وسيله فقضى عليها الانجليز. وقد عاصر الشاعر تأسيس حركة الإخوان المسلمين فى مصر واطلع على فكرها حتى ساوى بعض الكتاب بينه وبين الشيخ حين البنا فلا نخطئ إذا اعتبرنا حميد الدين الفراهى أو عبد الحميد الفراهى - وكان يدعى بالاسمين- إمام الأدب السياسى العربى فى شبه القارة.

الباب الأول

النثـــــر

سمات النثر العربى
فى شبه القارة

هذه السمات دقيقة ترسم صورة للنثر العربى فى شبه القارة أقرب إلى النثر العربى فى دياره زمن الانحطاط، ولعل تنوع موضوعات النثر العربى فى شبه القارة - على عكس الشعر - هو ما ساعد فى استيضاح هذه السمات. فقد كتب أدباء العربية فى الهند فى النحو والبلاغة وعلوم اللغة والمقامات والطرائف والرسائل والانشاء والمعاجم والعروض وغيرذلك فبرزت لنا قسمات وجه النثر بشكل أوضح.

يقول الدكتور أحمد حسن الزيات عن خصائص النثر العربى فى زمن الانحطاط : «فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله سرى الضعف إلى الكتابة فجهل أربابها الغرض منها، ومالوا إلى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع وأوغلوا فى ذلك حتى سمجت مبانيهم، وفسدت معانيهم، فكانت مموهة الظاهر، مشوهة الباطن كسيف من الخشب فى غمد من الذهب، وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود، بل خرجوا به إلى تصنيف الأدب وتدوين العلوم». (١)

وكأنى بأدباء العربية فى شبه القارة حاولوا تقليد أدباء العرب فقلدوهم فى عصر تدنى أسلوبهم بل لم يجيدوا هذا التقليد فجاء نثرهم حاملا فى بطنه أجنة مشوهة غير كاملة زاد فى قبحها عدم اتقان التقليد.

١- تاريخ الأدب العربى، ص ١٢٥، دار الكتب الإسلامية، لاهور، بدون تاريخ.

فقد حاول كتاب شبه القارة تقليد أساليب آخر طبقات كتاب النثر العربى كالقاضى الفاضل أبى على العسقلانى (٥٢٩ - ٥٩٦ هـ) وابن العميد فالتزموا قيود هذه الطبقة فى النثر من سجع وجناس وتضمين للشعر فى داخل النثر وتوخى البديع، مع الإغراق فى كل هذا حتى تحولت الكتابه إلى صنعة متكلفة، تغيب المعانى فى تزويق عباراتها . يقول فضل الحق الخير آبادى وهو يتحدث عن أزمته السياسية مع الحكومة الانجليزية التى سجنته ونفته :

« . . . . فتسلط النصارى على الملك كله بلا مزاحم، واستراحوا من المعارك والملاحم، والوالية بعد هذا الخبال والوبال أوت مع قليل من الرجال إلى قلل الجبال، واذ كنت قد طال اغترابى، واكتيابى واضطرابى، واشتد ارتغابى فى إيابى إلى دارى وأهلى وجيرتى واحبابى ورأيت موثق الإيمان موثقا بالأيمان، رجعت إلى اهلى ووطنى، و دارى وسكنى، مطمئنا بموثق الايمان، غافلا عن أنه لا أيمان لمن ليس له ايمان، وأنه يمين بعد اليمين من لايتدين بدين ولا يخاف يوم الدين. فبعد أيام دعانى من معانى عامل نصرانى، فحبسنى وعفانى وجزننى وعنانى ثم أرسلنى مأسورا إلى قاعدة الملك التى صارت دار الهلك . . . . . » (١)

ويقول محمد عباس التسترى :

«فلا يخفاك أيها الودود الصادق والخل الموافق والرفيق الوثيق والحبيب الشفق أنه قد تكاثر فى بلادنا المحن والفتن وتعاقب على القلوب الشجن والحزن، وحلت بنا المصائب والنوازل من تتابع الأخاويف والزلازل، والأهوجة الحمواء والصفراد والأمراض والأوباء ونزول كل بليجة فقماء تضيق بها ساحة الغبراء والخضراء، وابتلينا بالامـلاق، والقتور فى الأرزاق، فالتفت الساق بالساق، وظن أنه الفراق :

١- باغى هندوستان ، عبد الشاهد خان شروانى، ص ٢٨٨.

وريح عـاصف هبت فـتـبت ... بهـا أيد الكنهـبل والبـشـام
ترى أعـجـاز نحل سـاقطات ... كـهـمـز الوصل فى درج الكلام
وشمـا شامـخـات راسـيـات ... قـد انزعـجت كـأطراف الثمـام
ويومـا قـائظ فـيـه سـمـوم ... تفـوق على جـهنم فى الضـرام ..
فـبـينا إذ أتى زمن شـهى ... فـأحيى الأرض من بعد الحمام ..
كـأن المزن يوئذ مـراض ... بهـا داء النوازل والزكـام [1]

ويقول آزاد البلكرامى :

«وأنا قصدت أن أنقل القسم الأخير عن الهندية إلى العربية، فرأيت بعضها لا يقبل النقل لخصوصيته بلسان الهند وبعضها يقبل النقل فنقلت عنها نبذه وجدتها فائقة، وألحقت بفن الأدب جملة رائقة وأرجو من العرب العرباء أن يستحسنوا مخترعات الأهاند، كما استحسنوا الأسياف الهندية بين الفراند، ولما شمرت ذيل الجهد فى هذه الميادين وعمدت على استخراج الأمثلة عن المجاميع والدواوين، سخت لى نبذة من الأنواع، وظفرت بأقراط ثمينة للأسماع . . . » [2]

وكأن هؤلاء فهموا جودة الأسلوب على أنها الصنعة وحدها فتكلفوا فيها وأغرقوا يها أساليبهم، ولوكان الموضوع لا يقتضيها. ففضل الحق الخير آبادى ثائر ضد الانجليز، يراه المسلمون فى الهند بطلا قوميا، لكنه وهو يتحدث عن مأساته فى منفاه لم يعط الفكر السياسى حقه من الشرح والتوضيح بقدر ما نحت الألفاظ نحتا ليحافظ على السجع . كما أن التسترى وهو يصف الكوراث الطبيعيه التى حلت ببلاده، أعطى النص حقه من التقفية دون أن ينقل عبر ألفاظه صورة حية لهذه الكوارث وما تفعله بالناس، ولما أراد أن يضمن نثره شعرا من قوله لم يحافظ على الوصف بل حافظ على

١- ظل ممدود، ص : ٢- ٣، الهند، ١٢٨٨هـ.
٢- سبحة المرجان فى آثار هندوستان، ٢ : ٣٨ - ٣٩.

الصنعة من أجل الصنعة وإن خالفت المقام، فهطول المطر بعد حركحر جهنم، وفى أعقاب عاصفة تدمر كل شيئ يحمل معه رساله خير بارتفاع البلاء وانتهاء العاصفه ولطف الجولكن صاحبنا يصور نزول المطر صورة تبعث فى النفس الاشمئزاز لأنه ربطها بمرض الزكام ووصف السحب يومئذ بأنها مريضة بالنزلة، فجاءت الصورة فى غير محلها تشبه قطرات المطر برشحات الأنف المريض وما ذلك الا لأن الصنعة هى شاغله ولو على حساب النص. هذه هى السمة الأولى من سمات النثر العربى فى شبه القارة.

والثانية : أن سمات هذا النثر لا يمكن إخضاعها لإدوار وحقب كما ذكرنا فى خصائص الأدب العامة، بل لا نستطيع تمييز أسلوب كاتب واحد عن غيره فى الغالب لعدم التزامه بأسلوب معين فى كتبه ومصنفاتة وما استطعنا التوصل اليه فى هذا السبيل أن الموضوع نفسه هو الذى فرض الاسلوب على كاتبه فؤاد صديق حسن - على كثرة مصنفاته - لم يلتزم بأسلوب بعينه وإنما تغير نمط كتابته وفق موضوع الكتاب خذ لذلك مثلا قوله فى كتابه البلغة فى أصول اللغة :

« أجمع أهل اللغة - الا من شذ منهم أن للغة العرب قياسا ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان وان ألجيم والنون تدلان على الستر وان الإنس من الظهور وعلى هذا سائر كلام العرب، علم ذلك من علم وجهله من جهل ، ونكته الباب أن اللغة لاتؤخذ قياسا نقيسه الان نحن . . . » (١)

لكنه يقول فى كتابه نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان وهو كتاب فى العشق وانواع النساء :

« فصل فى مدح العشق . . . فكم مدحه عاقل وذمه متعاقل، هيهات فات من ذمه المطلوب، ومن أين للوجه المليح ذنوب ؟ قال قدامه : العشق فضيلة تنتج الحيلة الجميلة، عزيز يذل له عز الملوك وتضرع له صولة البطل، وأول باب تفتق به الأذهان وتستخرج به دقائق الافتنان، إليه تستريح الهمم، وتسكن نوافر الشيم، له سرور يجول فى الجنان

١- ص ٨ ، طبع القسطنطينية ١٢٩٦ هـ .

وفرح يسكن فى قلب الإنسان. قيل لبعض العلماء : إن ابنك عشق فقال : الحمد لله، الآن رقت حواشيه، ولطفت معانيه، وملحت اشاراته. وظرفت حركاته. وحسنت عباراته وجادت رسائله وجلت شمائله، فواظب على المليح واجتنب القبيح ....» (١)

بل يتغير أسلوب الناثر فى الكتاب الواحد عدة مرات فلا تقف له على معالم تحدد لك شكلا معينا يميزه عن غيره من الكتاب والأدباء.

والثالثة : أن الحواشي والشروح التى كتبت تعليقا على كتب عربية شذت عن النثر المسجوع فى جله فى أدبنا فى شبه القارة، سواء كانت هذه الشروح لكتب منثورة كحاشية السيالكوتى على المطول، أم لدواوين شعر أو قصائد كشرح السهارنيورى لديوان الحماسة، أو عبد الرحيم الصفى بورى لألفية ابن مالك.

يقول السيالكوتى :

«قوله أى كل ما وقع عليه قصد المتكلم» إن أريد بالمقصود مقصود المتكلم فالاستغراق حقيقى، وإن أجرى على إطلاقه فهو عرفى، إذا المتبادر من التعبير عن كل مقصود كل مقصود للمعبر كما فى : جمع الأمير الصاغة، وليس المراد بوقع الوقوع فى الزمان الماضى بل وقوع القصد فى أى زمان كان» (٢)

ويقول عبد الرحيم الصفى بورى :

«السادس من النواسخ ظن وأخواتها » وهى أفعال تدخل على المبتدأ والخبر بعد استيفائها الفاعل فتنصبهما مفعولين لها وهى نوعان أفعال قلوب وهى ما ذل على يقين أو ظن أو عليهما، وأفعال تحويل وهى ما دل على تحويل المبتدأ إلى خبر، وبدأ بالأول فقال : انصب بفعل القلب جزأى ابتدا » (٣)

١- ص ٩ ، طبع الهند ١٢٩٤ هـ .

٢- حشية السيالكوتي على المطول . ص ٤٥ ، ايران ، بدون تاريخ.

٣- أوضح المسالك شرح ألفية ابن مالك، عبد الرحيم بن عبد الكريم الصفى بورى ، ص ١٥٥، الهند ١٢٤٨ هـ

والسمة الرابعة : أن النثر العربي في شبه القارة خلا من القصص رغم ثراء بيئته بالحكايات والقصص فارسية وهندية وذلك في اعتقادنا من آثار ارتباطه بالدراسات الاسلامية وموضوعاتها كما أن الأدباء لم يتخذوا اللغة العربية وسيلة للتعبير عما في خيالهم كبشر. وانما استخدموها لخدمة اغراض محددة فرضت ف عبر مناهج المدارس الدينيه كما أسلفنا. نعم ورد ذكر عابر لبعض القصص مثل تحفة المجاهدين والفتح المبين وقصة الملك شكروتي وجميعها عن فتح ساحل مالبار [1] وقد عثرت أثناء تنقيبي عن بعض الكتب على الأولى والثانية وبعد فحصهما ثبت أن الأولى من تأليف زين الدين بن عبد العزيز المليباري وهي تأريخ لدخول الاسلام إلى مالابار والثانية منظومه عن نفس الموضوع أنشأها محمد بن عبد العزيز الكليكوتي، فجعلنا الأولى في فصل التاريخ والثانية في فصل القصص المنظومة وكلاهما يؤكد لك أن فن التاريخ وفن القصص أيضاً قد دار حول الدين لارتباط الأدب في منطقتنا بالمدارس الدينية.

والسمة الخامسة : أن كتاب النثر في شبه القارة نظراً لعدم اختلاطهم بالعرب صعب عليهم تحديد جنس بعض الأعلام خاصة أسماء البلدان، فألطاف حسين حالي يقول في رسالة له : «وأيضا قد سمعت من بعض ثقات الهند الذين لاقوهم في البيروت أن تلك السلسلة يمكن وصولها إلينا» [2] وأبو بكر بن محسن باعبود يقول في مقاماته : «روى الناصر بن فتاح قال أجدب الهند سنة من السنين حتى باع الناس البنات والبنين . . .» [3]. ويقول صديق حسن في غصن البان : «ولما لم يكن حسن في نثر سنسكريت ولا في نثر الألسنة الأخرى التي دارت في ديار الهند .... » [4] كما يكتب حالي [5] كلمة السير وهي اللقب الانجليزي المعروف «سر» كما يكتب في

١- The Contribution of Indo -Pakistan to Arabic literature , Zubaid Ahmed, Pakistan , 1967 , P 232.

٢- ضميمه، اردو كليات نظم حالي، محمد يعقوب مجددي ، ص ١٥٤١.

٣- مقامات الهندي ، ص ٩ ، الهند ١٢٩٢ هـ .

٤- ص ٥.

٥- ضميمه، اردو كليات نظم، ص ١٤٣ .

الأردية، وآزاد البلكرامى يكتب ايران معرفة [1] وهذا كله لأنهم ما خالطوا العرب وما مارسوا استخداماتهم للأعلام.

والسمة السادسة : من سمات هذا النثر ان الرسائل والخطب - باستثناء بعض رسائل حالى - التزموا فيها السجع إلى حد التكلف، ففى إحدى رسائله يقول عباس التسترى :

«... أما بعد فقد وصل إلينا صحيفة وصفيحة حبور ورق منشور ودر منثور كأنها نجمة نور أو شمعة طور أو زجاجه بلور أو نفخة كافور أو نفخة طور، لا أدرى أهى كتاب مسطور فيه منظوم ومنثور، خبر مأثور ومثل مشهور أم بيت معمور أم خدور فى سطور دونها وجنات حور، واسعة النطاق بالغة الاشراق غالية الصداق مكللة الشعور بالشذور، ساطعة الجمال عادمة المثال ساحبة الأذيال فى أرجاء القصور قد لفها إلينا الحبر الغطريف الكريم الشريف العالم العريف الفاضل النحرير المولى القمقام مجتهد الأنام .. جناب الشيخ محمد حسن...» [2].

والسمة السابعة : أن أمثله النثر الراقى الرائق لم نجدها إلا عند من عاشوا بين العرب وأقاموا فترة فى ديارهم، فشذب القيام أقلامهم وهذب أساليبهم حتى صارت عربية خالصة من كل عجمة، كما عند الصغانى والزبيدى.

يقول رضى الدين الصغانى :

نفق بضاعتى من العلم بعد ان كانت كاسدة واصلح بحسن نظره لى طويه الدهر وكنت أعهدها فاسدة، وشرفنى بمطالعة مصنفاتى وارتضاء مؤلفاتى، ولقد أسفت على كل ساعة قضيتها فى غير ظله، وكلمة عرضتها على غير فضله، وودت أن تلك الساعة لم تسعنى، وعلمت أن تلك الكلمة كانت تقول دعنى، ولمنافستى فى هذا الشرف أن ينقرض فيه ذكرى بعد انقضاء عمرى، لم أزل أفكر فيما يخلد لى مزية الانتماء إلى

١- سبحة المرجان : ١ / ٦٨ .

٢- ظل ممدود ، ص ١٤ .

مكرم جنابه، ويجعل لوجودى خلفاً يقوم فى الخدمة بإحسان منابه إلى ان أوعز إلى - أنفذ الله فى الآفاق عالى أمره وعضده الإسلام وأهله بإفاضة البركة على عمره - بأن أؤلف كتاباً فى لغة العرب». (١)

ويقول السيد مرتضى الزبيدى (ت ١٣٠٥ هـ) «... نقل السيوطى فى المزهر عن أبى الفتح بن برهان فى كتاب الوصول إلى الأصول : اختلف العلماء فى اللغة هل تثبت توقيفاً أو اصطلاحاً، فذهبت المعتزلة إلى أن اللغات بأسرها تثبت اصطلاحاً، وذهبت طائفة إلى أنها تثبت توقيفاً وزعم الأستاذ أبو اسحاق الإسفراينى أن القدر الذى يدعو به الإنسان غيره إلى التواضع يثبت توقيفاً وما عدا ذلك يجوز أن يثبت بكل واحد من الطريقين وقال القاضى أبو بكر لا يجوز أن يثبت توقيفاً ويجوز أن يثبت اصطلاحاً ويجوز أن يثبت بعضه توقيفاً وبعضه اصطلاحاً، والكل ممكن». (٢)

ومن هذه الطائفة فى العصر الحديث الأستاذ الكبير الأديب الأصيل عبد العزيز الميمنى المتوفى سنة ١٩٧٨، فقد كان نابغة شبه القارة فى الأدب، وانتخب عضواً بمجمعى اللغة العربية فى سوريا ومصر وكانت تربطه برجالات الأدب فيهما وشائج قوية، وأتيح له من الفرص ما لم يتح لغيره ومع هذا فلا شك فى موهبته وعلمه ومطالعته، يشهد له بذلك أعماله العظيمة التى تركها لنا تحقيقاً وتأليفاً.

يقول الميمنى فى كتابه «أبو العلاء وما إليه» ولعله أحسن كتاب عن أبى العلاء إذ دافع فيه عنه، وأنصفه، وبين ما أخطأ به المحققون والباحثون قديماً وحديثاً فى حقه :

وأما الفصول فليس من معارضة القرآن أومناقضته فى قبيل ولا دبير. وترجمته فى الثبت عند ياقوت والذهبى كتاب الفصول والغايات فقط وكذا عند ناصر خسرو وأما زيادة «فى مخاذاة السور والآيات» فالظاهر من كلام المتقدمين ولا أستثنى أحداً أنها ليست من ترجمة الكتاب فلفظ ناصر خسرو وقد ذكره : حتى أنهم اتهموه بأنك عملته

١- العباب الزاخر . ١ : ١٠ - ١١ ، العراق ١٩٧٨ .

٢- تاج العروس ١ : ١٢ ، الكويت ١٩٦٥ م .

معارضه للقران ا.هـ. ولفظ الدمية زعموا أنه عارض به القرآن. ا. هـ. ولفظ خليفة: الفصول والغايات في معارضة السور والآيات على ما ذكره ابن الجوزى لأبى العلاء الخ وليعلم أن خليفة لم يذكر شيئاً من تأليف صاحبنا بحوالة ابن الجوزى بل الظاهر أخذه إياها عن معجم الأدباء فظاهر أن معنى كلامه هنا ان كون الفصول فى المعارضة على رأى ابن الجوزى ومعلوم أن المعتبر نية العامل لا نية ابن الجوزى والمحاذاة ليست من المعارضة فى شئ كما مر لنا إثباته فى الثبت فانظره. على أن الرجل معترف بإعجاز القرآن بعد تأليف الفصول اعترافاً ليس وراءه غاية ترام كما مر. وقد رأينا منه فصولاً فلم نجد إلا عظة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولعمرى إنا لفى أشد حاجه إلى من ينتقد علينا أعمالنا، ويدلنا طريق رشدنا، وأما هؤلاء المطرون من المداحين فيضروننا من حيث يريدون أن ينفعونا، فقد طمت فى جميع طوائفنا الآفات، وفشت فيهم السوآت وشكت الأرض إلى السماء ما تحمله من البلاء والعناء وقد وصل بى الكلام وله شجون وفنون بحيث أوقفنى موقف ذاب عنه متعصب له وأيم الله إنى لم أقل إلا حقاً ولم أنطق إلا صدقاً. (١)

فأسلوب هذه الطائفة - كما ترى - يختلف عن أساليب غيرها مما يدلك على أن مخالطة أبناء اللغة تصقل الموهبة، وتشذب ما فيها من زوائد وتكمل ما بها من نقائص.

هذه سمات النثر فى شبه القارة، وهى ملامح عريضة إذا ضممت إليها ما بفنون النثر من قسمات دقيقة - وهو ما ستراه على صفحات الفصول القادمة - بدت لك صورة هذا النثر واضحة جلية.وما فنون النثر التى سنذكرها الا أغراضه التى صنف الأدباء فيها.

١- أبوالعلاء وما اليه، ص ٢٩٧ - ٢٩٨، القاهرة ١٣٤٤ هـ.

الفصل الأول

النحــو والصــرف

مصنفات أدباء العربية في شبه القارة في النحو والصرف جمة ضخمة لأن هذين العلمين أساسيان لمن أراد تعلم العربية وقد كثرت في إنتاج أدباء شبه القارة فيهما الشروح والحواشي والتعليقات وهو أمر طبيعي، إذ كان لهم أن يؤلفوا من جديد في أمور تقررت من قبل واستقرت. وذهب بعض الباحثين إلى أن أول كتاب في النحو في شبه القارة هو تعليق الفرائد لمحمد بن أبي بكر بن عمر الدماميني الذي مر ذكره في الفصل الأول من هذا الكتاب [1] إلا أن هناك من قد سبقه في هذا المجال كالشيخ يوسف بن الجمال الملتاني الذي ألف شرح لب اللباب، فالأول ألف كتابه بعد ٨٢٠ هـ وهو عام وصوله الهند من مصر والثاني صنف كتابه قبل وفاته في ٧٩٠ هـ وقد أخرجنا الدماميني كما تعلم من بحثنا لأسباب ذكرناها في محلها.

ومن مؤلفات أدباء شبه القارة أيضا في هذا المجال : الإرشاد للقاضي شهاب الدين أحمد بن عمر الدولت آبادي وشرحه للخطيب الكاذروني، كما أن للقاضي شهاب الدين أيضاً شرحاً على كافية ابن الحاجب ويعرف هذا الشرح بشرح الهندي وقد كتبت عليه حواشي كثيرة للتوقاني والكاذروني وغياث الدين الشيرازي وعلاءالدين الجونبوري وعبد الملك الجونيوري والشيخ الهداد، وهناك أيضاً شرح الكافية المسمى بغاية التحقيق لصفي الدين الردولي، وشرحها للشيخ الهداد الجونبوري، وشرحها لسعد الدين الخير

١- The contrihution of Indo - Pak .... PP 195.

آبادي وشرحها لشاهي بيك وشرحها المسمى بجامع الغموض ومنبع الفيوض للقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمدنكري، وحاشية على شرح الكافية للقاضي شهاب الدين كتبها الشيخ الهداد وحاشية على شرح الكافية للجامي صنفها وجيه الدين العلوي الكجراتي، وحاشية عليه من مبحث الحال إلى المجرورات للشيخ عبد النبي الشطاري، وحاشية لنور الدين بن صالح الكجراتي وحاشية عليه لعصمة الله بن الأعظم السهارنبوري، وحاشية عليه لعيسى بن القاسم البرهانبوري وحاشية لشوكت على السنديبوري، وحاشية لمحمد سعيد العظيم آبادي وحاشية لجمال الدين الكجراتي وأخرى للمفتي جمال الدين بن نصير الدين الدهلوي، وشرح إرشاد القاضي شهاب الدين لوجيه الدين العلوي وشرح الإرشاد لأبي الخير بن المبارك الناكوري وشرح آخر لمنور بن عبد المجيد اللاهوري.

ومن تصانيفهم في النحو أيضاً شرح المصباح لسعد الدين الخيرآبادي وحواشي على المنهل الصافي لنور الدين بن صالح الكجراتي والشيخ جمال الدين وشرح الوافي لأبي البركات بن المبارك، ومن كتبهم كذلك المعارف لحسين محمد بن يوسف الدهلوي والتكميل لأبي الفتح الكالبوي والأشرفية لسيد أشرف بن ابراهيم السمناني وكتاب المقصد لتاج الدين محمود الدهلوي، وهداية النحو لسراج الدين بن عثمان الأودي وخلاصة النحو للشيخ محمد رشيد العثماني الجونبوري والكافي لمحمد حسين البجابوري ونادر البيان للسيد أحمد بن مسعود الهركامي، ووسيط النحو لتراب على الخيرآبادي، وتوضيح المرام في تحقيق الجملة والكلام للشيخ إلهي بخش الفيض آبادي، وخلاصة المسائل للسيد حفاظت حسين وزبده النحو لمحمد حسين وعين الإفادة في كشف الإضافة للسيد عبد الله بن آل أحمد البلكرامي وشمس النحو لشمس الدين الحيدرآبادي وعين الهدى شرح قطر الندى لعلم الدين القنوجي والعباب للسيد محمد تقي بن الحسين اللكنوي والباكورة الشهية في شرح الألفية لظفر الدين اللاهوري ورقية النحاة لعلى عباس الشرياكوتي، وله أيضاً حل الكافية والإيجاد في الإرشاد، ومنها أيضاً إرشاد اللبيب في شرح تهذيب النحو لعلى محمد اللكنوي وتلخيض النحو لابراهيم بن عبد العلي الأوري، والمقرب في النحو لمحمد بن يوسف السورتي وكاشف

الظلام للمفتى سعد الله المراد آبادى وخير الكلام فى تصحيح كلام الملوك وملوك الكلام لعبد الحى بن عبد الحكيم اللكنوى ومشكاة التصاريف للشيخ سعدى البهارى وغيرها كثير. (١)

وأما مؤلفاتهم فى الصرف فمنها ميزان الصرف لوجيه الدين عثمان بن الحسين وهو كتاب متداول كتبت له شروح كثيرة ومنها المنشعب فى الصرف الكبير للشيخ حمزة البدايونى وهو أيضاً كتاب مشهور تناوله العلماء بالشرح والتعليق ومنها أصول الأكبرى للشيخ على أكبر الإله آبادى وله أيضاً شروح عديده ومنها أساس العلوم ليعقوب أبى يوسف البيانى، ومنها نقود الصرف للمفتى ولى الله بن أحمد الفرخ آبادى وهداية الصرف لعبد العلى السهالوى، والفصول الرضوية للشيخ على جعفر الإله آبادى وشفاء الشافية وهو شرح لشافية ابن الحاجب للشيخ عبد الباسط القنوجى، والصافية شرح الشافية لصديق حسن القنوجى والصافية شرح الشافية للشيخ محمد عليم الإله آبادى، وكفايه المفرطين شرح الشافيه لمحمد بن طاهر البتنى وشرحها للمولوى ظهور الله اللكنوى ومنها أيضاً ما يغنيك فى الصرف للحافظ نذير أحمد الدهلوى وفيض الصرف للسيد حفاظت حسين وكتاب الصرف للحافظ عبد الرحمن الأمرتسرى وشمس التصريف لشمس الدين الحيدرآبادى وتمرين المتعلمين فى الصيغ المشكلة للشيخ حسين على القنوجى ودستور المنتهى لملا عياض الرامبورى وخلاصة الصرف وأبحاث الصرف كلاهما لعلى عباس الشرياكوتى ومعيار الصرف لوكيل أحمد السكندريورى ومرتقى الصبيان فى مخارج الميزان للسيد محمد سعيد الرضوى الحيدرآبادى وأوراق الصرف لمحمد سعيد الأسلمى المدارسى وبناء الصرف لعباس عليخان وتشحيذ الأذهان فى معرفة الأبواب والأوزان لمحمد سعيد الرضوى ودروس الموازين للسيد عباس حسين وابتداء الصرف للسيد أولاد احمد السهسوانى وإمداد الأدب لإمداد على الأكبرآبادى وخلاصة الصرف لأصفر حسين الفرخ آبادى ومفتاح الأدب لعبيد الله الميدنى بورى وكثير غير هذا. (٢)

١- باختصار وتصرف عن الثقافة الاسلامية ص ٢٠- ٢٣.

٢- الثقافة الإسلامية : ص ٢٣ -٢٧ باختصار وتصرف.

ونحن ننقل هنا نموذجاً من أحد الشروح التى كتبت لألفية ابن مالك وعنوانه « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» صنفه عبد الرحيم بن عبد الكريم الصفى بورى (ت ١٢٥٧هـ)، وقد طبع فى مدينه كلكتة الهندية على الحجر عام ١٢٤٨ هـ أى قبل أكثر من مائة وستة وستين عاماً، يقول المؤلف :

السادس من النواسخ (ظن وأخواتها) :

وهى أفعال تدخل على المبتدأ والخبر بعد استيفائها الفاعل فتنصبهما مفعولين لها، وهى نوعان : أفعال قلوب وهى ما دل على يقين أو ظن أو عليهما، وأفعال تحويل وهى ما دل على تحويل المبتدأ إلى الخبر، وبدأ بالأول فقال : (انصب بفعل القلب جزأى ابتدا) أى المبتدأ والخبر، لكن لا بكل فعل قلبى إذ منه ما لا ينصب إلا مفعولاً واحداً كعرف وفهم، ومنه ما هو لازم كجبن وحزن وعليه نبه بقوله : (أعنى) بفعل القلب الذى ينصب الجزأين (رأى خال علمت وجدا) (ظنا حسبت وزعمت مع عدد ★★★) (حجا درى وجعل اللذ) بسكون الذال لغة فى الذى (كاعتقد) (وهب تعلم) فهذه ثلاثة عشر فعلاً منها ما يفيد فى الخبر يقيناً، وهو : وجد بمعنى علم، نحو «إن وجدنا أكثرهم لفاسقين». فإن كانت بمعنى أصاب تعدت إلى واحد وإن كانت بمعنى استغنى أو غضب أو حزن أو حقد فهى لازمة، وتعلم بلفظ الأمر بمعنى : إعلم، نحو :

تعلم شفاء النفس قهر عدوها   فبالغ بلطف فى التحيل والمكر

ودرى بمعنى : علم، نحو : دريت زيداً عالماً، هذا ما ذهب إليه الكوفيون وتبعهم الناظم، والأكثر فيها أنها تستعمل معداة إلى واحد بالباء، تقول : دريت به، فإذا أدخل عليها همزة النقل تعدت إلى واحد بنفسه، وإلى آخر بالباء نحو : ولا أدراكم به. ومنه ألفى بمعنى : وجد، تقول : الفيته مغيثاً. ومنها ما يفيد الظن أى الرجحان، وهو جعل الذى بمعنى : اعتقد، نحو : «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا» وحجا بمعنى: اعتقد لا بمعنى : غلب فى المحاجاة. كقوله :

قد كنت أحجو أبا عمرو أخا ثقة   حتى ألمت بنا يوماً ملمات

وعد بمعنى : الظن كقوله :

لا تعدد المولى شريكك فى الغنى   ولكنما المولى شريكك فى العدم

أي لا تظن الصاحب شريكاً لك في الغنى إنما هو شريكك في الفقر، فإن كانت من العد بمعنى: الحساب تعدت إلى واحد، وزعم بمعنى: اعتقد لا بمعنى: كفل أو سمن أو هزل، تقول: زعمت زيداً ذا غنى. وهب بلفظ الأمر بمعنى: اعتقد. كقوله:

فقلت أجرني أبا خالد وإلا فهبني امرأ هالكاً

أي اعتقدني هالكاً. ومنها ما يرد لأمرين، والغالب كونه لليقين وهو رأى بمعنى: علم أو ظن لا بمعنى: أبصر، قال الله تعالى: «إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً» أي يظنونه ونعلمه وعلم بمعناه أو بمعنى: ظن لا عرف، نحو علمت زيداً أباك. ومنها ما هو لهما والغالب كونه للظن هو ظن بمعناه أو علم لا بمعنى اتهم، تقول: ظننت زيداً أخاك، وعند البصريين هو للشك والظن واليقين، فالشك استواء الأمرين عندك، وإن ترجح أحدهما فظن، وإن اعتقدته بدليل فيقين وخال بمعنى: ظن أو علم لا بمعنى: تكبر، نحو خلت زيداً صديقك. وحسب بمعنى: ظن أو علم لا بمعنى صار ذا حسبه وهى لون نحو حسبت زيداً ذاهباً. ثم انتقل إلى بيان النوع الثانى وهو ما يفيد فى الخبر تحويل صاحبه إليه، فقال: (والتى كصير ا ★★ أيضا بها انصب مبتدا وخبرا) وهى: صير وأصار وجعل واتخذ وتخذ ووهب وترك ورد، تقول: صيرت زيداً صديقك، وأصرت زيداً أخاك، وجعلناه هباء منثورا واتخذ الله ابراهيم خليلا، وتخذته خليلي، ووهبنى الله فداك وتركته ميتاً، وود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا. (وخص بالتعليق) وهو إبطال العمل لفظاً لا محلاً لزوماً لفصل ما له صَدر الكلام بينه وبين معموله فلا يعمل ما قبله فيما بعد. كقولك: علمت لزيد ذاهب (والإلغاء) وهو إبطال العمل لفظاً ومحلاً لضعفه بالتأخر عن المفعولين والتوسط بينهما تقول: زيد عالم ظننت، وزيد ظننت عالم (ما) ★★ ذكر (من قبل هب) من الأفعال القلبية المتصرفة بخلاف هب وما بعده، وهو تعلم فإنهما لم يتصرفا بل قد ألزما صيغة الأمر كما أشار إليه بقوله: (والأمر) نصب على المفعولية (هب قد لزما) أى الزم هب الأمر (كذا تعلم ولغير الماض) وهو المضارع والأمر واسم الفاعل واسم المغول والمصدر (من ★★سواهما) أى سوى هب وتعلم من الأفعال (أجعل كل ماله) أى الماضى (زكن). أى علم من التعليق والإلغاء ومن نصبه مفعولين وهما فى الأصل مبتدأ وخبر تقول: أنا أعلم زيداً

ذاهباً، وزيد عالم أظن، ويا هذا اعلم لزيد مقيم، ولما كان جواز الإلغاء في حال توسط الفعل بين المفعولين أو تأخره عنهم نبه عليه بقوله : (وجوز الإلغاء لا في الابتداء ★★★) أي لا في حال الابتداء بالفعل بل في حال توسطه أو تأخره، تقول : زيد عالم ظننت، وإن شئت زيداً عالماً ظننت، والإلغاء أرجح، وفي التوسط زيد ظننت عالم وزيداً ظننت عالماً، والأمران على السواء (وانو ضمير الشان) ليكون هو المفعول الأول والجملة المذكورة بعده في موضع المغعول الثاني (أو) انو (لام ابتدا) لتكون المسألة من باب التعليق (في) كل كلام (موهم) أي موقع في الوهم (إلغاء ما تقدما) ★★★ من فعل على المفعولين كقوله :

أرجو وآمل أن تدنو مودتها وما أخال لدينا منك تنويل

أي ما أخال الشأن لدينا منك تنويل، وقوله:

كذلك أدبت حتى صار من خلقي أني رأيت ملاك الشيمة الأدب

أي لملاك الشيمة الأدب فخذفت اللام. وأبقى التعليق. (١)

والمؤلف يقول في مقدمة الكتاب : لما كان كتاب الألفية مع وجازه نظمة وصغر حجمه قد جمع من النحو مالا يوجد في كتاب، وفاق بما حازه من هذا العلم تأليف الأصحاب، بيد أنه صعب المرام عاص على الأفهام ولم يتفق له شرح يسهل ما عسر إدراكه على الطالبين، وتبتهج به أنفس الراغبين، لخصت من الشرح ما يجديهم في حل مبانيه، ويكفيهم في فهم معانيه بأوجز عبارة وألطفها وضممت إليه عوائد أخر ظفرت بها، وقد سميته بأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ؛ (٢) وهو كما قال شرح سهل بعيد عن التعقيد ومن تفحص الكتاب رأى أن المؤلف لم ينح نحواً معيناً أو ينصر مدرسة على أخرى من مدارس النخو بل يعرض عند الإشكال آراء مختلف المذاهب دون

١- أوضح المسالك : ص ١١٤ إلى ١٢٥ ، الهند ١٢٤٨ هـ .

٢- نفس المصدر : ص ٢.

فصل منه فيها كا جاء مثاله فى صفحه ١١٤، ١١٧، ١٢٦،١٢٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩ وغيرها، ومع هذا فهو يبدو متأثراً بشرح ابن هشام المسمى بنفس الاسم، ولم يأت المؤلف فيه بجديد، وإن كان من ميزة لهذا الكتاب فهو بعده عن معركة المذاهب التى ما فتئت تلقى بظلالها على مؤلفات أصحابنا فى شبه القارة، فالشيعة انتصروا للكوفيين فى النحو، والسنة نافحوا عن البصريين كما يظهر للباحث البصير عند مطالعة كتبهم إذ اشتغل كل من الطرفين بالرد على أخيه بمؤلفات تؤيد هذا أو ذاك من المذاهب وهو ما نأينا بجانبنا عن ذكره فى هذا المقام، لكننا نسجل - مع ذلك - أن هذه الظاهرة سببها نشأه الأدب حول المدارس الدينية فألقت المعتقدات بألوانها عليه .

الفصل الثانى

علـــوم اللغـــة

ألف أهل شبه القارة كتباً كثيرة فى علوم اللـغة منها البلغة فى علوم اللـغة لصديق حسن القنوجى وله أيضـاً العلم الخفـاق من علم الاشتـقـاق ولف القـمـاط على تصـحـيح بعض مـا استعـملتـه العـامـة من المعرب والدخيل والمولد والأغـلاط، ومن أحـسن مـا رأينا فى هذا البـاب كـتـاب فـقـه اللسـان لكرامت حسـين الكنتـورى، وللسـيـد ذو الفـقـار أحـمـد المالوى كـتـاب المبـتـكر فى المؤنث والمذكـر ولعـبـد الغنى بن مـحـمـد الفـرخ آبادى مـوارد المصادر والأفعال، وللشيخ ظفر الدين بن إمام الدين اللاهورى كـتـاب بعنوان نيل الأرب فى مـصـادر العرب، وهناك أيضـاً مـعـارف العلوم للقـاضى إبراهيـم بن فـتح الله الملتـانى، وحوار العرب لعبد الغنى الفرخ آبادى المذكور آنفاً. (١)

ومن حـسن حظنا أن وقـعت يدنا على أعـظم كتـاب فى هذا الفن وهو فـقـه اللسـان، فهـو بحث راق فى ثلاثة مـجلدات حول المصـادر الصـوتيـه فى اللـغـة العـربيـة كتبـه كرامت حسين الكنتورى المتوفى ١٣٣٥ هـ وطبع فى الهند عام ١٩١٥ م. ويبدو أن المـؤلف قد استـفـاد من إقـامتـه فى بريطانيـا عدة سنوات فى الاطلاع على أبحـاث لغـويـة وصـوتيـة جعلت بحثه يتصدر القمة فيـمـا كتب فى هذا الموضوع فى شبـه القارة، ومن العـجيب أن يهتـم بطبع هذا الكتــاب مرتين أحـد الناشرين الـهندوس، بينمـا لا يعـرف الكتــاب عند العرب رغم مناقشة المؤلف فيـه لقضايا عديدة تتصل باللغات العربيـة والعبرية السريانية

١- الثقافة الإسلامية : ص ٢٨ و٣٢ .

كأسباب اكتمال العربية وتقدمها على أخواتها وأسباب كثرة الأصول الثلاثية فى اللغات السامية وأسباب كثرة البدل فى العربيـة ومقارنته بالبدل فى السريانية والعبرية، والفرق بين العربية واليافثية فى الاشتقاق الصرفى، وما إلى ذلك بسبيل. والكتـاب يناقش فى الجزء الأول منه نشأة الألفاظ من أصوات، وتقدم الأسماء فى الظهور على الأفعال والنظريات المختلفة فى نشأة اللغة والربط بين ذلك وبين الادراك والمدركات المختلفة وكون الأصوات السينية والرائية أسبق فى الوجود على غيرها، ثم يبحث فى الأصوات الأصلية والمصادر الأصلية وما طرأ عليها بعد ذلك من تغييرات بالاشتقاق اللغوى والصرفى وأصول العلاقات التى ينتقل بها اللفظ من الحقيقة إلى المجاز والأمور التى لا بد منها لمن يقوم بجمع الألفاظ والمفردات والفرق بين طريقة القدماء فى الاهتمام بالظاهر وبين طريقة المحدثين فى الاعتناء بالباطن ثم يفرد فصلاً للعلة والمعلول واشتقاق المادة وفعل الحواس وفصلاً فى التجريد والتعقل ويدعم مذهبه بما توصلت إليه العلوم العقلية والنفسية، ويبدو أن المؤلف بعد أن نحى المنحى المادى فى نشوء اللغة والأصوات والمصادر وربط الحواس بالماديات شعر أن منحاه قد يعرضه لفتاوى التكفير التى يسهل إطلاقها فى شبه القارة قديماً وحديثاً بشأن من اختلف أدنى اختلاف عما هو سائد مألوف، لذلك تراه ينسحب فى نهاية البحث إلى قضية الايمان بالخالق وواجب الوجود وضرورة الدين مدللاً على ذلك بأدلة مادية، ويفرد المؤلف الجزأين الثانى والثالث للمصادر الصوتية فى اللغة العربية، ولا شك فى أن المؤلف وقد شغل منصب أستاذ القانون بجامعة إله آباد وجامعة عليكره التى حملت مشعل التجديد فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين فى شبه القارة كما عمل قاضياً بالمحكمة العليا بإله آباد، قد استفاد من الحجج القانونية والاستدلال العقلى على ما أراد إثباته وهو يناقش قضايا اللغة، وبالجملة فإن الكتاب يشير إلى سعة اطلاع مؤلفه على العلوم العقلية والفلسفه اليونانية علاوة على العلوم اللغوية خاصة ما يتعلق منها بالأسرة السامية، وهذا فى ذاته فريد فى شبه القارة التى تسيطر عليها علوم لغاتها الآرية. وليت دور النشر العربية تهتم باخراج هذا الكتاب وطبعه من جديد لأنه مطبوع طبعة بدائية، حتى يتيسر للباحثين والدارسين لما فيه من موضوعات أن يستفيدوا مما كتبه المؤلف أو يتناولوه بالنقد إن كان فيه ما يستأهل ذلك.

وقد اخترنا نموذجاً من الجزء الأول ثم نموذجاً من الجزأين الثانى والثالث حول المصادر حتى يقف القارئ على أسلوب المؤلف فى القسمين النظرى والتطبيقى. يقول المؤلف :

«اعلم أن الأصوات الحاكية لا تكون كاملة فى المماثلة بالاصوات المحكية لأن أدوات الكلام البشرية وإن كانت قادرة على حكاية صوت يسمع فإن قدرتها غير تامة إذ لا يصير الحاكى الذى يحدثه الإنسان فى الغالب مثلاً كاملاً للمحكى ومن ثم يكون الصوت الحاكى أقصر دلالة على الأصل من الصورة الجيدة التى تكون مماثلة للمصدر إلا أن تكرير هذا الصوت الحاكى القاصر عن المطابقة بالمحكى الصادر من الجسم المعين بمحضر من السامعين الذين يعرفون مراد المتكلم من الصوت يحكم الملازمة بين الصوت الحاكى والصوت المحكى ويتقبل السامعون من المتكلم هذا الحاكى لعلمهم بقصوره عن إكمال المماثلة ورضى السامعين بالقبول المسمى بالاصطلاح بجبر نقصان المطابقة بين الحاكى والمحكى».

اعلم أن الحكاية بالتصوير والحكاية بالتصويت مع كونهما متحدتين فى المقصود منهما فإن بينهما فرقاً عظيماً إذ يكون التقدير كاملاً فى المطابقة لصورة الجسم المعين ويدل عليه عياناً ولا يحتاج إلى معين له فى الدلالة على المصور. والتمثيل بالتصويت كما علمت يكون قاصراً عن المطابقة بالصوت المحكى من جهات عديدة ومن ثم يستعين المتكلم فى أوائل عمر اللسان إذا مثل شيئاً للمخاطب بالتصويت بوسائل شتى إغراقاً منه فى إتمام ما قصر بالتصويت وفى تعيين المراد بالصوت الحاكى والوسائل التى تستعمل فى إتمام الصوت القاصر هى الحركات البدنية من الإيماء ورفع اليد والعض عليه و الطرق بالقدم والتمايل من جانب إلى آخر وأسميها الإشارات والحركات الوجهية من الرمز والإيماض والتقطب والتهلل والتكلف والتعبس وغيرها التى أسميها الرمزات. يغلب استعمال هذين النوعين فى بيان الحالات الباطنية من الوجع والألم والسرور خصوصاً إذا مالت إلى الإفراط لأن الأصوات لا مناسبة لها بأمثال هذه ولا ريب أن المتكلمين فى أول الأمر إذا كانت اللغة حديثة العهد بالوجود كانوا يمزجون هاتين الذريعتين بالتصويت ويشاهد هذا المزج إلى يومنا هذا إذا تكلم جاهل من الأقوام السافلة أو تكلم أحد بهذه الوجه من الأقوام العالية ثم لا يخفى أن طول استعمال

صوت للدلاله على جسم معين يحكم الملازمة بينهما ويوجب تبادر الذهن من الصوت القاصر فى المطابقة إلى الجسم المعين ومع استحكام الملازمة وكفايته للتبادر تهجر الإشارات والرمزات.

من الأسباب التى تدعو إلى هجرانها أمور، منها طول الزمان المحتاج إليه فى أدائها، منها اللغوب الذى يعقبها، منها احتياجها إلى أن يكون السامع بمرأى قريب من المتكلم فإن كان السامع مثلاً بحيث لا يراه المتكلم لا تنفع الإشارات والرمزات، منها قلة عددها بمقابلة الأصوات الحاكية ومن ثم إضافة المعين من الإشارات بالأفراد الكثيرة من الأصوات المفضية إلى عدم التعيين، منها عدم قبولها للتشخص التام فى الوضع والهيئة بحيث تختص إشارة معينه فى الوضع و الهيئة أو رمزة معينة كذلك بلفظ معين، منها عدم لصوق فرد منها بلفظ معين بحيث لا يمكن إلصاقها بلفظ آخر، منها عدم قبولها للتدريج فى الخفة و الشدة حتى تكون مطابقة لما يقابلها من المفاهيم فى الشدة والخفة، منها عدم قبولها الصوغ الصرفى الذى به يصير صوت واحد مستعملاً فى حالات كثيرة طارئة على معنى واحد من اللزوم والتعدية والاسمية والفعلية والفاعلية والمفعولية وغيرها، الأصوات بخلاف الإشارات والرمزات تكون موصوفة بصفات تدعو إلى بقائها بقاعدة خلافة الأوفق، منها أنها أى الأصوات أخف مؤنة وأيسر أداء وأهون حفظا وأشد تعيناً وألصق لزوماً بالمسمى، منها أنها تقبل الصوغ الصرفى والتركيب النحوى والبقاء الطويل الذى يتاخم القدم بواسطة الكتابة.

بالجملة الألفاظ التى تشتمل عليها اللغة حدثت فى بدو أمرها بحكاية الأصوات المسموعة من الأجسام وكانت الأصوات المسموعة مدلولاتها الأولية أى معانيها الأولية ثم دلت الأصوات الحاكية على الأجسام التى كانت مصادر للأصوات دلالة الجزء على الكل ودلت على أجسام لم تكن مصادر للأصوات مطلقاً وعلى صفات لم تدرك بالأذن بل أدركت بغيرها من الحواس وعلى أشياء فهمت بالعقل وحيث تكون الأجسام مصادر للأصوات تارة بالحركات الإرادية إن كانت مما تحلها الروح وتارة بالحركات الغير الإرادية المشاهدة فى هبوب الرياح وجريان المياه وتصادم الأجسام دلت الأصوات الحاكية مرة على الأجسام ومرة على الأفعال التى صارت عللاً لحدث الأصوات المحكية ومنه يظهر أن

البحث فى تقدم الاسم على الفعل أو الفعل على الاسم وضعاً كالبحث عن تقدم المادة على القوة أو تقدم القوة على المادة والمناسبة التى تدعو إلى جعل الصوت ذريعة لبيان الأشياء هى وجود صوت مع الأشياء مماثل لصوت حاك لذلك الصوت، على هذا فالصوت هو المادة الاولى التى خلقت منها الألفاظ ويمكن لنا فى طائفة من الألفاظ أن ننسبها إلى الصوت الحاكى ولكنه لا سبيل إلى بيان هذا النسب فى جميع الألفاظ لامور منها المباينة فى أسماعنا وأسماع الحاكين فى قديم الزمان وفى قوة تطبيق الصوت الحاكى بالصوت المسموع وتقتضى تلك المباينة فى الأسماع المباينة فى المسموع مثلاً إذا ضرب رجل عدوه بسيف حدث من وقع السيف على اللحم وقطعه إياه صوت معين ولكن الأثر المسموع الحادث فى السامعين الذين تتخالف أسماعهم يكون مختلفاً ثم إذا ارادوا حكاية ذلك الاثر المختلف يقع فى حكاية كل واحد منهم اختلاف آخرللاختلاف فى أدوات كلامهم ولهذين الاختلافين يصير ما يحسبه أحد منهم حاكياً مخالفاً لما يحسبه الآخر حاكياً ولذا صار مثال الصوت المسموع عند وقع السيف على اللحم شق فى العربية وجكاجاك فى الفارسية وكهج فى الهندية وتصور الحاكى فى ثلاث صور مع اتحاد المحكى ولا ريب أن هذه المباينة تمنع فى صور كثيرة من رفع نسب الألفاظ إلى الحكاية لأن ما نحسبه حاكياً من الألفاظ ربما يكون غير حاك وما نحسبه غير حاك ربما يكون حاكياً، منها أن الألفاظ مع فرض اتحاد الحاكى منها بحاكى القدماء صارت مواضع لتغيرات عظيمة متواترة فى صورها ومعانيها وفى عمرها وفى اغترابها فى البلدان وتوارثها بالأقوام وفى انتقالها إلى معان كثيرة وفى انفصالها عن المعانى الأولى واتصالها بالمعانى الثانية وفى البدل فى حروفها وفى القلب فيها وفى الزيادة فى حروفها وفى النقصان فيها وبعد هذه التغيرات العظيمة يمحو أثر المماثلة ولا يمكن إنهاء نسبها إلى الصوت، منها أنه بعد شيوع جعل الأصوات علامات للأشياء والصفات يمكن أن يوضع ألفاظ للأشياء أو الصفات من غير مراعاة المناسبة الصوتية بين تلك الألفاظ ومعانيها كما يمكن اليوم أن نوجز خطاً تكون حروفة خطوطاً مستقيمة لا علاقة لها بالتصوير الذى هو أصل الخط وتكون تلك الألفاظ ألفاظاً غير حاكية واسميها الألفاظ النقلية وليكن ختم ما قلته من أن التمثيل هو الأصل الذى نبتت منه اللغة بالحكاية معنى ما قاله الحكيم اسبنسر وهو هذا.

اعلم أن إداراك الأشياء وتقسيمها إلى الأنواع موقوف على إدراك المباينة والمماثلة بين الوجدان السابق والوجدان الموجود كما أن تصنيف الأشياء الذى لا يتم بدونه إدراكها موقوف على إدراك المماثلة بينها كذلك إدراك المماثلة بين اللفظ والمسمى هو المرجع فى وضع الألفاظ للمعانى والألسنة كلها عند حدوثها تحتوى على علامات يجعلها أهل الاأسنه مماثلة للأشياء المعلمة بها بقدر وسعهم فى التمثيل، والإشارات كما ترى تخبر عن الأشياء المرادة بحكاية الأفعال الصادرة منها أو بحكاية خصوصيات تلك الأشياء والأصوات كذلك تخبر عن المسميات وأفعالها بأصوات تحدثها تلك المسميات أو تصدر عنها تلك الأفعال وكلاهما أى الإشارات والأصوات كانتا مستعملتين فى ابتداء حدوث اللسان لإلقاء ما كان يجده المتكلم إلى المخاطب إن راقبت كافراً أو بشماناً (قومان فى افريقا) وجدته يشفع لسان قاله بلسان حاله إذا وصف مثلاً كيفية قتل صيد لا يقتصر على أصوات أى الألفاظ بل يأتى بالحركات البدنية والإشارات حكاية للأفعال التى صدرت منه فى تعقب الصيد من الكمون والدبيب و توتير القوس وتسديد السهم والوثوب على الصيد إذا أصاب السهم مقتله والذبح له وحمله إلى المقام وإن تفكرت فى قله عدد الألفاظ فى الألسنة القديمة وجدتها موقوفة على قيام كثير من الإشارات مقام الألفاظ الموجودة فى الألسنة الجديدة واستنبطت أن تلك الإشارات كانت شطراً من الألسنة القديمة وكان لها دخل عظيم فى تكميل المماثلة بين المثل والممثل من الأشياء والحيوانات والأشخاص والواقعات وحيث صارت الأصوات لطول استعمالها فى مسميات خاصة مغنية بدلالة الالتزام عن الإشارات رفضت تلك الإشارات وإن بقى شئ منها فى أيدى أهل الطيش من الأقوام المهذبة وإن تأمل متأمل فى كون الألفاظ المتداولة فى الأقوام الوحشية أصواتاً حاكية لأصوات الأشياء المرادة وفى كون الألفاظ البسيطة المستعمله فينا أيضاً أصواتاً حاكية لأصوات الأشياء المرادة وفى كون الألفاظ التى تضعها الصبيان لبيان ما يرونه من المحسوسات أصواتاً تحكى أصوات الأشياء المرادة استيقن أن إدراك المماثلة بين الصوت الحاكى وبين الصوت المحكى الصادر عن الشئ هو الوسيل الاول فى وضع اللغة.

اعلم أنه بعد القول بأن الألفاظ الأصلية من اللسان مع اختلاف أوزانها ودلالة بعض منها على المحسوس بالحواس الوصالية والعين على المعقول بالعقل ومع وجود معان كثيرة للفظ واحد وألفاظ كثيرة لمعنى واحد تكونت من صوت حاك لصوت مسموع ثم بالانضمام والامتياز والانتظام صارت ممتازة فى صور كثيرة لابد لنا من بيان كيفية حدوث المادة الأولى للألفاظ وبين أسباب عاملة فى تصويرها بصور كثيرة ووضعها لمعان مختلفة. (١)

وأما النموذج الثانى من الكتاب فقوله :

(نشــق)

مصدر أصلى يحكى صوتاً يحدث عند السعوط كما يحدث عند النشف والنشم وسعط صورة أخرى لنشق أى يحكى الصوت الحادث بسعط كما يحكى بنشق. النشق صب سعوط فى الآنف أصله الصوت الحادث عند النشق بالإرادة ثم نقل إلى الصب. النشوق سعوط يجعل أو يصب فى المنخرين نقول أنشقته إنشاقاً.

فى الحديث أن للشيطان نشوقاً ولعوقاً ودساماً يغنى ان له وساوس مهما وجدت منفذاً دخلت فيه.

أنشقته الدواء فى أنفه صببته فيه. النشوق اسم لكل دواء ينشق، فى الحديث أنه كان يستنشق فى وضوئه ثلاثاً فى كل مرة يستنثر أى يبلغ الماء خياشيمه وهو استنشاق الريح إذا شممتها مع قوة، قيل انشقه الشئ فانتشق وتنشق انتشق الماء فى أنفه واستنشقه صبه فيه أصله جذبه إلى داخل الأنف فحدث صوت محكى بالنشق.

اشتنشقت الريح شممتها واستنشقت الماء وغيره اذا أدخلته فى الأنف، النشاق الريح الطيبة وقد نشقا نَشْقاً ونَشَقاً وانتشق وتنشق. أبو زيد : نشقت من الرجل ريحاً طيبة أنشق نشقاً أى شممت، قال ابو حنيفة إن كان المشموم مما تدخله أنفك قلت تنشقته

١- فقه اللسان : ١/ ٦٨ إلى ٧٤ ، الهند ١٩١٥م.

واستنشقته، انشقه القطنة المحرقة إذا أدناها إلى أنفه ليدخل ريحها خياشيمه. النشقة الحلقة تشد بها الغنم وقيل النشقة بالضم الربقة التى فى اعناق البهم ويقال لحلق الربق نشق لا أدرى العلاقة. قد أنشقته فى الحبل أى أنشبته. ابن الأعرابى : أنشق الصائد إذا علقت النشقة بعنق الغزال فى الكصيضة.

يقول الصائد لشريكه لى النشاقى ولك العلاقى فالنشاقى ما وقعت النشقة فى الحلق وهى الشربة قال والعلاقى ماتعلق بالرجل.

نشق الصيد فى الحبالة نشقاً نشب وعلق فيها وكذلك فراشة القفل. يقال نشب فى حبله ونشق وعلق وارتبق كل ذلك بمعنى واحد ابن سيدة. وحكى اللحيانى نشق فلان فى حبالى نشب. فى الحديث أنه شكى إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم كثرة الغيث وكان فيما قيل له ونشق المسافر أى نشب فلم يطق على البراح من كثرة المطر. رجل نشق إذا كان ممن يدخل فى أمور لا يكاد يتخلص منها.

نشق فى العبرانية رتب، نظم - وهو قريب عند غسنيوس من نسق بالسين المحملة فى العربية - سلح نفسه بالسلاح، لثم كأن ضم فاه بفم غيره ووصلهما.

نشق فى السريانية قبل - لثم - باس - لطع - لحس - وصل - بلغ. (١)

(نعس)

مصدر أصلى كنفس يحكى صوتاً سينياً يسمع للوسنان عند النعس، خصوا النفس بالصوت المسموع فى اليقظة والنعس بالصوت المسموع فى النوم.

النعاس النوم وقيل هو مقاربته وقيل ثقله نعس ينعس نعاساً وهو ناعس ونعسان وقيل لا يقال نعسان والنعاس والوسن قال الأزهرى وحقيقة النعاس السنة من غير نوم وناقة نعوس غزيرة تنعس إذا حلبت وقال الأزهرى تغفر عينها عند الحلب والنعسة الخفقة والكلب يوصف بكثرة النعاس وفى المثل مطل كنعاس الكلب أى متصل دائم. أبو عمرو نعس الرجل إذا جاء ببنين كسالى.

١- فقه اللسان : ٢/ ١٥٠ - ١٥١.

نعست السوق إذا كسدت وفى الحديث أن كلماته بلغت ناعوس البحر قال ابن الأثير قال أبو موسى كذا وقع فى صحيح مسلم وفى سائر الروايات قاموس البحر وهو وسطه ولعله لم يجود كتبه فصحف بعضهم قال وليست هذه اللفظه أصلاً فى مسند اسحق الذى روى عنه مسلم هذا الحديث غير أنه قرنه بأبى موسى وروايته فلعله فيها قال وإنما أورد نحو هذه الألفاظ لأن الإنسان إذا طلبه لم يجده فى شئ من الكتب فيتحير فإذا نظر فى كتابنا عرف اصله ومعناه.

ما وجدت نعس فى العبرانية. نعس فى السريانية قارب النوم لفتور أعضائة.

(عطـس)

مصدر أصلى يحكى صوتاً يحدث عند العطسة خصوصاً إذا رام العاطس أن لا يشتد صوت العطسة.

عطس الرجل يعطس بالكسر ويعطس بالضم عطساء وعطاساً وعطسة والاسم العطاس. المعطس والمعطس الأنف لأن العطاس منه يخرج قال الأزهرى المعطس بكسر الطاء لا غير وهذا يدل على أن اللغة الجيدة يعطس بالكسر والعاطوس ما يعطس منه مثل به سيبويه وفسره السيرافى.

عطس الصبح إذ فلق والعاطس الصبح لذلك صفة غالبه وقال الليث الصبح يسمى عطاساً.

ظبى عاطس إذا استقبلك من أمامه لأنه يعطس نوع منه إذا استقبلك ويسمى فى الهندية جكاره وهو مخفف جهنكن هارا أى الذى يعطس.

عطس الرجل مات قال أبو زيد تقول العرب للرجل إذا مات عطست به اللجم قال واللجمة ما تطيرت منه. انفلاق الصبح عطسه لما يشاهد من نور مستطير مشابه بالنجاز الخارج من أنف العاطس ويقال للموت لجم عطوس.

العاطوس دابة يتشاءم بها. يقال فلان عطسة فلان إذا أشبهه فى خلقه وخلقه وهو من قولهم الهرة من عطسة الأسد.

عطس فى العبرانية غير مستعمل مجرداً ومنه عطوسه بمعنى العطس، عطش فى السريانيه عطس. (١)

بهذه النماذج البسيطة يتضح لك أن الكتاب ليس بحثاً فى مصادر العربية وحدها بل هو بحث شيق فى اللغات السامية. مما يضيف إلى قيمتة العلمية، ولذلك قال الحسني عنه : «لعله منفرد فى علماء الهند لهذا الصنف». (٢)

ومن الكتب المشهورة فى علوم اللغة فى شبه القارة البلغة فى أصول اللغة لصديق حسن القنوجى وهو كتاب سهل بسيط ألفه على نمط المزهر للسيوطى، يقول فى مقدمته:

«وقد عنى بعلم اللغة ثلة من السلف المبرزين، وجله من الخلف المتقنين ولم يعن بأصولها وارتيادها إلا واحد فيما علمت من الفحول، ومع ذلك لم يسمه بالأصول بل وسمه بأنواع، وحاكى به علوم الحديث فى التقاسيم والأنواع، وأتى فيه بنفائس كثيرة تهتز لها الطباع ولطائف شريفة تطرب بها الأسماع وهو الجلال السيوطى فى المزهر أجزل الله له الأجر الوافر. فأردت انتقاءه على ذلك النظام، وأفرغته فى قالب الإيجاز بحسن الانسجام .... مع التزام إتمام المعانى وإبرام قواعد المبانى، ولخصته مطروح الزوائد مجموع الفوائد مع زيادة نزرة امتلأ بها الوطاب، وتصرف يسير اعتلى منه الخطاب كذكر الكتب المؤلفة فى هذا العلم ، وغير ذلك مما أوردته فى هذا السفر المستطاب، وأسميته البلغة فى أصول اللغة. (٣)

هذا هو منهج المؤلف بما فيه من اعتراض على منهج السيوطى وما أورده هو من زيادات. لكن المصنف أيضاً استدرك على بعض الآراء التى نقلها عن اللغويين فى القضايا التى ناقشها، مثال ذلك استدراكه على من قالوا بأن لغة العرب هى أول اللغات وكل لغة سواها حدثت بعدها إما توقيفاً أو اصطلاحاً واستدلوا على ذلك بأن القرآن كلام الله وهو عربى وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات وجوداً.

١- فقه اللسان : ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧.

٢- الثقافة الإسلامية : ص ٢٨.

٣- ص ٣. القسطنطينية، ١٩٩٦هـ.

يقول المؤلف «... قلت ولا دليل فى كون القرآن كلام الله على أن لغة العرب أول اللغات وأسبقها لأن صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى نزلت قبل القرآن وكلها كلام الله فما ابرد هذا الدليل». [1] كذلك استدراكه على رأى من قال إن بيان العربية لا يمكن ترجمته إلى شئ من الألسنة الأخرى. [2]

والكتاب ثرى بنقول جمعت عن أئمة الفن كالخليل بن أحمد وابن جنى وابن فارس وابن الحاجب وشيوخ المعتزلة والأشاعرة بحيث يستوفى القارئ ما قيل فى المسألة الواحدة على لسان جميع المذاهب، وهاك نموذجاً من الكتاب يقول فيه المؤلف :

الثانيه والعشرون معرفة خصائص اللغة

قال ابن فارس لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها قال تعالى «بلسان عربى مبين» فوصفه بأبلغ ما يوصف به الكلام وهو البيان وقال تعالى «خلق الإنسان علمه البيان» فقدم سبحانه ذكر البيان على جميع ما توحد بخلقه وتفرد بإنشائه من الخلائق المحكمة والنشايا المتقنة فلما خص سبحانه اللسان العربى بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب هذا مالا خفاء به على ذى نهية وقال بعض أهل العلم حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب فى القرآن وكذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شئ من الالسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله بالعربية لأن غير العرب لم تتسع فى المجاز اتساع العرب وقد تأتى الشعراء بالكلام الذى لو أراد مريد نقله لاعتاص وما أمكن إلا بمبسوط من القول وكثير من اللفظ ولو أراد معبر بالأعجميه أن يعبر عن الغنيمة والإخفاق واليقين والشك والظاهر والباطن والحق والباطل والمبين والمشكل والاعتزاز والاستسلام لى به والله تعالى أعلم حيث يجعل الفضل انتهى. قلت فضل اللسان

١- البلغة : ص ٧١.

٢- نفس المصدر ص ٥٢ - ٥٣.

العربى على لغات العجم كلها مسلم وأما عدم القدرة على نقله إلى شئ من الألسنة على أى وجه كان فيه نظر واضح فقد ترجم جمع من أهل العلم واللسان القرآن الكريم بالفارسية والهندية واللغات الإفرنجية وغيرها من الألسنة وهى تؤدى معناه وتبين فحواه بلا شك وإن لم تكن من استقصاء المعانى كلها ومراتب الفصاحه أو البلاغة جلها بمكان العربية ولسان الهنود فى كتبهم القديمة التى يقال لها سنسكرت أوسع من جميع الألسنة لأن فيها صيغ المذكر والمؤنث والخنثى على حدة بخلاف العربية فإنها ليست فيهاصيغه للخنثى كما ليست فى الفارسية صيغة للمؤنث. نعم لسان العرب أفضل اللغات وأشرفها وأجود الألسنه وكلها بوجوه وخصائص توجد فيه ولا توجد فى غيره وبعده لسان الفرس وبعده لسان الهند المحدث من عساكر سلاطين الهند وكان حدوثه عند مخالطة الفرس وغيرهم مع أهل الهند وغيرهم وقد اشتمل على لغات الألسنة كلها ووقع من القبول والشهره بمكان عظيم وهو سهل التناول والاستعمال لذيذ التكلم عذب الانتحال ليس بثقيل مثل لسان الهنود والإفرنج ولا بخفيف ومهان مثل لسان أهل البادية الجفاة وفيه الشعر والنظم وكل الشئ من العلوم والفنون. نعم طالع العرب رفيع حيث بعث خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم منهم ، وهذا فضل عظيم وشرف جسيم لا يساويه شئ من المفاخر العليا والمآثر الحسنى واختصت العرب بأشياء منها قلبهم الحروف عن جهاتها ليكون الثانى أخف من الأول نحو قولهم ميعاد ولم يقولوا موعاد ومنها تركهم الجمع بين الساكنين وقد يجتمع فى لغة العجم ثلاثة سواكن ومنه قولهم ياحار ميلاً إلى التخفيف ومنها اختلاسهم الحركات فى مثل فاليوم اشرب غير مستحقب ومنه الإدغام وتخفيف الكلمه بالحذف نحو لم يك ولم أبل ومنها إضمارهم الأفعال ومما لا يمكن نقله البتة أوصاف السيف والأسد والرمح وغير ذلك من الأسماء المترادفة ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد غير اسم واحد فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم وقال ابن خالويه جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحية مائتين وقد جمع حمزة الأصبهانى من أسماء الدواهى ما يزيد على أربعمائة وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى ومن العجائب أن أمه وسمت معنى واحداً بمئين من الألفاظ قال ابن فارس فأين لسائر الأمم ما للعرب و من ذا يمكنه أن يعبر عن قولهم ذات الزمين وكثرت ذات اليد

ويد الدهر وتخاوصت النجوم ومجت الشمس ريقها وذر الفئ ومفاصل القول وأتى الأمر من فصه وهو رحب العطن وغمر الرداء وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب وما أشبه هذا من بارع كلامهم ومن الإيماء اللطيف والإشارة الدالة وما فى كتاب الله تعالى من الخطاب العالى أكثر وأكثر كقوله ولكم فى القصاص حياة ويحسبون كل صيحة عليهم وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وإن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً وإنما بغيكم على أنفسكم ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله وهو أكثر من أن نأتى عليه وللعرب بعد ذلك كلم تلوح فى أثناء كلامهم كالمصابيح فى الدجى كقولهم هذا أمر قاتم الأعماق أسود النواحى وله قدم صدق وذا أمر أنت أردته ودبرته وتقاذفت بنا النوى واستف الشراب وأقبلت مقاصر الظلام إلى غير ذلك وهذه كلمات من قدحة واحدة فكيف إذا جال الطرف فى سائر الحروف مجاله ولو تقصينا ذلك لتجاوزنا الغرض ولما حوته أجلاد. (١)

ولنفس المؤلف الذى ترك لنا عشرات الكتب فى الدراسات الإسلامية والعربية كتاب آخر حول علم الاشتقاق يقول فى مقدمته :

« ... وبعد فهذه نبذة شريفة وعدة لطيفة فى علم الاشتقاق الذى هو من أنفس العلوم المتعلقة بلغة العرب على الاتفاق، وقد كان كثير ممن تقدم يلم بأشياء من ذلك ويعتنى فى بيانها بتمهيد المسالك ،غير أن هذا المجموع على هذه الحالة لم يسبقنى إليه سابق ، ولا طرق سبيله قبلى طارق، حتى لم يفرده أهل العلم بالتصنيف ، ولا دونوه على جهة الاستقلال بالتأليف بل غاية ما وقفنا عليه وانتهى علمنا إليه مباحث نزرة وفصول محتقرة كما ستأتى إن شاء الله تعالى . فاستعنت بالله تعالى وحده الذى نصر فى كل موطن عبده ، وافردت هذا العلم فى هذا المهرق والرقيم ليمشى على منواله الناظرون فى لغة العرب بالطبع المستقيم والقلب السليم فيقتدوا بذلك على رد بعض الكلم إلى بعض، واستخراج بعضها من بعض على النمط القويم، وسميت هذا المختصر : العلم الخفاق من علم الاشتقاق... ». (٢)

١- البلغة : ص ٥٢- ٥٧.

٢- العلم الخفاق : ص ٢ - ٣، الهند، ١٢٩٤هـ.

فالكتاب إذن - حسب قول المؤلف - أول مختصر يجمع ما تفرق حول الاشتقاق من شذرات هنا وهناك فى كتب الشوكانى وعضد الدين الإيجى وابن فارس وابن جنى وغيرهم، ليضع القارئ أمام قضايا هذا العلم مجموعة غير مفرقة وله أيضاً استدراكات على بعض الآراء . كا أن المؤلف أضاف إلى الكتب العربية ما تفرد به أهل شبه القارة من تعليقات فى حواشيهم وشروحم على كتب علماء العرب مثل شرح الميرزا زاهد لمواقف الإيجى. [1] وشرح السلم للمولوى مبين الدين اللكنوى [2] ومن ثم ضم الكتاب بين دفتيه كافه آراء العلماء حول الاشتقاق وأقسامه وشروطه وأمثلته مما يغنى الطالب عن تتبع كل ذلك فى أكثر من كتاب، يقول المؤلف بعد استعراض جميع الأقوال فى معنى الاشتقاق :

والحق أن حقيقة معنى المشتق أمر بسيط ينتزعه العقل عن الموصوف نظراً إلى الوصف القائم به فالموصوف والوصف والنسبة كل منها ليس علة ولا داخلاً فيه بل منشأ لانتزاعه وهو يصدق عليه وربما يصدق على الوصف والنسبة فتدبر. (فائدة) قال فى الاحكام هل يشترط قيام الصفة المشتق منها بماله الاشتقاق فذلك مما أوجبه أصحابنا ونفاه المعتزلة وكأنه اعتبر الصفة احترازاً من مثل لابن وتامر مما اشتق من الذوات فإن المشتق منه ليس قائماً بما له الاشتقاق فإن المعتزلة جعلوا المتكلم لا باعتبار كلام هو له بل باعتبار كلام حاصل بجسم كاللوح المحفوظ وغيره ويقولون لا معنى لكونه متكلماً إلا أنه يخلق الكلام فى الجسم وتوضيح ذلك يطلب من العضدى وحواشيه.

ثم اعلم أن الاشتقاق كما يطلق على ما عرفت كذلك يطلق على قسم من التجنيس عند أهل البديع، انتهى وليس هذا الإطلاق من غرضنا فى هذا الكتاب بل المقصود القول على لغة العرب هل لها قياس وهل يشتق بعض الكلام من بعض أم لا. قال ابن فارس فى فقه اللغة أجمع أهل اللغة إلا من شذ منهم أن للغة العرب قياساً وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان وأن الجيم والنون تدلان

١- نفس المصدر ص ١٠.

٢- نفس المصدر ص ١١.

أبداً على الستر تقول العرب اللادع جنة وأجنه الليل وهذا جنين أى هو فى بطن أمه وأن الإنس من الظهور يقولون آنست الشئ أبصرته وعلى هذا سائر كلام العرب علم ذلك من علم وجهله من جهل وقال هذا مبنى أيضاً على أن اللغة توقيف فإن الذى وقفنا على أن الاجتنان الستر هو الذى وقفنا على أن الجن مشتق منه وليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه لأن فى ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها قال ونكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن انتهى. وقال ابن دحية فى التنوير الاشتقاق من أغرب كلام العرب وهو ثابت عن الله تعالى بنقل العدول عن رسول الله ﷺ لأنه أوتى جوامع الكلم وهى جمع المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة فمن ذلك قوله فيما صح عنه يقول الله أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمى وغير ذلك من الأحاديث وقال فى شرح التسهيل الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب لها ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفتا حروفاً أو هيئة كضارب من ضرب وحذر من حذر وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة حتى يرجع منها إلى صيغة هى أصل الصيغ دلالة اطراداً أو حروفاً غالباً كضرب فإنه دال على مطلق الضرب فقط أما ضارب و مضروب ويضرب واضرب فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفاً وضرب الماضى مساو حروفاً وأكثر دلالة وكلها مشتركة فى ض ر ب وفى هيئة تركيبها وهذا هو الاشتقاق الأصغر المحتج به وأما الأكبر فيحفظ فيه المادة دون الهيئة فيجعل و ل ق و و ق ل و ل ق و وتقاليبها الستة بمعنى الخفة والسرعة وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح ابن جنى وكان شيخه أبو على الفارسى يأنس به يسيراً وليس معتمداً فى اللغة ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق فى لغة العرب وإنما جعله أبو الفتح بياناً لقوة ساعده ورده المختلفات إلى مشترك مع احترامه وعلمه بأنه ليس هو موضوع تلك الصيغ وأن تراكيبها تفيد أجناساً من المعانى مغايرة للقدر المشترك. وسبب إهمال العرب وعدم التفات المتقدمين إلى معانيه أن الحروف قليلة وأنواع المعانى المتفاهمة لاتكاد تتناهى فخصوا كل تركيب بنوع منها ليفيدوا بالتراكيب والهيئات أنواعاً كثيرة ولواقتصروا على تغاير المواد حتى لا يدلوا على معنى الإكرام والتعظيم إلا بما ليس فيه شئ من

حروف الإيلام والضرب لمنافاتها لهما لضاق الأمر جداً ولاحتاجوا إلى ألوف حروف لا يجدونها بل فرقوا بين معتق ومعتق بحركة واحدة حصل بها تمييز بين ضدين هذا وما فعلوه أخصر وأنسب وأخف ولسنا نقول إن اللغة أيضاً اصطلاحية بل المراد بيان أنها وقعت بالحكمة كيف فرضت ففي اعتبار المادة دون هيئة التركيب من فساد اللغة ما بينت لك. ولا ينكر مع ذلك أن يكون بين التراكيب المتحدة المادة معنى مشترك بينها هو جنس لأنواع موضوعاتها ولكن التحيل على ذلك في جميع مواد التركيبات كطلب لعنقاء مغرب ولم تحمل الأوضاع البشرية إلا على كلام قريبة غير غامضة على البديهة. فلذلك إن الاشتقاقات البعيدة جداً لا يقبلها المحققون. واختلفوا في الاشتقاق الأصغر فقال سيبويه والخليل وأبو عمرو وأبو الخطاب عيسى بن عمرو الأصمعي وأبو زيد وابن الأعرابي والشيباني وطائفه بعض الكلم مشتق وبعضه غير مشتق وقالت طائفة من المتأخرين اللغويين كل الكلم مشتق ونسب ذلك إلى سيبويه والزجاج وقالت طائفة من النظار الكلم كله أصل. والقول الأوسط تخليط لا يعد قولاً لأنه لوكان كل منهما فرعاً للآخر لدار وتسلسل و كلاهما محال بل يلزم الدور عيناً لأنه يثبت لكل منهما أنه فرع وبعض ما هو فرع لابد أنه أصل، ضرورة أن المشتق كله راجع إليه أيضاً، لا يقال هو أصل وفرع بوجهين لأن الشرط اتحاد المعنى والمادة وهيئة التركيب مع أن كلاً منهما حينئذ مفرع عن الآخر بذلك المعنى». [1]

ولنفس المؤلف كتاب آخر مما له صله بعلوم اللغة هو «لف القماط على تصحيح بعض ما استعملته العامة من المعرب والدخيل و المولد والأغلاط» تتبع فيه ما ألف في هذا الباب وقال في سبب تأليفه :

«... وبعد فإني رأيت كثيراً من ركب متون لسان العرب، وسلكوا بنيات الطرق في مدن الأدب قد ضاهوا العامة في بعض محاورة كلامهم، وشابهوا المولدين في ملاحن أقلامهم مما يزرى بقدرهم العلي، ويصم شرفهم البهي، فدعاني الأنف إلى أن أذب

١- العلم الخفاق : ص ١١ - ١٤.

جنابهم عن ذلك الشين، وأزيل عن قيلهم هذا الرين فألفت هذا الكتاب وأودعته من النخب كل باب فى أحسن إيجاز وألطف إطناب وسميته...». (١)

والكتاب فيه مقدمه فى تعريف المعرب والمولد وقواعد التعريب، اعترض فيها المؤلف على كتاب أبى منصور الأزهرى فى هذا الباب (٢) كما خطأ صاحب القاموس فى بعض رأيه، وجاء فيها على وجازتها بجديد، انظر مثلاً قوله : «واعلم أن المعرب إذا كان مركباً أبقى على حاله لأنه سماعى فلا يجوز استعمال أحد أجزائه كشهنشاه، ولذا خطئ من عرب شاه وحده». (٣)

والمؤلف قد استقصى ألفاظ هذا العلم فى مظانها، واستفاد كثيراً من معرفته بالفارسية والهندية - وهما من أهم اللغات التى دخلت منها ألفاظ عديدة الى العربية لكثرة الاحتكاك بين العرب وأقوامهما - فى تتبع أصول الألفاظ مشيراً إلى تصويبات هنا وهناك فى الكتب العربية المكتوبة حول هذا الفن .

ثم رتب المؤلف الألفاظ على حروف المعجم وأوضح ذلك بقوله : «ناظراً لأولها الواقع فى الاستعمال من غير تدقيق فيها بالنظر لأصالتها وعدمها، وقد أترك بعض ما عربوه لعدم وروده عمن يعتد به أو لشهرته أو لوحشته وقلة الحاجة إلى استعماله تبعاً لما فى الشفاء». (٤)

وقد اخترنا لك نموذجاً من هذا الكتاب جزءاً من باب الباء الموحدة كى تطلع على منهج المؤلف فى التعامل مع هذه الألفاظ، يقول المؤلف :

١- لف القماط : ص ٢، الهند ١٢٩٦هـ.

٢- نفس المصدر ص ٥.

٣- نفس المصدر ص ٥.

٤- نفس المصدر ص ٦.

حــرف البــاء المــوحدة

باء الجر مكسورة ومنهم من يفتحها إذا دخلت على الضمير تشبيهاً باللام قاله ابن جنى فى سر الصناعة **بهرج** معرب نبهره أى باطل ومعناه الزغل يقال درهم بهرج ونبهرج أى باطل زيف كذا ذكر الخفاجي فى الشفاء .وقال ابن خالويه درهم بهرج هو كلام العرب والعامة تقول نبهرج كذا فى التاج. **برنسا** الخلق يقال ما ادرى أى البرنسا هو أى الخلق وهو بالسريانية برناسا. **بلاس** معرب بلاس، المسوح تلبس وهو دخيل فى كلام العرب من كلام فارس كذا فى تاج العروس. بوريا فارسى معرب وهى بالعربية بارى وبورى. **بالقا** الأكارع بلغة أهل المدينة معرب باجه. **بستان** معرب بوستان فارسى وهو الحديقة ويطلق على الأشجار وورد فى شعر الأعشى بمعنى النخل فقط. **برزيق** الفارس معرب والجمع برازيق وبرازق وقع فى الحديث. **البرجاس** بالضم غرض فى الهواء يرمى به قال الجوهرى وأظنه مولداً وجزم بذلك صاحب القاموس. **بيرجنس** من السماع دخيل فى كلام العرب وقيل هو الفرانق .**برمكان** الكساء معرب. **برقيل** قوس البندق معرب. **برزين** كوز الطلع معرب. **بطاقة** مولدة بمعنى رقعة صغيرة وتطلق على حمام تعلق به قال الخفاجي هى لغة صحيحة وقعت فى الحديث الشريف وقال فى فقه اللغة إنها معربة من الرومية.

وفى المحكم البطاقة الرقعة الصغيرة تكون فى الثوب رقم ثمنه حكاه شمر وقال لأنها بطاقة من الثوب وهذا خطأ لأن الباء عليه حرف جر والصحيح ما تقدم كما حكاه الهروى انتهى أقول حديث البطاقة أخرجه الترمذى وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً وهو فى مشكاة المصابيح قال فى القاموس سميت به لأنها تشد بطاقة هدب الثوب وقال الطيبى فيكون الباء زائدة قال فى اللمعات شرح المشكاة كأنه انقيت الباء الجارة التى هى صلة الفعل وهى لغة أهل مصر وليس مادة بطق انتهى. **بسرغ** بمعنى رخيص لغه يمانية وقيل هو عبرانى بمعنى بركة قال العجاج : ولا تقولوا برخوا لترخوا. **بيدق** بمعنى راجل معرب بياده وقع فى شعر الفرزدق. **باسته** آلات الصناع وقع فى الحديث الشريف ليس بعربى محض قاله الخفاجي قلت وباسن بالهندية الإناء. **بوصى** بمعنى السفينة معرب بورى. **بهرمان** لون أحمر معر.ب **بخت** بمعنى الجد تكلمت به العرب

هو معرب عند الجوهرى. باسور مرض معروف تكلمت به العرب قال أبو منصور أحسبه معرباً وصاحبه مبسور كما وقع فى حديث البخارى وصححه الشراح وقول الأطباء وبعض العوام مبوسر خطأ كما وقع فى شعر ابن طليق من المولدين. بندق المأكول ليس بعربى محض قاله أبو منصور لكنهم استعملوه والذى يرمى به كأنه من هذا على طريق التشبيه. (١)

وقد قام السيد نور الحسن ابن المؤلف بتدوين تعليقات وشروح للألفاظ فى هامش الكتاب نقلها عن المراجع العربية المستندة، فجاءت بمثابة شرح مختصر للكتاب.

والمؤلف كما ترى لم يراع ترتيب الأحرف بعد الحرف الأول بل يسوق الألفاظ كيفما شاء وهو ما يعاب على منهجه ويجعل التقاط اللفظ المراد من بين الألفاظ الواردة فى الباب كله أمراً فيه صعوبة.

١- لف القماط : ص ١٠ - ١٣.

الفصل الثالث

المعـــاجـــم

أول من صنف من أهل الهند فى هذا الباب رضى الدين الحسن بن محمد الصغانى وله فيه مؤلفات عدة كأسماء الفأر وأسماء الأسد وأسماء الذئب والنوادر ومجمع البحرين فى اثنى عشر مجلداً، والعباب الزاخر فى عشرين مجلداً ولم يتمه، وقد طبع الجزء الأول منه بالعراق سنة ١٩٧٨م، وما زال الباقى محققاً غير مطبوع فى مكتبة مجمع البحوث الإسلامية بإسلام آباد، وقد رأيت مجموعة رسائل لغوية للصغانى مخطوطة برقم ٤٨٢ فى نفس المكتبة.

ولمحمد بن طاهر البتنى مجمع البحار فى غرائب التنزيل ولطائف الأخبار وله عليه ذيل وتكملة على نهج النهاية لابن الأثير، وله كتاب فى حل غرائب مشكاة المصابيح، وللشيخ عبد الرشيد الحسينى المدنى منتخب اللغات ذكر فيه الألفاظ العربية وشرحها بالفارسية وأخذ عن القاموس والصحاح والصراح . ولعبدالرحيم بن عبد الكريم الذى مر ذكره فى شرح ألفية ابن مالك كتاب منتهى الأدب فى لغات العرب فى أربع مجلدات طبع فى الهند وغيرها. قال عبد الحى الحسنى أنه مقبول متداول مغن عن الأسفار الكبار فى هذا العلم ومأخذه القاموس والصحاح والنهاية ومجمع البحار وديوان الأدب والمهذب والمزهر والمغرب وشمس العلوم وتاج المصادر وتاج الأسامى وغيرها. (١)

ومن مؤلفاتهم أيضاً تاج اللغات للمفتى اسماعيل بن وجيه الدين فى ثلاثة مجلدات، والقول المأنوس فى صفات القاموس للمفتى سعد الله بن نظام الدين المرادآبادى وله أيضاً

١- ص ٣٢ من الثقافة الإسلامية.

نور الصباح في أغلاط الصراح ولمرتضى الزبيدى البلكرامي تاج العروس شرح القاموس كتاب مشهور بين أمصار العرب ولعبد النبي الأحمد نكرى دستور العلماء في اصطلاحات العلوم في أربعة مجلدات، إلى غير ذلك من الكتب المعروفة بالعربية دون غيرها.

وقد اخترنا من هذه الكتب نموذجين الأول مشهور بين العرب مطبوع هو تاج العروس، والثاني العباب الزاخر للصغاني وهو على عظمته وسعته غير معروف بين العرب، فأما الأول فقد أغنانا قدم وجوده بين العرب عن التعليق عليه، وأما الثاني فنعرفك به عندالحديث عنه.

ويغنينا عن التعليق على تاج العروس أيضاً المقدمة المفصلة التى كتبها الأستاذ عبد الستار أحمد فراج على الكتاب ومؤلفه في طبعة الكويت سنة ١٩٦٥، ونقل فيها رأى العلماء في الزبيدى وكتابه وإن كنا لا نوافقه على ما يبدو أنه لم يرجع فيه إلى قدر كاف من مصادر أهل شبه القارة فيما يتعلق بحياة المؤلف الأولى وتشكيكه فى مولد السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدى الواسطى البلكرامي بالهند.

يقول الزبيدى في مقدمة تاج العروس :

المقصد الأول

في بيان أن اللغة هل هى توقيفية أو اصطلاحية

نقل السيوطى في المزهر عن أبي الفتح بن برهان في كتاب الوصول إلى الأصول : اختلف العلماء في اللغة هل تثبت توقيفاً أو اصطلاحاً، فذهبت المعتزلة إلى أن اللغات بأسرها تثبت اصطلاحاً، وذهبت طائفة إلى أنها تثبت توقيفاً، وعن الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني أن القدر الذى يدعو به الإنسان غيره إلى التواضع يثبت توقيفاً وما عدا ذلك يجوز أن يثبت بكل واحد من الطريقين وقال القاضي أبو بكر : لا يجوز أن يثبت توقيفاً، ويجوز أن يثبت اصطلاحاً ويجوز أن يثبت بعضه توقيفاً وبعضه اصطلاحاً، الكل ممكن. ونقل أيضاً عن إمام الحرمين أبي المعالى في البرهان : اختلف أرباب الأصول في مآخذ اللغات فذهب ذاهبون إلى أنها توقيف من الله تعالى وصار صائرون إلى أنها تثبت اصطلاحاً وتواطؤاً.

ونقل عن الزركشى فى البحر المحيط : حكى الأستاذ أبو منصور قولاً أن التوقيف وقع فى الابتداء على لغة واحدة وما سواها من اللغات وقع عليها التوقيف بعد الطوفان، من الله تعالى فى أولاد نوح، حين تفروقوا فى الأقطار وقال : وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول من تكلم بالعربية المحضة إسماعيل، وأراد به عربية قريش التى نزل بها القرآن وأما عربية قحطان وحمير فكانت قبل إسماعيل عليه السلام.

وقال فى شرح الأسماء : قال الجمهور الأعظم من الصحابة والتابعين من المفسرين إنها كلها توقيف من الله تعالى.

وقال أهل التحقيق من أصحابنا :

لابد من التوقيف فى أصل اللغة الواحدة لاستحالة وقوع الاصطلاح على أول اللغات من غير معرفة من المصطلحين بعين ما اصطلحوا عليه وإذا حصل التوقيف على لغة واحدة جاز أن يكون ما بعدها من اللغات اصطلاحاً وأن يكون توقيفاً ، ولا يقطع بأحدهما إلا بدلالة.

ثم قال : واختلفوا فى لغة العرب فمن زعم أن اللغات كلها اصطلاح فكذا قوله فى لغة العرب، ومن قال بالتوقيف على اللغة الأخرى وأجاز الاصطلاح فيما سواها من اللغات اختلفوا فى لغة العرب، فمنهم من قال : هى أول اللغات. وكل لغة سواها حدثت فيما بعد إما توقيفاً أو اصطلاحاً، واستدلوا بأن القران كلام الله تعالى وهو عربى، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات وجوداً، ومنهم من قال : لغة العرب نوعان : أحدهما عربية حمير، وهى التى تكلموا بها من عهد هود ومن قبله وبقى بعضها إلى وقتنا والثانية العربية المحضة التى بها نزل القرآن وأول من أطلق لسانه بها إسماعيل، فعلى هذا القول يكون توقيف إسماعيل ، على العربية المحَضة يحتمل أمرين : إما أن يكون اصطلاحاً بينه وبين جرهم النازلين عليه بمكة وإما أن يكون توقيفاً من الله تعالى وهو الصواب. (١)

١- ص ١٢ - ١٣ من المقدمة، طبع الكويت، ١٩٦٥.

وأما العباب الزاخر للصغانى فيبدو من قائمة الكتب التى بنى المؤلف عليها كتابه أنه رجع إلى جميع ما كتب فيها تقريباً، فجاء كتابه تاماً من هذا الوجه، وإن كان المؤلف لم يتمه مما يجعل الحكم عليه غير تام . وقيمة الكتاب فى كون مؤلفه قد انتقى أخطاء أصحاب المعاجم من العرب كالجوهرى فى الصحاح والأزهرى فى التهذيب وابن السكيت فى إصلاح المنطق وابن فارس فى المجمل والصاحب ابن عباد في المحيط وغيرهم كما سترى فى النموذج الذى اخترناه لك. والمؤلف كما ذكر بنفسه فى مقدمة كتابه صنف هذا الكتاب للوزير ابن العلقمى وكال له من المدح ما يؤكد لك حقيقة ما ذكرناه فى خصائص الأدب العربى فى شبه القارة من أنه أدب نشأ فى معظمه فى أحضان السلاطين فارجع إليه إن شئت.

كذلك أخذ المؤلف على مؤلفى المعاجم العربية وعلماء اللغة ماجاء فى كتبهم من نسبة بعض الأبيات الشعرية خطأ إلى غير قائليها، وقام هو بتصحيح ذلك وهذه نكتة هامة امتاز بها المؤلف عن غيره، يقول فى مقدمة كتابه :

«فلا يسئ الظن بى، بل غيرى فى ذلك أولى بأن ينسب إلى التزييف أو يرمى بالتصحيف والتحريف، فإنى قد نخلت الكتب المتداولة بين الناس نخل محصلة وأثرت مبحثراً فص كل كتاب منها ومفصله، فوجدتها شاكة يحتميها الحافى، ويعافها العافى وفحصت عن بيت بيت، وركضت فى ميادينها الكميت، فوجدتهم قد خلطوا الهمل بالمرعى ولم يكن بالمرء عى وتناسوا فتمادى بهم النوم وطاب لهم الكرى فى ظل الدوم.

وهذا أبو منصور الأزهرى شيخ عهده وزمانه، وإمام عصره وأوانه، المشار إليه فى كثرة النقل، والمضروب إليه أكباد الإبل أنشد فى ك ل ل للعجاج :

حتى يحلون الربا كلا كلا

وهو لرؤبة ، لا للعجاج ، والرواية : حزماً يحلون

وأنشد فى رك ض لرؤبة :

والنسر قد يركض وهو هافى

وهو للعجاج لا لرؤبة.

وانشد فى ك د س لعبيد :

وخـــيل تكدس بـالدراعــــين ... كـمـشى الوعـول على الظاهره

وهو لمهلهل لا لعبيد.

وانشد فى س ك ر لأوس :

خـــذلت على لـيلة ســـاهرة ... فليــست بطلق ولا ســاكـــره

وهو مداخل، والرواية :

خـــذلت على لـيلة ســـاهرة ... بصـــحـــراء شـــرج إلى ناظره

تـزاد لـيـــالى فى طولهـــا ... فـليــست بطلق ولا ســاكـــره

وفى كتابه من هذا الجنس أكثر من ألف موضع.

وأما ابو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى الذى تخر له جباه أهل الفضل . وحكم له بحيازه السبق والفضل، فإنه قال فى تركيب س ع ب : قال ابن مقبل :

يعلون بالمردقوش الورد ضاحية ... على سعـابيب مـاء الضـالة اللجـز

ثم قال : أراد اللزج فقلبه.

وذكر فى فصل اللام من باب الزاى : اللجز :قلب اللزج وأنشد البيت : فلو كان هذا المقبل اطلع على ديوان شعر ابن مقبل لعلم أنه ليست له قصيدة زائية وأنها نونية، وأول القصيدة :

قـد فـرق الدهر بيب الحى بالظعن ... وبين أهـواء شـــرب يوم ذى يقن

وقبل البيت الذى ذكره :

يثنين أعناق أدم يخـتـلين بهـا ... حب الأراك وحب الضـــال من دنن

يعلون (البيت)

فقد أخطأ فى اللغة حيث قال : اللجز : اللزج، وفى الإنشاد، حيث جعل القافية النونية زائية.

وقال فى تركيب ش س ب قال الوقاف العقيلى :

فقلت له حان الرواح ورعته	بأسمر ملوى من القد شاسب

وهو لمزاحم العقيلى لا للوقاف.

وقال فى تركيب رقء :

وفى الحديث : لا تسبوا الإبل فإن فيها رقوء الدم.

وإنما هو قول أكثم بن صيفى فى وصية كتب بها إلى طيئ والوصية بطولها مذكورة فى « كتاب المعمرين » لابن الكلبى.

وقال فى تركيب خ ض م : الخضم أيضاً فى قول أبى وجزة السعدى: « المسن من الإبل» وإنما هو المسن بكسر الميم وفتح السين وهو الحجر الذى يحد به السكين ، ولو لم يقل من الإبل لحمل على الغلط من النساخ. وبيت أبى وجزة الذى لم يذكره هو قوله :

شاكت رغامى قذوف الطرف خائفة	هول الجنان نزور غير مخداج
حرى موقعة ماج البنان بها	على خضم يسقى الماء عجاج

وقال فى تركيب زرر : وإذا كانت الإبل سماناً قيل بها زرة . والصواب بهازرة على مثال فعاللة والكلمة رباعية. وفى كتابه مما يشاكل ما ذكرت منيف على ألفى موضع نبهت عليها كلها فى كتاب التكملة، ومجمع البحرين، وقد صحح نسخته وحشاها من قرأ علىّ هذا الكتاب بالهند والسند واليمن والعراق، وقد صححت نسخته وحشيتها بخطى بمدينة السلام حماها الله تعالى للخزانة الميمونة المعمورة الوزيرية المؤيدة زاد الله صاحبها من الارتقاء فى درج الجلال ووقاه وذريته عين الكمال فمن رام مصداق ما ذكرت فليقر عينه بإدارتها فيها، وليرتع فى رياض فرائدها وفوائد حواشيها.

وأما شيخ هذه الصناعه، وفارس ميدان البراعة، أبو الحسين أحمد بن فارس ابن زكريا الرازى، فإنه مع كثرة تصانيفه وجودة تآليفه، لم يسلم جواده فى جواد هذا المضمار من الكبوة والعثار. وقد ذكر في المجمل فى تركيب ت م م :

والمتتمم : المتكسر وهو فى قول الشاعر :

أو كانهياض المتعب المتتمم

فمن كانت بضاعته فى حفظ أشعار العرب مزجاة وشدا طرفاً من علم العروض حكم أنه من البحر الكامل على وزن قول أبى كبير الهذلى :

أزهير هل عن شيبة من مَعْكَمٍ　　　أم لا خلود لبـازل متكرم

والرواية : كانهياض بغير كلمة «أو» والبيت من الطويل وهو لذى الرمة، وصدره:

إذا نال منها نظرة هيض قلبه　　　بها ....

وقال فى تركيب ث غ ر : ثغرة النحر : الهزمة فى اللبة ، قال :

وتارة فى ثغر النحور

وهو مغير والرجز للعجاج ، والرواية :

ينشطهن ى كلى الخصور　　　مراً ومراً ثغر النحور

وتارة فى طبق الظهور

يصف ثوراً وحشياً يطعن الكلاب بروقيه.

وقال فى تركيب ج ل ل : فعلته من جلالك أى عظمتك ، قال

وإكرامى العدى من جلالها

وإكرامى العدى من جلالها

والرواية : وإكرامى القوم العِدَى . . .

وصدره : حيائى من أسماء والخرق دونها

وفي هذا الكتاب من هذا النوع حدود خمس مائة موضع، وفي سائرتصانيفه من هذا الجنس من التخلل كثير. وقد ذكر في كتابه الموسوم بالصاحبي في فقه اللغة في حروف المعاني في ذكر كلمة رويد، وقال: قالوا: هو تصغير رود وهو المهل: قال:

كأنها مثل من يمشي على رود

وهذا الإنشاد مقلوب محروف، والرواية:

كأنه ثمل يمشي على الرود

وصدره: يمشي ولا تكلم البطحاء خطوته

ويروى: وطأته

ويروى: كأنه فاتن يمشي . . . .

أي صبي، وقيل: جارية.

والبيت للجموح الظفري قاله يوم نبط، وهو يوم «ذات البشام».

وكذلك سائر تصانيفه وأكثرها عندي.

وأما شيخ شيوخ هؤلاء السيف الإصليت، يعقوب بن إسحاق السكيت، فمشار إليه في هذا الفن، وكتابه الإصلاح محتاج إلى الإصلاح، وقد قال في باب فَعْل وفعْل: قال الراجز:

مهر أبي الحبحاب لا تشل بارك فيك الله من ذي أل

والرواية: مهر أبي الحارث.

وهو أبو الحارث بشر بن عبد الملك بن بشر بن مروان الذي يقول فيه بشير بن النكث

بشر بن عبد الملك بن بشر كالنيل يسقي قريات مصر

والرجز لأبي الخضر اليربوعي.

وقال في باب فَعْل وفَعَل : قال أبو ذؤيب الهذلي :

ومدعس فيه الأنيض اختفيته بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

وصدر البيت من قصيدة رائية وعجزه :

بجرداء يتناب الثميل حمارها

وليس فيه شاهد على الوكف.

وعجزه من قصيدة بائية وصدره :

تدلى عليها بين سب وخيطة

وقال في الباب : وقد أجرسني السبع إذا سمع صوت جرسي، قال :

حتى إذا أجرس كل طائر قامت تُعَنْظى بك سمع الحاضر

وبين المشطورين مشطوران وهما :

وألجأ الكلب إلى المآخر تميز الليل لأحوى جاشر

والرجز لجندل بن المثنى الطهوي :

وقال في باب ما جاء مضموماً : الأبلة أيضاً : الفدرة من التمر ، قال الشاعر :

فيأكل ما رض من زادنا ويأبى الأبلة لم ترضض

والرواية : من زادها « ومن تمرها » هو الصحيح أي من تمر الظبية المذكورة في البيت الذي قبله وهو :

لها ظبية ولها عكة إذا أنفض القوم لم تنفض

والشعر لأبى المثلم الهذلى.

وقال فى باب ما يفتح أوله وثانيه : ومن العرب من يخفف ثانيه وقال :

وقـــد علتنى ذرأة بـادى بدى ورثيـــة تنهض فـى تشــددى

وصار للفحل لسانى ويدى

والرجز لأبى نخيلة السعدى ، والمشطور الثالث ليس فى رجزه

وقال فى باب ما جاء على أفعلتُ والعامة تقول بفعلتُ : قال الهذلى :

وقد عمت بإشحان

والرواية : عراة بعد إشحان والهذلى هو أبو قلابه : وأول البيت :

إذ غارت النبل والتف اللفوف وإذ سلوا السيوف .....

وهلم جرا.

وأما الصاحب ابن عباد فإن كتابه المسمى بالمحيط لو قيل إنه أحاط بالأغلاط والتصحيف لم يبعد عن الصواب. وكان علماء زمانه خافوا أنهم لو نطقوا بشئ منها قطع رسومهم وتسويغاتهم، فلبوا نداءه، وأمنوا على دعائه، ونجوا بالصموت.

ومن جملة تصحيفاته أنه قال فى تركيب ن زم :

النزم : شدة العض والمنزم : السن . النزيم : حزمة من بقل . وكل هذا بالباء الموحدة : وكم مثلها فارقتها وهى تصفر».

ولم أذكر ما ذكرت - مما وقع فيه السهو وانحراف عن سنن الصواب ونهج السداد ، والعياذ بالله تعالى - إزراءاً بهم، أو غضًا منهم. أو تنديداً بالهفوات، أو وضعًا من رفيعات أقدارهم بالسقطات. وكيف وما استفدت إلا من تصانيفهم ولا انتفعت إلا بتآليفهم، وما اعتديت إلا بأنوارهم ولا اقتفيت إلا لراحب آثارهم، وما حملت ذلك إلا على الغلط من الناسخين لا من الراسخين، وأنهم لفرط اهتمامهم بالإفادة لم يتفرغوا

للمعاودة والمراجعة . فهم القدوة وبهم الأسوة - رحمنا الله تعالى وإياهم - فجزاهم عن جدهم وجهدهم خيراً ولو ذكرت لكل كتاب صنف فى اللغة نموذجاً لطال الكلام وتسلسل النظام.

فلما رأيت مسلك التناول من هذه الكتب شائكاً وعراً قلت لنفسى : أطرى فإنك ناعلة. وسقت هذا الكلام أمام شروعى فى الكتاب مزجرة لكل ناقص وقد قيل :

لا تَـهَـنَّـا مـن تمـنـى مـع نـفـس جـاهـلـة
أن يـسـاوى مـن تـعـنَّـى فـى نـفـيـس الجـاه لـه

وأسأل الله تعالى أن يجعلة خالصاً لوجهة، ومقرباً من رحمته، فقد فسرت عدة آيات من كتاب الله تعالى، وقطعة صالحة من غرائب أحاديث رسول الله (ﷺ) وأحاديث الصحابه، التابعين، رضى الله عنهم ورحمهم أجمعين.

وأرجو من عميم فضله أن يسير هذا الكتاب فى الآفاق، ويهب عليه قبول القبول ويعصم من الزلل والخلل والخطأ والخطل وهو حسبى ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير». (١)

والنص يؤكد لك سعة اطلاع صاحبة، ورصانه أسلوبه وحسن عبارته وتمكنه من اللغة، وحسن تتبعه للشواهد ودرايته بما يقول ،واعتزازه بعلمه وإحساسه بتفوقه على غيره وغزارة معرفته.

١- العباب الزاخر : ١/ ١٢ - ٢ بغداد ١٩٧٨. بتحقيق الدكتور بير محمد حسن.

الفصل الرابع

علوم البلاغة

علوم البلاغة مثلها مثل النحو والصرف عنيت باهتمام كبير بين أدباء العربية فى شبه القارة وما ذلك إلا لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بنظام الدرس فى المدارس الدينية التى تمحورت حولها الدراسات العربية. لذلك ترى فى انتاج هؤلاء الأدباء كثيراً من الشروح والحواشى على كتب عربية أدخلت فى مناهج الدرس كالمطول والمختصر والفوائد الغياثية. ومع ذلك فقد أفرد بعضهم بالتأليف كتباً فى علوم البلاغة عكف عليها الطلاب والدارسون فى شبه القارة.

فمما دونته أقلام الأدباء فى هذا الفن حاشية على مفتاح العلوم للشيخ معين الدين العمرانى والفوائد المحمودية شرح الفوائد الغياثية لمحمود بن محمد الجونبورى، وحاشية على المطول للشيخ وجيه الدين العلوى الكجراتى وحاشية عليه لعبد الحكيم السيالكوتى وحاشية أخرى للسيد محمد بن محمد القنوجى، وحاشية لنور الدين بن محمد صالح الكجراتى وهى المسماة بالمعول شرح المطول، وهناك حاشية على المطول أيضاً للشيخ نور الدين الكشميرى وأخرى للقاضى عبد النبى الأحمد نكرى وحاشية للشيخ فريد الدين الأحمد آبادى وحاشية لجمال الدين بن ركن الدين الكجراتى وحاشية لمعز الدين الخالصبورى. كذلك كتب وجيه الدين العلوى حاشية على المختصر كما كتب جمال الدين الكجراتى حاشية أخرى.

وأما الكتب التى ألفوها فى البلاغة وعلومها فمنها حدائق البيان لمنور بن عبد المجيد اللاهورى، وحدائق البلاغة لشمس الدين العباسى اللاهورى، وسبحة المرجان لغلام

على آزاد البلكرامى، ونقد البلاغة وشرحه لخير الدين محمد الاله آبادى، وميزان البلاغة لعبد العزيز الدهلوى وشرحه للقاضى ارتضاعليخان وشرحه للقاضى عبد القادر ابن محمد أكرم الرامبورى، ومنها غصن البان المورق بمحسنات البيان لصديق حسن القنوجى، ورسالة فى التشبيه والاستعارة لسعد الله المراد آبادى، وملخص البلاغة للسيد محمد حكم البريلوى، ورسالة فى البلاغة للشيخ الواسع الهانسوى، وكتاب فى البلاغة لشمس الدين الحيدر آبادى، وتحفة الفقير كتاب فى الصنائع والبدائع لرضى الدين مرتضى البجابورى، وحل أبحاث الفرائد لمحمد شكور بن أمانت على الجعفرى، والمقال الطريف لعبد الغنى الفرخ آبادى، ومعيار البلاغة لسكندر على خان الخالصبورى.(١)

ونحن فى هذا المقام قد اخترنا ما يمثل لك الصنفين : الحواشى التى كتبوها على كتب عربية أصيلة، ومؤلفاتهم التى كتبوها هم بأنفسهم.

ولعل أشهر ما عند العرب من حواشى كتبها أهل شبه القارة حاشية السيالكوتى على المطول. فقد طبعت هذه الحاشية فى الدول العربية فصارت من المراجع الأساسية لهذا الفن عند العرب. يقول السيالكوتى :

(قوله وعلم البلاغة كافل الخ) أى علم له مزيد اختصاص بالبلاغة أعنى المعانى والبيان كافل بإتيان هذين الأمرين من حيث يتعلق بهما الارتقاء فى البلاغة على وجه التمام كما فى قوله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله) وذلك لأن علم المعانى كافل للمطابقة وعلم البيان كافل للخلوص عن التعقيد المعنوى وما عداه من الأمور المعتبرة فى الفصاحة لا تعلق له بالارتقاء فى البلاغة ولا يجوز تفسير علم البلاغة بعلم له تعلق بالبلاغة فيشمل اللغة والصرف والنحو لأنه خلاف المعنى المتعارف وينافيه قوله لا يعرف بهذا العلم فإنه صريح فى أن المراد به المعنى المتعارف ويرد عليه أن الخلوص عن التنافر لا يتكفل له العلوم المذكورة فلا يصح أن علم البلاغة كافل بإتمام هذين الأمرين وكذا لا يجوز أن يقال معناه أن علم البلاغة أى المعانى والبيان كافل بإتمام هذين الأمرين وإكماله

١- مأخوذ بتصرف عن الثقافة الاسلامية، ص ٣٩ - ٤٠.

فلا ينافي توقف بعض هذين الأمرين على علوم أخر والذوق السليم لأنه لا يصح تفريع قوله فمن أتقنه وأحاط به كما لا يخفى (قوله قلنا الخ) منع للمقدمات التى ذكرها المستفسر على الترتيب فقوله لا يعرف منع لكفالته وقوله فإمكان الإحاطة منع لحصول الإتقان والإحاطة للبشير وقوله وكثير من مهرة الخ منع لترتيب الرعاية على الإتقان فتدبر فإنه قد غلط فيه الناظرون (قوله وأما الاطلاع الخ) أى معرفة عدد الأحوال وكيفيتها فى الشدة والضعف ورعاية الاعتبارات بحسب المقامات التى يتوقف عليها الإتيان بكلام هو فى الطرف الأعلى فأمر آخر لا تعلق له بعلم البلاغة ولا يستفاد منه (قوله ولو سئل) أى كفالة هذا العلم للاطلاع المذكور (قوله كما مر) فى قوله إذ به يكشف عن وجوه الإعجاز فى نظم القرآن أستارها (قوله ظاهر هذه العبارة الخ). لقرب المعطوف عليه والمرجع (قوله من المراتب العلية الخ) بناء على أن الحد بمعنى المرتبة وما يقرب من مرتبة الإعجاز ليس داخلاً فيها فلا يكون من الطرف الأعلى. [1]

وأما النموذج الثانى فهو كتاب سبحة المرجان فى آثار هندوستان، وقد مر بك شئ من ذكره فى باب محاولات التجديد، ونخصك هنا بشئ آخر منه. والكتاب مرتب على أربعة فصول وفق فصول السنة، الأول فى ذكر ما جاء فى الكتاب والسنة عن الهند، والثانى ذكر طائفة من العلماء والأدباء ممن لهم أشعار وكتب أدبية والثالث فى البدائع التى نقلها عن الهندية الى العربية، والرابع فى أسرار النسوان وهو فن عجيب من فنون الهنود. والفصل الأول لا يهمنا، والثانى مادته مكررة فى كتب التراجم والرابع قد يكون بين العرب من يهتم به فى ذاته، فلا يهمنا من الكتاب إذن فى هذا المقام إلا فصله الثالث.

ونحن قد أطلعناك على شئ من نقد سبيل المؤلف السيد غلام على آزاد البلكرامى فى شأن ما أراد إدخاله فى العربية عند كلامنا عن التجديد، ونضيف هنا أن الفصل الذى عقده لعرض فنون البلاغة عند الهنود يفيد بلا شك طلاب البلاغة فى الاطلاع على

١- حاشية السيالكوتى على المطول ص ٥٩، منشورات الرضى، قم ايران، بدون تاريخ.

هذه الفنون عند أدباء الهند، وقد يستفيد منه المهتمون بالمقارنات بين آداب شبه القارة والأدب العربى، لكن أهميته لا تزيد عن هذا الحد، ومن هنا اختلفنا مع وجهة نظر المؤلف فى إمكان استيراد هذه الصنائع الأدبية وممارستها والنسج على منوالها فى الأدب العربى، فذاك أمر لا فائدة منه من أجل ذلك رأينا ألا نوجع رأسك بإيراد ما لا فائدة له فى دراستنا الأدبية، واقتصرنا على ذكر بعض المشترك بين الأدبين العربى والهندى من هذه الفنون، فهذا أجدى وأنفع، وذكر ما تفردت به العرب عن الهنود.

فأما ما تفردت به العرب فهو نوعان : حسن التخلص واستخدام المضمر وقد تكلم آزاد عن الأول مستقلا برأسه فقال :

هو أن ينتقل المتكلم مما ابتدأ به الكلام كغزل أو فخر أو وعظ أو غيرها الى المقصود بجهة جامعة مقبولة وإنما ذكرت المخلص ههنا مع أنه من المختصات بالعرب لأنى نظمت قصيدة بديعية فمست الحاجة إليه ووجب الطواف حواليه لكونه روح القصيدة ونطاق خصارة الخريدة وهو المصلح بين الفئتين والحد الأوسط بين القضيتين فحين يتلقاه السامع يرحب الشاعر على عمل طبيعته و يستحسنه على حسن صنيعته حيث سعى فى الألفة بين المتنافرين وجهد فى التعارف بين المتناكرين وقد أوصل الشعراء هذا النوع الى أعلى المراتب والمناصب ومخالصهم فى الكتب مذكورة بين الأدباء مشهورة فاكتفيت ها هنا بمخالصى التى لم تقرع أسماع الناس ولم تجل فى ميادين القرطاس منها قولى من قصيدة نبوية مورياً بالسليم:

بات الفؤاد بصدغها متجرعاً   من سم تلك الحية السوداء
فأتيت بالقلب السليم منادياً   غوث الورى فى شدة ورخاء

وقولى فى قصيدة نبوية :

تبسمت فحسبنا وجهها قمراً   مشققاً معجزاً من سيد العرب

وقولى من قصيدة نبوية :

رشيقة أشبهت فى ميسها شجرا   دعاه من هو هادى النجم والشجر

وقولى من قصيدة نبوية :

أيا عـارض البطحـاء أضحكت دائماً ... لأنـت رؤف بالغـصـون النواضـر
أفضت على العطشى ميـاها معينـة ... وأظللت رأس المصطفى فى الهـواجـر

وقولى من قصيدة نبوية :

أحـمـامـة البطحـاء أنـت بمأمن ... وأنـا المقـيـم بمـوقـع الأخطار
فـتـفـقـدى من نـاء عـن جـيرانـه ... هذا لعـمـرى مـسلك الأخـيـار
أو مـا سـمـعت وأنت من أم القـرى ... بحـمـامـة خـدمت نزيـل الغـار

وقولى من قصيدة نبوية :

لك الخيـر يا غيـمـا الث بعـالـج ... لأنت على شـبـح الخـمـائل هامع
رويت بسلسـال الغـوير فـهل ترى ... يفـوز برشح من زلالك طامـع
وأرجـو سـيكفـينك ذو رأفـة لـه ... أصـابـع للمـاء المعين منابـع

وقولى من قصيدة نبوية وهى مشتهرة بلامية الهند:

إن المجـاز وأيـم اللـه قنطرة ... طوبى لمن جـاز مـحـفـوظاً عن الزلل
فـانظر إلى من تجلى فى مظاهـره ... سبـحـانه وتعـالـى منتـهى الأمـل
غـرست لله تسـبيـحـاً وأرقـب أن ... أنـال أثمـاره فـى أقـصـر المهـل
بجـاه من أثمـرت أشجـاره عـجـلا ... عـونا لعـبد عـتيق حـار فى العـمـل
هو الذى دلنا لطفـا على شـجـر ... يقـيـد فـى كل حين يانـع الأكل

وقد أوردت قصيدتى لامية الهند بعد لامية القاضى عبد المقتدر الدهلوى فى الفصل الثانى تحت ترجمة القاضى المشار إليه وفسرت أبيات هذا المخلص هنالك إن احتجت فارجع إلى ثم ......

وقولى من قصيدة فى مدح جدى وأستاذى مولانا السيد عبد الجليل البلكرامى:

غزالة تصرع الآساد قاطبة ... إلا الذى سيد السادات تحميه

وقولى فى مدحه أيضاً :

إن غاض أمواه العراق فإننى ... أسعى على رأسى الى البحرين

أعنى يدى لسلطان مملكته الندى ... ينصب من هاتين ماء الجين

وفى البيت أبو قلمون هاتين بالعربية من أسماء الاشارة «وهات» بالهندية اليد ثنيتها تثنية العرب. (١)

وفى آخر النص كما ترى نموذج من الأمور التى اعترضنا عليها ونقدناه لأجلها فى كلامنا عن التجديد فالعرب لن يتذوقوا ما فى «هاتين» من فن كما يتذوقه هو لأنهم لا يعرفون الهندية، ومخاطبة الناس بما لا يعرفون عبث وسخف. لكن آزاد وهو يتحدث عما اختص به العرب وهو حسن التخلص واستخدام المضمر، أفرد الأول كما رأيت وأحال القارئ لمطالعة استخدام المضمر إلى نوع قال «إنه من مخترعاتى» (٢) وسماه صرف الخزانة لاشتراك اللفظ فى معان كثيرة يصرف كل منها إلى ما يستحقه وبعد أن ذكر شواهد كثيرة، قال :

وهذا النوع أعنى صرف الخزانة وهو استخدام المظهر على طريقة الشيخ بدر الدين صاحب المصباح وتعريفه أن يؤتى بلفظ مشترك بين المعنيين والأخرى ومثلوه بقول أبى العلاء المعرى يرثى فقيهاً حنفياً :

وفقيه ألفاظه شدن للنعما ... ن ما لم يشده شعر زياد

١- سبحة المرجان : ٢/ ٢٧٧ - ٢٨٢.

٢- سبحة المرجان : ص ٧١.

النعمان أبو حنيفة رحمه الله تعالى وابن المنذر ملك الحيرة وزياد هو النابغة مادحه يقول هذا فقيه شادت ألفاظه لأبى حنيفة من حسن الذكر مالم يشده زياد للنعمان بن المنذر فلفظ فقيه يخدم أبا حنيفة وشعر زياد يخدم النعمان.

وقول المعرى أيضا يصف درعاً :

تلك ماذية وما لذباب السيـ ... ـف والصيف عندها من نصيب

الماذية الدرع اللينة السهلة والعسل الأبيض الجديد والذباب طرف السيف والطائر المعروف فلفظ السيف يخدم طرف السيف ولفظ الصيف يخدم الطائر فإنه يكثر فى أيام الصيف ثم ذباب السيف يخدم معنى الدرع من الماذية وذباب الصيف يخدم معنى العسل منها ففى البيت استخدامان وفيه زيادة أخرى وهى أن الاستخدام الثانى يخدم الاستخدام الأول وهذا من العجائب ومعنى البيت على إرادة معنى الدرع بالماذية أن هذه درع لاحظ عندها لسيف الأعداء وعلى إرادة معنى العسل بها إن هذه الدرع كأنها عسل فى اللين والبياض واللمعان لا يحوم حولها الذباب من الأعداء الأخساء.

والشيخ زكى الدين بن أبى الأصبع مثل هذا النوع بقوله تعالى «لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت» فإن لفظة كتاب تحتمل الأجل المحتوم والكتاب المكتوب وقد توسطت بين لفظة أجل تخدم المعنى الأول ولفظة يمحو تخدم المعنى الثانى ومثل غيره بقوله تعالى «لا تقربوا الصلوة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابرى سبيل» فالصلوة تحتمل أن يراد بها فعلها وموضعها وقوله تعالى «حتى تعلموا ما تقولون» يخدم الأول و «إلا عابرى سبيل» يخدم الثانى ......

ووجه تسمية هذا النوع بالاستخدام أن كل واحد من المعنيين يستخدم قرينته وهى تخدم صاحبها ومخدومها وتميزه عن غيره، وبعضهم جعلوا القرينة مستخدمة والمعنى خادما، والأولى ما ذكرته كما هو ظاهر على الذهن السليم .

وللاستخدام قسم آخر عند أدباء العرب على طريقة الخطيب صاحب الإيضاح وهو استخدام المضمر وتعريفه أن يريد المتكلم بلفظ مشترك معنى ثم يعيد عليه ضميراً فصاعداً بمعنى غيره كقول ابن أبى حصينة :

وحلت بأكناف الغضا فكأنما حشت ناره بين الحشا والأضالع

الغضا أرض لبنى كلاب وواد بنجد وشجر معروف تكون ناره فى غاية القوة فالمراد بالغضا أولاً أحد المكانين والضمير راجع إليه بمعنى الشجر.

وقول بعضهم :

وللغزالة شئ من تلفته ونورها من سنا خديه مكتسب

الغزالة الظبية والشمس.

وقول الصفى الحلى

إذا لم أبرقع بالحيا وجه عفتى فلا أشبهته راحتى فى التكرم

ولا كنت ممن يكسر الجفن فى الوغى إذا أنا لم أغضضه من غير محرم

الحياء المعروف والمطر والجفن غمد السيف وغطاء العين.

وقولى :

روحى فداء سليمى أى إنسان ما إن رأى مثلها فى سرب غزلان

الإنسان البشر وناظر العين.

ثم إعلم إنى أطلقت استخدام المظهر على طريقة الشيخ بدر الدين واستخدام المضمر على طريقة الخطيب وما كان هذا الإطلاق عليهما قبل.

قال السيوطى فى الأتقان «قيل ولم يقع فى القرآن على طريقة صاحب الإيضاح شئ من الاستخدام وقد استخرجت بفكرى آيات على طريقته منها وهى أظهرها قوله تعالى «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين» فإن المراد به آدم ثم عاد الضمير عليه مراداً به ولده فقال «ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين» ومنها قوله تعالى «لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» ثم قال «قد سألها قوم من قبلكم» أى شيئاً آخر لأن الأولين لم يسألوا عن الأشياء التى سأل عنها الصحابة فنهوا عن سؤالها ، انتهى.

أقول لا يصح ما استخرجه من المثالين : أما الأول فلانا لا نسلم عود الضمير إلى الانسان مراداً به ولد آدم قال البيضاوى فى تفسيره، «ثم جعلناه» ثم جعلنا نسله بحذف المضاف فالضمير راجع الى الانسان مراداً به آدم ولو سلمنا بإطلاق الإنسان على آدم وولده بمعنى واحد لأنه مشترك معنوى اشتراك الكلى بين جزئياته لا لفظى، اللهم إلا أن يراد بالمشترك محتمل المعانى والإرادات أعم من أن يكون بوضع واحد أو بأوضاع متعددة أو أعم من أن يكون حقيقة أولا فحينئذ يندفع ما هو وارد من جهة الاشتراك لأن آدم وولده بخصوصهما معنيان مجازيان للانسان على ما قالوا من أن إطلاق الجنس على الفرد من حيث خصوصية الفردية مجاز فيتحقق تعدد المعانى وإن كانت مجازية ويمكن أن يؤخذ كل واحد منهما معهوداً بلام العهد فحينئذ يكونان معنيين حقيقيين للانسان المحلى باللام وإن لم يكن الإنسان مشتركاً بينهما اصطلاحاً لاعتبار تعدد الوضع فى الاشتراك ولا تعدد هنا بل وضع واحد وإن كان نوعياً وأما الثانى فلأن الأشياء التى سأل عنها الصحابة لا يجب أن تكون مغايرة للتى سأل عنها الأولون ولو سلمت المغايرة فإنما هى بحسب الوقع لا مما يدل عليه الكلام والمفيد فى تحقيق الاستخدام هو الثانى دون الأول والشيخ صفى الدين الحلى جعل كل واحد من القسمين للاستخدام ملتبساً بالتورية وليس الأمر كذلك بل الالتباس فى استخدام المظهر فقط لا فى استخدام المضمر لأن مداره على إرجاع الضمير ولا ضمير فى التورية حتى يلتبس بها.

وقد ألم أصحاب البديعيات وغيرهم باستخدام المضمر لا باستخدام المظهر وقالوا تلك الطريقة أحسن موقعاً وألطف مورداً من هذه الطريقة ولعمرى إن استخدام المظهر هو جليل القدر غير منحط شأنه عن شأن أخيه وقد ألم به أدباء الهند فى لسانهم ونظموا له أمثلة فى غاية الملاحة .وأنا عرفته فى العربية بتعريف يعجب الطبائع وسميته باسم يروق المسامع ونظمت له أمثلة لم ينظم أحد قبلى على هذه الكيفية بل ما روى من أمثلته فى كتب المؤلفين الا البيتان اللذان سبقا من المعرى.

أما قول ابن نباتة المصرى وقول الصفدى المتقدم ذكرهما فقد عرفت حالهما وبالجملة أنا ذكرت صرف الخزانة فى سلك أنواع الأهاند مع أنه مشترك بينهم وبين العرب لقلة وجوده فى كلام العرب كأنه لم يكن فيه وإيراده فى هذا الكتاب وجه آخر وهو أن براعة

الجواب وجمع الخزانة وتفريقها وتشبيه الاستخدام وتفضيل الاستخداء لكل منها تعلق بالاستخدام فلا بد من شرحه هنا كي يتبين هو وما يتعلق به. (١)

ولولا ما في النص من إعجاب بالذات لكان طريق المؤلف أقرب الى النفس ، وليت آزاد ترك مدح محاولاته وآرائه للآخرين. فإن تغاضينا عن ذلك بدا لنا النص غنياً بالأمثلة كما بدا وثيقة تثبت طول باع آزاد في فنون البلاغة وما عمل فيها من عوامل الدراسة العميقة للأدبين الهندي والفارسي ثم محاولة الربط بين هذا وبين ما يماثله في الأدب العربي .والذي لا شك فيه أن استدراكات المؤلف على آراء السيوطي وابن أبي الأصبع والحلي لها وجه معقول يستحق النظر من أهل هذه الفنون ، كما أن تفريقه بين طريقتي الخطيب والشيخ بدر الدين تبدو محاولة للوصول الى تعريف أدق لاصطلاحات ومعاني هذه الفنون ، وانما ذلك كله لأن المؤلف تمرس بهذه الصنائع كما يتمرس بكثرة المران أصحاب الصنائع أيا كانت ، وكثرة ما نظم المؤلف للاستشهاد بهذه الفنون يشير في نفسه الى مدى اهتمامه بالصنعة في شعره .هذه هي الجوانب المضيئة في إنتاج آزاد ، التي سودتها سحائب دخان ذكرناها في موضعها هنا وهناك ، ولو لم يسقط آزاد في هذه المزالق واقتصر على الاجتهاد في وضع تعريفات أدق لاصطلاحات الفن ، واستخدم معرفته بالآداب الشرقية في وجوه مفيدة لارتفع ذكره ولأثمر غرسه.

ونسوق لك هنا مثالاً من الفنون المشتركة بين العربية والهندية ليتبين لك مدى الاستفادة لو أن المؤلف أكثر من هذه المقارنات. يقول آزاد :

التوريـــة :

هذا النوع سلطان المحسنات ولواء الحمد بين الرايات وهو المتصف بغر المزايا والموجود في جميع ألسنة البرايا ، والتورية مصدر وريت الحديث إذا أخفيته وأظهرت غيره مأخوذ من وراء الإنسان فإذا قال وريته فكأنه جعله وراء بحيث لا يظهر وهي في الاصطلاح أن يذكر لفظ له معنيان قريب لظهور دلالة اللفظ عليه وبعيد لخفاء دلالة اللفظ عليه

١- سبحة المرجان : ٢/ ٧٥ وما بعدها.

فيقصد المتكلم المعنى البعيد ويورى عنه بالقريب ويوهم السامع فى أول الوهلة أنه يريد القريب ولهذا سميت إيهاماً أيضاً ولا يلزم فى التورية أن يكون للفظ معنيان بل يجوز أن يكون له معانى متعددة وذكر المعنيين في التعريف اكتفاء على الأقل. كقول النبى ﷺ، «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق» قيل : هم أهل الشام لأنه غرب الحجاز وهو المعنى القريب لكثرة استعمال أهل الغرب فى سكان الجانب الغربى والغرب، شجرة حجازية قيل ومنه الحديث وقيل الغرب: الحدة والشوكة، والمراد بهم أهل الحجاز وقيل الغرب الدلو والمراد بهم العرب، لأنهم يسقون بها، والمعانى الثلاثة هى المعانى البعيدة واستخراج التورية عن هذا الحديث من قلم المؤلف.

وقــولــى :

يا قلب ذنب همت الأظعان بالسفر وقل سلام على سيارة السحر

السيارة : القافلة وصيغة المبالغة فى السير ومقابل النجم الثابت وباضافتها الى السحر تتعين الزهرة الصباحية والمراد بالمعنيين الآخرين المحبوبة.

والأمير خسرو الدهلوى أوصل التورية بالفارسية الى سبع معانى وإنما ذكرت التورية فى كتابى مع كونها مشتركة بين العرب والأهاند، بل بين جميع الألسنة لأنها وصرف الخزانة تربان متماثلان وتوأمان متشاكلان فرأيت جمعهما من الحسنات ورأيت قطع الرحم بينهما من السيئات ولهذا ذكرتها متصلة بصرف الخزانة.

والفرق بينهما أن اللفظ المتعدد المعنى إن كان كل واحد من معانيه مقصوداً بالذات فهو صرف الخزانة وإن كان المعنى القريب من معانيه توطئة والمعنى البعيد مقصوداً بالذات فهى التورية.

والفرق الآخر أن التورية يصح فيها معنى الكلام إن اكتفيت بأحد المعنيين. وصرف الخزانة يختل فيه المعنى إن اكتفيت بأحدهما وللتورية تفصيل ذكره أدباء العرب فى مصنفاتهم ولها أمثلة عديمة أمثالها مسطورة فى كتب الفن لا سيما بديعية ابن حجة، فإنه وسع الباب وملا الإهاب وأثبت هنا من أمثلتها نبذة منها :

قوله تعالى حكاية عن مريم «إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا» أى إن كنت تقيا متورعاً فإنى أعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك وروى أن تقياً اسم رجل كان فى ذلك الزمان وكان شريراً يتعرض النسوان ومريم سمعت قصته فظنت المخاطب أنه تقى فيحتمل أن ورت مريم عن هذا المعنى بالمعنى الأول كيلا ينسب السوء إلى المخاطب إن لم يكن الظن مطابقاً للواقع وقوله تعالى «طوبى لهم» طوبى كحسنى زنة ومعنى وشجرة فى الجنة فالمعنى القريب الحسنى والمعنى البعيد شجرة الجنة لأن الظاهر أن المعنى الثانى لم يكن مشهوراً وقت نزول الآية وأيضاً طوبى الجنة بالهندية فازدادت تورية أخرى وفى الآية أبو قلمون ويجئ بيانه فى محله، والتورية فى الآيتين من مستخرجات المؤلف، فما حام حولها أحد من المفسرين وهؤلاء إنما ذكروا المعنيين بلا ذكر من التورية.

وقول مسعود بن سعد سلمان اللاهورى مورياً بذنب السرحان والغزالة :

وليل كأن الشمس ضلت ممرها ... وليس لها نحو المشارق مرجع

نظرت إليه والظلام كأنه ... على العين غربان من الجو وقع

فقلت لقلبى طالما ليلى وليس لى ... من الهم منجاة وفى الصبر مفزع

أرى ذنب السرحان فى الجو طالعاً ... فهل ممكن أن الغزالة تطلع

وقول ابراهيم المعمار فى مليح مؤذن :

شغفت به يؤذن وهو بدر ... تلوح على شمائله السعادة

تشهد فى الأذان فمت شوقاً ... فيا بشراى مت على الشهادة

وقول القيراطى فى من لقبه مشمش :

ومهفهف فى خده ... نار تهيج فى الهوى

قد لقبوه بمشمش ... لكنه مر النوى

وقول ابن نباتة المصرى فى من اسمه بدر الدين :

تغـيـر بـدر الديـن بعـد مـودة ... وحـالـت به الأيـام عن ذلـك الوفـا

ودل عـلـى أن الـوداد تـكـلـف ... فـلا عـجـب لـلـبـدر أن يتـكلفـا[1]

ويستمر آزاد فى سرد الأمثلة من شعر الآخرين الى أن يسوق فوق خمسة وأربعين مثالاً آخر من شعره. وأنت تعرف أن بعض الأمثلة تكفى لبيان المراد. وان كان ثمة من فائدة فهى احتواء أجزاء الكتاب على نماذج وأمثلة من شعر الشعراء قد لا تجدها مجموعة فى كتاب آخر. وكان بوسع آزاد أن يسوق ولو نثراً قبساً من أخيلة شعراء الهندية فى التورية . والنص كما ترى يعكس ثقافة آزاد العربية والفارسية والهندية ، ويريك دقة تفريقه بين أنواع البديع، وإن غاب عنه المنهج العلمى فى المقارنة والعرض، وضاعت بين الشواهد الزائدة عن الحاجة لذة التمتع ببحث بلاغى فى التورية عند العرب والفرس والهنود.

ويبدو أن نقاط الضعف فى منهج المؤلف وكتابه لفتت أنظار بعض الباحثين فى داخل شبه القارة فهذا صديق حسن القنوجي يعيد عرض سبحة المرجان فى كتاب صغير سماه غصن البان المورق بمحسنات البيان، قدم له بمقدمة فيها مقارنات بين جوانب من الآداب العربية والفارسية والهندية قال فيها :

(فليعلم أن لسان العرب كرامة بدت على لسان واضعه لا يستطيع أحد أن يضع لساناً آخر مثله فكيف الزائد عليه حسناً وجمالاً، والأشرف منه غنجاً ودلالاً. واللطافة التى منحها الله تعالى لسان العرب ليست فى لسان الفرس ولا فى لسان الهند ولا فى سائر الألسنة، والمخارج التى تختص به فى غاية العذوبة ونهاية اللطافة كالثاء والحاء والصاد والضاد والطاء والظاء والعين بخلاف مخارج الألسنة الأخرى كالباء والزاء الفارسيتين والتاء والدال والراء الهندية والهاء المختفية منها فأرباب الأذواق السليمة الذين وقفوا على اللغات المختلفة والألسنة المتنوعة وجبلوا على شيمة النصفة يقضون

١- سبحة المرجان : ٢/ ٨٦ - ٩٣.

بأن المخارج المختصة بلسان العرب ألطف وأشرف من المخارج المختصة بغيرهم. ومن عجائب القدرة الإلهية أن الألسنة الهندكية لا حسن فى نشرها وكما تصلح العربية والفارسية والتركية له فى قصوى الفصاحة وقصارى البلاغة التى وضع لها علم المعانى والبيان لا تصلح الهندكية لذلك لخصوصية اللسان واختصاص الميزان. والشأن الذى لاح فى جبين النثر العربى لم يلح فى النثر الفارسى والتركى بل فى نثر جميع الألسنة الأخرى كما يظهر ذلك عند الامتحان. والمختصات بلسان العرب جلت عن دائرة الحصر والإحصاء كتتويج اللفظ بلام التعريف ونزعها عنه والتنوين والإعراب والبناء والإعراب بالحركات الثلاثة وبالحروف الثلاثة وما يترتب عليهما من الأحكام التى تقف دونها الإحاطة وعوامل الإعراب والجزم والصرف ومنعه وتنازع الفعلين فى العمل وتنوع أحكام المنادي وجواب القسم والتلاعب بمادة واحدة فى أبواب مختلفة لفظاً ومعنى كنصر واستنصر وتنصر وتناصر ونحوها وتنوع المصادر وكنى الحيوان كأبى فراس للأسد وابن داية للغراب وكنى الطعام كأبى جابر للخبز وغيرها والتثنية ولا تثنية فى الفرس وهم عند الاحتياج اليها يأتون بالعدد ويقولون اثنا رجل مكان رجلين والجمع السالم للعاقلين على حدة وللعاقلات على حدة والجموع المكسرة المتنوعة وليس فى الفارسية إلا الجمع السالم لذوى الروح بالألف والنون ولغيرهم بالهاء والألف وقد يستعمل أحدهما فى الآخر والعرب فرقوا بين صيغ التذكير والتأنيث فى الأسماء والأفعال إلا المتكلم والأهاند فرقوا بينهما فى الكل أما الفرس والترك فلم يفرقوا بل صيغهم مشتركة بينهما وفى لسان العرب والهند مؤنثات سماعية وما هى فى الفرس لعدم تفريقهم بين التذكير والتأنيث والوجوه التى اخترعها العلماء للإعراب والبناء وغيرهما والأدباء للمعانى والبيان ونحوهما فى اللسان العربى هى مسارح عجيبة لعيون الظرفاء ومراتع غريبة لأنظار الفضلاء وفواكه طيبة لأذواق الأذكياء وأغذية لطيفة لأرواح الأصفياء. ولا إعراب فى الفارسية بل أواخر كلماتها سواكن إلا فى موضعين المضاف والموصوف وهما مكسوران بلا عامل وأما الهندكية فلا إعراب فيها أصلا وأواخر الكلم فيها ساكنة قاطبة وكذلك التركية والحبشية ولشدة احتياج اللسان إلى السكون وضع واضع اللغة العربية تنويناً وهو نون ساكنة فى أواخر الكلم فجمع بين الحركة والسكون وقرن بين

الضب والنون. وللأهاند لغة تسمى سنسكرت دونوا علومهم كلها فى هده اللغة وفيها التثنية كالعربية وأقلامهم كلها من اليسار الى اليمين بلا تركيب المفردات كقلم اليونانيين وفيها للخنثى صيغ الواحد والتثنية والجمع وضمائرها على حدة سوى صيغ التذكير والتأنيث وضمائرهما وهذه اللغة متروكة فى محاوراتهم باقية فى كتبهم ولهم فيها على زعمهم أربعة كتب سماوية مشتملة على المواعظ والأحكام والأخبار ومضى لنزولها دهر طويل لا يحصى. ولما لم يكن حسن فى نثر سنسكرت ولا فى نثر الألسنة الاخرى التى دارت فى ديار الهند والدكن بينوا قواعد علومهم فى النظم ونظموا علم التنجيم فى أشلوك وهو نظم مخصوص فيه أربع مصاريع كالدوبيت وزاد عليه متأخروهم. وبحور العرب والفرس والهند أكثرها مختلفة وقليلة منها متفقة كالتقارب وركض الخيل والسريع فإنهاجاءت فى الألسنة الثلاثة ويسمون الثانى سوية ومثاله صلى الله عليه وآله وسلم مرتين وهو مصراع واحد والثالث جويائى وهو عبارة عن أبيات متوافقة الأوزان متخالفة القوافى كالمثنوى فى الفارسية ومن أوزانهم ما قافيته فى وسط المصراع وهو مع هذا مطبوع ولعل مثله ليس فى الألسنة الأخرى. والاعتدال بين المصراعين فى الأشعار الفارسية والهندية غالب بخلاف العرب فإنهم لا يبالون باختلاف الزحافات فيهما وفيهم قطع كلمة واحدة بين المصراعين وما هذا بالفارسية والهندكية. والأوزان الفارسية أكثرها فى غاية المطبوعية بخلاف العربية والهندية. والنظماء من الفرس أو ممن يتقلدهم كأهل الهند ينظمون الشعر من غيرعلم بالعروض الفارسية ومع هذا لا يخرجون عن الوزن لأن الأوزان الفارسية يعرفها من له أدنى سليقة لما فيها من غاية المطبوعية. وأما العجمى الراغب فى الشعر العربى فعليه أن يتعلم العروض العربية وإلا تزل قدمه عن جادة الوزن نعم قد خرج عن الوزن جماعة من فحول الشعراء من العرب فكيف الأعاجم ومنهم المتنبى فى قوله :

تفكره علم ومنطقه حكـــم   وباطـــنه دين وظاهره ظرف

وحال الشعر الهندى أيضا كذلك لا يعرف أكثر أوزانه إلا بعد تعلم العروض الهندية. ولشعراء الفرس الرديف وهو عبارة عن كلمة مستقلة فصاعداً تكرر بعد الروى ويسمى الشعر المشتمل عليه مردفاً من الترديف وهو يزيد الشعر جمالاً ويلبس بنات

الأفكار خلخالاً وبه يتنوع النظم الفارسى على أنواع لا تحصى وأقسام لا تستقصى ولا رديف فى شعر العرب وإن تكلف أحد بالترديف لا تظهر له جلوة مثل ما تظهر فى شعر الفرس ولا موجب له إلا خصوصية اللسان وفى ديوان الشيخ عبد العزيز اللبنانى قصيدة مردفة وكذا فى ديوان الزمخشرى ولآزاد البلجرامى ديوان مردف وللفرس الحاجب وهو عبارة عن الرديف بين القلعتين ويسمى الشعر المشتمل عليه محجوباً ولآزاد قصيدة فيه قال وما رأيت أحداً قبلى أتى بالحاجب فى الشعر العربى. والعرب لا يجعلون الواو والياء رويا خلاف الفرس والأهاند ولآزاد فيه قصيدة أيضاً مطلعها :

متى سلمى من الجلباب تبـــدو ومقلتها إلى المشتاق ترنو

وعمل البهاء زهير وزناً من الأوزان الفارسية فى العربية وقال :

يا مــن لعبت بــــه شـــمــول ما ألطف هذه الشـــمائل

إلى آخر القصيدة وهو عندهم من فروع الهزج وجعله الصفدى من الأوزان العربية بالتكلف ولم يدخله جماعة من شعراء العرب فى أبحر العروض لأن العروض عندهم آلة قانونية تعصم مراعاتها اللسان عن أن يضل فى وزن شعر العرب وعندى أنه لو ذكر وزن الشعر مطلقاً فى حد العروض لكان أشمل لوجود ميزان الشعر فى الألسنة الأخرى.

والفرس أخذوا فن البديع من العرب العاربة واقتبسوا هذا الضوء من تلك الشهب الثاقبة وأول من اخترع البديع من العرب وسماه بهذا الاسم عبد الله بن المعتز العباسى وألف فيه كتاباً سنة أربع وسبعين ومائتين وكان جملة ما جمع سبعة عشر نوعاً وعاصره قدامة بن جعفر الكاتب فجمع عشرين نوعاً توارد معه على سبعة وبقى فى ملكه ثلاثة عشر فتكامل ثلاثون نوعاً ثم مشى الناس على آثارهما فى الاستخراج فكان غاية ما جمع منها أبو هلال العسكرى سبعة وثلاثين نوعاً ثم جمع منها ابن رشيق القيروانى مثلها وتلاهما شرف الدين التيفاشى فبلغ السبعين ثم تصدى له الشيخ زكى الدين بن أبى الأصبع فأوصلها إلى التسعين وهو أضاف إليها من مستخرجاته ثلاثين سلم له منها عشرون والباقى مسبوق إليه وله تحرير التحبير فى هذا الفن وزاد عليها جماعة جاؤا بعد هؤلاء فى كل عصر من الأعصار فتجاوز الأنواع عن مائة وخمسين وذكر الشيخ تقى

الدين أبو بكر على المعروف بابن حجة الحموى رحمه الله فى خزانة الأدب وغاية الأرب من أنواع البديع مائة واثنين وأربعين نوعاً وشرحها شرحاً بديعاً بسيطاً يغنى عن كثير من الكتب المؤلفة فى هذا الباب. (١)

هذا النوع من المقارنات بين خصائص اللغات العربية والفارسية والهندية وكذلك بين السمات الفنية فى شعر كل منها هو ما تحتاجه المكتبة العربية بحق، فهذا النص على صغره يلمس قضايا عديدة يمكن اتخاذها كرؤوس موضوعات تبحث بحثاً مسهباً خاصة من قبل من يجيدون اللغات الشرقية الى جانب العربية. ومن أسف أن أحداً من الأدباء فِى شبه القارة لم يلتفت إلى هذه الموضوعات، ومن امتلك منهم القدرة عليها مثل كرامث حسين الكنتورى قام بها فى إطار اللغات السامية فبقيت المكتبة العربية فى شبه القارة خالية من هذه الدراسات.

وهناك من أدباء العربية فى شبه القارة من اقتصر فى استخراج علوم البلاغة من القرآن الكريم وحده كالشيخ عبد العزيز أحمد البرهاروى المتوفى عام ١٢٣٩هـ فى كتابه، «نعم الوجيز فى اعجاز القرآن العزيز» وقد قام الدكتور ظهور أحمد أظهر رئيس قسم اللغة العربية بجامعة البنجاب فى باكستان بتحقيقه والتقديم له ونشره فى مجلة المجمع العربى الباكستانى، والكتاب خفيف يحتوى على ثلاثة أبواب : الأول فى علم المعانى وفيه عشرة فصول، والثانى فى علم البيان ويضم أربعة فصول، والثالث فى علم البديع وفيه فصلان وذيل، ثم خاتمة الكتاب وفيها مباحث عن الاقتباس والسرقة والتضمين وغيره.

يقول المؤلف فى الباب الثانى من الكتاب :

«الباب الثانى : فى المجاز

هو لفظ تجاوز عن موضعه الأصلى، بحكم العقل أو الوضع، فالأول عقلى، والثانى لغوى، ولابد فيهما من قرينة حالية، أو مقالية، وعلاقة مصححة، فإن كانت العلاقة فى الثانى غير المشابهة فمرسل، وإلا فاستعارة (فلنذكره) فى ثلاثة أنواع :

١- غصن البان : ص ٢ - ٨.

النوع الأول فى المجاز العقلى، ويسمى المجاز فى الإسناد، والمجاز فى التركيب، والمختار أنه نسبة الفعل إلى غير من هو صاحبه كملابسة له بالفعل كظرف المكان نحو: جرى النهر، (ونحو قوله تعالى) «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكما من أهلها» و(كظرف) الزمان ونحو: نهاره صائم، (ونحو قوله تعالى) «ومكر الليل والنهار»، (ونحو قوله تعالى) «يوماً يجعل الولدان شيبا»، (ونحو) أنبت الربيع البقل وكالسبب نحو (قوله تعالى) : «يا هامان ابن لى صرحاً» و(نحو قوله تعالى) «يذبح أبناءهم» و(كالمصدر) نحو جد جده و(كالمفعول) نحو (قوله تعالى) «يوم يقوم الحساب».

النوع الثانى فى المجاز المرسل : وكثيراً ما يطلق على استعمال اللفظ فى غير ما وضع له، لعلاقة غير المشابهة، وهو أقسام كثيرة أحدها إرادة الجزء من الكل نحو (قوله تعالى) «يجعلون أصابعهم فى آذانهم» أى أناملهم : ثانيها العكس نحو (قوله تعالى) لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة أى بأنفسكم ثالثها إرادة السبب من المسبب نحو (قوله تعالى) «ينزل لكم من السماء رزقاً»، رابعها العكس نحو : راعيت المطر أى النبات، خامسها إطلاق الشرط على المشروط نحو (قوله تعالى) «وما كان الله ليضيع إيمانكم» أى صلاتكم : سادسها عكسه نحو : من لم يصل خلد فى النار أى من لم يؤمن سابعها إطلاق المعلول على العلة كالفعل على الإرادة نحو (قوله تعالى) «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله»، و(نحو قوله تعالى) «وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا»، ثامنها عكسه كالقدرة على الفعل نحو (وقه تعالى) «فظن أن لن نقدر عليه». تاسعها تسمية الشئ باسم ما كان عليه نحو «وآتوا اليتامى أموالهم»، عاشرها باسم ما يؤل إليه نحو : «إنى أرانى أعصر خمراً» الحادى عشر : المجاز بالقوة كالمسكر للخمر المهراق. الثانى عشر: إرادة الحال من المحل كالقدرة من اليد، الثالث عشر عكسها نحو : «ففى رحمة الله هم فيها خالدون» أى فى الجنة، الرابع عشر تسمية الشئ باسم آلته نحو «ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» أى بلغتهم، الخامس عشر إرادة الضد نحو (قوله تعالى) «فبشرهم بعذاب أليم» (وتحو قوله تعالى) «ما منعك أن لا تسجد» أى ما أمرك.

السادس عشر : إرادة المشارفة من الفعل نحو : «إذا طلقتكم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف» أي قاربن أجلهن. السابع عشر إرادة اللازم من الملزوم نحو وقعت الشمس على الجدار أي ضوؤها، الثامن عشر العكس نحو (قوله تعالى) «خذوا زينتكم» أي ملزوماتها، التاسع عشر إرادة العام من الخاص كالشفة من المشفر، العشرون عكسه نحو «أوتيت من كل شئ» أي مما يؤتى مثلها، الحادى والعشرون إرادة المظروف من الظرف نحو (قوله تعالى) «واسئل القرية»، الثانى والعشرون عكسه نحو كسرت الخمر، الثالث والعشرون إطلاق الصفة على الموصوف كقوله :

إن تحت الأحجار حزماً وجوداً وخصيما ألـــــد ذا معلاق

الرابع والعشرون إطلاق الغاية على المغيى كحديث : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أي الجهاد.

فهذه (هي) العلاقات المشهورة (للمجاز المرسل وقد) ضبطها قوم في عشرة بل سبعة بل خمسة بإدخال بعضها في بعض، وخالفهم الآخرون، فقالوا لا يحصى أنواع (المجاز) المرسل. »[1]

والمؤلف لا يخفى إعجابه بآراء الجرجاني في البلاغة، ويعارض الزمخشري وينقده، كما ينقد كثيراً من النحاة في فصول كتابه، وقد ذكر كل ذلك بالتفصيل الدكتور ظهور أحمد في المقدمة التي مهد بها للكتاب. [2]

١- مجلة المجمع العربي الباكستاني، ص : ١٠٧ وما بعدها، العدد الثاني، نوفمبر ١٩٩٣.
٢- نفس المصدر، ص ٤٠ - ٧١.

الفصل الخامس

الإنشاء والرسائل

فن الإنشاء من الفنون التي لازمت المدارس لتدريب الطلاب على الكتابة بالعربية، وفى بيئة غير عربية كانت ممارسة الكتابة أمراً غير سهل، لكن الملفت للنظر أن الرسائل الإخوانية فى هذه البيئة وجدت بكثرة عن غيرها، وقد سهل وجودها مراسلات العلماء مع بعضهم - أحياناً - فى الداخل باللغة العربية، ومع رفاقهم وزملائهم العرب فى الخارج فى كل حين بهذه اللغة، ومنهم من جمع رسائله فى كتاب ومنهم من ألف كتاباً فى كيفية المراسلة باللغة العربية.

فالشيخ باقر بن مرتضى المدراسي جمع رسائله فى كتاب سماه شمائم الشمائل فى نظام الرسائل، وحسن على بن حاجى شاه اللكنوى كتب رسائل عارض بها الحريرى وبديع الزمان، كما جمع الشيخ رشيد الدين الدهلوى رسائله فى كتاب، وكذلك فعل على عباس الشرياكوتى، والمفتى محمد عباس الذى مر بك ذكره ونموذج من رسائله جمع هذه الرسائل فى كتاب سماه ظل ممدود وللسيد ناصر حسين اللكنوى كتاب الأثمار الشهية فى الانشاء، وللشيخ بناه عطا بن كريم عطا السلوتى كتاب النجم الثاقب لمن يكاتب، كما ألف محمد زمان خان سفينة البلاغة وكتب السيد ناصر حسين الجونبورى علم الأدب فى محاورات العرب. (1)

ولعل أقدم نموذج وصلنا من الرسائل هو ما كتبه أبو العلاء اللاهورى (ت ٤٩١هـ) وقد تلا حقبة أدبية اشتهرت فيها طريقة بديع الزمان الهمدانى (ت ٣٩٨) وأبى بكر

١ - وجدت هذه الكتب متفرقة فى الثقافة الاسلامية ، ص ٤٤ ، ٥٤ .

الخوارزمى (ت ٣٨٣هـ) وهما من فطاحل النثر فى العصر الغزنوى. يقول الدكتور ظهور أحمد عن خلفية هذا :

«وقد كانت الكتابة العربية بسيطة جدا فى عصورها الأولى ولكنها بمضى الوقت، وتطور الدولة وتقدم اللغة صارت كتابة الرسائل صناعة فائقة، تستدعى التأنق والتنميق، والبراعة والكمال إلى جانب إظهار القدرة الإبداعية وإبراز العبقرية الفنية، وبدأت طبائع الكتاب المترسلين تميل إلى السجع والقافية فى الرسائل الديوانية والإخوانية حتى دخل القرن الهجرى الرابع، وهو من أزهى العصور وأفخرها للنثر العربى، والكتابة الأدبية فى تاريخ لغتنا العربية وآدابها، وظهر على أفق الأدب العربى وعلى مطلع الترسل والإنشاء الكاتب البليغ والأديب النابغة أبو الفضل بديع الزمان الهمدانى وأضرابه. وفى عصر الهمدانى، تبوأ السجع المرتبة الأولى والمكانة العليا فى كتابه الرسائل، وبذلك أخذت الرسائل المسجوعة المنمقة تحتل نفس المكانة فى النثر الفنى التى كانت القصائد الشعرية البديعة تحتلها فى شعر الشعراء، فاتجه نشاط الأدباء والكتاب إلى النثر، وأخذوا يظهرون فيه البراعة ويحققون الكفاءة، ويتكلفون فيه الكثير من التنميق والإجادة، وغلب عليهم الزخرف والتفنن والتلاعب بالألفاظ وجرت بينهم المساجلات الطريفة، تركت لنا الروائع من الرسائل الإخوانية والديوانية على السواء !

قلنا إن الرسائل المسجوعة المنمقة كانت قد أخذت تحتل المكانة التى كانت القصائد الشعرية تحتلها فيما مضى من العصور بل إن النثر كان قد بدأ يأخذ خصائص الشعر وأخذت الرسالة تحتل أغراض القصيدة فى الموضوعات التى كان الشعر يطرقها مثل المدح والهجاء والتعزية والرثاء والعتاب والاعتذار والاستعطاف والوصف والنصح والحكم والود والصداقة .بل أضيفت اليها أشياء لم يكن الشعر يعرفها كالكدية والاستجداء والمناظرة والمساجلة والشئون العامة وغيرها من الموضوعات.

فهذا هو العصر الذى تلاه عصر أبى العلاء اللاهورى وهذا هو النوع من النثر الذى كان يعالجه أبو العلاء». (١)

١- أبو العلاء اللاهورى، ص ٥٢ - ٥٣، جدة، ١٩٨٢.

يقول أبو العلاء عطاء بن يعقوب اللاهورى يشكو جور الزمان وغدر بعض الخلان ووشايتهم لدى السلطان إبراهيم الغزنوى فحبسه فى السجن ثمانية أعوام فى مدينة لاهور ثم حمل منها مقيداً إلى مدينة ملتان :

«منذ توردت هذه الناحية لم يرد على سحابة أروى بها كبدى الصادية، وأجلو حالى الصادئة، واستظهر بها على دهر يقصدنى حيثما قصدت ، ويضربنى أينما ضربت ولم أخلص بعد من ألسنة أبنائه فى ذلك الحى حتى ابتليت بأسنة بناته فى هذا الفى وطلعت علينا عارضة داجية الجو باكية النوء وأمطرتنا مطر السوء بوفاة الظعينة المسكينة. فتضاعف سقم برح بى فلا يبرح وترادف ألم ألح على، فلا لحلح، وما حال أفق أفل نهاره، وروض ذبلت أزهاره، وقلب زال قراره، وخلب زاد أواره، وكثير فارق عزته ثم فقد عزته، والمصيبة فى الغربة أقطع، ونكء القرح بالقرح أوجع !

وأكثر ما جر على هذه الفادحة تطيرى بفلان، فإنه بكر على يوم النوروز متأبطاً طوماراً أطول من يوم الحشر، قد أربى ذراعاً على العشر، يضيق عنه نطاق النشر، ملأه نظماً ونثراً فى مرثية جارية له قد ماتت منذ خمسين سنة ! ذكر فيه غرتها ونعرتها وطرتها ردرتها وعمرتها وخمرتها، وسرتها وصرتها فتشفعت اليه وتضرعت بين يديه وقلت له : أنشدك الله ألا طويته وأدرجته، وأدخلته من حيث أخرجته! فأبى إلا جماحاً فى المسحل، وسل مقولاً كالمعول، وجعل يكيل من تلك الأهواس، إذا قرأ سطراً أعاد إلى الرأس، وحكى أساطير الأولين، ورفع العويل والأنين، وأرسل المخاط والذتيه، كلما قال لفظة سمل، وأخرج من قعر حلقه جعل. وأنا أنزوى كما تنزوى الجلدة فى النار، وألتوى كما تلتوى الحية على الأوار، لا يمكننى أن أقر، ولا تركنى حتى أفر، إلى نصف النهار، ولم ينصف بعد الطومار، وقمنا إلى المفروض، بعد النهوض، ولما انفصلت من ذلك المكان وصل كتاب التحول إلى (المولتان) وحمت المسكينة فى الحال ووقعنا فى الأوجال، والله نصيرى على الزمان والإخوان وحسيبى، وقد قل منه ومنهم حظى ونصيبى»[1].

١- أبو العلاء اللاهورى، ص ٥٥ - ٧٥.

وفى رسالة طريفة بعث بها إلى صديق له كان من الوزراء، استخدم فيها اصطلاحات النحو استخداماً ظريفاً، يقول :

«أطال الله بقاء الشيخ فى عز مرفوع كاسم كان وأخواتها، إلى فلك الأفلاك منصوب كاسم إن وذواتها، إلى سمك السماك موصوف بصفة النماء، موصول بصلة البقاء، مقصور على قضية المراد، ممدود إلى يوم التناد، معرف به، مضاف إليه، مفعول له، موقوف عليه، صحيح سالم من حروف العلة، غير معتل ولا مهموز همز الذلة يثنى ويجمع دائماً جمع السلامة والكثرة، لا جمع التكسير والقلة ساكن لا تغيره يد الحركة، مبنى على اليمن والبركة، مضاعف مكرر على تناوب الأحوال، زائد غير ناقص على تعاقب الأحوال، مبتدأ به خبر الزيادة، فاعل مفعوله الكرامة، مستقبله خير من ماضيه حالاً، وغده أكثر من يومه وأمسه جلالاً، له الاسم المتمكن من إعراب الأمانى والفعل المضارع للسيف اليمانى لازم لربعه لا يتعدى ولا ينصرف عنه إلى العدى، ولا يدخله الكسر والتنوين أبداً، يقرأ باب التعجب من يراه منصوباً على الحال إلى أعلى ذراه، متحركاً بالدولة والتمكين منصرفاً إلى ربوة ذات قرار ومعين.

وهذا دعاء دعوت له على لسان النحو، وأنا داع له بكل لسان على هذا النحو، ولولا الاحتراز العظيم من أن يمل الاستاذ الكريم لسردت أفراده سرداً، وجعلت أوراده ورداً، وجمعت أعداده عقداً، ونظمت أبداده عقداً، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين». (١)

هذا النثر الرقيق الصافى مهما ساده من سجع العبارة ما لبث أن تعقد بمرور الزمن حتى إذا وصلنا إلى القرن الثالث عشر الهجرى، وجدناه أشبه بقطعة زخرف تكلف أصحابها بتزويق ألفاظها، وتنميق عبارتها، ووشوها بالشعر، وطرزوها بالجناس والتوريات، فاختفى المعنى وراء ديباجهم، حتى شغلت هذه الصنائع البراقة ذهن القارئ عما أراد الكاتب، وركزت نظره على ما يتوقع أن يأتى به قلم الكاتب من علاقات لفظية بين العبارة التى يقرأها والتى تليها. ولعل خير مثال لهذا النثر المزخرف،

١- أبو العلاء اللاهورى، ص ٥٨ - ٥٩.

والرسائل الموشاة بأنواع الحلى والبدائع ما كتبه المفتى السيد محمد عباس وقد مر بك شيئ من بضاعته، يقول فى إحدى رسائله إلى المجتهد الشيخ محمد حسن النجفى :

« ... أما بعد سلام كالمسك إذا فاح، وكالصبح إذا لاح، وكالطائر إذا غرد، وكالشادن إذا شرد، وكالبرق إذا ومض، وكالشوق إذا نهض، وكالصبح إذا لحظ، وكالفصيح إذا لفظ، وكالبدر إذا بزغ وكالعيش إذا رفغ، وكالثوب إذا حبك، وكالذهب إذا سبك، وكالنور إذا ابتسم، وكالغيث إذا انسجم، وكالربيع إذا حان، وكالطلع إذا بان، وكالغزال إذا رنا، وكالوصال إذا دنا، يحكى الورد شذا، والياسمين نشا، يفوق الرجل علواً، والعسل حلواً، يخجل الدر بصيصاً، ويجعل التبر رخيصاً يخبر عن آمالى ويحدث عن أحوالى، فالهدية التى يجب فى شريعة الود اتحافها، ويستحب بفتوى الحب إسرافها هى جواهر الأثنية الوافرة، والأدعية الكاثرة، وكنوز الأشواق إلى تلك الآفاق، فإنها قد اخضر فى أرض الجنان جنانها، وأزهر من سحب الحب بستانها، وتأجج فى تنور الصدور نيرانها، وأغرق انسان العين طوفانها، دخلت عساكرها فى دساكر القلب أفواجاً، وظلت أبحرها تلاطم صدر الصب أمواجاً، فها هى الآن مفجرة الأنهار مملوؤة الغدران، تشدو على قضبانها عنادل البيان، طلعت من مشارق الأفكار شموسها، وأديرت فى مجالس الوداد كؤوسها، وتهادت فى ملابس العبارات عروسها ومادت فى مغامر الكلمات غروسها، وتفتقت فى ظلمات المداد أنوارها، وتشققت فى سطور الكتاب أنهارها، والصبر قد تزلزل بنيانه، وتزعزع أركانه، وانهدمت جدرانه، ويبست غدرانه، وانكسرت أغصانه، وإن كنت سائلاً عنى فإنى أقل الأفراد، مثلوج الفؤاد، أليف الشجن، عهيد الحزن، قليل العمل، كثير الزلل، صرفت برهة من عمرى ونبذة من دهرى فى تحصيل المعقول والمنقول، واقتناص الفروع والأصول، متردداً إلى أعلام هذه الأقطار، منغمساً فى لجج الأفكار بالأصال والأسحار، فقرأت شطراً صالحاً منها على يد السيد الغطمطم والمولى الأقوم، البحر العريف والحبر الغطريف، صاحب الفيض العميم والخلق العظيم، العرنين الأوحدى النحرير الأحوذى، المؤيد بالنفحة الأنسية والقوة القدسية، المحرز فى بيداء الفضل لشواردها، والغائص فى دأماء الكمال على فرائدها، البالغ من الاجتهاد

ذروة سنامه، والمرتضع من ثدى أم الكتاب فطامه، الحامى لثغر الدين عن أيدى المعاندين، الصاعد فى معارج التحقيق، السالك فى مناهج التدقيق، مولاى ومولى الخافقين، المحيى لشريعة جده سيد الثقلين وارث الأئمة المصطفين مولانا السيد حسين، دامت معاليه وبوركت أيامه ولياليه، فلما التقطت من حدائق العلم أزهاراً، واختطفت من أشجار الفضل أثماراً، واشتغلت بنظم لآليه فى الرسائل، ونثر دره على كل سائل، أقبل على الدهر بعواليه ونوائبه، ورمانى زمانى بسهام مصائبه، فصرت أقاسى الهموم، وأكابد الغموم، ضل حيلى وخاب أملى، وأكدى طالبى وانقطع سببى، فطفقت أضج تارة مما يصيبنى من المكاره الدنيوية، وأصبح طوراً مما يفوتنى من المثوبات الأخروية، ومما قلت :

إلى الله أشكو ما دهانى فإننى ... بليت بدهر فيه للجهل رونق

فرزدقهم مستحقر كشويعر ... وشعرورهم يدعى بأن يا فرزدق

كلامهم كلم وأفواههم بها ... سيوف إذا سلت دم العلم يهرق

فكل ذكى عالم متجاهل ... وكل غبى جاهل متحذلق

ورب خطيب مصقع ساكت شج ... ومنتحل لحانة يتشدق

وتنعق غربان مكان بلابل ... وفى مربط الخيل الحمارة تنهق

خلعتك يا دنيا وها أننى بمحضر من عدول قلت أنك طالق

مما قلت أيضاً :

ذهبن الليالى بالأعالى الأكابر ... ساروا وتبكيهم جذوع المنابر

وقد أكلت دود اللحود لحاهم ... ولم يورثوا إلا التى فى الدفاتر

خرائد أبكار حسان أبانها ... طبائع أصحاب العيون السواهر

سطور لبسن السود حزنا عليهم ... وألفاظهم رقت كقلبى وناظرى

ينادى الحروف العجم لو ثم سامع ... ألا نحن آثار لأيد دواثر

ولــى :

سكت على غيظى فحل بى الردى ولا برء للمسكوت إذ كان مزبدا

وكيف ينسلي الحشا وينتفى الجوى، أو ينطفى أوار الكبد الحرى، ولا أدرى هل الآخرة خير لى من الأولى، أم المصير إلى نار تلظى ولهيب لظى تنضج الأكباد والكلى، ولو لم يكن إلا الموت لكفى، فكيف وما بعده أمر وأدهى، وأعظم مصاب أحدانى على كتب هذا الكتاب، وهدانى لتوجيه هذا الخطاب إلى الجناب المستطاب أنى أرانى هائماً فى بوادى الحيرة، نائماً على وسائد الغفلة، لا أعرف ما اكتسبته لنفسى وماذا اصطحبته إلى رمسي، حرمت بالانهماك فى الملاذ الدنية، عن الاستسعاد باستلام الحضرة السنية، محصورا بشامة أعمالى عن زيارة مشاهد الموالى عليهم السلام ماكر الليالى، مصدوداً بالعوائق الرديات عن ملازمة مدارس الآيات، وطواف بيوت الإفادات، ولم يزل الأمر كذلك والهيمان فى هاتيك المسالك إلى أن ألقى فى روعى ودار فى خلدى أن أشرف سلامى ببابكم إن لم يحلل بأعتابكم جسدى». (١)

وأنت ترى الإغراق فى الصنعة أكثر من الحد فى صدر الخطاب، لكن الأسلوب يتغير فى الجزء الذى يشكو فيه آلامه، وهو ما ذكرنا شيئاً عنه فى سمات النثر، وقلنا إن أسلوب الكاتب الواحد يتغير فى المكتوب الواحد فلا تستطيع الوصول إلى سمة محدودة لأسلوبه.

وفى رسالة أخرى إلى السيد أبى الحسن محمد نجل المجتهد العارف بالله السيد عليشاه يقول محمد عباس التسترى بادئاً بشئ من أشعاره كعادته فى تصدير الرسائل:

«خيالك فى ذكرى وذكرك فى فمى وذكراك فى قلبى فكيف تغيب

أيها الخلف الصالح الواعظ الناصح الناطق على حساب المصالح بكلام حلو ومالح، الذاكر الطائع، الصابر القانع، المتصرف فى الألفاظ والمعانى تصرف الصانع الضالع الصائغ فى الحلى والأوانى، بلغه الله بالأمن والأمان إلى الأمانى، أحمد الله على ما

١- ظل ممدود، ص ٨ - ١٠، الهند ١٢٨٨هـ.

حقق رجائي فيك، وسمع دعائي بالصباح والمساء لك، وأسأله أن ينجح فؤادك وينجح مسائلك، أما بعد فأتحفك برباعي خفيف على اللسان ثقيل في الميزان، يبدأ به ويختم عليه روق من السلسبيل وطرق إلى سوى السبيل، ووفق ولفق من جانبيه، وثنائي شطره الأول ضعف الثاني، وأطراف الثاني منه عشرة أضعاف المثاني، وهي غاية في التعظيم وراية للتكريم وآية من الكتاب الكريم، سلام قولاً من رب رحيم، ولنعم ما بعثت به إلى من مرسوم مفتتح بمنظوم ينقص أبا تمام، مشتمل على منثور يزري بمنثور لأنه نمام، فيالها من دوحة ممدوحة عند المستملحين، تؤتي أكلها كل حين، فقرأت فقرات منه مزدوجة فرائن فيها على ارتجالها قرائن وجدتها في اشتباكها واتساقها حدائق وأعناباً، وفي ارتباطها واعتناقها كواعب أتراباً، عرائس إلا أنهن غالية الأصداق، ونفائس لكن ما لها مصداق، إلا أن يصار إلى التأول، أو يصيب على التفاؤل. أما حديث ودك ووجدك، فبحق أبيك وجدك إنه حديث مقطوع الصدور عن الألسنة في الورود والصدور. وأما ما اقترحت على قريحتي من أحسن مسطور في رجعة الرقعة فهيهات هيهات، ضعفت الباصرة وأيفت الذاكرة، وللعلم آفات، حلت الشيبة وارتحلت الشبيبة، وما أبعد ما فات.

لو كان ما بي في صخر لأنحله　　　فكيف يحمله خلق من الطين

أم كيف يعرب عن لسان العرب من عربت معدته، وعزبت قوته، وغربت ذكاء ذكائه، وغزيت رؤساء أعضائه، وعزيت أخلاؤه على أجلائه، وعزبت دنياه بافنائه، وعريت عظامه عن كسائها، وغرثت أمعاؤه لنقائها، وعزبت صحيفة عمله لكسله وفشله، وغربت نفسه في الخلق إلى الخرق وسوء الخلق، من لي بضرس قاطع في العلم بعد وهن واقع في العظم والجسم ، كبرت سني وانقلعت سني ونال الدهر مني.

نسود أعلاها وتأبى أصولها　　　وليس إلى رد الشباب سبيل

على أن هذا زمن ذو شجون لا يسأل فيه عن الصفا والحجون، والقلم وما يسطرون، ولا يبحث عن عبد الحميد ولا يكترث بابن العميد، ولا يلتفت إلى ابن مقلة بطرف من مقلة. ألا وقديما عد الأنام آثام الأيام، وشكت الأفئدة في أياديها الجسام، وسكت

الألسنة عن محامدها العظام، وشكت معايبها قدماء الأعلام، وسباق ذوى الأحلام، ولو أدركوا زماننا أوشكوا أن يقولوا هذا عيان وتلك أحلام.

رب يـــوم بكيـــت منـــه فلمـــا   صرت فى غيره بكيت عليه» [1]

وقد استمرت هذه الطريقة فى أدب الرسائل حتى وجدناها فى القرن الرابع عشر الهجرى (العشرين الميلادى) عند ألطاف حسين حالى ، يقول فى إحدى رسائله إلى مرزا أشرف بيك الدهلوى :

«سلام عليكم سلام غريب بعيد الدار مهجور الأوطان والأوكار طويل الليل عبوس النهار قد حل أرضاً لا أنيس بها ولا صاحب وضاقت عليه بما رحبت فأعيت به المذهب لا يتمكن من عزمه فيبصر قصده ولا يقدر على نفسه فيرى رشده قد تركتموه غرضا لسهام الآلام ودرية لطعان الأحزان والأسقام وحيداً طريداً بائناً بعيداً حزيناً كئيباً قلقاً مكروباً ولكنه مع ما به من الهم والشجى والحزن والأسى وكآبة الفراق وحزازة المشتاق ولوعة قلبه ولعوة حبه وشتيت باله وجزعه وبلباله لا يكاد يشغله عنكم شاغل ولا يحول بينه وبينكم حائل، وقد ألقى ذكركم بين عينيه ليأنس به ويسكن إليه وكلما يبلغه كتاب أو تهب ريح خطاب من عند أحد من الأحباب يهيج له شوقاً إلى شوق ويجشمه من الهوى ما لا يسعه الطوق فالحمد لله حمد الصابرين الراضين بقضائه كلما قضى الراجين رحمته عند كل كره وبؤسى على ما قد قيل :

أرى الصبر محموداً وعنه مذاهب   فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

هو الهرب المنجى لمن أحدقت به   نوائب دهر ليس منهن مهرب [2]

غير أن حالى لا يحافظ على هذا الأسلوب فى رسائله بل ينتقل إلى نثر عادى سهل ليس فيه من القديم إلا تزيينه بأبيات شعر ، ففى رسالة إلى النواب عماد الملك الشهير بمولوى سيد حسين يقول :

١- ظل ممدود ، ص ١٨٨ - ١٨٩.

٢- ضميمه، أردو كليات نظم حالى. ص ١٣٢ - ١٣٣.

«أقمت معتصماً شهراً وأياماً بحبل رأفتكم فى حيدرأباده
فهذا دعاء وتذكار لنصتكم وشكر لإحسانكم يا سيد السادة
ولست بناس طول عمرى صنيعكم كذا جرت بادكار النعمة العادة

وبعد فقد وصلت يا سيدى فى ٣ نوفمبر يوم الثلاثاء بنعمة الله وحسن توفيقه من بمبى إلى دلى سالماً غانماً وكنت فى بمبى نزيلاً فى منزل صاحبكم الجليل المبجل الممتاز عن الأقران فى المعمورة بالسير العادلة والأخلاق المرضية السيتهـ [١] غلام حسين المتنزه عن كل شين الذى فى زورته سكينة للقلب وقريرة للعين ستين ساعة فعاملنى هذا الفتى معاملة لا تكاد تقع بين الأجانب بل عاشرنى معاشرة الأصحاب بالأصحاب ورافقنى مرافقة الخلان بالخلان وأرانى من خصائص المعمورة وعجائبها ومراسيها ومراكبها فوق ما كنت أرجو أن أراها وله غير ذلك من الصنائع التى صنع بنا ما لا يوصف باللسان ولا يفيه اللفظ والبيان فياليت شعرى أأشكركم إياكم على ما هديتمونى منزل الرجل النبيل ودللتمونى على سواء السبيل إلى خوان الخليل أم أحمد الرجل على ما أكرمنى وأحسن مثواى وأعاننى على ما كنت بصدده من اطلاع على أحوال المعمورة وبالغ فى حسن الإضافة والقرى ولم يأذن لى بالرحلة من بمبى إلا كرهاً فوالله لئن كان الإسماعيليون كلهم متخلقين بأخلاق أخيهم هذا جزمت بأن الناجية من الفرق الإسلامية هى الفرقة الإسماعيلية لا غير ثم إن الرجل كان يقول مشتكياً من جنابكم الرفيع أنكم لم تكتبوا كتاباً منذ زمان طويل ولم تطلعوه على أحوالكم ولم تسألوا عنه وعن أحواله وأمرنى أن أخبركم بذلك وأسألكم أن تداركوا ما فاتكم وما على إلا البلاغ» [٢].

وفى رسالة أخرى إلى مدير إحدى المجلات الأدبية العربية فى لبنان يقول:

«قداسة القس الجليل قد وصلنى من أول تموز إلى آخر تشرين الثانى ثلاثة أعداد من جريدتكم الفريدة المسماه بالنحلة الأدبية التى تلوح آثار قبول العالمين من غرتها البيضاء

١- السيتهـ لقب لكبار الأثرياء من التجار فى شبه القارة الهندية.

٢- ضميمهء أردو كليات نظم حالى. ص ١٣٤.

فتمتعت بما فيها من سوانح الأخبار وبدائع الأفكار وفوائد أخرى يعجز عن حصرها لسان الإظهار فبعدما أتشكر غاية التشكر على ما أحسنتم إلى مثل هذا المسكين بإرسال الجريدة أقول إنى مع ما بى من شدة الولع وغاية الحرص على مطالعة النحلة لا أستطيع أن أشترك فيها وإن مثلى فى الباب كمثل ظمآن على رأس بئر ماله دلو ولا سبب يتوصل به إلى الماء ولا قلب يصبر على العطش ولكنى أتعهد إن شاء الله بالسعى المقدور فى نشر نفحات النحلة وبركاتها بين أبناء الوطن من الإخوان والخلان وغيرهم من رؤساء إدارات التعليم الذين يعرفوننى ولو بأدنى معرفة وأما أغنياء هذه الصفحات من الملوك والأمراء والأكابر فليسوا فى شئ من ذوق العلم ومطالعة الجرنالات وتفحص الأخبار وذلك السعى الذى تعهدت به لا يكون منى على شرط عوض من جنابكم بل يكون لمحض إشاعة الخير والبركة بين الناس ولما تقتضيه الأخوة الإنسانية من التعاون والتعاضد وإن كنتم تمنون بعد ذلك بإرسال الجريدة فلا يسعنى الإتيان بغير التشكر على هذا الامتنان باللسان والجنان إلا أنه فى عزم هذا النحيف على تقدير وصول النحلة فيما بعد أن أبلغ فى كل شهرين أو أكثر مرة واحدة بعض الحوادث المهمة الواقعة بهذه الأقطار إلى حضرتكم بمثل هذه العربية المستهجنة التى لا تكاد تقع عند أهل اللسان موقعاً حسناً أو بإحدى اللغتين من الفارسية والهندية إن لم يكن على خلاف شرط النحلة ثم لى فى خصوص أمر الجريدة كلام آخر لابد أن أبوح به فى حضرتكم وهو أن ترجمتها بالانكليزية إن كانت مطابقة بكل لفظ لفظ من العربية بحيث لا يبقى لغة من اللغات المولدة أو المرعبة مجهولة غير مفسرة لكان أقرب إلى فهم أهل الهند وأوقع فى قلوبهم فإن اللغات المتداولة بين أيديهم من الصراح والقاموس وغيرهما ليست بكافلة لجميع باقى العربية الحالية من الألفاظ القديمة والحديثة وطى هذه الصحيفة رقيمة أخرى بالانكليزية أرجو أن يكون النظر فيها منتجاً لبعض النتائج الحسنة والسلام خير ختام» (١)

١- ضميمه أردو كليات نظم حالى. ص ١٣٤ - ١٣٦.

فحالى فى هذا النص خرج عن العربية المألوفة لدية فوقع فى مشكلات لا يعرف حلها الا من عاش بين العرب وتدرب على لغتهم معهم وسمعها من أفواههم، فقد استخدم مثلا كلمة اللغات للتعبير عن المعاجم والقواميس وهو معنى الكلمة فى اللغة الأردية، وعبر عن الترجمة الحرفية بقوله بكل لفظ لفظ وقال عن الجرائد جرنالات أى جمع جورنال بالإنجليزية. وفى رسالته التى قبل هذه إلى عماد الملك كتب أسماء المدن بمباى ودلهى وشهر نوفمبر كما فى الأردية واستخدم لقب السيتهـ وهو لأثرياء التجار كما هو فى الأردية ، وهذا كله من آثار القطيعة وعدم الاحتكاك بين من يعشقون العربية خارج ديار العرب وبين العرب الخلص، والنص الأخير يشعرك بهذا الحب قطعاً.

فإن تركنا مجموعات الرسائل إلى الكتب المصنفة فى فن الإنشاء وجدنا واحداً من أجودها وأكثرها شمولاً، وهو سفينة البلاغة لأبى الرجاء محمد زمان خان (ت١٢٩٢هـ). فقد جمع الكتاب بين الأمرين تعليم الإنشاء وإيراد نماذج من الرسائل، ففى البداية ذكر المؤلف طريق المتقدمين والمتأخرين فى الكتابة، والأسجاع والألفاظ التى تمجها الأسماع، وعرف معنى الفصاحة وبين آلات الإنشاء وأركان الكتابة والسبيل إلى تعلمها، ثم أفرد باباً لأساليب الافتتاح وأورد أمثلة تقديم السلام لنحوى أو لمنطقى أو غيره من الناس، وأفرد جزءاً آخر لذكر الأوصاف والأدعية المنشورة والمنظومة فى مختلف المناسبات ودعم ذلك بنماذج كثيرة ليطبقها الطلاب والدارسون. وخصص أبواباً ذكر فيها ما يمكن كتابته فيها من عبارات وألفاظ وأخيلة ومعان وأشعار وحكم وأمثال كالاشتياق مثلا وتقديم الهدايا والتهانى المختلفة بالفوز بمناصب أو بالعرس أو بمسكن أو بعافية مريض أو بعيد أو بشهر رمضان أو بمولود أو بعام جديد أو بغير ذلك، وكالتعزية وما يتصل بها، والعتاب وخيانة الود وما يقال فيه والشفاعات لقضاء الحاجات والحث على الالتزام بالمواعيد، وشكوى الحال، وتقلب الدنيا وذكر الموت، والمواعظ والنصائح والأمثال. ثم أفرد باباً لخواتيم الرسائل المختلفة، وفصل القول فى كل من هذه الأبواب، وانتهى بذكر أمثلة من رسائل العرب وأهل شبه القارة، وقد شملت هذه النماذج بعضاً لأئمة اليمن الزيدية وسلطان مكة وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس والخليفة المعتصم وبعض علماء وأدباء العرب، وأتبع ذلك بالرقاع التى تكتب فى مناسبات مختلفة وذكر أمثلة عديدة منها فى مختلف مجالات الحياة وختم الكتاب بذكر فوائد فى علم النحو

والصرف، ومذهبى الكوفيين والبصريين، وحد اللغة وبيان واضعها ووجوه معرفة عجمية الاسم، وما لا يجوز الاحتجاج به، وأحوال اللغات وديادن شعراء العرب والفرس والهنود وألوان البديع والاقتباس وأحكامه.

ونحن ننقل هنا شيئا من مقدمة الكتاب، يقول محمد زمان خان.

فصل فى ذكر طريق المتقدمين والمتأخرين فى الكتابة والقول الفيصل فى ذلك :

اعلم أن السلف المتقدمين كانوا لا يتحرون فى مكاتبتهم تسجيع الألفاظ ولا تنميقها كأهل هذا الزمان وكانوا يكتبون السلام بلا تسجيع ثم يقولون وبعد فإنى أحمد الهكم الذى لا إله إلا هو وأصلى وأسلم على محمد وآله وصحبه والأمر كيت وكيت وأما المتأخرون فقد بالغوا فى تزويق الألفاظ وتحسينها وتنميق الكلمات وتزيينها وقدموا أمام السلام أسجاعاً لطيفة واستعارات بديعة ومع ذلك فقالوا الأولى عدم التطويل قال الشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى بعد ذكره هذا الكلام وعندى أن هذا فيه تفصيل فلا يطول الكلام فى مقام لا يقتضيه خصوصاً مع الملوك والحكام لكثرة أشغالهم واشتغالهم بالقصص لا سيما وقد قيل عيب الكلام تطويله وخير الكلام ما قل ودل وأحسنه ما قل لفظه وكثر معناه قال أبو بكر الصديق لبعض أمرائه إذا وعظت أصحابك فأوجز فإن كثير الكلام يُنسى بعضه بعضاً وما أحسن ما كتب الخليفة أبو جعفر المنصور لبعض عماله أما بعد فقد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما اعتدلت وإما عزلت ولا بأس بتطويله إن ناسب المقام فقد قيل لكل مقام مقال لا سيما فى رسائل الأشواق بين إخوان الصفا والود والوفا فإن ذلك محل الإطناب وتطويل الخطاب وقال بعضهم لكاتبه اجمع الكثير مما تريد فى القليل مما تقول يريد بذلك الإيجاز وقال ابن قتيبة وهذا ليس بمحمود فى كل موضع ولا مختار فى كل كتاب بل لكل مقام مقال ولو كان الإيجاز محموداً فى جميع الأحوال لجرده الله تعالى من القرآن ولكنه أطال تارة للتوكيد وحذف تارة للإيجاز وكرر تارة للإفهام وهذا هو الحق الحقيق بالإعلام يشهد له تعريف علم المعانى وحد بلاغة الكلام من أن علم المعانى هو علم يعرف منه أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال والبلاغة فى الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته وهو مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة إلى آخر ما تبلجت به أسفار البلاغة.

فصل فى ذكر الأسجاع والألفاظ التى تمجها الأسماع وغير ذلك من المطالب المستفادة من المثل السائر :

قال فى العجب العجاب ثم لا يخفى عليك أن الأسجاع مبنية على سكون الأعجاز لأن الغرض أن يزاوج المنشى بين القرائن ولا يتم ذلك إلا بالتوقيف إذ لو ظهر الإعراب لفات ذلك المقصود وضاق الحال على قاصده ألا ترى أنك لو أظهرت الإعراب فى مثل قول القائل ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت للزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة والثانية مكسورة منونة فيفوت المقصود وما ذكرناه مصرح فى فن البديع فراجعه وينبغى للمنشئ الحاذق أن يحترز فى كلامه عن استعمال الكلمة الوحشية التى تمحها الأسماع وتنفر منها الطباع كحتروش وخرباش وحكش وجلعطيط وغطريس وضيطر فإن هذه الألفاظ وأمثالها غير مأنوسة الاستعمال وخير الكلام البعيد من التكليف النقى من التكلف السهل الممتنع الآخذ بمجامع القلوب المستولى على قوى النفوس قال الشيخ العلامة الشهير بضياء الدين بن الأثير فى المقالة الأولى من كتابه المثل السائر وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحد إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك وقال لا بل كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسناً ومن يبلغ جهله إلى مثله لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج وبين لفظة المدامة وبين لفظة الإسفيظ وبين لفظة السلف ولفظة الخنشليل وبين لفظة الأسد ولفظة الفدوكس فلا ينبغى أن يخاطب بخطاب ولا يجاب بجواب بل يترك وشأنه كما قيل اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجعر فى رحله وما مثاله فى هذا المقام الا كمن يساوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة شوهاء ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كلوة وشعر قطط كأنه زبيبة وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل وطرف كحيل ومبسم كأنما نظم من أقاح وطرة كأنها ليل على صباح وإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يساوى بين هذه الصورة وبين هذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يساوى بين هذه الألفاظ وهذه ولا فرق بين السمع والنظر فيهذا المقام فإن هذه حاسة وهذه حاسة وقياس حاسة على حاسة مناسب فإن عاند معاند فى هذا وقال أغراض الناس مختلفة فى اختيار ما يختارونه من هذه الأشياء وقد يعشق

الإنسان صورة الزنجية التى ذممتها ويفضلها على صورة الرومية التى وصفتها قلت فى الجواب نحن لا نحكم على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال. بل نحكم على الكثير الغالب وكذلك إذا رأينا شخصاً يحب أكل الفحم مثلا وأكل الجص والتراب ويختار ذلك على ملاذ الأطعمة فهل نستجيد هذه الشهوة أو نحكم عليه بأنه مريض وقد فسدت معدته وهى محتاجة إلى علاج ومداوة ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ فى الأذن نغمة لذيذة كنغمة الأوتار وصوتاً كصوت الحمار وأن لها فى الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل فهى تجرى مجرى النغمات والطعوم انتهى ثم لا يذهب عليك أن كون الألفاظ لذيذة فى الأذان ثقيلة على اللسان لا يتعلق بسبب مقرر ولا يندرج تحت ضابط محرر بل إنما هذا أمر ذوقى فكل ما عده الذوق الصحيح مستلذاً فى السماع غير متعسر النطق على اللسان حين الأداء فهو حسن وإلا فحش ولا عبرة فى هذا الأمر لبعد المخارج وكون الانتقال من أحدهما إلى الآخر كالطفرة ولا لقربها وكون الانتقال من أحدهما إلى الآخر كالمشى فى القيد لتخلف ذينك السببين فى أمثال ألم أعهد وعلم، صرح بذلك فى المطول نقلاً عن هذا الشيخ المبجل وبأن الكراهة فى السمع من جوهريات الكلم لا كما زعم البعض أنها راجعة إلى النغم فكم من لفظ غير فصيح يستكره فى السمع إذا أدى بنغم غير متناسبة وصوت منكر وكم من لفظ غير فصيح يستلذ اذا أدى بنغم متناسبة وصوت طيب للقطع باستكراه الجرشى دون النفس سواء أدى بصوت حسن أو غيره وكذا جفخت وملع دون فخرت وعلم. (١)

والنماذج التى اطلعنا عليها توضح فى جلاء أن أدباء العربية فى شبه القارة لم يشقوا لأنفسهم طريقا، ولم يصطنعوا لأقلامهم أسلوباً يميزهم عن الآخرين بل كانوا مقلدين فى الأول والآخر، فأبو العلاء اللاهورى قلد ما ساد فى زمانه مع طراز وضع أسسه بديع الزمان الهمدانى بما فيه من ترسل وسهولة ورقة فانتمى إلى نفس المدرسة، وأصحاب الأقلام من المتأخرين اقتفوا آثار القاضى الفاضل من عناية باللفظ، وإكثار من الزخرف، وتضمين للشعر، وافتتاح الرسائل به، وتدبيجها بالآيات القرآنية

١- سفينة البلاغة : ١٦ - ١٨.

والأحاديث، كذلك وأنت تقرأ رسائل المتأخرين تشعر أنهم وضعوا أمامهم فى كل حين كتاب المثل السائر لابن الأثير وراعوا بدقة ما قرره من أصول وأسداه من نصائح لمن أراد أن يخوض فى هذا الفن، وهذه أمور طبيعية لأدباء لم ينشأوا كما ذكرنا فى بيئة اللغة الأصلية، فجاء أدبهم وأسلوبهم كمواطنى الدرجة الثانية والثالثة متبعاً غير مبتدع، مقلداً غير مجدد، مأموماً بغيره دون نظر وتفرد.

وشذ عن هذا النمط فى المتأخرين بعض على رأسهم الأستاذ الميمنى رحمه الله ففى رسائله الكثيرة إلى أصدقائه من العرب والعجم لم يتكلف ولم يلحن، بل عبر عن المراد بلغة سهلة. انظر إلى بعض رسائله إلى محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق حين يقول :

«سيدى الفاضل الكريم الماجد محمد كرد على رئيسنا أبقاه الله غرة فى جبين الآداب وعليك السلام ورحمة الله ورضوانه .وصلنى منك أعزك الله أربعة كتب تترى دالة على كرمك ولطفك بهذا العاجز ومخبرة بما لا أزال أفتخر به بين الملأ من انتخابك هذا العاجز عضواً بالمجمع وهذه بشرى أقدرها وأباهى بها فشكراً منى لك ولأعضاء المجمع الكرام إخوانى وأصدقائى حرسهم الله عن كل ما يسوؤنى فيك وفيهم وجعلنى من بينهم الفداء لهم.

كاتبت صديقى السيد سليمان الندوى فى تحرير ترجمة فقيد الهند محمد أجمل خان المرحوم فإنه أعرف به منى فوعدنى أن يحرره بمعرفة بعض أصحابه العارفين بالعربية.

وأما أمر إرسال صورة هذا العاجز وترجمة حياته وتنميق أطروحة فإنى أعده بها إن شاء الله فى نحو الثلاثة الأشهر لتراكم الأشغال وانقلاب الفصل الذى لا يخلى الإنسان وأشغاله فضلاً عن كرب الصيام فى هذه الأيام إلا أن الأطروحة أحب أن تكون رسالة لى فى نقد ديوان النعمان بن البشير الأنصارى وبكر الدلفى، التى صنعتها قبل أعوام ولم أوفق لتبيضها ونشرها.

وليعلمنى سيدى هل يمكنه طبع كتاب «المستجاد من فعلات الأجواد» للقاضى أبى على المحسن التنوخى وهو فى ١٠٠ صفحة من قطع المجلة فقد نسخته وصححه ودللت فى الحواشي - فضلا عن التصحيحات - على المظان التى توجد فيها الحكايات والكتاب معد عندى للطبع منذ أشهر.

وهاتان نسختان من «الإقليد» الرجاء إتحافهما للخزانتين وحفظهما، وإن كان بعض الوراقين يتعهد بطبعه ثانية مع مقدمتى فيا حبذا لو تعهد بالتصحيح اللازم وطبعه، ولست أريد منه بدلا غير خمسين نسخة.

وأنا أوصى صديقى الفاضل محب الدين الخطيب أن يرسل إليكم نسختين أخريين من «أبى العلاء» إن شاء الله فى أول فرصة تسنح.

وهذه مقالة ومقدمة أحب نشرهما بالمجلة وبالزهراء أيضاً لئلا يقع أغرار الشداة فى مثل ما وقعت فيه فضلاً عن فائدتهما. وها أنا أرسل منها نسخة إلى الخطيب أيضا والرجاء أن يتكلف صديقى الكريم نشر ما ينشر بمجلة أخرى وإن كان فى ذلك إخلال بالعادة وتكرار فإنى - علم الله - لم أشف فيها نفسى بل تقدمت بالإنذار إلى إخوانى من المؤلفين فحسب.

أزيدكم الآن أن عند محمد إقبال ثلاث نسخ من «تتمة اليتيمة» نسخة باريس (التى لم يعرفها السيد منش ولا اغناطيوس كراتشقوفسكى) ونسختا برلين وفينا. ولكن الرجل وفقه الله قليل البضاعة كما تقفون عليه من الأغلاط التى وقع فيها فى وضع فهرس أسماء المصنفين المذكورين فى «اقليدى».

يوجد هنا بالهند نسخة عتيقة من اختيار رسائل الجاحظ - اختيار حمزة بن الحسن الأصفهانى - استنسختها ولعلى أصححها وأكتب عليها شيئاً فى الصيف المقبل إن شاء الله وأمر طبعها إليكم - إن رأيتم - أو إلى الخطيب حرسه الله.

وليوص صديقى مدير المجلة بإرسال فاتورة بثمن الاشتراك إلى مدير مكتبة The librarian Lytton Library M.U. Aligarh (U.P.) حتى لا يضيع الثمن فإنهم لا يؤدونه ما لم يكن ثمة فاتورة.

وقد وصلنى المجلدان الأخيران من مجلتنا فشكراً لكم وأيم الله إنى لم أحو مجموعة أكثر فائدة منهما وقد أنجزتهما مطالعة مع كثرة الشواغل كما قد قدمت وهو الذى زاد فى حرصى على مطالعة المجلدات الخمس المتقدمة فإن كان فى نسخها فضل وأرسلتم إلى فاتورة بأثمانها شكرتكم. لا زلتم أهلاً لنشر هذه اللغة المحبوبة.

وقد تعودت على طبع ما يخطه بنانى بالتزام بعض الشكل كما يراه صديقى فى تأليفى فهل له أكرمه الله أن لا يخل بالشكل إن كان ذلك فى وسعه بايصاء المنضد بذلك.

هذا وتقبلون فى الختام فائق تحياتى العاطرة يا ساكن الغوطة (جنة الدنيا) وتقدمون إلى إخوانى كالأستاذ المغربى وغيره ما تكن جوانحى من التزلف لهم وإكرامهم وتعذروننى فى تأخير الاجابة.

والسلام عليكم ورحمة الله

العاجـز

عبد العزيـز الميمنى الأثرى ـ بجامعة عليكره الهند

عضو المجمع العلمى العربى بدمشق (١)

فنثر الرسائل لم يتقن فنة الحديث إلا من عاشوا بين العرب، وعرفوا كيف يعبرون عن الفكرة بأسلوب مفهوم، يفهمه المتلقى لهذه الرسائل، وأسلوب الرسائل فى العصر الحديث - كما عند الميمنى - تخلص من السمات القديمة التى التزم بها القدماء، ولعل الميمنى استثناء لقاعدة درج عليها أهل الأدب فى شبه القارة فى رسائلهم وذلك لظروف حياته وما توفر له فيها من مخالطة واحتكاك كما ذكرنا، والاستثناء الثانى لهذه القاعدة هو ألطاف حسين حالى فى بعض رسائله كما رأيت. وبغير هذين يكون الأسلوب المرصع بسماته عند القاضى الفاضل وفى إطار فى الرسائل الذى رسمه ابن الأثير هو الطابع العام للرسائل الإخوانية فى شبه القارة.

١- مجلة المجمع العلمى الهندى، المجلد العاشر العدد الخاص بالميمنى، ص ٣٦٢ - ٣٦٦، يونيه ١٩٨٥.

الفصل السادس

المقامـــات

المقامة فن عرفته اللغة العربية فى القرن الرابع الهجرى، وهو فن يختلط فيه العنصر القصصى بالملح الأدبية والفكاهة والطرائف مما يجعله فنا ملونا تتعدد نقوشه، وتتلون نفائسه مهما اعترض عليه بعض المعترضين.

قد اختلف الباحثون فى منشئه ومنشئه، فنسبه بعضهم إلى ابن دريد المتوفى ٣٢١هـ، وعزاه آخرون إلى بديع الزمان الهمداني [١] المتوفى ٣٩٨هـ. وقد فصل القول فى ذلك الدكتور فارس ابراهيمى الحريرى فى كتابه عن المقامات فى الأدب الفارس [٢] ناقلا ذلك عن زكى مبارك. والخلاصة أن لكل فريق أدلته، فالذين يقولون إن ابن دريد هو مؤسس الفن يعتبرون أحاديثه ومجالسه التى لم يسمها مقامات أول شكل من أشكال المقامات، وقد تفرقت هذه الأحاديث فى كتاب الأمالى لأبى على القالى، بينما يرد عليهم الآخرون بأن الحريرى اعترف بكون الهمدانى أستاذ هذا الفن ومبدعه كما أن أحاديث ابن دريد ليست ابتكاراً بل رواية واسناداً، ولم يسمها هو بالمقامات بل بالأحاديث وهى أربعون حديثاً مسندة [٣] وبقطع النظر عن أدلة كل فريق فإن تصفح هذه الأحاديث يدلنا على أمور :

١- مقامات حميدى، عمرو بن محمود البلخى، ص ١، من المقدمة ، ايران ١٣٦٢هـ ش .

٢- مقامه نويسى در ادبيات فارسى ، ص ٢٤ ، وما بعدها ، ايران ١٣٤٦هـ.ش.

٣- نفس المصدر ، ص ٢٥ .

الأول : أن أحاديث ابن دريد التى تبعثرت فى الأمالى مسندة بالفعل إلى رواة وعلماء لغة وأدب، وليست مبتكرة، كما أن الرواة معروفون فلا مجال لكون الإسناد وهمياً على طريقة أصحاب المقامات الذين عزوا مقاماتهم إلى شخصيات افتراضية كما سترى.

الثانى : أن هذه الأحاديث لا يغلب عليها كلها عنصر القصة، ولا تحوى وقائع وأحداثاً أو تفوح منها رائحة المقامة، فأحاديث ابن دريد عن ملوك كندة وعبد مناف وقريش وتفسيراته اللغوية وتوجيهاته النحوية لبعض الألفاظ والمطالب والأمثال والأشعار وروايته لكلام بعض الصحابة. كل هذا لا يمكن إدخاله بحال فى فن المقامة لبعد ما بين الاثنين فنياً وأدبياً، ولو جاز اعتبار هذه الأحاديث والمجالس مقامات لجاز اعتبار أمثالها أيضا كمجالس ثعلب وابن الأعرابى وغيرهما اذ كل لغوى وأديب كانت له مجالس وأمال.

يقول أبو على القالى ناقلاً بعض هذه المجالس:

«وحدثنا أبو بكر بن دريد قال حدثنا الحسن بن خضر عن أبيه عن بعض ولد على رضى الله تعالى عنه قال كان على يعلم أصحابه الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ويقول اللهم داحى المدحوات وبارئ المسموكات وجبار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها اجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك ورأفة تحننك على محمد عبدك ورسولك الخاتم لما سبق والفاتح لما أغلق والمعلن الحق بالحق والدامغ لجيشات الأباطيل كما حمل فاضطلع بأمرك بطاعتك مستوفراً فى مرضاتك بغير نكل فى قدم ولا وهى فى عزم واعياً لوحيك حافظاً لعهدك ماضياً على نفاذ أمرك حتى أورى قبساً لقابس آلاء الله تصل بأهله أسبابه به هديت القلوب بعد خوضات الفتن وضحت أعلام الإسلام ومنيرات الأحكام فهو أمنك المأمون وخازن علمك المخزون وشهيدك يوم الدين وبعيثك نعمه ورسولك بالحق رحمه اللهم افسح له فى عدنك منفسحاً واجزه مضاعفات الخير من فضلك مهنآت غير مكدرات من فوز ثوابك المحلول وجزيل عطائك المعلول اللهم أعل على بناء الناس بناءه وأكرم لديك مثواه وأتمم له نوره واجزه من ابتعاثك له مقبول

الشهادة ومرضى المقالة ذا منطق عدل وخطة فصل وبرهان عظيم (قال) وحدثنا أبو عمر قال أخبرنا الغطفانى عن رجاله قال سئل أبو عبد الله جعفر بن محمد بن على رضى الله عنهم عن قول رسول الله ﷺ لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن قال فأدار دارة كبيرة وأدار فى وسطها دارة صغيرة وقال الكبيرة هى الإسلام والصغيرة هى الإيمان فإذا زنى خرج فى ذلك الوقت من الإيمان إلى الإسلام فإن كفر خرج من الدارة الكبيرة إلى الشرك والكفر والعياذ بالله. وقرأنا على أبى الحسن قال قال أبو محلم حدثنى وكيع ابن الجراح وأبو نعيم قالا حدثنا زكريا بن أبى زائدة عن الشعبى قال قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه أشد جنود ربك عشرة الجبال الرواسى والحديد يقطع الجبال والنار تذيب الحديد والماء يطفئ النار والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء والريح تقطع السحاب وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشئ ويمضى لحاجته والسكر يغلب ابن آدم والنون يغلب السكر والهم يغلب النوم فأشد خلق الله عز وجل الهم» [1].

فأين هذا من المقامات ؟

الثالث : أن بعض أحاديث ابن دريد يشبه المقامات، لكنها أيضا مروية بإسناد، ولا يستلزم ذلك أن تكون ابتكاراً وخلقاً. [2]

فالرأى - إذن - أن أحاديث ابن دريد يشبه بعضها المقامات ويبعد أكثرها عنها، وهذا أساس لا يمكن اعتباره - علمياً - سبباً كافياً لتتويج ابن دريد وإجلاسه على عرش مؤسس هذا الفن. لكن هذا لا يمنع من أن تكون هذه القطع الأدبية لابن دريد وغير ابن دريد قد عملت كالكبريت فى إشعال فكرة المقامات فى ذهن مبدعها بديع الزمان الهمدانى، فإن العمل الأدبى لا يأتى من فراغ ولا بد من أن يكون الهمدانى قبل ابتكاره لهذا الفن قد اطلع على هذه الملح والأشكال ، وتفتق ذهنه عن لون جديد تناثرت أعضاؤه هنا وهناك قبل أن يلمها الهمدانى ويجعل منها مخلوقاً له كيان وملامح.

١- الأمالى فى لغة العرب، أبو على اسماعيل بن القاسم القالى ٢، /١٧٥- ١٧٦ ، بيروت ١٩٧٨ .

٢- انظر مثلاً الأمالى : ١/ ١٥٢ - ١٥٥.

على أن مقامات الهمدانى - أستاذ الفن - وإن أحبها أهل فارس موالاة لرجل منهم وطناً ومذهباً حتى تأثر بها أدباء الفارسية وأدخلوا هذا الفن فى أدبهم فكانت فيه مقامات الحميدى وكلستان الشيخ سعدى وبهارستان الجامى ومقامات الخوافى والقاآنى وغيرهم إلا أنها لم تحظ بكبير اهتمام فى الأدب العربى فى شبه القارة رغم تقدم الهمدانى على الحريرى (ت ٥١٦ هـ) أكثر من قرن من الزمان، ورغم قرب الهمدانى من شبه القارة ورحلته إليها فى زمان الغزنوى واشتهار أمره هناك ولهذا فى اعتقادنا أسباب :

الأول : أن الهمدانى توفى قبل تأسيس المدارس الدينية ووضع مناهجها فى القرن الخامس الهجرى وما بعده.

الثانى : أن مدارس شبه القارة التى أدخلت الأدب العربى فى مناهجها لخدمة الدراسات الاسلامية ما كان لها أن تجعل فى كتب درسها كتاباً لمن خالفها فى المذهب كالهمدانى الشيعى لحساسية هذا الأمر فى شبه القارة، ولأن واضعى هذه المناهج لم يضعوا القيمة الأدبية فوق الخلاف المذهبى.

الثالث : أن هذه المناهج وضعت أيام اشتهار مقامات الحريرى وعلو اسمه فى بلاد العرب.

والرابع : أن أهل شبه القارة ربما فضلوا العرب على غيرهم وهم يضعون مناهج الأدب العربى.

ومهما كانت الأسباب فإن ذلك لا يعنى بحال انخفاض قيمة مقامات الأستاذ الهمدانى الأدبية وما فيها من فن وصنعة وسبك وحبكة. (١)

لأجل هذا لم نجد شرحاً لمقامات الهمدانى إلا شرح وكيل أحمد السكندربورى المعروف بالياقوت الرمانى وقد مر بك ذكره (٢). أما مقامات الحريرى فقد عنيت باهتمام بالغ فى شبه القارة فقلدوها وشرحوها. فقد قلدها باقر المدراسى الذى نظم أيضاً عشر قصائد على غرار المعلقات سماها العشرة الكاملة، ومر بك أن له ديواناً

١- إنظر مثلاً مقامات الهمدانى : ص ٣٧٥ - ٩٨٢، مصر ١٩٢٣م.

٢- راجع الفصل الخاص بخصائص الأدب العربى فى شبه القارة من هذا الكتاب.

عربياً ورسائل [1] وممن شرحوها أوحد الدين العثمانى البلكرامى وروشن على الجونبورى وراجه امداد على الكنتورى كما شرحها نجف على بن عظيم الدين الجهجرى بألفاظ غير منقوطة [2].

ولقد كان حرياً بأدباء شبه القارة أن يهتموا بمقامات الزمخشرى لأنها مواعظ وجهها إلى نفسه، ولكونها ذات مسحة دينية، وليس فيها رواية ولا قصة ولا بطل ولا أحداث مع امتيازها بجودة السبك وحسن الأسلوب وجمال السجع ومتانة البنيان واجادة التركيب واحتوائها على مصطلحات العروض والقوافى والنحو والصرف وهذا كله يجعلها أقرب بكل المقاييس إلى مزاج الأدب العربى فى شبه القارة، الا أن ذلك لم يحدث [3] وكما أهملوا مقامات الزمخشرى لم يلتفتوا إلى مقامات زين الدين الوردى المتوفى ٧٤٩هـ [4] وان كانت أقل متانة من مقامات الزمخشرى.

وكما أن مقامات الزمخشرى لم تلق اهتماماً من أدباء شبه القارة، لم تجد مقامات السيوطى أيضا عندهم مكاناً وأغلب ظننا، أن مقامات السيوطى لم تشتهر عند العرب أنفسهم كما أن السيوطى المتوفى ٩١١هـ تأخر عصره عن زمن وضع المناهج الدراسية فالأدب العربى فى شبه القارة فى زمان السيوطى بدأ ينتج ثمار بذور وضعت قبل ذلك بحقب طويلة. ولا شك فى أن مقامات السيوطى تمثل تطور الفن من حيث تعدد موضوعاتها ففيها أدب وتاريخ وطب وشعر وقصص وحديث وتفسير، وكأن السيوطى وضعها ليثبت عالميته فى مختلف الفنون. [5]

لم تحظ - إذن - بالدرس والاعتناء فى شبه القارة سوى مقامات الحريرى، لكن أدباء العربية هنا لم يوجدوا لأنفسهم مقاماً فى فن المقامة وقد كانت فى أيديهم مقامات

١- الثقافة الاسلامية :ص ٤٢ .

٢- المصدر السابق ، ص ٥٥ بتصرف .

٣- انظر مثلا مقامات الزمخشرى، شرح وتحقيق يوسف بقاعى، ص ٢٠٩ - ٢١٢، لبنان ١٩٨١.

٤- انظر ديوان الوردى زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر، القسطنطينية ، ١٣٠٠هـ .

٥- انظر مثلاً المقامة الجيزية، شرح مقامات جلال الدين السيوطى، تحقيق سمير محمود الدروبى، ١/ ٣٣٥ - ٣٤١، بيروت ١٩٨٩.

الهمداني والحريري، بل آثروا الاتباع والتقليد على الاجتهاد والتجديد، فأدباؤهم الذين ضربوا بأسهمهم في هذا الفن مثل باقر المدراسي وأبي بكر بن محسن باعبود المتوفى بعد ١١٢٨هـ لم يأتوا بجديد. وقد وصلتنا مقامات باعبود المعروفة بمقامات الهندي، وهي خمسون مقامة قال في أولها :

... «وبعد فيقول خادم خدام الحديث النبوي السيد أبو بكر بن محسن باعبود العلوي : لما رماني البين بسهام الاغتراب، وفارق بيني وبين الوطن والأحباب، خرجت ذات يوم بعد صلاة العصر إلى متنزه مع بعض أدباء العصر، واصطحبت معي المقامات الحريرية والتوابع والمقامات الزينية، وكان معنا جماعة ليس لهم تعلق بعلوم العربية، ولا اطلاع على النكت الأدبية، فنفرت طباعهم حتى صار الواحد منهم لا يجيب من ناداه، ولا شك أن من جهل شيئاً عاداه. فعند ذلك أشار علي بعض من حضر بانشاء مقامات يفهمها القاصي والداني غير محتاجة ألفاظها إلى التفتيش في كتب اللغة والمعاني فأنشأت هذه المقامات حسب الاشارة ، وتجنبت الوحشي والغريب في العبارة، وعزوت روايتها إلى الناصر بن فتاح ونشأتها إلى أبي المظفر الهندي السياح، فليعذر الواقف عليها والناظر اليها. وهي وإن كانت غير محكمة الصياغة لا تخلو من ملح يعرفها أهل البراعة ...» (١)

وباعبود في مقاماته التي حوت أيضاً قصص احتيال وخداع في أكثرها كما حوت بعضاً من سخرياته من عقائد أهل التصوف البريلوية لعدائه المذهبي لهم كواحد من أهل الحديث كما قرأت في مقدمة مقاماته، أخذ الأفكار الرئيسية من مقامات الحريري ثم حورها وغيرها وهنّدها مع رداءة الأسلوب وانحطاط السياق. فمقامته الثانية المسماة بالأحمد نكرية هي بعينها مقامة الحريري التبريزية، وفكرة مقامته السكرية هي هي فكرة المقامة الصعيدية السابعة والثلاثين عند الحريري كذلك مقامته الخاصة بامام المسجد المحتال والمتسولين وغير ذلك. ولأن باعبود لم يتقن التقليد، ولم يكن ذا أسلوب وطرز جاءت مقاماته خالية من كل قيمة أدبية كما سترى. قد سمى كل مقامة باسم مدينة من مدن الهند مثل سورت واحمد نكر وبيجابور وغيرها.

١- مقامات الهندي، أبو بكر بن محسن باعبود، ص ٢، الهند ١٢٩٢هـ.

ولكى يتضح لك الفارق بين أسلوب وأسلوب ، وبين فن وفن ، وأديب ومدع نسوق لك بعض مقاماته.

يقول باعبود فى مقامته السورتية :

روى الناصر بن فتاح قال سمرت مع بعض الإخوان فتذاكرنا محاسن البلدان، فقالوا قد شاع وذاع وملأ الأسماع أن أرض الهند جمعت جميع المحاسن الدنيوية، وفيها من الراحة ما يعين على المطالب الأخروية، فاشتقت إليها اشتياق الصادى إلى الزلال والمهجور إلى الوصال والحزين إلى الفرح والعديم إلى المنح. وبقيت أفكر فى الحيلة التى توصل إليها، وترمينى بأي وجه عليها، فقيل لى إن أهل هذه المدينة يريدون أن يبعثوا اليها سفينة، فاتخذت الأهبة وتهيأت لركوب مركب الغربة، وتوكلت على مالك الملك، وركبت فى ذلك الفلك، ومنذ مشينا من المراسى ونحن نقاسى من الأهوال ما نقاسى وحين خفنا على ذهاب النفوس لاح لنا بندر سورة المحروس، فنزلنا إلى تلك الأرض المؤنسة، والبلد التى على المحاسن مؤسسة، فصغر الخبر الخبر، ولم يسمع السمع بأحسن مما رأى البصر، واقتبسنا أنوارها القابوسية، واغترفنا من بحارها القاموسية، واستمطرنا سحائبها العيدروسية، ومكثت بها مدة وأنا فى أنس بعد تلك الشدة فاتفق أن خرجت يوماً إلى بعض متنزهاتها وجناتها المكتوب بالحسن على وجناتها :

جنة الحسن هنا يا عاشــقين ذات أزهار وكأس من معين
وورود تجتنى فى كل حــين ادخلوهــا بســلام آمــنين

ورأيت عند دخولى إليها وقدومى عليها رجلاً جالساً عند بابها، ويتحدث مع حجابها، فسألت عنه الفلاح فقال رجل من أهل الصلاح، فطلبته وعظمته، وآنسته وأكرمته، فجرى ذكر البلد وما فيها من البساتين وأنواع الفواكه والرياحين، فقال إنما هذا دهليز بلاد الهند، ولو رأيت موضع الملك والجند لقلت إنما رأيت بهذه شيئاً يسيراً، ورأيت نعيماً وملكاً كبيراً، فهزنى الشوق إلى ما وصف اهتزاز من ظفر وانتصف، وقمت من آنى وودعت إخوانى، وصححت نيتى، وركبت مطيتى، ولم أزل مرخياً للزمام إلى أن لاحت لى الخيام، فسررت بقدومى عليها ووصولى إليها، ثم تأملتها بعد أن دخلتها فإذا

بيوتها أقفاس وحيطانها أخصاص، أكثر سكانها نزائل وأخيارها قلائل، ولم أبرح صابراً على الأذى، مغضياً على القذى حتى لاح لى شخص قد تساقطت من الكبر أسنانه، وغاب من شدة الضعف تحت أجفانه انسانه، فتقدمت إليه وشكوت حالى عليه، فقال بعد أن سمع قصتى وسفرتى وأسبابها قوض خيامك عن أرض تهان بها ، فقلت إن حالى لضرير، ولا أملك من الدرهم إلا نصفه الأخير، ففكر ساعة بعد أن أكثر البهل والضراعة ثم قام وقال سربسيرى أسهمك فى ميرى، فسرت بسيره الحثيث، وهو يحدثنى بأحسن حديث، حتى أتى إلى قصر أقرت له القصور بالقصور، كأنه سحاب فى نحر السحاب، فدخل بى إلى صدر إيوانه، وقد عظمه عظماء حجابه وأعوانه فقال اخبروا الوزير أنى أتيت اليه بنابغة اليمن وخاتمة شعراء الزمن، فلم نبرح اذ أقبل الوزير وحوله من أتباعه الجم الغفير، فبالغ فى إعظامنا وإعزازنا وإكرامنا ، وأغرق الشيخ فى وصفى بما ملأ المسامع وجعلنى بمكانة دونها الفلك السابع، فحكم لى الوزير بخلعة سنية وألف أحمر عالمكيرية، وقام الوزير إلى محل حرمه، وتسلم الشيخ الخلعة والدنانير من خدمه، ثم أعطانى ثلاثة دنانير وقال اعطها لحاجب الوزير، ثم الحقنى إلى تلك البقعة لأسلمك الدنانير والخلعة. فمكثت وأنا مطمئن النفس بأنه فى مكانه وآنه، وإن غاب سيدل عليه بعض جيرانه، ووقفت بباب الأمير منتظرا حاجبه حتى بلغت الغزالة من الأفق حاجبه، فذهبت إلى دار الشيخ من ذلك الأوان فلم أجده فى المكان، وقضيت ليلى أمام داره على الجوع والأسى أعلل النفس بلعل وعسى، وحين انتبه الطائر من منامه، وأقبل الصبح براياته وأعلامه وردت الحى أسأل عن الرجل أميت هو أم حي، فلم يطلعنى أحد له على خبر ولم أقف له على أثر، وحين أيست من طلبتى أقبل شاب من أهل غربتى وقال أعلم أن هذا الرجل لا تعرفه، وانما هو منذ أيام وفد علينا ، ومنذ خرج معك لم يعد إلينا ، فقلت وهل لأحد اطلاع عى اسمه وكنيته أو عشيرته وقبيلته، فقال هذا رجل خبيث له فى الخبائث القديم والحديث، ويعرف تارة بالشيخ النجدى وأخرى بأبى المظفر الهندى، فعضضت بسبابتى من الندامة، وترضيت على ابى دلامة »[١] .

١- مقامات الهندى ، ص ٢-٤ .

هذا أسلوب ركيك لا يدل على ملكة أدبية. فقد امتلأت مقامات باعبود بفساد العبارة كقوله في هذا النص سكانها نزائل، وشكوت حالي عليه ، والحقني إلى تلك البقعة، واستخدم البلد مؤنثاً ومثل قوله في موضع آخر. قصدنا أن لا نكلف عليك (1) وتذكيره الهند في قوله : أجدب الهند (2) اثباته النون في موضع الحذف كقوله : وأخاف أن يظهر أمره على الحكام فيجعلونه عبرة للأنام، ولولا تأويلنا عشرات الأخطاء بجهل الناسخ باللغة العربية لأوردنا الكثير والكثير.

ولعل الفرق لا يظهر الا بالمقارنة بين مقامة من مقامات الحريري ومقامة من مقامات الهندي الذي أخذ نفس الأفكار ونسج عليها بأسلوب ركيك ، يقول الحريري في المقامة التبريزية :

أخبر الحارث بن همام قال ازمعت التبريز من تبريز حين نبت بالذليل والعزيز وخلت من المجير والمجيز فبينا أنا في إعداد الأهبة وارتياد الصحبة ألفيت بها أبا زيد السروجي ملتفاً بكساء محتفاً بنساء فسألته عن خطبه وإلى أين يسرب مع سزبه فأومأ إلى امرأة منهن باهرة السفور ظاهرة النفور وقال تزوجت هذه لتؤنسني في الغربة، وترحض عني قشف الغربة فلقيت منها عرق القربة، تمطلني بحقي وتكلفني فوق طوقي فأنا منها نضو وحي وحلف شجو وشجي. وها نحن قد تساعينا إلى الحاكم ليضرب على يد الظالم، فإن انتظم بيننا الوفاق والا فالطلاق والانطلاق. قال فملت إلى أن أخبر لمن الغلب وكيف يكون المنقلب، فجعلت شغلي دبر أذني وصجتهما وإن كنت لا أغني، فلما حضر القاضي وكان ممن يرى فضل الإمساك، ويضن بنفاثة السواك، جثا أبو زيد بين يديه وقال أيد الله القاضي وأحسن اليه إن مطيتي هذه أبية القياد كثيرة الشراد مع أني أطوع لها من بنانها وأحنى عليها من جنانها فقال لها القاضي ويحك أما علمت أن النشوز يغضب الرب ويوجب الضرب، فقالت إنه ممن يبذر خلف الدار ويأخذ الجار بالجار. فقال له القاضي تباً لك أتبذر في السباخ وتستفرخ حيث لا إفراخ؟ اعزب عني لا نعم

١- نفس المصدر ، ص ٨ .

٢- نفس المصدر ، ص ٩ .

عوفك ولا أمن خوفك، فقال أبو زيد إنها ومرسل الرياح لأكذب من سجاح فقالت بل هو ومن طوق الحمامة وجنح النعامة لأكذب من أبى ثمامة حين مخرق باليمامة فزفر أبو زيد زفير الشواظ، واستشاط استشاطة المغتاظ وقال لها ويلك يا دفار يا فجار يا غصة البعل والجار، أتعمدين فى الخلوة لتعذيبى وتبدين فى الحفلة تكذيبى وقد علمت أنى حين بنيت عليك ورنوت إليك ألفيتك أقبح من قردة وأيبس من قدة، وأخشن من ليفة وأنتن من جيفة، وأثقل من هيضة وأقذر من حيضة وأبرز من قشرة وأبرد من قرة، وأحمق من رجلة وأوسع من دجلة، فسترت عوارك ولم أبد عارك على أنه لو حبتك شيرين بجمالها، وزبيدة بمالها، وبلقيس بعرشها، وبوران بفرشها، والزباء بملكها، ورابعة بنسكها، وخندف بفخرها، والخنساء بشعرها فى صخرها لأنفت أن تكونى قعيد رحلى، وطروقة فحلى قال فتذمرت المرأة وتنمرت، وحسرت عن ساعدها وشمرت، وقالت له يا ألأم من مادر وأشام من قاشر، وأجبن من صافر، وأطيش من طامر أترمينى بشنارك وتفرى عرضى بشفارك، وأنت تعلم أنك أحقر من قلامة وأعيب من بغلة أبى دلامة وأفضح من حبقة فى حلقة وأحير من بقة فى حقة، وهبك الحسن فى وعظه ولفظه، والشعبى فى علمه وحفظه، والخليل فى عروضه ونحوه، وجريراً فى غزله وهجوه، وقساً فى فصاحته وخطابته، وعبد الحميد فى بلاغته وكتابته، وأبا عمرو فى قراءته وإعرابه، وابن قريب فى روايته عن إعرابه، أتظننى أرضاك إماماً لمحرابى وحساماً لقرابى لا والله ولا بواباً لبابى ولا عصا لجرابى. فقال لهما القاضى أراكما شناً وطبقه وحدأة وبندقه فاترك أيها الرجل اللدد واسلك فى سيرك الجدد، وأما أنت فكفى عن سبابه، وقرى إذا أتى البيت من بابه، فقالت المرأة والله ما أسجن عنه لسانى إلا إذا كسانى، ولا أرفع له شراعى دون إشباعى، فحلف أبو زيد بالمحرجات الثلاث أنه لا يملك سو أطماره الرثاث، فنظر القاضى فى قصصهما نظر الألمعى، وأفكر فكرة اللوذعى، ثم أقبل عليهما بوجه قد قطبه ومجن قد قلبه، وقال ألم يكفيكما التسافه فى مجلس الحكم والإقدام على هذا الجرم حتى تراقيتما فى فحش المقاذعة إلى خبث المخادعة وأيم الله لقد أخطأت استكما الحفرة ولم يصب سهمكما الثغرة فإن أمير المؤمنين أعز الله ببقائه الدين نصبنى لأقضى بين الخصماء لا لأقضى دين الغرماء، ووحق نعمته التى أحلتنى هذا المحل، وملكتنى

العقد والحل لئن لم توضحا لى جلية خطبكما وخبيئة خبكما لأنددن بكما فى الأمصار ولأجعلنكما عبرة لأولى الأبصار فأطرق أبو زيد إطراق الشجاع ثم قال له سماع سماع.

أنا السروجى وهذى غرسى ... وليس كفء البدر غير الشمس
وما تنافى أنسها وأنسى ... ولا تناءى ديرها عن قسى
ولا عدت سقياى أرض غرسى ... لكننا منذ ليال خمس
تصبح فى ثوب الطوى وتمسى ... لا نعرف المضغ ولا التحسى
حتى كأنا لخفوت النفس ... أشباح موتى نشروا من رمس
فحين عز الصبر والتأسى ... وشفنا الضر الأليم المس
قمنا لسعد الجد أو للنحس ... هذا المقام لاجتلاب فلس
والفقر يلجى الحر حين يرسى ... إلى التجلى فى لباس اللبس
فهذه حالى وهذا درسى ... فانظر إلى يومى وسل عن أمسى
وأمر بجبرى إن تشا أو حبسى ... ففى يديك صحتى ونكسى

فقال له القاضى ليثب أنسك ولتطب نفسك فقد حق لك أن تغفر خطيتك وتوفر عطيتك، فثارت الزوجة عند ذلك واستطالت وأشارت إلى الحاضرين وقالت :

يا أهل تبريز لكم حاكم ... أوفى على الحكام تبريزاً
ما فيه من عيب سوى أنه ... يوم الندى قسمته ضيزى
قصدته والشيخ نبغى جنى ... عود له ما زال مهزوزا
فسرح الشيخ وقد نال من ... جدواه تخصيصا وتمييزا
وردنى أخيب من شائم ... برقا خفى فى شهر تموزا
كأنه لم يدر أنى التى ... لقنت ذا الشيخ الأراجيزا
وأننى إن شئت غادرته ... أضحوكة فى أهل تبريزا

قال فلما رأى القاضى اجتراء جنانهما وانصلات لسانهما علم أنه قد منى منهما بالداء العياء والداهية الدهياء وأنه متى منح أحد الزوجين وصرف الآخر صفر اليدين كان كمن قضى الدين بالدين أو صلى المغرب ركعتين. فطلسم وطرسم واخرنطم وبرطم، وهمهم وغمغم ثم التفت يمنة وشامة، وتململ كآبة وندامة وأخذ يذم القضاء ومتاعبه ويعدد شوائبه ونوائبه ويفند طالبه وخاطبه، ثم تنفس كما يتنفس الحريب وانتحب حتى كاد يفضحه النحيب، وقال إن هذا لشئ عجيب أأرشق فى موقف بسهمين ؟ أألزم فى قضية بمغرمين؟ أأطيق أن أرضى الخصمين؟ ومن أين ومن أين؟ ثم عطف إلى حاجبه المنفذ لمآربه وقال ما هذا يوم حكم وقضاء وفصل وإمضاء، هذا يوم الاعتمام هذا يوم الاغترام هذا يوم البحران هذا يوم الخسران هذا يوم عصيب هذا يوم نصاب فيه ولا نصيب، فأرحنى من هذين المهذارين، واقطع لسانهما بدينارين، ثم فرق الأصحاب وأغلق الباب وأشع أنه يوم مذموم وأن القاضى فيه مهموم لئلا يحضرنى خصوم (قال) فأمن الحاجب على دعائه، وتباكى لبكائه، ثم نقد أبا زيد وعرسه المثقالين، وقال أشهد أنكما لأحيل الثقلين، لكن احترما مجالس الحكام واجتنبا فيها فحش الكلام، فما كل قاض قاضى تبريز، ولا كل وقت تسمع الأراجيز، فقالا له مثلك من حجب وشكرك قد وجب، ونهضا وقد حظيا بدينارين، وأصليا قلب القاضى نارين».(١)

وحول نفس الفكرة نسج باعبود مقامته الأحمد نكرية ، فقال فيها :

«حدث الناصر بن فتاح قال اجتزت بأحمد نكر فى أيام غلبة السموم والحر، وغلب على الظما حتى خشيت الهلاك والعمى، فاستسقيت جارية على ساقية جارية فناولتنى شنة كأن ماءها من الجنة، فشكرت لها جزيل فضلها، وسألتها عن وطنها وأهلها فقالت أما الوطن فقوالير، وأما الأهل فبواهير، وانما ساقنى المقدور إلى هذه الأرض الحرور، فلم ألبث أن أقبل ذو حال رثة ولحية كثة، فأخذ بيمينه مرطها وبشماله قرطها، فصاحت بأعلى صوتها حتى خفت من موتها، ونادتنى نداء المستغيث فأدركتها إدراك المغيث، وفككته عنها ولم أمكنه منها، فقال إن هذه عرسى وأرض غرسى ولا بد آخذها ولو

١- مقامات الحريرى، ص ٢٤٢ - ٢٦، مصر ١٣٠٥ هـ.

سحبت على وجهها، فقلت ما تقولين فى قوله ؟ فقالت قوله كبوله، فحلف بالأدب وأربابه ومن تدرع بإهابه، وأيمان ناطقة أن دعواه صادقة. فقالت : أبرأ من الكذب إلى علام الغيوب، هو زوجى ولكنه كثير العيوب يأتى البيوت من الظهور، ويقصم بعدم الانفاق الظهور، فقال : والسبع المثانى أنها كذبت فى الأول وصدقت فى الثانى. فقالت: دع ما كذبته وآت ما صدقته ، فقال : ليس على المفلس حرج فاصبرى إلى أن يأتى الله بالفرج. فقالت : خذ من أحد بالقرض فقال : لا آخذ شيئاً يكون أداؤه يوم العرض فقالت : يا مخنوث المخانيث ومحبوب ابليس الخبيث أما تستحى من العار أما تخشى من النار ؟ أو ما سمعت الخبر المنقول كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول، أسألك بالله أن تخلى سبيلى لأرجع إلى قبيلى، فتضرع وأكثر الحنين والأنين، ويكى ولا بكاء الثكلى والحزين، فرحمت تذلله، وأعطيته من الورق ما أثقله، فأخذها وأخذها معه، وعن لى أن أتبعه، فسمعته يقول لها : أما قلت لك إن الربح فى الدها، ولو لم نفعل فعل الأوباش بتنا من الجوع أوحاش، فتقدمت أمامه وكشفت لثامه فإذا هو أبو المظفر الساحر المعدود من المساخر، فقلت له قاتلك الله من ماكر ولا أبقاك إلى باكر، فقال دع المرا ولا تسأل عما جرى، ففارقته وهو بالمال قرير العين وحلفت أن لا أدخل بين متشاجرين ولا أفك بين متخاصمين » (١).

فالفكرة فى هاتين المقامتين واحدة الا أن الفن والأسلوب يبتعد فى كل منهما عن نظيره بعد السماء عن الأرض، فمقامة الحريرى فيها حركة فنية صاغها فى جمل قصار تتابعت واحدة تلو أخرى حسب ما يقتضيه الموقف، انظر مثلا إلى المقطع الذى فيه التشاجر والتشائم فقد صاغ الحريرى عباراته فى شكل قذائف متلاحقة استلزمت صياغة العبارات بهذا الشكل بينما سادت الركاكة هذا الجزء عند باعبود، والسجع عند الحريرى طبيعى ينحدر فى سلاسة بينما هو متكلف عند باعبود، خذ مثلا لذلك قوله « وغلب على الظما حتى خشيت الهلاك والعمى فالعمى هنا محشورة حشراً، فالهلاك أشد من العمى ولا يأتى العمى بعد الهلاك أبدا وخذ مثلا للركاكة قوله : فلم ألبث أن أقبل ذو حالة رثة وبالجملة فإن مقامات باعبود التى قلد بها الحريرى رغم استعارته أفكارها

١- مقامات الهندى، ص ٤ - ٥.

وبعض ألفاظها إلا أنها مكتوبة بأسلوب غاية فى الركاكة حرص الكاتب فيه على أن يقفى الجمل بأى شكل ظناً منه - ربما - أن الصنعة هكذا تكون، فلم تحو مقاماته قيمة أدبية، بل جاءت قصصاً تخلو حتى من خيال بارع فى النسج، يستطيع أبسط طلاب العربية الاتيان بأفضل منها حباً ولفقاً.

هذه نظرة مختصرة عابرة على المقامة العربية مكتوبة بأقلام الفرس كالهمدانى، والعرب كالحريرى والزمخشرى والسيوطى، والهنود كأبى بكر با عبود. ومع أن حصر المقامات المكتوبة بالعربية ليس قصدنا فى هذا المقام إلا أننا نشير هنا إلى مقامات أخرى كتبها ابن حموية فخر الدين أبو المظفر يوسف بن محمد بن عمر بن على الجوينى المتوفى ٦٤٧هـ وكان من فرسان الدولة الأيوبية وقتل فى حربه ضد الفرنسيين حين هاجموا مصر. وعنوان هذه المقامات «تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم» رواها على لسان «لسرور ابن اللذة» ومع جودة لغتها واحتوائها على كثير من الذوق الأدبى والشعر والوصف والخيال إلا إن موضوعها مغامرات الرجل فى الحانات والمراقص مع الغانيات وأهل اللذة والطرب، وقد استخدم المؤلف عبارات سافرة، ووصف أموراً فاحشة وإن كنا لا نعدم مثلا من كتابته التى لا يظهر فيها هذا السفور كقوله :

حكى السرور ابن اللذة قال : كنت وشعبة جنون شبابى وعنفوانها ، وصحيفة عمرى لم أقرأ منها غير عنوانها وروضة عارضى ما حان حينها ولا آن أوانها وصبا صباى دائمة الهبوب نافحة، ونار شهواتى ذات وقود لافحة وغصن مسراتى نضير يانع، ومطلب لذاتى يرفل فى برد الشباب الرائع، وتهتك أغراضى غير راض بالتستر ولا قانع، ومحبوب قلبى لما أروم باذل غير مانع، ونجم لهوى فى أفق لذاتى طالع:

لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى ضم النهود لبانات وأوطار
هذا اختيارى فوافق إن رضيت به وإلا فدعنى وما أهوى وأختار

ووقت أنسى قد غمضت عنه عين الزمان، وأخذ من حوادث الدهر الأمن والأمان، وجواد ثروتى مجل فى ميدان الإنفاق، وحسن يقينى واثق بعدم الإقتار والإملاق، وسيف

شرتى قاسم فاصل، وسنان جدتى مشرف على المطالب وعامل، وديوان مقاصدى فى سياقته أعظم حاصل ، ومخازن مآدبى كل وقت يتجدد اليها الواصل.

وشبابى فى أول الحمد يقرأ   مستقيم الصراط فى كل حال
ناعم البال طيب العيش نامي الـ   وفر والجود فارغ السر خالى
ونديمى السرور والطيب والـ   راحة والباس والندا والمعالى
وعبيدى فى كل ما آمر الأيـ   ـام حقا كما إماء الليالى

ومورد السعود لى صاف، وملبس النعم على ضاف، وعمري محسوب بنفاد أمرى، ومطعم شربى بالمسرة يستمرى وكل ما أطعمه من الطيبات، فلم أحتج أن أقول وفى إكرام خزعبلات :

إذا اصطحبت ثلاثا   وكان عودى نديمى
والكأس تضحك ضحكاً   فى كف ظبى رخيم
فما على طريق   لطارقات الهموم [١]

ومن وصفه لمن يحب ويهوى قوله :

«عذب الكلام لطيف الشمائل حسن الصفات كريم الأخلاق عفيف الضمير واللحظات كل شيئ أردته فهو فيه، حسن الذات كامل الأدوات، توحى إليه من طرف خفى فيفهم وتقول فيدرى أو تشير فيعلم ، فكل عيش غاب عنه فهو عيش مدمم، لا يؤاخذ بجناية ولا جرم، وقلبه أحنى على الحريف من الأب والأم، يرى أن يحتمل الظالم ولا يرضى لنفسه الظلم.

فلا جميل فى الناس نعلمه   الا وأدنى فعاله أجمل

١- تقويم النديم، ابن حمية : ورقة ٢ - ٤ من مخطوط بمكتبة مجمع البحوث الإسلامية بإسلام اباد، برقم ١١.

ينخلــع فى مجــالس الخلـوات، ويجلب بطيب أوقاته أنواع المسرات ... إلى آخر ما قال [1].

هذه النماذج التى اطلعت عليها من المقامات العربية بأقلام العرب والفرس والهنود، تستطيع إن تتبين سمات فنية للمقامات منها:

١- أنها تروى على لسان شخصية افتراضية هي عند الهمدانى عيسى بن هشام وعند الحريرى الحارث بن همام وعند الزمخشرى أبو القاسم وعند السيوطى الهاشم بن القاسم وعند الوردى انسان من معرة النعمان وعند باعبود الناصر بن فتاح وعند ابن حموية السرور ابن اللذة، وقد غاب هذا العنصر فى أحاديث ابن دريد.

٢- أنها تحتوى على قصص - أياً كان موضوعها، وقد شذ عن ذلك أكثر مجالس ابن دريد وأحاديثه، وابتدع الزمخشرى موضوعاً آخر هو وعظ النفس مع توجيه الوعظ إلى شخص افتراضى.

٣- أنها لا تعالج مشكلات اجتماعية بل تصاغ كقطع أدبية نثرية تهتم بالصنعة لا بموضوع المقامة ، وبالتالى فهى مبتورة عن الواقع، وهذا ما يؤخذ عليها.

٤- أن يحرص مؤلفها على تقفية جملها وتسجيعها كأسلوب مميز لهذا الفن.

ومهما كانت المؤاخذات على المقامة فإنها فى اعتقادنا الشكل البدائى للقصة القصيرة التى عرفها الأدب العربى فى العصر الحديث.

١- بنفس المصدر، الورقة ١٠٤، وراجع ترجمة المؤلف فى الاعلام للزركلى، ٨/ ٢٤٩، دار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ.

الفصل السابع

الطرائـــــف

الأدب العربى فى شبه القارة ليس فيه طرائف، ولم نجد فيه ما كان ينبغى أن يوجد منقولا عن بيئة ماجت بآداب ثرية فقصص الحكماء وطرائف الأدباء وفكاهات المجالس، وقفشات أروقة البلاطات، ومناظرات الشعراء ومطارحاتهم، وقصص الأمراء وحكايات المسامرات وجدت فى بيئة شبه القارة باللغات الأخرى، لكنها انعدمت فى اللغة العربية، وذلك لأن أدبها نشأ كما قلنا حول المدارس الدينية، ثم جاءت نظرة الناس إلى هذه اللغة نظرة قداسة لتضيف إلى ذلك عاملاً آخر من العوامل التى جعلت من الأدب العربى فى هذه المنطقة أدبا جافاً، إن حاول أصحابه السير به على نهج الآداب - كل الآداب - تذكروا أنهم يكتبون بلغة القرآن فارتعشت أقلامهم ورمتها الأيدى، خشية ارتكاب الوزر، فارتباط اللغة بالدين، عزل أدبها عن الواقع مع أنه واقع غنى القريحة، ثرى فى تنوعه، وكأن الأدباء خافوا أن يضحكوا باللغة العربية أو يتسامروا بها، أو يتغامزوا ويتلاطفوا فيما بينهم متخذينها وسيلة للتعبير فى هذه المواقف.

ولم نعثر على مثال للموضوعات الطريفة باللغة العربية الا فى كتاب صديق حسن القنوجى المسمى «نشوة السكران» من صهباء تذكار الغزلان، وهو كتاب فى العشقيات وأنواع النساء وما قيل فيهن من شعر وملح، يقول صديق حسن :

فصل فى مراتب العشق وأسمائه وصفاته : فأول مراتبه الهوى وهو ميل النفس وقد يراد به نفس المحبوب، ثم العلاقة وهى الحب اللازم للقلب، ثم الكلف وهو شدة الحب، وأصله من الكلفة وهى المشقة، وقيل مأخوذ من الأثر وهو شئ يعلو الوجه كالسمسم، والكلف أيضاً لون من السواد والحمرة وهى حمرة كدرة، ثم العشق وهو اسم لما فضل عن

المقدار الذى اسمه الحب، قال فى الصحاح هو فرط الحب، وهو أمر هذه الأسماء، وقلما نطقت به العرب، وكأنهم ستروا اسمه وكنوا عنه بهذه الأسماء ولا تكاد تجده فى شعرهم القديم، وانما أولع به المتأخرون، ولم يقع هذا اللفظ فى الكتاب العزيز ولا السنة المطهرة إلا فى حديث أبى داود الظاهرى، ثم الشغف قال العزيزى فى غريب القرآن: شغفها حبا: أصاب حبه شغاف قلبها وهو الغلاف أو حبة القلب وهى علقة سوداء فى صميمه، وشغفها حبا : ارتفع حبه إلى أعلى موضع فى قلبها مشتق من شغاف الجبال أى رؤوسها، وقولهم فلان مشغوف بفلانة أى ذهب به الحب أقصى المذاهب، والشعف بالمهملة : إحراق الحب القلب وقد قرئ بهما جميعا، ومثله فى الإحراق اللوعة واللاعج فهذا هو الهوى المحرق ثم الجوى وهو الهوى الباطن قال الجوهرى الجوى الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن، ثم التتيم وهو أن يستعبده الحب ومنه سمى تيم الله أى عبد الله، ثم التبل وهو أن يسقمه الهوى، وفى الصحاح تبلهم الدهر وأتبلهم إذا أفناهم، ثم التدله وهو ذهاب العقل من الهوى، ويقال دلهه الحب أى حيره، ثم الهيام وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه، ثم الصبابة وهو رقة الشوق وحرارته. والمقة المحبة والوامق المحب، والوجد الحب الذى يتبعه الحزن، والدنف لا تكاد تستعمله العرب فى الحب، وانما ولع به المتأخرون، وإنما استعملته العرب فى المرض، والشجو حب يتبعه هم وحزن، والشوق سفر القلب إلى المحبوب، قال الجوهرى الشوق والاشتياق نزاع النفس إلى الشئ، وقد جاء فى السنة : وأسألك النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك، واختلف فيه هل يزول بالوصال أو يزيد. والبلبال الهم ووسواس الصدور، والبلابل جمع بلبلة يقال بلابل الشوق وهى وساوسه، والتباريح : الشدائد والدواهى، يقال برح به الحب والشوق إذا أصابه منه البرح وهو الشدة، والغمرة ما يغمر القلب من حب أو سكر أو غفلة، والشجن : الحاجة حيث كانت، وحاجة المحب أشد إلى محبوبه، والوصب : ألم الحب ومرضه فإن أصل الوصب المرض، والكمد : الحزن المكتوم وتغير اللون، والأرق : السهر وهو من لوازم المحبة، والحنين الشوق الممزوج رقة، وتذكر يهيج الباعثة، والجنون أصل مادته الستر والحجب المفرط يستر العقل فلا يعقل المحب ما ينفعه ولا ما يضره، فهو شعبة من الجنون، ومن الحب ما يكون جنوناً، والود : خالص الحب وألطفه وأرقه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة، والخلة : توحيد المحبة، فالخليل هو الذى يوحد حبه

لمحبوبه وهى مرتبة لا تقبل المشاركة ولهذا اختص بها من العالم الخليلان ابراهيم ومحمد (ﷺ) كما قال تعالى : «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» وصح عن النبى (ﷺ) أن قال إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وفى الصحيح عنه (ﷺ)، لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، وقيل إنما سميت خلة لتخلل المحبة جميع أجزاء الروح، وزعم من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل، وهذا الزعم باطل لأن الخلة خاصة والمحبة عامة، قال تعالى: «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين». والغرام : الحب اللازم يقال رجل مغرم بالحب وقد لزمه الحب، وفى الصحاح الغرام الولوع. والوله: ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد، وما أحسن قول السيد يوسف بن إبراهيم الأمير:

عشق المحبوب ظبياً مثله　　　فاعتراه لهواه وله

كان معشوقاً فأضحى عاشقاً　　　فقضى الحب عليه وله

والرسيس من الرس وهو الثبات ورسوخ صورة المحبوب فى النفس، وزعموا أنه أول المراتب ويليه الحب، والحب أخص من العشق لأنه من أول نظرة، وأقصاه امتزاج الأرواح، والرأفة أشد الحب لأنها مبالغة فى الرحمة، والصبوة لا تطلق حقيقة إلا على الميل والافتتان فى زمن الصبا لكن تطلق تجوزاً على مطلق الميل للمشابهة والنزوع، والكآبة شدة الحزن كالتفجع أو هو توجع وبكاء على الفقد. والبرح، والغل شدة العشق، والسهد شدة السهر وتواتر أحوال المحبوب على القلب، وفى معناه التحرق واللذع والولع، والنصب لوعة مع مرض وغم، والخبل الجنون المتولد من شدة الحب وهذا فى الأصح آخر المراتب، والجزع عدم الصبر على الفرقة، والهلع أشده، والخلابة سلب العقل، والبله حمق أو غفلة فيكون هنا استغراقاً فى الحب، وفى ترتيب هذه الأسماء خلاف يرد على من التزم ترتيبها، ونحن قد أوضحنا نفس المعانى ومنها يسهل الترتيب والتنزيل على المراتب فتأمل. وله أسماء غير هذه أضربنا عنها خوف الإطالة، والمحبة أم باب هذه الأسماء كلها، وقيل الشوق جنس والمحبة نوع منه، والحب حرف ينتظم الثلاثة العشق والوجد والهوى، وللناس فى حد المحبة كلام كثير فقيل هى الميل الدائم بالقلب الهائم، وقيل ذكر المحبوب على عدد الأنفاس، وقيل مصاحبته على الإدمان، وقيل القيام له

بكل ما يحبه منك، ثم القلب إذا امتلأ من الحب فلا اتساع فيه لغير المحبوب ، والذين آمنوا أشد حبا لله » [١].

ويقول فى موضع آخر :

« قال أحمد بن حجلة المغربى للناس فيه كلام من الطرفين وتبختر بين الصفين فقائل بأنه اضطرارى وقائل بأنه اختيارى، ولكل من القولين وجه مليح وقد رجيح، ونحن نذكر ما يعم به الانتفاع، ونتكلم فى طوله وعرضه بالباع والذراع، فمن ذلك ما قال القاضى محمد بن أحمد النوفانى فى كتابه تحفة الظراف : العشاق معذورون على كل حال مغفور لهم جميع الأقوال والأفعال، إذ العشق إنما دهاهم على غير اختيار بل اعتراهم على جبر واضطرار، والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور لا فى المقضى عليه والمقدور، وهذا مما لا يشك فيه ذو لب، ولا يختلج خلافه فى قلب وجاء فى تفسير قوله تعالى: «فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن» وهذا اضطرار واضح قال وهب كن أربعين امرأة فمات منهن تسع وجداً بيوسف وكمداً عليه، وقال الفضيل بن عياض لو رزقنى الله دعوة مجابة لدعوت بها للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية لا اختيارية، وفى كتاب امتزاج الأرواح للتميمى قال بعض الأطباء وقوع العشق بأهله ليس باختيارهم ولا بحرصهم عليه، ولا لذة لأكثرهم فيه، ولكن وقوعه بهم كوقوع العلل المدنفة والأمراض المتلفة لا فرق بينه وبين ذلك ، وقال المدائنى لام رجل رجلا من أهل الهوى فقال لو كان لذى هوى اختيار لاختار أن لا يهوى، ولكن لا اختيار له، وقال الحافظ ابن القيم (رح) فسر كثير من السلف قوله تعالى ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به بالعشق، وهذا لم يريدوا به التخصيص، وإنما أرادوا به التمثيل وأن العشق من تحميل ما لا يطاق أى التحميل القدرى لا الشرعى الأمرى، انتهى، وحكى ابن حزم أن رجلاً قال عمر بن الخطاب رأيت امرأة فعشقتها فقال عمر ذلك مما لا يملك، وقال ابن طاووس فى قوله تعالى : «خلق الإنسان ضعيفا » أى إذا نظر إلى النساء لم يصبر، ومن هذا ظهر أن عذلهم فى هذا الحال بمنزلة عذل المريض فى مرضه، وذهب جماعة من الأطباء وغيرهم إلى أنه اختيارى، والإنسان هو المختار فيه بتسليط فكرته فى بحار سكرته » [١]

١- نفس المصدر، ص ١١.

وبعد عرض على هذا النحو لما يتعلق بالعشق من أمور، يبدأ في بيان أنواع النسوان بعد تقسيمهن إلى صالحات وطالحات، ويتمثل لكل نوع ببعض الأشعار، يقول مثلاً :

«وقد سمى آزاد كل قسم رائع، وعرفه بتعريف جامع مانع، وأثبت أمثلة تقر بها عيون الأدباء، وأقوالاً تهتز لها قرائح الظرفاء، والأمثلة التى نسبها لنفسه أكثر معانيها من مخترعاته وقليل منها من أشعار الأهاند، ومن قدرة الله سبحانه أن الحلاوة التى تحصل للذواق من الأشعار المشتملة على أقسام النسوان فى لسان الهند لا تحصل فى لسان العرب، وما منشأه إلا خصوصية اللسان، وظاهر أن نقل الخصوصية عن لسان إلى لسان خارج عن الطاقة البشرية، إنما الطاقة بيان القواعد العلمية. فمن تقاسيمهم تقسيم باعتبار الصلاح والطلاح، فالمرأة على قسمين صالحة وطالحة. أما الصالحة فهى التى لا تلتفت إلا إلى زوجها ومن لوازمها الحياء واسترضاء الزوج روى عن أبى امامة عن النبى صلى الله عليه وسلم، أنه يقول ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة ان أمرها أطاعته، وإن نظر اليها سرته، وان أقسم عليها أبرته، وان غاب عنها نصحته فى نفسها وماله، أخرجه ابن ماجة، وفى الباب أخبار وآثار كثيرة يعرفها من يعرف فن الحديث، وكانت الرباب بنت امرئ القيس تحت الحسين سبط النبى (ﷺ) فلما استشهد خطبها الأشراف من قريش فأبت وقالت والله لا يكون لى حمو آخر بعد رسول الله (ﷺ) وعاشت بعد الحسين رضى الله تعالى عنه سنة لم يظلها سقف إلى أن ماتت حزناً وكمداً رحمها الله تعالى، ومن أمثلتها فى الشعر قول الأعشى:

لم تمش ميلاً ولم تركب على جمل   ولم تر الشمس إلا دونها الكلل

وقول آزاد :

بى ظبية دهشت من لها أبدا   كأنها اجتمعت بالليث فى الأجم [1]

١- نشوة السكران، ص ٢٥ - ٢٦.

ومن الأقسام التي ساقها: المتسترة وهي التي تخفي فسقها لكنه ظهر قليلاً بالأمارات، وهي الوسطى بين المختفية والمعلنة كقول ولادة :

ترقب إذا جن الظلام زيارتي ... فإني رأيت الليل اكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر لم ينر ... وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر

وقول زين الدين بن عبيد الله :

يا عاذلا قد لحاني في محبتها ... إليك عني فاني لست أتركها
وليس يعجبني إلا تعففها ... مع الورى ومعي وحدى تهتكها (١)

والواقع أن هذا الفن كان منتشراً في شبه القارة زمن الدولة المغولية، وبلغ النساء في الانفتاح شأواً بعيداً صورته لنا أشعارهم باللغة الأردية، بل كان للعاهرات قدر ومنزلة عند السلاطين والأمراء وكانوا يعهدون إليهن بتربية أولادهم تربية راقية على الذوق و«الاتيكيت»، ولم يكن ثمة بالسلاطين والأمراء التزام بشرع ولا بدين، فراج في شبه القارة الشعر العشقي خاصة في آخر أيام الدولة المغولية يعرف ذلك من درس الأدب الأردي، وقد برز في هذا اللون شعراء مشهورون مثل داغ الدهلوي الذي تصور أشعاره ما كان عليه طراز الحياة في القصور الملكية، ولم يكن المجتمع آنذاك بشكل عام يمج الفن وما يصاحبه من موسيقى ورقص ونساء إلا من رحم ربك.

وهذا الفن الذي سجله لك القنوجي في كتابه كان شائعاً ذائعاً في شبه القارة، وما زال محفوظاً باللغتين الأردية والفارسية خاصة بين الطبقات العليا في المجتمع، لكن أدباء العربية حين اضطروا بحكم الحس الفني الذي قد تشعر بصراعه مع الوازع الديني في سطور الكتاب وأبيات الشعراء، حاولوا دهان هذا الفن بلون ديني أيا كان كي لا يعاب عليهم أنهم تكلموا فيه بالعربية ونجسوا لغة القرآن، يدلك على ذلك، تطعيمهم هذا الفن الطريف بآيات وأحاديث وتفاسير، ولفقها في سياق ديني متكلف اعتسافاً، وما ذلك إلا لاعتقادهم بقداسة اللغة، خاصة وأن عبارة القنوجي عن خصائص اللغة تدل

١- نفس المصدر، ص ٢٧.

على إيمانه بأن اللغة العربية لم توضع خصائصها من قبل البشر. والسبب الثانى لهذا المسلك أن المؤلف وهو من أهل الحديث وله عشرات الكتب فى الدراسات الاسلامية لا يحب بالتأكيد أن يدان بالكتابة فى فنون كهذه، ولذلك تراه يصرف الموضوع إلى المعانى الصوفية لكن السطور تفوح منها رائحة أخرى. وقد يكون المؤلف شريفاً فى ذاته ولا يعنى نقله لهذا الفن شيئاً فى دينه، لكن ما نريد توكيده أنه اضطر لنقل هذا اللون الأدبى، وذكر أسباب عدم رواجه فى اللغة العربية بأن خصائصها لا تقبله وهو ما يدعم ما ذهبنا اليه من خجل أدباء العربية فى شبه القارة من إطلاق العنان لقرائحهم لتكتب بالعربية موضوعات حرة من قيود الدين كما يكتب العرب مسلمين وغير مسلمين.

ومن الطرائف أيضا قصائد آزاد فى وصف جسد المعشوقة ، وفى أنواع النساء، وفى أقسام العشق والعشاق، وكلها مرتبطة بهذا الفن بعينه ،فليرجع إليها من أحب [1] وإنما ذكرناها هنا كى لا تفوت من أراد الاطلاع على مزيد من أدب هذا اللون.

١- انظر سبحة المرجان، ٢/ ٣٢٢ وما بعدها.

الفصل الثامن

الأمثـال

المثل الشعبى عقل كل أمة وديوانها الذى يسجل سماتها النفسية، ويحكى خبرتها وحكمتها، ويعكس فلسفتها الاجتماعية، ونظرتها العامة لأمور الدين والدنيا على اختلافها. فهو ضمير الأمة ولسانها وعينها وعقلها مصاغاً فى عبارات قليلة الألفاظ كثيرة الدلالة بعيدة الغور إن فهمت ظاهرها فى ثوان ربما احتاج فهم باطنها إلى ساعات أو سنين.

والأمثال الشعبية من آداب العرب المهمة لأنها تجرى على ألسنتهم مجرى الشعر. وهى عظات بالغة من ثمار الاختبار الطويل والعقل الراجح، وبعضهم نظم القصائد كلها فى الأمثال كأرجوزة أبى العتاهية التى سماها ذات الأمثال. (١)

والهنود أمة حكم وأمثال لم تكفهم ألسنة البشر حتى صاغوا حكمتهم على لسان الطير والحيوان، وصدروها إلى العالم من حولهم فقلدتها الأمم. وفارس كالهند أرض حكمة وفلسفة من قديم الزمان، وقد امتزجت حكمة العرب بحكمة فارس قبل دخولها شبه القارة لتتزاوج بما على أرضه من حكمة. لكن ذلك لم يظهر فى الأدب العربى فى منطقتنا بشكل بارز، ذلك أن هذا الأدب كان مقطوع الصلة بأرض الواقع ولم تنم جذوره بين الشعب ولهذا قل فيه فن الأمثال والحكم.

وبين أيدينا كتاب واحد عثرنا عليه أثناء البحث فى هذا المجال هو كتاب «خزينة الأمثال» لشاه حسين حقيقت المتوفى ١٢٤٩هـ ١٨٣٣م، وكان من أشهر أدباء الأردية

١- تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان ، ٥١/١ لبنان ١٩٨٣.

والفارسية في زمانه. وقد ألف حقيقت هذا الكتاب في ١٢١٥هـ وطبع أول مرة في الهند سنة ١٢٧٠هـ وثاني مرة بعد ذلك بعشرين عاماً، ثم صوره وأعاد نشره للمرة الثالثة مجمع اللغة الأردية باسلام أباد عام ١٩٨٦م.

والكتاب فريد في كونه مكتوباً باللغات الثلاث العربية والفارسية والأردية، وقد رتب المؤلف فيه الأمثال العربية أولا على حروف المعجم، ثم أتبع الأمثال العربية بالأمثال الفارسية على نفس النهج ثم الأمثال الهندية بعدها بنفس الترتيب. وترجم المولوي أبو البركات ركن الدين محمد الشهير بتراب على أمثال الكتاب العربية إلى الفارسية، وذكر في الهامش مواضع استعمال كل مثل وما صعب من مفردات وما فات المؤلف من أمثال، فجاء الكتاب قيما في فنه عظيما في فائدته. وقسم المؤلف الكتاب إلى إحدى وثلاثين خزينة بحسب حروف التهجي العربية مضافاً إليها ما لا يوجد فيها من الأحرف الفارسية والأردية، ثم قسم كل حرف مشترك بين اللغات الثلاث إلى ثلاثة كنوز بادئاً الكنز الأول بالأمثال العربية ثم مخصصاً الثاني للأمثال الفارسية والثالث للأمثال الأردية، والكتاب ينتهي بخاتمة في استحباب المزاح، ونحن نورد لك هنا مقطعاً من حرف الألف بعد حذف الترجمة الفارسية للأمثال العربية :

أداء الدين من الدين

أدب المرء خير من ذهبه

أدركني ولو بأحد المغرورين

ادع إلى طعامك من يدعو إلى جفائك

ادفع الشر بعود أو عمود

أدق من خيط باطل

إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه

إذا انتهى الأمر إلى الكمال عاد إلى الزوال

إذا انتهت المدة لم تنفع العُدة

إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم

إذا ألقيت جلباب الحياء فقل ما شئت

إذا أرجحن شاصياً فارفع يداً

إذا افتقر اليهودى نظر فى حساب العتق

إذا اصطلح السنور والفأر خرب دكان البقال

إذا استبد الإنسان برأيه عميت عليه المراد

إذا اصطنعت المعروف فاستره وإذا اصطنع إليك فانشره

إذا أراد الله شيئا هيأ أسبابه

إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل

إذا بلغت بالستين فاقتل بالسلين

إذا تكرر تقرر

إذا عم أمر بدا نقصه

إذا تم العقل نقص الكلام

إذا تم الفكر فهو الله

إذا تخاصم السارقان ظهر المسروق

إذا تغير السلطان تغير الزمان

إذا جاء القضاء عمى البصر

إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون

إذا جاء لضفدع البير منية يعتصم بحبل الحية

إذا جاء أجل البعير حام حول البير

إذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال

إذا جاءت الحين جاءت العين

إذا حاق القضاء ضاق الفضاء

إذا حلت المقادير ضلت التدابير

إذا حمل على الثور عقد الثريا جدير بنطاق الجوزاء السرطان

إذا خـرج الحـيـة من جـحـر قـتـلت بالحـجـر

إذا ذكـرت الذيب فـأعـد له القـضـيب

إذا ذهب الحـيـاء حـل البـلاء

إذا ذهب الـوفـاء نـزل البـلاء

إذا زل الـعـالم زل بزلـتـه الـعـالم

إذا سـاد الـلـئـام بـاد الـكـرام

إذا سـاد الـسـفـل خـاب الأمـل

إذا سـمـعت بـسـرى الفين فـاعلم أنه مـصـبح

إذا سكت عن جاهل فقد أوسعته جواباً وأوجعته عتاباً

إذا ضـحك القـرد يـبـكى اسـتـه

إذا ضـاق الأمـر اتـسـع

إذا طـرت فـقـع قـريـبـاً

إذا طـلع الـسـهـيـل قـطع الـسـبـيـل

إذا عـز أخـوك فـهـن

إذا عـرفت الحـوبة قـبـلت التـوبة

إذا فـات الـشـرط فـات المشـروط

إذا قـلـت لـه زن طـأطـأ رأسـه وحـزن

إذا قلت العـقـول كـثـرت الفـضـول

إذا قـامت القـيـامـة تـعـد الثـوابت

إذا كان الغراب دليل قوم سيهديهم طريق الهالكينا

إذا كـنـت كـذوبـا فـكـن ذكـوراً

إذا لـم تجـدنـى لـم تجـلـدنـى

إذا لم تستحى فاصنع ما شئت

إذا لم تغلب فاخلب

إذا ما القارظ العنزى آبا

إذا ما تلق من تهوى فحاولها وناولها

إذا مروا باللغو مروا كراماً

إذا مات الاعتصام عاش الانتقام

إذا مكر الله ببلدة جعل حاكمها قردة

إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل

إذا ملكت فاسجج

إذا نزل القدر بطل الحذر

إذا وافق الهوى الحق أرضيت الخالق والخلق

إذا وافق هواك رشادك فقد أحرزت معادك

إذا وجدت القبر مجاناً فادخل فيه

إذا هبت الرياح فاغتنمها فإن لكل عاصفة ركوداً

إذا يئس الإنسان طال لسانه

اذكر غائباً تره

اذكر غائباً يقرب

أذل من المطايا

أذل من جنيب

أذل من ذمي

أذل من وتد بقاع

أذل من أموى بكوفة يوم عاشوراء

الأذن تعشق قبل العين أحيانا

اذا وردت ماء لم تصدر

أرأف من أم الحوار بحوارها

إرادة الله غالب على إرادة الناس

أراك بشر ما أحار مشفر

أرباب الدول ملهمون

أردت عمراً وأراد الله خارجةً

أرسب من رصاصة

أرسل حكيماً ولا توصه

الأرض الطيب يخرج نباتاً حسناً والذى خبث لا يخرج إلا نكداً

أرق من النسيم ومن الهواء

أرق من دين القرامطة

أرق من النسيب

أرينها تمرة أركها مطرة

أروى من النعام

أروى من النقاقة

أريها السها وتريني القمر

أزنى من هر

أزنى من سجاح

الأزواج ثلاثة زوج بهر وزوج دهر وزوج مهر

أساس الكفر موافقة النفس

أسائر اليوم وقد زال الظهر

أسأل من فلحس

فالمؤلف كما ترى يبدأ بالألف ثم يمررها على بقية الأحرف إلى النهاية، وكذلك فعل بالباء والتاء وبقية الأحرف. ولعله سها فأورد «إذا وردت ماء لم تصدر» فى غير موضعه. وقيمة الكتاب عظيمة بلا شك لمن أراد البحث فى الأدب المقارن فى اللغات الثلاث التى دون المؤلف لنا بها أمثالاً تعكس التشابه والاختلاف بين الأمم الثلاث. إلا أن ثمة أخطاء وقعت من الناسخ فى الأمثال العربية وقد أصلحناها فى الجزء الذى نقلناه.

الفصل التاسع

الحيل اللفظية

من الحيل اللغوية التى راجت فى الأدب العربى فى شبه القارة ما يعرف بصنعة الاهمال وهى الكتابة الخالية من الحروف المنقوطة. وقد كتب بها الأدباء فى شبه القارة شعرا ورسائل وشروحاً لكتب كما مر بك بين الفصول السابقة. وإنما اشتهرت هذه الصنعة فى شبه القارة لأن الأدباء كانوا يتبارون فيها، وكانوا يعتبرونها رمزاً للقدرة على التعبير وبالتالى امتلاك اللغة والتحكم فيها. ولعلك اطلعت على شئ من شعر أبى الفيض بن المبارك الناكورى المعروف ايضا بأبى الفيض الفيضى الذى أنشده مدحاً لتفسيره سواطع الإلهام، ونسوق لك هنا بعضاً آخر. يقول أبو الفيض فى بعض شعره فى المدح :

صاح صاح الحمام حول كما ... دور ورد أدر صواع مدام

لاح دار الحمل وحال الحول ... دار كأس المدام رأس العام

أدرد الروح إملحاح السدوح ... روح الروح إحمرار مدام

اللعاع اللعاع وهو مروم ... المدام المدام وهو مرام

لمع مد المدام أسحارا ... هادم الهم صارم الأوهام [1]

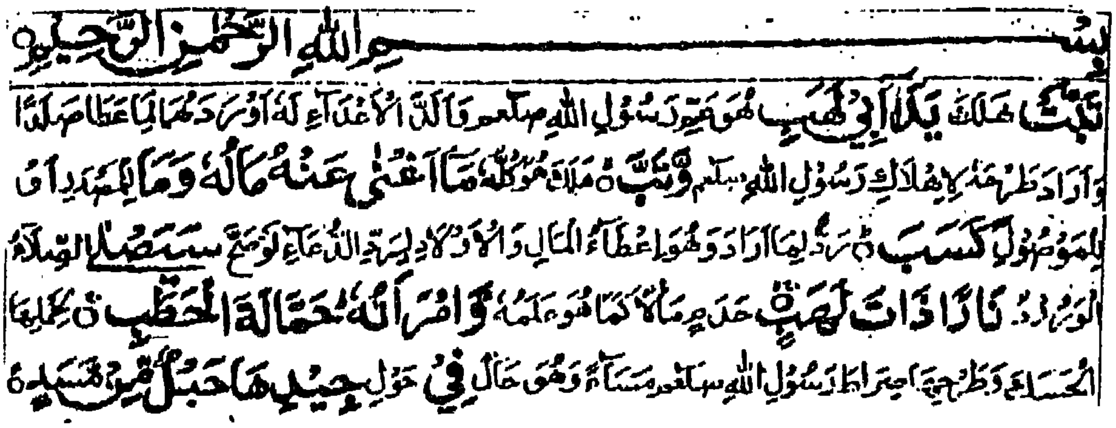
١- نزهة الخواطر، ٥/ ٣٠.

ويقول فى قصيدة فى الثناء على تفسيره سواطع الالهام :

ألواح سـحـر أم طلـسم مكرم ... لأسـرار روح للسـواطع ملهـم
لسـحـر حلال والسـطوع طلسمه ... ومـا هو سـحـر أو طلسم مـحـرم
صـراح لأصل الأصل طرس مطهـو ... سـواد لكل الكل علس مطهـم
ومـاالعلم إلا وهو أصل لكلـمـه ... لإعـلام أسـمـاء العـوالم آدم
إمـام همـام للـكلام مـأوّل ... صـلاح سـداد للسـلام مـسـلم
مـدار مـراد للـمـدارك مـطرح ... مـلاك كـلام للمـعـالم مـعـل
كلام كـمـال للأكـامـل مسـلك ... صـراط سـداد للأكـارم أسلم[1]

وقد كتب الأديب الشهير إنشاء الله خان إلى الشيخ أحمد الشروانى اليمنى رسالة غير منقوطة أوردها صاحب سفينة البلاغة [2] صعبة على الفهم. ولعل أبا الفيض هو من آلت إليه أعنة الصنعة فملكها، وتأستذ، فلم يفقه أحد. ومن أضخم أعماله تفسير سواطع الإلهام للقرآن المجيد كله تفسيراً غير منقوط، يوافق فيه مشارب الصوفية، وقيل إنه استمد العون فيه من الشيخ أحمد السرهندى [3].

ننقل لك هنا تفسيره لبعض السور وخاتمة الكتاب يقول أبو الفيض :


بسم الله الرحمن الرحيم
تبت هلك يدا أبي لهب هو عم رسول الله صلعم والد الأعداء له أورد كما لما عطا مهلكا
وأراد طرحه لإهلاك رسول الله صلعم وتب هلك هو كله ما أغنى عنه ماله وما للمهدى إلى
الموصول كسب مدلما أراد وهو إعطاء المال والأولاد لمسرح الدعاء لو سمع سيصلى الصلاء
وروده نارا ذات لهب حد مما لا كما هو علمه وامرأته حمالة الحطب حملها
الحساء وطرحه احراما لرسول الله صلعم مساء وهو حال في حول جيدها حبل من مسد

١- نفس المصدر : ٥/ ٣٠ - ٣١.
٢- انظر ص ٢٦٢.
٣- الدعوة الإسلامية فى الهند، أبو الحسن الندوى، ص ١٣.

مسنود لكل العمار مدلوله المعهود وهو حال سورة الإخلاص موردها أمر الرسول ومحصول أصول مدلولها
إعلام علو الله الأحد الصمد وإعلام علوه مما ولد وولد وسموه عما عاد له أحد وساهمه

بسم الله الرحمن الرحيم

لما سأل الرهط رسول الله صلعم وأرادوا إعلام أحوال الله أرسل الله قل محمد هو الله أحد واحد لا مساهم له ولا
إله سواه أصلا وحده ورد وهو الله الواحد وردوا أحد الله الصمد المعمود المعمود لأمره وأعطاه
لكل ما همه وهو المالك الحاكم لما أراد لا مرد لحكمه ولا راد لأمره لم يلد أحدا وهو ولد للعوام ولم يولد ما هو
ولد لأحد ومولودا لأحد معلوم كل أحد لكل مولود أول لا أول له وهو أصل الكل اهـ ولم يكن له كفوا مساهما معادلا
مماثلا أو مصاولا أحد حالا ومآلا وهو رد لأهل العدول ومحو الإلهام مساهما له عدلا وأمرا وإعلاء اسما
ومسماه عما هو مدرك الأوهام ودرك هو مدل لكلام الله كله ومدلوله ملاك كل موحد سورة
الفلق موردها مصر رسول الله صلعم ومحصول أصول مدلولها الأمر لسؤال السلام
مما ساء وكره وهو السحر والحسد لأداء السحر ورد لعاسحر المهود رسول الله صلعم أرسل الله ما هو أمارة الكلام
أعلم الساحر وحل السحر أرسل رسول الله صلعم أسد الله الكرار وأحرقه وحل ما سد السحر كله ووضع رسول الله صلعم

بسم الله الرحمن الرحيم

قل محمد أعوذ برب الفلق وهو أمد السحر وعماده مطالع الكمال والوالع ومسماه
أو أهل العالم كله أحمد وأسعد وأسرار الله رسله أكرم ما لها من شر ما خلق مولود للأدم
والدو والصر وما سواهما أو المراد الساعور أو المارد المطرود ومن شر غاسق سمره سهر إذا كمل
طوالعه إذا وقب عماد السعر كل العموم أو السواد إسوادا كاملا وأداه السرماء ومن
شر السواحر النفثت هو إرسال الروح في العقد الأسلاك وعراها مما هو عمل
أهل السحر والطلسم ومن شر حاسد إذا حسد سطع حسده وعمل كما هو مراده
والحسد كره الآلاء للمرء ورد إعدامها وهو أول سوء صدر ومما رادم محسود وإذا هو حاسده مطرودا
وأهلك ولده للحسد وهو أسوء الأعمال الأرواح وأمسى عليها سورة الناس موردها مصر
رسول الله صلعم ومحصول أصول مدلولها الإمساك لحرس الله ورد عوائد وسر المارد المطرود وطلاح ولد آدم

بسم الله الرحمن الرحيم

قل محمد أعوذ برب الناس مصلحهم ملك الناس مالك مصالحهم ومسدد
أمورهم وأعمالهم إله الناس مألوههم ومرادهم من شر الوسواس وهو الموسوس

المطلوب والمقصود المتناسي في المواد حال الإيجاد الذي يوسوس حال شهوده إياه كان الله
في صدور الناس أرواحهم وأرواحهم وتناصلوا وادعوا وعملوا كل عمل نهاية مقصود الأمم
والموسوس من الجنة سماهم لِدَوامِ وسوسهم والناس لِدَوامِ وطلبهم أسوة أهل
الوسواس وكثرة دخولهم أسرارا أو لكل واحد منهم قول متهود ومن يقول الأول الأول الأول الأول أماو وهم
عصار الحلم ومن قول ما وراءه أهل الحياء والحلم ومن قول ما وراءه أهل الحمد والكمال ومن قول
ما وراءه أهل الصلاح . ومن قول ما وراءه رهط الطالح أصلحهم الله معادا ومالا + .. +

الحمد لله محقق المرام لكمل سواطع الإلهام + الهم المحمد وحده لإطراء أسرار الكلام + والله مسدد الأمور ومتمم
كمل المقام + كلّه الدائم كماء سلسال طاهر مطهر + أو سلسال كهواء أسحار عطر معطر + والله مسلّم
لمسعود مطالع السعود وبه أبو جمال الدهر + وإلى الوجه الأحمد سما الملوك وسرمد الدهر + ما دام مسامع
العصر لأهله به رداء + ما سمع مسامع السماء لوحا سابح مظلوم إطراء + لمع العصر لكمال أيامه دواما
دواما + ورداء لكمل الدهر صلاحا وسلاما + من قول رسوم الكرام علوما علوما + سما سماء الإسلام
رسوما رسوما + محمول عما أوله الأكامل طروسا طروسا + مال الكل مما أورده هادئا + مطلع سعود
الأوامر الروادع معادا + مصرح مال الحلال والحرام إصلاحا وسدادا + مسطور أسرار إعلام أحوال
الأمم + مرسوم سطور ألواح الرسل + عدد أسرار كلام الله المرسل + لوح مسطور سعدهم ومكرمهم
الرسل + مطهر إعلام أسرار آلاء الله + مطالع أدوار صعود أسماء الله + سماء أدوار مطالع الأسرار
حولا + مطلع أدوار لما أدرك الحواس طولا + كاما مطالا الأدوار حمدا + أراه لأدواء الأحرار عمدا +
أحمل أسرار أسرار الله + دركه دارس طامس دال لكل ما سواه + سر أسرار عالم الشيخ + مصدر
أعلام أطوار مصاعد الملح + مروح أرواح أكمل الأحرار + أرواح الروائع درر الأدوار + درر السر
سموا + سر كل الدار علوا + إدراك أسرار الأعلاء + سر أسرار معالم السواء + إعلاء أسرار الإدراك
إدراك أسماء الأسرار + سر أسرار عوالم السماء + سر أسرار علوم الأسماء + محرم حرم سرور
محرم لإحرام طهر طهور + سطوره مسالكها كمسالك الدار + كلمه أحمد صورها كلم الطرر +
طوما د المصروع مواد داوهامه + دكاء المس مصارع حلال الأمه + حصار محل أسرار
الإسلام + سور مصر العلم علوا والكلام + دائم دار الأسرار الوكا + صحراء أسرار الله مرورا وسلوكا
صراح مرصوص الأمور + طلسم ماحاه سرور عهود الدهور + مسهود داراه لسماح المراحم
مصدر درواح لإعلاء محال المكارم + ملاك أدل موارد الأمور ومصادرها + مورد سعود

روادع الأحكام وأوامرها + إمام صوامع سرور الأرواح + وحامل دسطور سطور ورود الألواح + أراح
مراح إصلاح للكل + أمر ما أعلاه لسموكه سكك الدهر أدل + وهو سراح أسرار الكمال + ودهر سماط
الله سموه إدرارًا لأهل الحال + ومدار مصالح صوالح الأحرار الهداة + عالم أسرار الإدراك وكلام
وعلاه + ومعه أسرار دماصل الكل + ومحص أسرار أعمار الود وأمل + ومصادر أصاد طوس الحكم
ومصادر صوادع أهل الإكرام والكرم + أساس الأسرار وسرور الكلام + ما سمع مدله وسع روع الرسا
لما مسه مدارك علماء الأعصار كلها + ولو سامح مع أدوار الأعمار كلها + كلام محكم أسطره
أولا وسهل الله كله أمدا + والمرء وعلو كرامه ودوام طوله سرمدا + حصل كماله لكل الأماكل
وسهل الأسحار + ما لاح لحواصل ولد آدم وسع هؤلاء الأسرار إلا أودعه الله لمراسم المحرر +
ما أدركه مس المكدر + أحكم الكلام أسرارًا محصصًا مهلهلا + وصار ملوك الكلام لحسده كالهم
سلكا مسلسلا + راع الكل ورده المسعود مطلوًا مكملا + وأصلح أمره مع السرور مكلوما
معولا + سواطع حال سلوك المهامه والمراحل + مراحل دروع لأطوار ما عدا أولو الرواحل
ومد سطوره مكملا له مدة العصر الأطول + لو عمل مد عمره لحصل عالم مسعود كمل + ما أكرم
كاملا لحصر الكلم + وهو محال وسره مكسور لعلمه + كله لمراسم مراحم الملك الأسعد + أحكم الله
أساس حكم علومه والمرء ما صار أمهله + وأما دار إسعاد دعاء الوالد الأورع الأوحد + روح الله
سموه كلا ودعه الأكرم الأحمد + اللهم احرس كلامه عما عمل لمحو السلاد + وأورد أمره
موارد مسامع أهل الود + واعصم سطوره مما هو طلاه هؤلاء الأعداء الحساد + وحول
دروره عمرا دارا وسلك الكساد + وأعلم سره معصومًا مودودًا حاملًا مهللا + وكل الحمد
له أولا وآخرًا أمدًا أمدا مصروعًا كاملا مكملا (١)

وأنت ترى – كما نرى – أن هذا الأسلوب وإن كان بلا شك صنعة مرهقة إلا أن القارئ في مواضع كثيرة قد يصعب عليه فهم المقصود من الألفاظ والعبارات. ولا فائدة من تفسير لا يفهم ولا معنى لأدب لا يتذوق أو يستشعر.

١- سواطع الإلهام، ص ٧٢٥ – ٧٢٧، الهند، ١٣٠٦هـ.

الفصل العاشر

التاريـــخ

التاريخ لمن يكتبه، يتصرف فى أحداثه كيف يحب، يغفل منها ما يشاء ويبرز ما يشاء، فإن كان المشرف على صياغة التاريخ هو الحاكم والسلطان - سواء كان إشرافه بدعم مادى لكاتب التاريخ أو بوسيلة أخرى - صارت العبارة : التاريخ لمن يحكم. وكثيراً ما عملت آراء المؤرخين قديماً وحديثاً وعقائدهم ونظرياتهم وحبهم وبغضهم عملها فى الوقائع.

وتدوين التاريخ فى شبه القارة سار على نهج واحد يعين فيه الحاكم - المسلم - أحد الأدباء والكتاب المتمرسين ممن يثق بهم، ويسند إليه كتابه تاريخ الدولة فى عهده، فيبدأ من القديم يشوه فى كثير من الأحيان أفعال من سبقوا ولى نعمه، حتى إذا وصل إلى سنوات حكمه، صاغ أحداثها وفق وجهة نظر السلطان. لذلك رأينا تواريخ بأسماء السلاطين مثل تاريخ همايون وتاريخ أكبر وشاهجهان وغيرهم ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا السلطان أورنكزيب الذى رفض أن يكتب تاريخ نفسه بنفسه او يستكتب له أحداً ولذلك لا يوجد لفترة حكمه التى بلغت خمسين عاما تاريخ كامل مستند.

هذه التواريخ السلطانية كتبت جميعها بالفارسية لغة الدواوين والثقافة والأدب فى ظل حكم المسلمين. ولم تعن بالملوك ولا بالمؤرخين ضرورة لتدوين التاريخ بالعربية، كما لم يفكر رجال الدين فى تدوين التاريخ بالعربية ليكون نصاً من قبل الهيئات الحرة، أو على الاقل نصاً غير سلطانى. لذلك لم نجد فى الأدب العربى فى شبه القارة تاريخا مكتوبا بلغته. ونحن وان كنا لا نرى التاريخ ادباً أو فناً من فنون الأدب، إلا أننا

اعتبرناه هنا كذلك على رأي من دافع عن كونه كذلك كالدكتور مندور والدكتور غنيمى هلال والدكتور عز الدين اسماعيل وغيرهم من أساتذتنا، ولأن التاريخ يعتبر كذلك فى المعيار الأوروبى وتقسيمه لفنون الأدب.

والطريف أننا وجدنا تاريخاً عربياً لفتح ساحل مالابار أو مليبار بجنوب الهند لم يكتبه السلاطين وانما كتبه عالم من العلماء هو الشيخ زين الدين بن عبد العزيز بن زين الدين بن على بن أحمد الشافعى المعبرى الفنانى المليبارى (ت ٩٩١هـ) بعنوان تحفة المجاهدين .قد اختصر عبد القادر المليبارى هذا التاريخ بحذف القسم الأول منه ثم أورده فى كتابه القيم جواهر الأدب.

يقول زين الدين المليبارى :

القسم الثانى فى بدء ظهور الإسلام فى مليبار وذلك أن جمعاً من اليهود والنصارى دخلوا بلدة من بلاد مليبار يقال لها كدنكلور وهى مسكن ملكها فى مركب كبير بعيالهم وأطفالهم وطلبوا منهم الأراضى والبساتين والبيوت وتوطنوا فيها وبعد ذلك بسنتين وصل إليها جماعة من فقراء المسلمين معهم شيخ قاصدين زيارة قدم أبينا آدم عليه السلام بسيلان فلما سمع الملك بوصولهم طلبهم وأضافهم وسألهم عن الأخبار فأخبره شيخهم بأمر نبينا محمد (ﷺ) وبدين الإسلام وبمعجزة انشقاق القمر فأدخل الله سبحانه وتعالى فى قلبه صدق النبى (ﷺ) فآمن به ودخل فى قلبه حب النبى (ﷺ) وأمر الشيخ أن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام ليخرج هو معهم ومنعه أن يحدث بهذا السر المليباريين ثم أنهم سافروا إلى سيلان ورجعوا إليه فأمر الملك الشيخ بأن يهيئ مركباً لسفره من غير أن يعلم به أحد وكان فى البندر المذكور مراكب كثيرة للتجار الغرباء فقال الشيخ لصاحب مركب «أنا وجماعة من الفقراء يتوقعون أن يركبوا فى مركبك» فرضى بذلك صاحب المركب ولما قرب وقت السفر نهى الملك أهل بيته ووزراءه أن يدخل أحد منهم عليه مدة سبعة أيام وعين فى كل بلدة من بلدانه شخصاً وكتب لكل كتاباً مفصلاً بتعيين الحدود حتى لا يتجاوز أحد عن حده الذى عينه والحكاية فى ذلك مشهورة عند كفرة مليبار أيضاً وكان ملكاً متوالياً فى

جميع مليبار وحده من الجنوب كمهرى ومن الشمال كانجر كوت ثم إن الملك ركب مع الشيخ والفقراء فى المركب ليلاً وسار المركب حتى وصل إلى فندرينة فنزل فيها ولبث يوماً وليلة ومنها سار المركب إلى درمفتن ونزل فيها ولبث ثلاثة أيام ومنها سار المركب حتى وصل إلى شحر ونزل فيها هو ومن معه وبعد مدة طويلة رافقه جماعة فى السفر إلى مليبار لعمارة المساجد وإظهار دين الإسلام فيها ثم إن الملك مرض واشتد مرضه فوصى أصحابه الذين رافقوه وهم شرف بن مالك وأخوه من الأم مالك بن دينار وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك وغيرهم بأن لا يبطلوا سفر الهند بعد موته فقالوا لا نعرف موضعك ولا حد ولايتك وإنما أردنا السفر صحبتك فتفكر الملك ساعة وكتب لهم ورقة بخط مليبار عين فيها مكانه وأقرباءه وأسماء ملوكها وأمرهم أن ينزلوا فى كدنكلور أو درمفتن أو فندرينة أو كولم وقال لهم لا تخبروا شدة مرضى ولا بموتى إن مت أحداً من المليبار ثم إنه توفى رحمه الله رحمة واسعة وبعد ذلك بسنين سافر شرف بن مالك ومالك بن دينار ومالك بن حبيب وزوجته ثرية وغيرهم مع الأولاد والأتباع إلى مليبار فى مركب فوصل إلى كدنكلور ونزلوا فيها وأعطوا ورقة الملك المتوفى إلى الملك الذى فيها واخفوا خبر موته فلما قرأها وعلم مضمونها أعطاهم الأراضى والبساتين على مقتضى ما كتبه فأقاموا فيها وعمروا فيها مسجداً وتوطن فيها مالك بن دينار وأقام ابن أخيه مالك بن حبيب مقامه لبنائه المساجد فى مليبار فخرج مالك بن حبيب إلى كولم بماله وزوجته وبعض أولاده وعمر بها مسجداً ثم خرج منها بعدما خلى زوجته فيها إلى «هيلى ماراوى» وعمر بها مسجداً ثم إلى «ياكنور» وعمر بها مسجداً ثم رجع منها إلى «منجلور» وعمر بها مسجداً وخرج إلى كانجركوت وعمر بها مسجداً ومنها إلى «شاليات» وعمر بها مسجداً وأقام بها مدة خمسة أشهر ومنها إلى كدنكلور عند عمه مالك بن دينار ثم سافر منها إلى المساجد المذكورة وصلى فى كل مسجد منها ورجع إلى كدنكلور شاكراً لله وحامداً له بظهور دين الإسلام فى أرض ممتلئة كفراً ثم خرج مالك بن دينار ومالك بن حبيب مع الأصحاب والعبيد إلى كولم وتوطنوا فيها غير مالك بن دينار وبعض أصحابه فإنهم سافروا إلى شحر وزاروا قبر الملك المتوفى فيها ثم سافر مالك إلى خراسان وتوفى فيها هو وزوجته هذا خبر اول ظهور الإسلام فى ديار مليبار وأما تاريخه

فلم يتحقق عندنا وغالب الظن أنه إنما كان بعد المائتين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية وأما ما اشتهر عند مسلمي مليبار أن إسلام المذكور كان في زمن النبي (ﷺ) برؤية انشقاق القمر ليلته وأنه سافر إلى النبي (ﷺ) وتشرف بلقائه ورجع إلى شحر قاصداً المليبار مع الجماعة المذكورين وتوفي فيها فلا يكاد يصح شئ منها والمشهور الآن بين الناس أنه مدفون في ظفار لا في شحر وقبره مشهور هنالك يتبرك به وأهل الناحية يسمونه السامري وخبر غيبة الملك المذكور مشهور عند جميع أهل مليبار المسلمين والكفرة الا أن الكفرة يقولون عرج به إلى فوق ويتوقعون نزوله ولذلك كانوا يهيئون في موضع في كدنكلور قبقاباً وماء ويسرجون فيه في ليلة معروفة عندهم ومشهور عندهم أيضاً أنه قسم ولايته عند قرب سفره على أصحابه إلا السامري الذي كان أول رعاة بندر كاليكوت فإنه كان غائباً عند القسمة فلما حضر أعطاه سيفاً وقال له اضرب بهذا وتملك فعمل بمقتضى قوله فتملك كاليكوت بعد زمان وسكن فيها المسلمون ووصل إليها التجار وأصحاب الصنائع من أطراف شتى وكثرت التجارة فيها حتى كبرت وصارت مدينة عظيمة اجتمع فيها صنوف الناس من المسلمين والكفار وظهرت قوة السامري فيما بين رعاة مليبار ورعاتها كلها كفرة وفيهم القوى والضعيف ولكن لا يأخذ القوى بلد الضعيف بقوته وذلك بوصية ملكهم الكبير الذى أسلم ودعائه بذلك وببركة النبي (ﷺ) وبركة دينه فإن منهم من يكون له مملكة فرسخ ومنهم من يكون له زيادة على ذلك وفيهم من يكون له من العساكر مائة أو دونها أو مائتان أو ثلاثمائة إلى ألف إلى خمسة آلاف وعشرة آلاف إلى ثلاثين ألفاً إلى مائة ألف أو أكثر وبعض البلدان يشترك فيها اثنان أو ثلاثة أو أكثر مع أن بعضهم أقوى وأكثر عساكرا من الآخر ويقع الحرب والشحناء بينهم ومع هذا لا يتغير أمر الشركة وأكثرهم عسكراً « ترودى » راعى كولم وكمهرى (كمهارى) وما بينهما في شرقيهما ممالك كثيرة له ثم « كولترى » راعى هيلى ماراوى وجرفتن وكنور واد كاد ودر مفتن وغيرها وأكثرهم شركة وأشهرهم ذكر السامرى وله ظهور فيما بينهم وذلك ببركة دين الإسلام وحبه للمسلمين وإكرامه لهم خصوصاً الغرباء وأما الكفرة فيزعمون أن ذلك باعطاء الملك المتقدم ذكره السيف له وذاك السيف موجود عند السامرى إلى الآن على ما يزعمون محترماً معظماً ويحمل بين

يديه إذا خرج للحرب أو مجمع عظيم وإذا حارب السامرى أحد رعاتها الذين هم غير الأقوياء بسبب من الأسباب يعطيه المال والمملكة إذا اضطروا وإذا لم يعط لا يتسلط قهرا مع قدرته على ذلك ولو طال الزمان وذلك أن أهل مليبار يراعون العادات والرسوم القديمة لايخالفونها إلا نادراً وأما غير السامرى فليس له فى المحاربة شئ إلا إهلاك النفوس وتخريب البلدان إن أمكن». (١)

ثم يقص المؤلف كيف وصل البرتغاليون إلى ساحل الهند، واستولوا على قلاع فى مليبار ويرجع ذلك إلى فساد المسلمين وعدم التزامهم بالدين وأحكامه، فذلوا بعد عز. ثم يحكى ما فعله البرتغاليون بهم. (٢)

أما محتويات هذا التاريخ فيقول عنها المؤلف :

وقسمت المجموع على أربعة أقسام القسم الأول فى بعض أحكام الجهاد وثوابه والتحريض عليه .القسم الثانى فى بدء ظهور الإسلام فى ديار مليبار، القسم الثالث فى نبذة يسيرة من عادات كفرة مليبار الغريبة القسم الرابع فى وصول الإفرنج إلى بلاد مليبار وبعض أفعالهم القبيحة وفيه فصول الفصل الأول فى ابتداء وصولهم إلى مليبار ثم حصول المخالفة بينهم وبين المسلمين والسامرى ومصالحتهم راعى كشى وكبننور وبناء قلعتهم فيهما وفى كولم وأخذهم بندر كووة، الفصل الثانى فى ذكر شئ من قبائح أفعالهم الفصل الثالث فى مصالحة السامرى إياهم وبنائهم قلعتهم فى كاليكوت. الفصل الرابع فى وقوع الخلاف بينهم وبين السامرى وفتح قلعتهم. الفصل الخامس فى وقوع الصلح بينهم وبين السامرى مرة ثانية وبناء قلعتهم فى شاليات. الفصل السادس فى صلح السامرى مع الإفرنج مرة ثالثة، الفصل السابع فيما فعل السلطان بها درشاه بن مظفر شاه الكجراتى رحمهما الله ورحمنا معهم مع إعطاء جملة من بنادره الكبار لهم، الفصل الثامن فى وصول سليمان باشا وزير السلطان الأعظم المرحوم السلطان سليمان شاه الرومى بن سليم شاه نور الله مرقدهما إلى ديو ونواحيها ورجوعه إلى مصر

١- جواهر الاشعار وغرائب الحكايات والأخبار، عبد القادر بن يوسف المليبارى، ص ٢٠٧ - ٢١١، الهند، ١٣٥٨. هـ.

٢- نفس المصدر : ص ٢١٧ - ٢١٨.

من غير فتح. الفصل التاسع في وقوع الصلح بين السامرى والإفرنج مرة رابعة. الفصل العاشر في وقوع المخالفة بين السامرى والإفرنج الفصل الحادى عشر مصالحة السامرى والإفرنج مرة خامسة. الفصل الثانى عشر فى سبب الاختلاف بين السامرى والافرنج وخروج الأغربة لمحاربتهم. الفصل الثالث عشر فى فتح شاليات نصر الله الإسلام والمسلمين وأعز الدين بحق محمد وآله وصحبه. الفصل الرابع عشر في بعض أحوالهم بعد فتحها وفى أن قصدهم الأعظم تغيير دين الإسلام وإذلال المسلمين [١].

ومع أن المؤلف ينص فى هذه المقدمة على أنه كتب هذا التاريخ ليقدمه إلى السلطان على عادل شاه أحد ملوك الدولة العادل شاهية فى جنوب الهند إلا أنه ليس تاريخاً لهذا السلطان وإنما هو تاريخ لدخول البرتغاليين إلى إحدى دور الإسلام ثم ما جرى بينهم وبين المسلمين هناك.

وقيمة هذا التاريخ - أو القصة التاريخية - أنها تحكى ما قد لا يوجد فى كتب التاريخ عن وقائع حدثت فى جنوب الهند ، ومن ثم حوت من المعلومات ما لانجده في غيرها عن هذه المنطقة التى كثيراً ما أغفل المؤرخون الحديث عنها، وهى مليئة بالأحداث والوقائع، فالكتاب قد يسد ثغرة فى المكتبة العربية لأن مؤلفه من أهل مليبار، روى وقائع شاهدها أو اشتهرت فى بلده، ولم يجلس فى بغداد أو دمشق ويكتب عن هذه الديار.

ولا ننسى هنا أن نشير إلى كتاب الثورة الهندية لفضل الحق الخير آبادى الذى مر بك بعضه فى باب الأدب السياسى فهذا الكتاب وثيقة حية لأحداث ثورة هامة من ثورات المسلمين وواقعة عظيمة من وقائع شبه القارة استتب بعدها الحكم لبريطانيا. والكتاب يحوى بالتأكيد مواد لا توجد فى التواريخ التى كتبها الغربيون عن هذه الفترة وقد قامت بتحقيقه كجزء من بحثها للدكتوراه عن الخيرآبادى الدكتورة قمر النساء أستاذة اللغة العربية بجامعة الإناث بحيدرآباد الهند ثم طبع بعد ذلك بحثها فى كتاب [٢].

١- جواهر الأشعار، ٢٠٦ - ٢٠٧.

٢- العلامة فضل الحق الخيرآبادى مع تحقيق كتاب الثورة الهندية، ٣٤٦ - ٤٤٧، لاهور ١٩٨٦م.

الفصل الحادى عشر

الترجمات الأدبية

أعنى بذلك ترجمة الأعمال الأدبية، وهذا باب دخل فيه أدباء شبه القارة أيضا فترجموا إلى اللغة العربية كثيراً من الأعمال، فترجم الدكتور ظهور أحمد أظهر رواية محمد بن قاسم لنسيم حجازى، كما ترجم المرحوم الأستاذ محمد حسن الأعظمى من الفارسية قصصاً وحكايات جاءت فى كلستان الشيخ سعدى الشيرازى، وترجم الشيخ أبو الحسن الندوى بعض من شعر اقبال، وترجم الدكتور محمود أحمد غازى مثنوى إقبال المعروف «يا أمم الشرق» وجميع هؤلاء معاصرون أحياء إلا الشيخ الأعظمى الذى توفى قبل سنوات قليلة.

ولا يفوتنى هنا أن أسجل كلمة اعجاب بمجلة ثقافة الهند التى تنشر كثيراً من المقالات والأبحاث عن اللغة العربية فى شبه القارة كما تنشر فى كل عدد قصصاً قصيرة مترجمة من اللغات الأخرى، وطبيعى أن الترجمة وقربها من معنى العمل الأدبى الأصيل رهينة بقدرة المترجم على تطويع اللغة العربية والتعبير بها، وليس فى داخل موضوعنا تقصى هذا الأمر وبيان مدى ما وفق إليه المترجمون فى التعبير باللغة العربية، وإنما الغرض من كتابنا التعريف - فقط - بهذا الفن.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى فى كتابه روائع إقبال :

برلمان إبليس

«في ديوان محمد اقبال الأخير «أرمغان حجاز» (هدية الحجاز) قصيدة بديعة وصف فيها وصور جلسة برلمانية، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التى تهدد مهمتهم فى العالم وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم. وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها «إبليس» فحكم على هذه الآراء والدراسات، وعارض أكثرها فى ضوء تجاربه الواسعة، وبعد نظره الذى لا يشاركه فيه أحد من تلاميذه. وأدلى برأيه الحصيف المؤسس على الدراسة الواسعة العميقة. وهو يتلخص في: أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفوء لنظامه، وهى الشرارة التى تتحول ناراً بسرعة، فالمصلحة والرأى أن يركز «الزملاء» تفكيرهم على محاربة هذا العدو، أو إلهائه وتنويمه. وقد جاء فى هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها، ما يفيد الاطلاع عليه، وإليكم محضر الجلسة :

«إن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا فى مجلس شورى، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنة، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسى ومهمتهم الشيطانية، فتذكروا في فتن وأخطار قد أحدقت بهم وهددت نظامهم، وجللوا خطبها وتناذروا شرها، فذكر أحدهم «الجمهورية» وحسب لها حساباً كبيراً، فقال الثانى، لا يهولنك أمرها فإنها ليست إلا غطاء للملوكية، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهورى، إذ رأينا الانسان بدأ ينتبه ويفيق، ويشعر بكرامته. وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها، فألهيناه بلعبة الجمهورية، وليس الشأن فى الأمير والملك، إن الملوكية لا تنحصر فى وجود شخص ترتكز فيه الملوكية، وفرد يستبد بالسلطان، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالا على غيره، مستشرفاً إلى متاع غيره، سواء فى ذلك الشعب والفرد، أما رأيت نظام الغرب الجمهورى، وجهه مشرق وضاح، وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان.

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية، ولكن ماذا يقول النائب المحترم فى هذه الفتنة الدهماء التى أثارها هذا اليهودى الذى يدعى «كارل ماركس» ذلك الباقعة الذى ليس نبياً، ولكنه يحمل عند أتباعه كتاباً مقدساً، هل عندك نبأ، أنه أقام العالم وأقعده، وأثار العبيد على السادة، حتى تزعزعت مبانى الإمارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة إن سحرة أوربا، وإن كانوا مريديك المخلصين، ولكن لم أعد أثق بفراستهم، ها هو السامرى اليهودى الذى هو نسخة من «مزد» (الزعيم الفارسى الاشتراكى) قد كاد يأتى على العالم بقواعده، فاستنسر البغاث وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب، ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحها) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية، وها هى قد استفحلت وتفاقم شرها، وها هى الأرض ترجف بهول فتنة الغد ياسيدى إن العالم الذى كنت تحكمه سينقض عليك، وينقلب نظام العالم ظهراً لبطن.

فتكلم رئيس المجلس «إبليس» وقال : إنى أملك زمام العالم، وأتصرف به كيف أشاء، وسيرى العالم عجباً، إذا حرشت بين الامم تهارشت تهارش الكلاب، وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب، وإذا همست فى آذان القادة السياسيين، وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم، وجن جنونهم.

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقة أن الخرق الذى أحدثته الفطرة بين الإنسان لا يرفوه المنطق المزدكى (يعنى الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفنى هؤلاء الاشتراكيون الطرداء، والصعاليك السفهاء.

إن كنت خائفاً، فإنى أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة فى رمادها، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد، وداهية المستقبل، ليست الاشتراكية.

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً، وأنها فتنت بالماء، وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم. أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر، وأن علماء

الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التى تشرق لها الظلمات ويضئ لها العالم، ولكنى أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقض مضجعها وتوقظ هذه الأمة، وتوجهها إلى شريعة محمد (ﷺ)، إنى أحذركم وأنذركم من دين محمد (ﷺ) حامى الذمار، حارس الذمم والأعراض، دين الكرامة والشرف، دين الأمانة والعفاف .دين المروءة والبطولة، دين الكفاح والجهاد، يلغى كل نوع من أنواع الرق، ويمحو كل أثر من آثار استبعاد الإنسان، لا يفرق بين مالك ومملوك، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك، يزكى المال من كل دنس ورجس، ويجعله نقياً صافياً، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين فى أموالهم، أمناء لله وكلاء على الأموال، وأى ثورة أعظم وأى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين فى عالم الفكر والعمل يوم صرخ : إن الأرض لله، لا للملوك والسلاطين.

فابذلوا جهدكم، أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس، وليهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه، قليل الإيمان بدينه، فخير لنا أن يظل مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وكتاب الله والآيات، اضربوا على آذان المسلم، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطئ سحره، اشغلوه يا اخوانى ! عن الجد والعمل، حتى يخسر الرهان فى العالم. خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره، ويهجر هذا العالم ويعتزله ، ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره يا ويلتنا! ويا شقوتنا! لو انتبهت هذه الأمة، التى يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسه». (١)

والملفت للنظر أن إنتاج الهند الحالية فى اللغة العربية يفوق ما ينتجه علماء باكستان وأدباؤها مع كثرة حديثهم عن الدين والإسلام، فالهند تعتنى كثيراً بنشر الكتاب العربى، وتصدر كثيراً من النشرات الثقافية والأدبية سواء بانتظام أم فى مناسبات أدبية خاصة وهى مجلات ونشرات تحتوى على جوانب أدبية قيمة ، فلقد

١- روائع اقبال، أبو الحسن الندوى، ص ١٠٣ - ١٠٧، طبع مجلس نشريات اسلام، كراتشى، باكستان، بدون تاريخ.

أصدر المجمع العلمى الهندى مثلا عدداً خاصا من مجلته فى يرنيو ١٩٨٥م عن الأديب المرحوم عبد العزيز الميمنى بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده، وقد وقع هذا العدد فى أكثر من خمسمائة وخمسين صفحة من الحجم الكبير، وساهم فيه نخبة من أدباء وباحثى الدول العربية كالدكتور ابراهيم السامرائى وحمد الجاسر وشاكر الفحام وناصر الدين الأسد وسعيد الأفغانى وغيرهم فتناولوا فى مقالاتهم حياة الميمنى وأعماله الأدبية، ولم تهتم باكستان بالميمنى وهو ابنها.

وقد ذكرت قبل قليل أن مجلة ثقافة الهند تعنى كثيراً بالأدب العربى فى الهند وخارجها، وتنشر فى كل عدد من أعدادها قصصا قصيرة مترجمة، وقد اخترت من هذه القصص قصة «الكفن» لمنشى بريم شاند وقد ترجمها إلى العربية غورديال سنغ ويبدو من اسمه أنه غير مسلم مما يريك اهتمام القوم باللغة العربية وآدابها بعيداً عن دائرة الدين، يقول بريم شاند :

«فى إحدى ليال من فصل الشتاء كان الرجل العجوز وابنه جالسين صامتين بجوار كوخهما المصنوع من الخيش وفروع الأشجار المقطوعة أمام النار الضئيلة على وشك الخمود إذ كانت زوجة إبنه الشابة إسمها «بوذياً» راقدة فى داخل الكوخ متقلبة بآلام الوضع وهى تصرخ صراخات عالية بما ينقطع لها القلب وكان يبدو كما لو كان نظام تنفسها يكاد يتوقف أما الظلام فكان يخيم على القرية كلها بحيث صارت الطبيعة صامتة ساكنة بدون أى حركة.

فجأة قطع غيسو هذا الصمت قائلا : «على ما يبدو لا يبقى رمق من الحياة يدب فى جسد هذه البنت التاعسة .. لكن يجب عليك أن تذهب إلى داخل الكوخ لتتعرف على أمرها كيف كان حالها على الأقل».

أجابه ابنه مهاديف مغضبا قائلا :« إن كان لابد لها من الموت فالموت خير لها ...! دعها تموت .. اذن مإذا يجدى أن أذهب أنا إلى الداخل؟ ».

عند سماع هذه الكلمات منه قال أبوه: «كم أشد قساوة قلبك. كم أنت خائن فى الأمانة وذلك بعد أن قد أمضيت سنة كاملة بمرافقتها بكل فرح وسرور والآن تخذلها عاجزة لا حيلة لها ؟ ».

فأجاب ابنه قائلاً : «لكنني لا أستطيع أن أراها وهي تعاني آلام وأوجاع».

كان غيسو وابنه مهاديف ينتسبان إلى طبقة المنبوذين ويمتهنان مهنة السكافة وكان كلاهما شهيرين بالتنصل من العمل في القرية كلها كان غيسو على عادته إذا عمل ليوم واحد ينام بعد ذلك ثلاثة أيام وكذلك كان مهاديف إذا عمل نصف ساعة يدخن ساعة كاملة ولسبب ذلك ما كان أحد مستعداً لتوظيفهما على أي شغل ، وما دامت ملوء القبضة من الغلة باقية لديهما فإنهما يرفضان الاجتهاد في اكتساب المعيشة لكن بعد أن أصابهما الجوع لأربعة أو خمسة أيام اضطر غيسو إلى أن يصعد إلى شجرة ويسقط منها بعض الحطب فيأخذ مهاديف هذا الحطب إلى السوق ويبيعه وعلى حين أن ما كان هناك أي نقص في الشغل أو عجز في الحصول على عمل ما في القرية كان في مستطاع كل واحد أن يحصل ليس على شغل واحد بل على خمسين شغلاً من أنواع متفرقة ليشغل بها وكان الفلاحون يستخدمون غيسو ومهاديف لكن كان يحدث هذا عندما أصبحوا هم مضطرين في أقسى الظروف لسبب تكاثر أشغالهم.

لو كان قدر لهما أن يكونا ناسكين لما كان متعذراً عليهما اطلاقاً ممارسة الضبط على النفس اذ كانا تعودا على الإقناع الذاتي .. أما ثروتهما الدنيوية فكانت تتكون من الأواني الفخارية وبعض الأسمال إذ كانا فارغين من الهموم ولو كانت القروض الباهظة قد أثقلت كواهلهما مع ذلك كانا هما عديمي الحس بإهانة وبتجرح عواطفهما مهما عظمت الشدائد ومهما تفاقمت المصائب.

يا للعجب كانا هادئ القلب بالرغم من معرفتهما جيداً بأنه لن تستهلك القروض أبداً إلا أنه كان الناس جرت عادتهم بتقديم الفلوس مقدما لهما. وكالمعتاد كانا يتغذيان على بطاطس وكرسنة يسرقان كميات جزئية منهما من حقول الفلاحين أو يمصان قصب السكر وكان الأب قد قضى زهاء ستين سنة عاملاً بذلك الطريق على حين لم يكن الإبن متخلفا عن أبيه مقتفياً آثار أبيه بالذات بل فاق عليه في قضاء ساعات البطالة في حياته.

في هذه الساعة كانا جالسين أمام النار المضطرمة وهما يشويان بطاطس تحت كومة الرماد الساخن فيلتقط كل منهما بطاطة مدمسة واحدة فواحدة يبتلعها مسرعاً وفيما

يتعلق الأمر بزوجة غيسو كانت هي قد ماتت منذ وقت طويل وكان مهاديف قد تم زواجه منها في السنة الماضية إلا أنها منذ قدومها في هذا الكوخ كانت هي قد أدخلت صناعة يدوية أو نظاماً ما في البيت وتشغل بنفسها أشغالا صغيرة وما زال هذا النظام مستمراً إلى أن لفظت هي نفسها الأخير وعملا بذلك كانت تكتسب هي القوت يومياً لأجلهما لكن كانت النتيجة لهذا كله أن تزايدت البطالة أكثر مما كانت عليه سابقاً.

في واقع الأمر كانا فخورين ببطالتهما وفي حين من الأحيان لو صادف لأحد أن يتقدم إليهما ويطلب منهما لتولي بعض الأشغال كانا يطلبان أجرة أضعافاً مضاعفة والآن كانت تتألم هذه المرأة التي مازالت تعمل أشغالاً طيلة حياتها لأجلهما مجتهدة كادحة وهي تتلوى بأوجاع الوضع لكن على عكس ذلك كانا منتظرين موتها كي يتمتعا بالنوم المستغرق.

غيسو الذي كان يقشر بطاطة بعد بطاطة بعد انتزاعها من كومة الرماد الحار سأل مرة ثانية من ابنه مهاديف عن زوجته طالباً منه الدخول إلى الكوخ ليعرف أمرها نحو ماذا كانت هي تشعر فعند ذلك استطرد قائلاً : «فيما أظن أنها قد أصبحت محضورة بروح شريرة وكي نهتم باطراد هذه الروح الخبيثة عن جسدها لابد لنا من استدعاء العراف حتى يتعاطى سحره الأسود عليها .. إلا أنه سيأخذ هو أيضاً أجرة لا تقل عن روبية واحدة ليرقيها من هذه الروح الخبيثة ومن ناحية أخرى خاف الإبن من أنه إذا ذهب هو بنفسه إلى داخل الكوخ سيأكل أبوه نصيباً وافراً من بطاطس في تغيبه فأجابه قائلا : «أنا أشعر بالخوف في داخل الكوخ!».

عند ذلك قال غيسو : الخوف ؟ .. الخوف مماذا ؟!

أنا موجود ههنا فأدافع دفاعاً كاملاً من كل خطر ..عليك لا بأس ..اذهب انت للحال!!».

لماذا لا تذهب أنت بنفسك إذن؟ قد أجابه مهاديف بهذه الكلمات عند استماع لهذا الجواب منه قال غيسو: «عندما كانت أمك على وشك الموت كنت جلست بجانبها ثلاثة أيام على التوالي بكناسه على عكس ذلك لا تكترث لحالها وأنا لم ألق نظراتي على

وجه زوجتك حتى الآن وإن ذهبت إليها فتشعرت بالاضطراب والقلق عند قدومى إليها لا سيما فى هذه الحالة.

فقال مهاديف : «أنا منشغل البال بنفسى متفكراً فى الأمر ماذا عسى أن نعمل إذا هى أنجبت لى ولداً خاصة فى هذه الساعة التى ليست فيها عندنا حتى قطعة زنجبيل أو كمية زهيدة من زيت أو عسل أسود».

قال غيسو مجيباً له : «سيوفرنا الله كل شئ ...عليك أن تثق به وأنا متأكد كل تأكد من أن الرجال الذين يحتقروننا اليوم ويبخلون عنا بالنقود ستراهم يستجدون ويستعيرون الفلوس منا فى المستقبل القريب .. هل تعرف أنت تولد لى تسعة أطفال وكان كل شئ معطى لهم من عند الله - فلذلك أنا أقول بك مثلما كان حدث فى حالة كل طفل سيوفقنا الله توفيقاً ويستقيم الأمر من فضله حتما».

وإذا كان غيسو قد وقف هذا الموقف من الظروف فلم يكن هذا الأمر مستغرباً منه قط بحيث أن ما كان هو أقل تعاسة من هؤلاء الرجال الذين كانوا يعيشون ويعملون ويكدون معه.

وإذا كان يمكن مشاهدة الشئ غير الاعتيادى فى ذاته هو أنه كان على أكثر ذكاوة من معظم الفلاحين فى القرية باعتبار أن كان يشعر بقصوى الفرحة بمجالسة أو مخالطة أولئك الرجال الذين كانوا كثيراً ما يترددون على بيوت الأغنياء ومع ذلك لا هو يتبع أخلاقهم وآدابهم وسلوكهم ولا هو يعرف كيف يستغل حق المعاشرة معهم وكانت نتيجة تكاسله أن كل امرئ يسكن فى القرية كان يشير إليه بإصبعه مخبر بذاته غير الاعتيادية مع أنه الصورة الواحدة مما كان هو متميزاً بها أن عندما استنفدت النقود لديه كان فى وسعه مواجهة شدائد العسرعن طريق تكاسله لا يزحزح إذ لم يكن فى مستطاع أى واحد أن يستغل سذاجته أو وسائله الضئيلة القليلة بأى وجه من الوجوه إطلاقاً.

كان يشتغل غيسو ومهاديف بأكل البطاطس الحارة حديثة العهد باستخراجها من تحت كومة الرماد الساخن على عجل إذ يسبق كل واحد منهما الآخر على قدر الإمكان أن يأكلها بكل شراهة وبأسرع ما يكون بدون أن يبالى كل واحد منهما بأن عملاً بذلك

سيحترق اللسان والحنجرة وعند ذلك أصبحت عيناهما متبلتين بالدموع لكن لا أحد يكترث لهذا الأمر بل ويفضل إدخال البطاطس فى جوف بطنه بسرعة تامة متسابقاً على الآخر إلى أن ينتهى البطاطس كلها.

عند ذلك أعاد غيسو إلى ذاكرته حفلة الزواج الرائعة فيما مضى وأطال تفكيره عليه مليا وكان ذلك الاحتفال قد أقامه أحد الرجال الوجهاء رحب الصدر فى القرية قبل عشرين سنة فى بيته وكيف كان شارك فيه إذ كانت الضيافة رائعة وكان هو يتلذذ بذكرياته الحلوة كيف كان أكل آنذاك رصيداً ضئيلاً من النقود .

كانا تهافتان على المأكولات مثل الأسد الجائع الذى يثب على فريسته بغض النظر عما سيتحدث الناس حول عدم شعورهما بهذا الموت وفقدان عاطفة الرحمة منهما.. لكن لا بأس بذلك إطلاقاً فقد سبق أن تغلبا مثل هذه العواطف ليس مرة واحدة بل ومراراً كثيرة.

بعد قليل تأمل غيسو كفيلسوف وركز أفكاره تركيزاً على نقطة واحدة فقال : «قد اقتنعنا نحن قناعة تامة وهكذا لابد أن روحها تكون قد رضيت فلتكن هى مبروكة فى كل ذلك».

عند ذلك دعم مهاديف قوله مطرقاً برأسه كعلامة توافقه اعتقاده بهذه الفلسفة المقدمة وبدأ فى ترديد الكلمات الآتية داعيا للروح المفارقة : «يا ربى ! بدون شك أنت عليم بكل خفايا الصدور كما أنت عالم بما هو مكنون فى أعماق قلوب كل بشر وليس خاف عليك أعمال هذه الروح الصالحة فلذلك أنا أسأل من ذاتك العليا أن تكون أنت راضياً عنها ورحيماً عليها .. فتبوءها فى الجنة فى قربك .. إنما نحن على يقين تام أن تكون دعواتنا المخلصة لروحها قد توصلت إلى جنابك إلا أنه مما لا شك فيه هو أننا بفضل رحمتك لم تتمتع بمثل هذه الملذات طول حياتنا من قبل.

بعد لحظة كان مهاديف قد سنح له خاطر ولم يتمالك نفسه عن الإعراب عن عواطفه الكامنة قائلاً : «يا أبا العزيز الشفيق ! سنغادر نحن أيضاً هذه الدنيا التى هى عرضة للفناء ذات يوم سالكين نفس السبيل الذى هى سلكت مغلوبة على أمرها».

فلم يجب له غيسو شيئاً وكأنه لم يحب أن يكدر هذه المسرة التى كان حظى بها قبل لحظات بتركيز تفكيراته فى المسرات المرهومة التى سوف تحصل عليها فى العقبى بعد الموت «فما هى تكون الإجابة على التساؤل الذى ستوجه إلينا فى الآخرة لما قالت هى هذه الكلمات : لماذا لم تلفا جسدى فى الكفن ؟»

«... لكن فيما اعتقد بأنها لن توجه إلينا مثل هذا التساؤل المزعج غير الملائم أبداً».

بدون أى توقف أو تردد ما فأجابه ساخطاً عليه : «هل تسمح لى أن أقول لك شيئاً؟ أسألك كيف عرفت أنت مسبقاً بأنها لن تحصل الكفن المناسب ؟ .. هل تظننى أحمق لهذا الحد؟

هل قضيت أنا حياتى القيمة عبثاً طوال ستين سنة ؟!!

انتظر قليلاً واصبر وكن على أمل بأنها سيحصل لها كفن لائق بالتأكيد.

بعد ذلك سأل مهاديف متثاقلاً خائب الأمل ":من ذا الذى سيعطينا الكفن الآن وقد سبق أن قد صرفت أنت كل ما كان موجود لديك. إنما هو أنا تزوجت منها فأنا مسؤول عن كل ذلك أمامها».

مرة أخرى قد صرح مهاديف عليه باكياً مستفهماً : «من ذا الذى سيعطينا الكفن قل لى ؟ لماذا لا تجيبنى عليه ؟»

«هؤلاء الرجال أنفسهم الذين سبق أن أعطونا قروضاً»

«لكن فى هذه المرة لن يعطونا أية نقود أبداً».

لما تفشى الظلام الحالك وأصبحت النجوم تترقرق فى السماء تزايد معه جو الأفراح فى الحانة أيضاً وعند ذلك بدأ بعض الأشخاص الموجودين فى هذه الحانة فى الغناء بكل حماس وسرور بينما آشتغل فى الإشادة بأنفسهم وكان منهم يتبادلون كؤوس الخمر بينهم وبعضهم يتحاضن أصدقائهم الأحماء .

.. طبعاً كان جو الحانة مملوءاً بالهيجان والضوضاء مسيطراً على الحانة بأكملها ومما كان يلاحظ أن صار جو الحانة فى أرجائها أكثر تأثيراً من تأثير الخمر نفسها .. هذه

هى الخمر التى جاءت بهم إلى هذا المكان .. فكان كل واحد منهم قد أتى إلى هذه الحانة بقصد تبديد الهموم ورفع ثقل الأتراح وعبء الأحزان فى حياته .. فسرعان ما أصبحوا سكارى لدرجة أن فقدوا وعيهم ولا يدرون فيما إذا كانوا أحياءاً أو أمواتاً.

كان الأب والابن سعداء فعلاً وكانا يستوقفان انتباه كل امرء إليهما حين يشربان الخمر. فكانت زجاجة الخمر مملوءة موضوعة بين أيديهما ومالبث أن أفرغا هذه الزجاجة بكل شراهة .. وبعد قليل لما شرب مهاديف ملء بطنه من الخمر اعطى ملء الورق من الطعام المتبقى إلى متسول قام عند الباب وكان ذلك المتسول ينظر إليهما الجائع الطامع منذ زمن ففى طول فترة حياته كان شعر لأول مرة بلذة إعطاء الشئ لشخص آخر فعند ذلك أوصى غيسو لهذا المتسول يأكل ملء بطنه وطلب منه أن يدعو لروح المعطية الحقيقية هذا الطعام له بما أنه كان متأكداً كل التأكد فى داخل نفسه من أنه سيستريح روحها فى السماء.

قد رفع مهاديف نظره إلى السماء لمرة أخرى ليقول :

«يا أبى ... ! على ما أظن ستذهب هى إلى الجنة بالتأكيد بل وهى ستصبح ملكة فيها !».

أجابه غيسو الذى كان يسبح فى بحر الانتعاش والنشوة قائلاً : «نعم .. يا بنى أنا متأكد كل التأكد من أنها ستصل إلى الجنة حتما لأنها طول حياتها لم تتضايق أحداً على الإطلاق .. تفكر قليلاً حتى نحن أنفسنا قد حظينا عند مناسبة موتها بملذات وأصبحت أمانينا التى لم تتحقق قد صارت محققة الآن بإشباع بطننا وإخماد جوعنا حين تناولنا طعاماً شهياً لذيذاً. وإذا كانت هى لم تصل إلى الجنة فى السماء فهل تظن أن سيصل هناك أمثال هؤلاء الرجال منفوخى البطون الذين يستغلون الفقراء المحتاجين؟ وبالرغم من ارتكاب الذنوب يذهبون إلى نهر «جنجا» المقدس بقصد العفو عن ذنوبهم ويتوضأون فى المعابد ؟

إلا أنه لم يمض وقت كثير على حالتهما السارة حتى عاودهما الإحساس بالأسف والحزن.

فقال مهاديف : «يا أبي!.. لا شك فيه أنها قد عانت شدائد وصعوبات طول فترة حياتها لا سيما عند موتها». وما أن قال هذه الكلمات حتى انفجر باكياً وأخذت الدموع تسيل من عينيه.

حينئذ عزاه غيسو ناصحاً له يمكن له أن يفرح بأنها قد تخلصت لحسن حظها من عكاشة فجائع وآلام لهذه الدينا.

فجاة بدأ كل منهما يغني ويرقص بكل فرح وسرور تحت سكرة الخمر التي كانت أخذت عليهما كل المأخذ وهما يتماثلان يتهاديان ..وفي نهاية الأمر تساقطا في قارعة الطريق فاقدي الشعور» [1].

وقد نقلنا هذه القصة كما هي دون إصلاح أو تنبيه على ما فيها من أغلاط نحوية وأسلوبية لنريك نموذجاً لرجل أتعب نفسه لينقل إلى قراء العربية قصة تصور لك ضحية المجتمع الهندوسي - أي المرأة - كما تصور لك كيف يعيش المنبوذون، وما يعانونه من مشكلات فقر ومرض، فالفكرة التي في القصة والأحداث المنسوجة حول شخصياتها يستطيع القارئ العربي فهمها على أي حال، رغم ركاكة الأسلوب وفحش الأخطاء التي صدرت عن مترجم غير متمكن أتعب نفسه ليرضي الذوق العربي وينقل لقراء العربية بعضاً من قصص مجتمعه. ولو نقحت هذه القصص ووضعت في أسلوب جميل لربما كان لها شأن آخر في الأدب العربي في شبه القارة .

١- مجلة ثقافة الهند، المجلد ٣٨، العدد الثاني (١٩٨٤)، ص ١٨٩ - ٢٠٤.

الباب الثانى

الشعـــر

خصائص الشعر العربى
فـــى شـبـه القـارة

الشعر محك القرائح بلا ريب، ومختبر الخيال، ولا يكفى له علم اللغة وإتقان العروض وإنما يلزمه ذهن مبدع، وعين ترى فى الأشياء ما لا يراه الآخرون من خلال رؤيتها الخاصة، ويلزمه كذلك تجربة ومعاناة، كما يلزمه إتقان صنعة الشعر فى ذاتها، ومن ثم قد يشتهر فى كل مائة شاعر شاعر، وشهرته تكبر وتصغر بمقدار توفر هذه العناصر كلها أو بعضها، أو ثلثها أو ثلثيها، ومن الناس من يقلد الشعراء تقليداً فيكون كقرد يقلد إنساناً فيضحك الآخرون من أفعاله، لذلك قال الأدباء قديماً وحديثاً إن الشعر صعب المرتقى وعر المسلك.

وشعرنا العربى فى شبه القارة يحتاج إلى دراسات متأنية يلزمها جهد ووقت ومال للتنقيب عما فى أرحام المكتبات من مطبوعات ومخطوطات. ومع ذلك فقد نسجل لك فى هذا الفصل ما يستطيع الباحث أن يراه على عجل من خصائص عامة تعين على تخيل صورته الأصلية فى ضوء ما سقناه من قبل من خصائص عامة للأدب العربى فى شبه القارة.

فالخاصة الأولى لهذا الشعر أنه لم يستفد من التجارب الشعرية فى اللغتين الفارسية والهندية وهما لغتان شاعرتان فيهما من الثراء ما لا يوصف فالأعاجم الذين صنعوا كثيراً من الشعر العربى كبشار وأبى نواس وأبى العتاهية وابن الرومى وكثير غيرهم لم يتح إخوانهم فى شبه القارة إنتاج صنعة متقنة تقارب على الأقل ما أنتجه الأوائل، يقول الدكتور شوقى ضيف وهو يرسم صورة مشابهة لما نريد أن نقول :

«وقد كان أكثر شعراء المدن وأشهرهم من الأجانب، فبشار وأبو نواس وسلم الخاسر وأبان بن عبد الحميد وصالح بن عبد القدوس ومسلم بن الوليد كل هؤلاء الشعراء العظام من الفرس، بل نحن نجد شعراء من الهند مثل أبى عطاء السندى ومن النبط مثل أبى العتاهية ومن اليونان مثل ابن الرومي. وقد كانت وراثة هؤلاء الشعراء تعد لتغيير واسع فى لغة الشعر وصناعته إذ كانوا أجانب، وكانوا يرثون سلائق لغوية تخالف سلائق اللغة العربية. ولنظن الآن أمة أوروبية تكلمت العربية واتخذتها للتعبير عن عواطفها فإلى أى حد تؤثر فى صياغتها ؟ ولنظن العكس، لنظن أمة عربية تكلمت الفرنسية مثلاً فإلى أى حد تؤثر فى لغتها وعباراتها ؟ لقد كان المظنون أن يحدث تغير واسع فى اللغة العربية أثناء العصر العباسى حين اتخذها الأجانب من الأعاجم وغيرهم للتعبير عن فكرهم وشعورهم، غير أن ذلك إنما انحسر عن تغييرات طفيفة. وإن كان العباسيون أنفهسم يشيرون إلى ما يسمى بأسلوب المولدين، ولكن هذا الأسلوب لم يتحول تحولاً تاماً إلى صورة مخالفة للقديم» (١).

والنتيجة أن الشعر العربى فى شبه القارة - الذى لم يستفد من تجارب اللغات التى بنت خلفيته وشكلت صلبه - لم يؤثر بشئ فى الأدب العربى ، لا من ناحية الصنعة ، ولا فى الخيال بل ولا فى القوالب والأشكال ، وإن وجدنا بعض الألفاظ كأسماء التوابل والروائح والسيوف فى الشعر العربى فهذا ليس من تأثير أدب شبه القارة فى شئ ، واقتصر تأثير ثقافة شبه القارة على إنتاجها فى علوم الطب والرياضة والنجوم.

والخصيصة الثانية أن اللغة العربية إذا قدرنا عمرها فى شبه القارة منذ احتكاك العرب المباشر بأهل المنطقة خلال الغزو العربى أى فى أواخر القرن الأول الهجرى كما يحب أكثر الباحثين أن يقال لهم هذا، فإن المقارنة بين شبه القارة وغيرها من المناطق التى دخلها العرب غزواً فى نفس الفترة تقريباً وزحفت إليها العربية مع الجيوش كالأندلس مثلاً تكشف لنا عن حقيقة هامة هى أن الأندلس أنجبت ابن خفاجة وابن زيدون وابن عبد

١- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، ص ٩٧ - ٨٩.

ربه وابن هانئ وابن حمديس وغيرهم ممن اشتهروا فى الأدب العربى وأوجدوا لأنفسهم مكاناً فيه بينما الحال ليس كذلك فى شبه القارة، فلم يجد أحد من أبنائها له مكاناً فى الأدب العربى على نحو مؤثر يترك بصماته على صفحة فن من الفنون الشعرية، وفى اعتقادنا أن هذه الظاهرة مردها إلى ان الأندلس لم تكن بها لغات زاحمت العربية فى الأدب كما نافست الفارسية اللغة العربية فى شبه القارة، إذ كانت الفارسية - وهى لغة شاعرة سهلة واسعة - لغة الحكم والسياسة والسجلات والدواوين والأدب والثقافة، وجدت لنفسها مكاناً لأن أغلب الغزاة والسلاطين كانوا من أهلها وطبيعى أن لغة لها ما للفارسية من صفات تستطيع مقاومة العربية التى كانت لغة الصفوة بل صفوة الصفوة. يضاف إلى ذلك وجود اللغة الهندية أيضاً وهى لغة ليست بالضعيفة أدباً ولا بناء فإن تحولنا إلى المستوى الشعبى حيث استولى رجال التصوف على الإسلام الشعبى لا السلطانى وجدنا لغتهم فى أشعارهم العرفانية أو فى اصطلاحاتهم الصوفية هى الفارسية لأن شيوخ التصوف قدموا إلى الهند من فارس ولذلك تربعت الفارسية على عرش الأدب فى شبه القارة فلم تستطع العربية إنزالها واحتلال مكانها.

والخصوصية الثالثة لهذا الشعر أن شعراء العربية فى شبه القارة قلدوا ولم يبتدعوا، وحين فتح الشعر العربى عندهم عيونه ليتعرف على ما حوله كان الموجود أمامه من الشعر العربى جامداً فى موضوعاته، ساذجاً فى فكره «فنحن لا نصل إلى القرن الرابع حتى نحس بأن الشعر العربى جامد لا يتحول عن الموضوعات والمعانى القديمة، وأكبر الظن أن من أسباب هذا الجمود ما أشرنا اليه من أن العرب لم ينحوا فى شعرهم نحواً فلسفياً او علمياً، ولعل من أهم الأسباب أيضاً أنهم لم يطلعوا على شئ من الأدب اليونانى فاستمروا يعيشون فى شعرهم معيشة داخلية فيها نوع من القصور الذاتى، وقد خيل اليهم أنهم ليسوا فى حاجة إلى مدد من الخارج فشعرهم فيه جمال لم ير مثله، على أن هذا الجمال سرعان ما أصابه الجمود فى القرن الرابع وما جاء بعده من قرون إذ ضل الشعراء طريقهم إلى تنويع أفكارهم الا ان يلجأوا إلى ألوان غريبة كالمبالغة أو يستعيروا من ألفاظ الثقافات، أما أن ينوعوا فى موضوعاتهم ومعانيهم فذلك شيئ قلما دار فى

أذهانهم، ولعل من أسباب ذلك أيضاً ما شاع فى بيئات النقاد من أن الأسلوب هو كل شئ فى الأدب [1].

هذا بالضبط ما حدث للشعر العربى فى شبه القارة أيضاً، فالشعراء إن حاولوا التقليد قلدوا ما عند العرب آنذاك بما فيه من جمود، ومنهم من انطوى على نفسه وظن أن ما عنده خير مما عند العرب والفرس - ولعل آزاد، وقد مر بك شئ من آرائه وأقواله- يمثل هذا النوع، وأغلبهم فهم - وربما اعتقد - أن المهم فى صنعة الشعر هو الأسلوب والألفاظ لا المعانى متأثراً فى ذلك بآراء ابن خلدون والآمدى والجاحظ .وقد مر بك نماذج من شعر عباس التسترى وفضل حق الخيرآبادى كمثال لذلك وسيأتيك فى الفصول القادمة شئ آخر.

والخصية الرابعة أن شعراء العربية فى شبه القارة لم يخرجوا عن تقليدية الموضوعات فالرثاء ومدح الرسول والسلاطين والأمراء هى الموضوعات الأساسية التى شكلت العمود الفقرى للشعر العربى فى شبه القارة، وإن وجدت موضوعات أخرى فهى ثانوية لا أساسية، ولم نجد من عبر عن نفسه بالعربية مثل فيض الحسن السهارنبورى كما سبق لك ذكره فى حديثنا عن محاولات التجديد، وتلميذه الفراهى وقد مر ذكره فى الأدب السياسى، وما ذلك فى اعتقادنا إلا لاعتقادهم القداسة فى اللغة العربية فجاء أدبهم مقيداً.

والخامسة أن هذا الشعر قلت فيه المنظومات الروائية والتاريخية التى كان من المفترض أن تستعار من الأدبين الفارسى والهندى ثم تهضم وتصاغ فى شكل عربى جميل، إذ انتشر هذا الفن فى فارس والهند وأفغانستان، لكن أصحابنا قصروا المنظومات على موضوعات اللغة والبلاغة وعلومها كما سنرى بالتفصيل، ومن نوع فى موضوعات منظومته مثل عباس التسترى ضاعت موضوعاته فى ازدحام الصنعة لأنه وإن تحدث فى منظومته «أجناس الجناس» عن مواضيع عامة كالزهد والاخلاص والصوم والصلاة وغيرها إلا أن هذه الموضوعات لم تكن هدف الشاعر من نظمه بل كانت صنعة

١- الفن ومذاهبه، ص ٢١٢.

الجناس وإثبات قدرته على أن يأتى فى كل بيت بنوع من أنواع هذا الفن هو ما يشغل باله ويدفعه إلى النظم، ولقد كان من الممكن لشعراء توفرت لهم القدرة على النظم الطويل مع جودة التعبير مثل طلا محمد الذى نظم قصائد عمودية فى مائتين وسبعين بيتاً مثلاً أن يستفيدوا من هذه الملكة الشاعرة ومن فن المثنوى أو المزدوج - كما يسميه العرب - فى نظم منظومات كبيرة حتى ولو فى موضوعات اهتمامهم كالتصوف والعشق الالهى، لكن ذلك لم يحدث فبقيت المنظومات مقصورة على موضوعات النحو والبلاغة لأن المنظومات العربية لم تخرج فى أغلبها عند العرب عن هذه الموضوعات.

والسادسة أن شعراء العربية فى شبه القارة كثيراً ما وضعوا أمامهم نماذج بعينها من الشعر العربى اشتهرت بينهم إما لكونها جزءاً من مناهج الدروس العربية فى المدارس فى الغالب أو لأسباب أخرى ونسجوا على منوالها ، فباقر بن مرتضى المدراسى له عشر قصائد على نهج المعلقات، وآزاد وعباس التسترى وغيرهما نظموا على نهج بردة البوصيرى، وعبد المقتدر الشريحى (ت ٧٩١هـ) وهو شاعر مجيد عارض لامية الطغرائى كما عارضها آزاد وغيره، ولقد امتد التقليد إلى الخصائص أيضاً خاصة خصائص الشعر الجاهلى من حيث المطالع والبدء بذكر الأطلال والبكاء عليها ومخاطبة أحبة غائبين أو بسؤال المحبوب، فعبد المقتدر الشريحى مثلا يبدأ لاميته الشهيرة قائلا :

يا سائق الظعن فى الأسحار والأصل   سلم على دار سلمى وابك ثم سل

وطلا محمد كثيراً ما يحاكى مطالع قصائد الجاهليين، يقول فى إحدى قصائده مثلا:

قفا برياض الشعب خير المنازل   دمع غزير فى الصبابات سائل

وغلام نقشبند المتوفى ١١٢٦هـ يبدأ قصيدة مدح بقوله :

خليلى هل هاتان دارة جلجل   ودارة سلمى فى قفاف عقنقل

عليها سوارى المزن سحت مطيرة   فمحت مبانيها محوح المهلهل

وأحمد بن عبد القادر الكوكنى (ت ١٣٢٠هـ) يقلد بردة البوصيرى فى قصيدة مدح لصديق له فيقول :

يا شوق بلغ إلى جيران ذى سلم   سلام صب سليم الهم والألم

وعبد المنعم الشاتكامى (ت ١٣٣٣هـ) يبدأ مدح صديق له بقوله محاكياً معلقة امرئ القيس :

جرى دمعى المهراق شجوا بمنزل   رأينا به داراً تراءت كعوكل

واسماعيل بن الوجيه المراد ابادى يقول فى قصيدة محاكيا نفس المطلع:

خليلى عوجا عن شمال العقنقل   وحطا رحال العيس ى عضد عوكل

وذكر سلمى وسليمى يكاد يكون قد تردد على لسان كل شاعر منهم، وكذلك الظعن وسائقها وأنواع الرياح وما إلى ذلك مما كان فى بيئة الشاعر الجاهلى. وقد كثرت فى هذا الشعر المعارضات وهى ما ذكرنا لها أمثلة فى فصل أفردناه لها، وفحوى القول أنهم إما قلدوا الشعر العربى الجاهلى تقليداً غير متقن وأما حاكوا ما اشتهر فى دور الانحطاط، وهذا لا يمنع بالطبع وجود نماذج جيدة تتناثر هنا وهناك تلمع وسط أكوام من القصائد.

والسابعة أن شعراء العربية فى شبه القارة لم يعبروا عن مشاعرهم فى الغالب باللغة العربية إلا فى نماذج قليلة حين صدقت أعطتنا إنتاجاً جيداً كما سنرى فى الفصول القادمة، ذلك أن أكثر الشعراء قرضوا الشعر العربى لإثبات عالميتهم، وليقال فلان عالم بالعربية إلى حد قول الشعر فهو إذن عالم بالإسلام، وهذا فى اعتقادنا من تأثير ارتباط الأدب العربى فى منطقتنا بالمدارس الدينية، فلم تكن العربية وسيلة تعبير بقدر ما كانت ميدان تعالم وتفاخر، وطبيعى أن من كانت دوافعه لقرض الشعر هكذا لجأ إلى التقليد وبعد عن الإبداع والخلق، وهذا هو الغالب على الشعر العربى فى شبه القارة.

والثامنة أن الشعر العربى فى شبه القارة - مثله فى ذلك مثل النثر - ليس له سمات شاخصة مرتبطة بالدور والزمان بل تسير حياته كيفما اتفق بل قد يتعاصر شاعران أو أكثر فنجد كلا منهم اختار لنفسه ما يهوى من الأسلوب إما التقليد أو الإغراق فى الصنعة، لكن اللون الرائج فى شعرهم تزويقه بالمحسنات كما عند آزاد

وعباس التسترى والخيرآبادي - وقد مر بك شئ من شعرهم - وهذا فى اعتقادنا من تأثير الشعر الفارسى الذى قرضه فى شبه القارة كل شاعر قديماً وحديثاً، فأشعار آزاد العربية وقد بلغت أحد عشر ألفاً أشعار تم تهنيدها بعد تفريسها، ومن تدبر حدائق السحر في دقائق الشعر لرشيد الدين الوطواط فى بلاغة الفارسية وشعرها، ثم قارنه بسبحة المرجان لآزاد وجد بين الاثنين تشابهاً كبيراً. كل ما هنالك أن الوطواط لم يقحم فنون فارسيته فى الشعر العربى كما فعل آزاد.

ونحن سنرى معاً مزيداً من الخصائص الدقيقة لهذا الشعر أثناء الحديث عن فنونه ليتضح لك منها كذلك أغراضه فى شكل تطبيقات ونماذج. مع أننا نعتقد أن غياب كثير من دواوين الشعراء عن أعيننا قد لا يجعل نتائج هذا البحث قاطعة مائة بالمائة، فلربما اختفت عنا حقائق بين صفحات هذه الدواوين تؤيد أو تعارض ما استنبطناه من النماذج التى وقعت فى أيدينا، وهذا حال طلائع الكتب والأبحاث فى كل مكان وفى كل مجال.

الفصل الأول

شعراء من أصحاب الدوادين

أصحاب الدواوين فى الشعر العربى فى شبه القارة كثيرون خاصة وأن قرض الشعر لم يقتصر على أصحاب الذوق الأدبى دون غيرهم بل شاركهم فيه رجال العلوم الإسلامية من مفسرين وفقهاء ومتكلمين فيكاد لا يوجد عالم إلا وقرض بالعربية شعراً قل أم كثر.

ومن الشعراء من ضاعت دواوينهم، ومنهم من وصل إلينا من دواوينهم شيئ تناثر فى كتب الرجال والتذاكر، ومنهم من جمع له الباحثون ما تفرق فى الكتب من شعره فى مجموعة واحدة، وهؤلاء اعتبرنا مجموعاتهم دواوين ومن ثم أدخلناهم فى هذا الباب كأبى العلاء اللاهوري وأبى عطاء السندى.

ولقد حوت الكتب لنا كثيراً من أسماء الدواوين الشعرية التى قد توجد الآن مخطوطة أو مطبوعة فى غياهب المكتبات العتيقة المتفرقة فى عشرات المدن بشبه القارة واستخراج هذا كله يحتاج إلى وقت وجهد وعمر. ونحن لن نعمد إلى دراسة ما وجدناه من الدواوين دراسة مفصلة تفحص الفن وخصائصه ، فهذا المقام مقام الاختصار، وإنما سنعرض نماذج بلا شك وقد نعلق على بعضها كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، تاركين الدراسات التفصيلية إلى بحوث منفردة يقوم بها من يشاء.

ولعل باكورة هذه المجموعات أو الدواوين الشعرية ما نظمه أبو عطاء السندى وتفرق فى الكتب الأدبية والتاريخية وقام بجمعه الدكتور نبى بخش بلوش. فأبو عطاء كان والده سندياً كما سترى فى ترجمة حياته فى آخر باب من هذا الكتاب، لكنه ولد ونشأ

في الكوفة بين العرب، وعاش فيهم صباح مساء ومع هذا لم يستطع التخلص من لثغته وعجمته فما كان يستطيع نطق أحرف كالجيم والعين والقاف وأمثالها فكان غير جيل الهنود المهاجرين الذين ولدوا ونشأوا كما نشأ. ومن هنا رأينا اعتباره من أبناء شبه القارة. بل أن أكثر ما يلفت نظر الباحث فى أمره أنه مع جودة شعره لا يقوى على الخطاب بنثر واضح سليم. قال مرة لغلامه : (والا منذ لدن داوتا فقلت لبيك ما أنك تصنأ) يعنى وانك منذ دعوتك وقلت لبيك ما كنت تصنع ؟ وكان اذا تكلم لا يفهم كلامه (١).

ولهذه العلة أتى سليمان بن سليم فأنشده قائلا :

أعوزتنى الرواة يا ابن سليم	وأبى أن يقيم شعرى لسانى
وغلى بالذى أجمجم صدرى	وجفانى لعجمتى سلطانى
وازدرتنى العيون اذ كان لونى	حالكا مجتوى من الألوان
فضربت الأمور ظهراً لبطن	كيف أحتال حيلة لبيانى
وتمنيت أننى كنت بالشعـ	ـر فصيحاً وبان بعض بنانى
ثم أصبحت قد أنخت ركابى	عند رحب الفناء والأعطان
قالى من سواك يا ابن سليم	آشتكى كربتى وما قد عنانى
فاكفنى ما يضيق عنه ذراعى	بفصيح من صالحى الغلما
يفهم الناس ما أقول من الشعـ	ـر فإن البيان قد أعيانى
فاعتمدنى بالشكر يا ابن سليم	فى بلادى وسائر البلدان
ستوافيهم قصائد غر	فيك سباقة لكل لسان
فقديما جعلت شكرى جزاء	كل ذى نعمة بما أولانى
لم تزل تشترى المحامد قدماً	بالربيح الغالى من الأثمان (٢)

١- نزهة الخواطر ، ١٩/١.

٢- نتف من شعر أبى عطاء السندى ، د .نبى بخش بلوش ، ص ٢٤-٢٥ ، باكستان ، ١٩٦١م.

فأمر له بوصيف فصيح فكان إذا أراد أن ينشد شعره وقف بحذائه فأبلغ الناس ؛ ولذلك قال لابن سليم :

فأقبلوا نحوى معا بالفنا   وكلهم يسال ما شانى
فقلت شانى كله أننى   فى تعب من نعظ جردان
يا ابن سليم أنت لى عصمة   من حدث آفزع جيران
فقد رمانى الدهر عن فقره   بسهم فقر غير لغبان
صاد فؤادى بعد ما قد سلا   فصرت كالمختبل العانى
فأنعش فدتك النفس منى ومن   أطاعنى من جل إخوانى
وهب فدتك النفس لى طفلة   يقمع حرها رأس شيطانى
فإن ... قد عتا واعتدى   وصار يبغى بغية الزانى
فالله ثم الله فى قمعه   من قبل أن امنى بسلطان
يتركنى أضحوكة بعد ما   أضرب فى سر وإعلان

فأمر له بجارية قندهارية فأنشد :

أحصننى الله بكفى فتى   مهذب من سر قحطان
من حمير أهل السدى والندى   وعصمة الخائف والجانى
يا خير خلق الله أنت الذى   أيأست من فسقى شيطانى [1]

وكان أبو عطاء واسمه أفلح بن يسار مولى، فلما تحسنت حاله مادياً بقرض الشعر ومديح أمراء بنى أمية ضايقه مولاه عنبر بن سماك فقال يهجوه :

١- نتف من شعر أبى عطاء ، ص ٢٦-٢٧ .

إذا ما كنت متخذاً خليلاً فلا تثقن بكل أخى إخاء

وإن خيرت بينهم فالصق بأهل العقل منهم والحياء

فإن العقل ليس له إذا ما تذوكرت الفضائل من كفاء

وإن النوك للأحساب غول به تاوى إلى داء عياء

فلا تثقن من النوكى بشئ ولو كانوا بنى ماء السماء

كعنبر الوثيق بناء بيت ولكن عقله مثل الهباء

وليس بقابل أدباً فدع وكن منه بمنقطع الرجاء (١)

فلما لم يصلوه ولا أذن له أحد فى الدخول ولّى وهو يقول :

يا ليت جور بنى مروان عاد لنا وإن عدل بنى العباس فى النار (٢)

عاش أبو عطاء مداحاً لبنى أمية حتى قاتل فى صفوفهم فلما غلب بنو العباس مدحهم وكان واقفاً بباب السفاح وبنو هاشم يمرون داخلين خارجين فقال :

إن الخيار من البرية هاشم وبنو أمية أرذل الأشرار

وبنو أمية عودهم من خروع ولهاشم فى المجد عود نضار

أما الدعاة إلى الجنان فهاشم وبنو أمية من دعاة النار

وبهاشم زكت البلاد وأعشبت وبنو أمية كالسراب الجارى

وقال فى رثاء نصر بن سيار :

فاضت دموعى على نصر وما ظلمت عين تفيض على نصر بن سيار

يا نصر من للقاء الحرب إن لقحت يا نصر بعدك أو للضيف والجار

١- نتف من شعر أبى عطاء ، ص ٤-٥ .

٢- نفس المصدر ، ص ١٥-١٦ .

الخندفي الـذي يحمـي حقيقـتـه ... فـي كل يوم مـخـوف الشـر والعـار
والقـائد الخيل قبا فـي أعنتهـا ... بالقـوم حتى يلف الغـار بالغـار
من كل أبيض كالمصباح من مضـر ... يجلو بسنتـه الظلمـاء للسـاري
ماض على الهول مقدام إذا اعترضت ... سمـر الرمـاح وولى كل فـرار
إن قـال قـولاً وفى بالقول موعـده ... إن الكناني واف غـيـر غـدار (١)

ومن رقيق شعره :

ذكـرتك والخطـي يخطـر بيـنـنا ... وقـد نهلت منا المثقفـة السمـر
فـوالله مـا أدري وإنـي لصـادق ... أداء عـراني من حبـابك أم سحـر
فإن كان سحراً فاعذريني على الهوى ... وإن كـان داء غيـره فلك العـذر (٢)

ولـه أيضـاً:

إذا المرء لم يطلب مـعـاشـاً لنفسـه ... شكا الفقر، أو لام الصديق فـأكثرا
وصـار على الأدنين كـلا وأوشـكـت ... صـلات ذوي القـربى له أن تنكرا
فـسر في بلاد الله والتمس الغنـى ... تعـش ذا يسـار أو تموت فـتـعـذرا
ومـا يدرك الحاجات من حيث تبتغي ... مـن الناس إلا من أجـد وشـمـرا
ولا ترض من عـيش بدون، ولا تنم ... وكيف ينام الليل من كان معسرا (٣)

وقال يرثي يزيد بن عمر بن هبيرة بعد أن قتله الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور:

ألا إن عـينـاً لم تجـد يـوم واسـط ... عليك بجـاري دمـعـهـا لجمـود
عـشـيـة قـام النائحـات وشـقـقـت ... جـيـوب بأيدي مـآتم وخـدود

١- نتف من شعر أبي عطاء ، ص ١٦ .
٢- نفس المصدر ، ص ١٥ .
٣- نفس المصدر ، ص ١٤ .

فإن تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود
فإنك لم تبعد على متعهد بلى كل من تحت التراب بعيد [1]

هكذا كان شعر أبي عطاء صقلته الصحبة، وأثرت فيه البيئة، فنطق بشعر جزل ليس فيه عجمة حتى ليصعب أحياناً على المرء أن يصدق ما أجمعت عليه الكتب التى تناولت سيرته من أنه كان لا يستطيع الإفصاح اذا تكلم، ولولا هذا الإجماع لتساءلنا أكان حقاً هكذا أم ذلك من دس الرواة وكثيراً ما دسوا.

وكما جمع الدكتور بلوش شعر أبي عطاء السندى لَمَّ الدكتور ظهور أحمد شعر أبي العلاء عطاء بن يعقوب اللاهورى الذى مر بك شئ من نثره فى الرسائل، وكان أبو العلاء هذا شاعرا مطبوعاً صاحب مسعود سعد سلمان وشاركه ألمه اذ مر بمحنة وسجن مثلما مر مسعود. لكن جودة شعره مردها إلى علل - بعد كونه مفطوراً على الشعر - أهمها أنه عاش فى العصر العباسي (ت ٤٩١هـ) واطلع على ثقافته ، وكانت اللغة العربية فتية تحكم بسلطة الحكام وتسود بسؤددهم ، تدخل مع سيوفهم إلى كل مكان وصلته تلك السيوف، فإن لم تدخل أقبل الناس عليها فى دارها يتعلمون منها ، ويدرسون فيها فهى اللغة الدولية آنذاك، ولسان القوة العظمى، ومن علل جودة شعره أيضاً عيشه فى غزنة أيام حكم ملوكها وسلاطينها الغزنويون أرجاء واسعة فى فارس والهند فأضحت نبع أدب وثقافة وحضارة يفد إليها الأدباء فينالون المكارم والدراهم ، كانت باريس آسيا آنذاك حيث التقت على أرضها الحضارة العربية بحضارة فارس والهند فتلاقحت حتى أنجبت ، لكن إنجابها كان فى أغلبه فارسياً حفظته لنا دواوين شعراء العصر الغزنوى. ولقد أنجب تلاقح الحضارات فى العصر الغزنوى أيضا بنات أدبية جميلة عند الهمدانى والبيرونى والخوارزمى ومسعود سعد سلمان وطبقة الشعراء المعروفين بشعراء اللسانين العربى والفارسى.

وقد حكم العرب آنذاك على شعر أبى العلاء اللاهورى حكماً تمثل فى ما نقله الدكتور ظهور فى كتابه عن القاضى معين الدين محمد بن محمود الغزنوى من أن

١- نفس المصدر ، ص ١٢ .

ديوان أبى العلاء العربى كان يشترى فى مصر «بمائتين من الحمر الراقصات على الظفر». (١)

قال أبو العلاء يذكر أصدقاءه وأحبته الذين فرق الدهر بينه وبينهم :

الله جار عصابة ودعتهم — والدمع يهمى والفؤاد يهيم
قد كان دهرى جنة فى ظلهم — ساروا فأضحى الدهر وهو جحيم
كانوا غيوث سماحة وتكرم — فاليوم بعدهم الجفون غيوم
رحلوا على رغمى ولكن حبهم — بين الفؤاد المستهام مقيم
قد خانهم صرف الزمان لأنهم — كانوا كراماً والزمان لئيم!!
طلقت لذاتى ثلاثاً بعدهم — حتى يعود العقد وهو نظيم
الله -حيث تحملوا- جار لهم — والأمن دار والسرور نديم
والعيش غض والمناهل عذبة — والجو طلق والرياح نسيم (٢)

وتشاءم أبو العلاء مرة من الياسمين فقال :

إليك الياسمين الغض عنى — إليك فإن فيه شر فال
فنصف منه يأس من وصال — ونصف منه مين من خيال (٣)

وكان شعراء عصره يهدون اليه قصائدهم ويتقربون إليه فخراً، قال رداً على قصيدة أرسلها له صديق وأعجبته :

نظمك المعجز المبارك فال — قد سقانا من عينه سلسالا
فروينا وما روينا ولك — قد شفينا به القلوب النهالا
واجتبينا لآلى العقد منه — واجتنينا السعود والإقبالا
رق لفظا فقيل خمر حرام — راق معنى فخيل سحراً حلالا (٤)

١- أبو العلاء اللاهورى ، الدكتور ظهور أحمد ، ص ٦٥ ، دار الرفاعى ، جدة ، بدون تاريخ .
٢- أبو العلاء اللاهورى ، ص ٧١
٣- نفس المصدر ، ص ٦٦
٤- نفس المصدر ، ص ٦٦-٦٧

وكان أيضاً بطلاً مغواراً إذا استجاب لنداء الصنائع والزخارف التى اشتهر بها الشعر الفارسي فمن شعره فى هذا الضرب :

يا ظبية سلت ظبى من جفنها ... تفرى بها أعناق أساد الورى
ما كنت أدرى قبل جفنك أن أجـ ... ـفان الظباء تكون أجفان الظبى [1]

ومن شعره الرقيق فى المديح قوله :

أيا من رآه البد ... ر ظل لوجهه يسجد
ويا من غيم نائله ... يجود لنا ولا يرعد
ويا من فضله يدنو ... ولكن وصفه يبعد
أتذكرنى إذا تخلو : ... «ومالى لا أرى الهدهد» [2]

ومن أسف أن ضاع ديوان أبى العلاء فلا نجده، وربما وجد مخطوطاً بمصر أو مطبوعاً لكنه بالتأكيد غير موجود فى شبه القارة. ورغم هذه الرقة وجودة السبك اقتصرت موضوعات شعر أبى العلاء على المديح والرثاء والغزل والزهد والهجاء. وقد عفا الزمن على قصدية له دالية يعارض فيها قصيدة الأعشى الكبير الذى قال فيها: « ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا » لكننا لم نجد من دالية أبى العلاء سوى بضعة أبيات قال فيها:

أأعبد للدنيا الدنيئة أعبدا ... وفضل إلهى ماج كالبحر مزبدا
عطاء حبانا لا يحيط بعده ... حساب (عطاء) ألف عام مرددا [3]

ونحن ان كنا التزمنا بذكر أصحاب الدواوين والمجموعات هنا دون غيرهم إلا أنه لا يليق بباحث أن يغفل من هذه المدرسة عمداء أخرين كمسعود سعد سلمان وخسرو الدهلوى. ومن حقهما علينا أن نذكرهما فى هذا السياق ونذكر شعرهما الذى فى أيدينا،

١- نفس المصدر ، ص ٦٨.
٢- نفس المصدر ، ص ٦٩.
٣- نفس المصدر ، ص ٧٠ .

فمسعود سعد سلمان (ت٥١٥هـ) مر بك فى باب التجديد بعض كلامه، وكان صديقاً لأبى العلاء اللاهورى وبين الاثنين مساجلات ومطارحات، وقد كان له ديوان شعر عربى لم تحفظ لنا بطون الكتب منه إلا بضعة أبيات فى وصف طول الليل فيها تورية، يقول :

وليل كأن الشمس ضلت ممرها ... وليس لها نحو المشارق مرجع
نظرت إليه والظلام كأنه ... على العين غربان من الجو وقع
فقلت لقلبى طال ليلى وليس لى ... من الهم منجاة وفى الصبر مفزع
أرى ذنب السرحان فى الجو ساطعاً ... فهل ممكن أن الغزالة تطلع؟ [(١)]!

وله أيضاً بيت فى حسن المطلع يقول فيه :

ثق بالحسام فعهده ميمون ... أبداً، وقل للنصر كن فيكون [(٢)]

وأما الأمير خسرو الدهلوى المتوفى ٧٢٥هـ فكان إماماً فى الشعر الفارسى وبلاغته يعرف قدره أهل اللغة، وكان ذا حس وذوق فى الشعر العربى كذلك لكنه لم يترك لنا شيئا يذكر أو لعله ترك ولكن أيدى الزمان امتدت إليه كما امتدت إلى كثير غيره، يقول فى أبيات له :

ذاب الفؤاد وسال من عينى الدم ... وحكى الدوامع كل ما أنا أكتم
وإذا أبحت لدى الورى كرب النوى ... تبكى الأحبة والأعادى ترحم
يا عاذل العشاق دعنى باكياً ... إن السكون على المحب محرم
من بات مثلى فهو يدرى حالتى ... طول الليالى كيف بات متيم[(٣)]

هذه النماذج التى قرأتها حتى الآن تمثل المذهب الفنى للشعر العربى فى شبه القارة حتى القرن السابع الهجرى، ولعلك لاحظت كيف بدأ هذا المذهب ينتقل رويداً رويداً جهة

١- أبو العلاء اللاهورى ، ص ٤٦
٢- أبو العلاء اللاهورى ، ص ٤٦
٣- نزهة الخواطر ، الترجمة الأردية ٦٣/٢، باكستان ١٩٦٥م.

الصنعة كلما اضمحلت مراكز الحضارة عند العرب وبرزت مراكزها فى أرض فارس ومنها إلى شبه القارة . وكأن الشعر العربى فى مسيرته زحف من بلاد العرب إلى فارس ثم منها إلى شبه القارة بعد تحويره واكسابه ما لم يكن فيه عبر العصور والأمزجة والأقاليم فارتفع وانخفض وسخن وبرد ، وزحف على الأرض وحلق فى السماء إلى أن وصل إلى شبه القارة وقد تغيرت بشرته، وذبل جلده، وربما تورمت قسماته من كثرة الصنعة والتزويق بعد أن عملت فيه العوامل المختلفة، والحضارات المتباينة. ولقد كان من المظنون أن شعراً قطع هذه المسافة الطويلة ومر بكل تلك التجارب المضنية أن يشتد عوده، وتقوى عضلاته ويعلو الشيب عوارضه فيزينه، وتشذب العوامل الحضارية والثقافية والبيئية ما فيه من شذوذ ونتوء، لكن ذلك لم يحدث فإذا بهذا الشعر فى معظمه هيكل هش شكله عربى ومشاعره هندية وأدوات تجميله فارسية.

وننتقل بعد هذا إلى دواوين أخرى، وليس فى مقدورنا حصر جميع أصحاب الدواوين فى شبه القارة كما أن هناك شعراء بارزين مثل أبى الفيض بن المبارك وعبد القادر بن أبى محمد الأجينى ومهدى بن نورروز وغيرهم لهم دواوين ولم نعثر عليها، ولم نجد أمثلة منها كافية، لأجل ذلك اقتصرنا هنا على أهم المهمين منهم قدر المستطاع ورتبناهم ترتيباً صاعداً باعتبار سنى وفاتهم بعد خسرو الدهلوى حتى يسهل الأمر على من أراد تتبع السمات الفنية وتطورها التاريخى.

أول هؤلاء الشعراء البارزين شيخ الاسلام ولى الله الدهلوى الذى اشتهر بكتبه فى العلوم الاسلامية والعقيدة، وقد توفى فى ١١٧٦هـ وترك لنا ديوانا جمعه ولداه عبد العزيز ورفيع الدين من بعده ونقلت لنا كتب الطبقات منه قصيدة شهيرة فى مائة بيت وستة قال فيها :

كأن نجوما أومضت فى الغياهب ... عيون الأفاعى أو رؤوس العقارب

إذا كان قلب المرء فى الأمر خاثراً ... فأضيق من تسعين رحب السباسب

وتشغلنى عنى وعن كل راحتى ... مصائب تقفو مثلها فى المصائب

اذا ما أتتنى أزمة مدلهمة ... تحيط بنفسى من جميع جوانب

تطلبت هل من ناصر أو مساعد ... ألوذ به من خوف سوء العواقب
فلست أرى إلا الحبيب محمداً ... رسول إله الخلق جم المناقب
ومعتصم المكروب في كل غمرة ... ومنتجع الغفران من كل هائب
ملاذ عباد الله ملجأ خوفهم ... إذا جاء يوم فيه شيب الذوائب
اذا ما أتوا نوحا وموسى وآدما ... وقد هالهم إبصار تلك الصعائب
فما كان يغنى عنهم عند هذه ... نبى ولم يظفرهم بالمآرب
هناك رسول الله ينجو لربه ... شفيعا وفتاحا لباب المواهب
فيرجع مسروراً بنيل طلابه ... أصاب من الرحمن أعلى المراتب
سلالة اسماعيل والعرق نازع ... وأشرف بيت من لؤى بن غالب
بشارة عيسى والذى عنه عبروا ... بشدة بأس بالضحوك المحارب
ومن أخبروا عنه بأن ليس خلقه ... بفظ وفى الأسواق ليس بصاخب
ودعوة ابراهيم عند بنائه ... بمكة بيتاً فيه نيل الرغائب
جميل المحيا أبيض الوجه ربعة ... جليل كراديس أزج الحواجب
صبيح مليح أدعج العين أشكل ... فصيح له الإعجام ليس بشائب
وأحسن خلق الله خلقاً وخلقة ... وأنفعهم للناس عند النوائب
وأجود خلق الله صدرا ونائلاً ... وأبسطهم كفاً على كل طالب
وأعظم حُرّ للمعالى نهوضه ... إلى المجد سام للعظائم خاطب
ترى أشجع الفرسان لاذ بظهره ... إذا احمر بأس فى بئيس المواجب (١)

وليس بغريب على ولى الله ذى الباع فى العرفان والتصوف أن يقطر شعره حباً ومدحاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما فى هذه القصيدة التى هى خير مثال لشعره.

١- نزهة الخواطر : ٦ / ٤١٠ - ٤١٥.

ونعود الى آزاد المتوفى عام ١٢٠٠هـ فكثرة إنتاجه - أيا كان - تجعلنا نذكره فى كل مكان فله سبعة دواوين طبع منها الثلاثة الأولى وتوجد نسخة خطية منها كلها بمكتبة صديق حسن بمدينة لكنو بالهند [١] وله تحفة الثقلين ديوان آخر ومثنوى مظهر البركات وقصيدة مرآة الجمال التى مر بك ذكرها، وديوانان آخران الأول منه نسخة بمكتبة عارف بك بالمدينة والثانى توجد نسخة منه بمكتبة عليكره بالهند [٢] وقصائد بديعية سنمر عليها مرة أخرى. وبين أيدينا مختار من الدواوين السبعة الأولى نقلنا لك منه نماذج فيما مضى وستمر بك نماذج أخرى فى أبواب أخرى، وننقل لك هنا نموذجا آخر من شعره، يقول فيه :

مولاى حزنت فى هواكا ... من يكشف غمتى سواكا
ألفيتك فى الضياء شمساً ... يذرى العبرات من يراكا
والله لقد أهنت ضيفاً ... من ينزل بعده حماكا
يزداد ضناى كل آن ... حتام أذوب فى نواكا
هل تقبل فى كراى ليلاً ... أو تطلبنى إلى كراكا
شكراً لك أن رفعت قدرى ... مالى شركاء فى جفاكا
لو لم تك ساكنا بقلبى ... آنا لجعلته فداكا
أهلاً بك سيدى وسهلاً ... أهديت لمقلتى سناكا
أقبلت على مستعداً ... أن تغرق فى دمى ظباكا

إن ذقت الموت لا أبال
حياك الله ذو الجلال

١- حركة التأليف، ١٣٢.

٢- نفس المصدر، ص : ١٣٥.

لا تعــرف فى الهــوى مكانــى العــاشق شــاهر الحســان
إيـاك وأن تضـــيع قلبـــى هذا لك أحـســن المعـــان
نبنـــان لمقلتـــى مليـــحاً لكنـــك فـتنـــة الـــزمـان
أنـس لك بالكـــتـاب لكـــن لا تقـــرأ غـــيـــر لن ترانى
آنســـتك فى الظـــلام نـــاراً توذى الخـــضـــراء بالدخـان
لـــو لم تـــك ســالبـاً لعـقلى مـــا كنت رضـــيـــت بالهــوان
أنـــى لــك فى الجـــمـال مـثـل أنى لك فى الجـــفــــاء ثـــان
فى شـتـــمك للمـحـــب عـز يشـريه بقـيـمـة الجـمـــان
أحلى وألذ فى مـــذاقـــى إهراق دمـــى مـن الأمـــان
إن ذقـــت المـــوت لا أبـــال
حـيـاك اللـــه ذو الجـــلال

مـــا يفـعـــل بـــى يد الغــرام لا كـــان نضـــيب ذى هيـــام
شـــمع أنـــا فـــى الدجى مـضئ لا يـــتـــرك لاعـــج عـظامى
فـــى عـــينى وابــل مـــلث فـــى قلبى شـعلة الضـــرام
عـرجـــت بقـــاعـــة حـــزيناً لا مـــونس لى سوى الحـــمـــام
مـــن غـــادر طرفـــه مـريضـاً هـــل يبـرئنـــى مـــن السـقــام
هـــل ينظر بالحـــمـــى قــعـودى مـــن يكـــره أن يـــرى قـــيــامى
مـــا شـــأنك يا غـــزال سـلمى لا تـــرســـل عـــتـــزة الســلام
أدعـــوك إلـى فـــاســتـــجـبنى أمـــسك بطـــريقـــة الكـــرام
بـــى أنـــت تنـام مـسـتـريحاً فـــى آن أنـــام فـــى الرغـــام
إن ذقـــت المـــوت لا أبـــال
حياك اللـــه ذو الجـــلال (١)

١- مختار ديوان آزاد، ص ٩٩ - ١٠٦.

وقد مر بك رأينا ورأى غيرنا فى هذا الكلام الذى هيهات أن يطرب له عربى، ومع ذلك فقد واصل آزاد مدح أشعاره كما تنظف الهرة نفسها بلسانها، وفيما قلناه كفاية لك تمنع عن التكرار. ولقد ذكرت بعض المراجع قطعاً من شعره الذى لم يصل إلى أيدينا مطبوعاً كقوله :

أدرك عليلاً لقاء منك يكفيه ... وطرفك الناعس المراض يشفيه
كتمت دائى عن العذال مجتهداً ... ما كنت أدرى نحول الجسم يفشيه
فداونى عن سقام أنت منشأه ... ونجنى من ضرام أنت موريه
لقد ثنى عطفه عن مغرم دلف ... مهفهف ثقل الأرداف يثنيه
رعى الإله سقامى لو يعالج من ... أحببته بدواء الخمر من فيه
وحبذا العيش لو يمشى على مقلى ... غصن رطيب من العينين أسقيه
شأن المحب عجيب فى صبابته ... الهجر يقتله والوصل يحييه
لولاه ما شاقه عرف الصبا سحراً ... ولم يكن بارق الظلماء يشجيه
يا جارة هيجت بالنصح لوعته ... بحق مقلته العبراء خليه
إليك يا رشأ الوعساء معذرة ... أأنت عن رشأ البطحاء تسليه
لوائمى قطعت أكبادهن متى ... رأينه فى كمال الحسن والتيه
أيا صواحب أكباد مقطعة ... فذلكن الذى لمتننى فيه
إذا رنا فمهاة البيد تشبهه ... أو ماس فالبانة الخضراء تحكيه
غزالة تصرع الآساد قاطبة ... إلا الذى سيد السادات يحميه
كهف الأنام إمام الكون أكرمه ... عون الذى حادث الأيام يرميه
السيد المقتدى عبد الجليل له ... مجد أثيل من الآباء يحويه
جدى ملاذى وأستاذى ومستندى ... رب الورى بصنوف الخير يجزيه (١)

١- نزهة الخواطر : ٦ / ٢٠٦ - ٢٠٧، سبحة المرجان : ١/ ٢١٤ - ٢١٥.

إلى آخر ما قال .... فأبيات هذه القصيدة كما ترى فيها لون غير ما مر بك، كما في بعضها رقة وإنما ذلك لأن آزاد هنا لا يبارى أحداً ولا يتأستذ على غيره بل يرثى جده السيد عبد الجليل البلكرامي، وليت آزاد استمر على هذا النهج وطوره وحسنه . انظر اليه فى موضع آخر حين يقول :

برق أضاء من الزوراء يشجينى	يارب ما باله يبكى ويبكينى
أنى لسان يؤدى شكر أنعمه	بالماء والنار يروينى ويورينى
هويت حسناء أسعى فى إراحتها	وتلك فى غاية الإيذاء تؤذينى
لا يذهب الغل ماء المزن من كبدى	بل ماء ياقوتة اللمياء يروينى
تدور فى مقلتى أيام لقيتها	هل ما مضى من زمان العمر يأتينى
طيف الذى قتلتنى يوم ذى سلم	إن جاءنى فى منام الموت يحيينى
لا أبتغى أن ترانى ملء مقلتها	لحظ قليل من العينين يكفينى
ما لاح منى قصور فى محبتها	بأى ذنب وقاها الله تقلينى
تكف عنى بين الناس مقولها	لكنها برموز العين تسلينى
إنى لشمع قبيل الصبح محتضر	ما سرعة الأجل الموعود تبقينى
تبكى وتذكرنى بعد الوفاة فهل	بكاؤها بعد ما ثويت يجدينى (١)

هذه الأبيات فيها نكهة شعر غير شعره المتكلف المصنوع، ولو جاء آزاد بماء البحر - وهو أغزر وأكثر - بدلا من ماء المزن لإطفاء غله لكان أفضل وبقية الأخيلة فى القطعة معادة مكررة كما تعلم.

ومن أشهر أصحاب الدواوين باقر بن مرتضى المدراسى المتوفى سنة ١٢٢٠هـ ، وقد مر بك أن له قصائد عشراً على غرار المعلقات اسمها العشرة الطيبة، وله كذلك ديوان فى الغزل والنسيب وله مقامات على نهج مقامات الحريرى بعنوان الشمامة الكافورية، وله رسائل على نهج رسائل الهمدانى (٢)

١- نزهة الخواطر : ٦ / ٢٠٧.

٢- الثقافة الإسلامية، ص ٤٧، نزهة الخواطر، ٧/ ٩٤.

ومن أسف أننا لم نعثر له على شئ من إنتاجه هذا، مع اعتقادنا أنه انتاج يستحق الدراسة المتأنية لما وجدنا فى لمحة قصيرة عشناها مع بعض شعره من محاولة اكتملت فنيا، ونحتاج الى نماذج كثيرة منها لتعيننا على تقييمها تقييماً منصفاً. فقد نقل عنه عبد الحى اللكنوى فى نزهة الخواطر قطعتين فقط تكشفان عن محاولة جادة للنظم بالعربية فى قالب الغزل. يقول باقر المدراسى :

قد صيرنى الهوى جذاذاً ... يا ليتنى مت قبل هذا
ما أفعل لم أجد لآهى ... فى صخر فؤادها نفاذا
فى فرعك قد خفيت لكن ... من طرفك لا أرى ملاذا
أربيت على الحديد طبعاً ... بالقطع وإن حكيت لاذا
إن كنت رضيت عن صدودى ... أدركت من النوى لذاذا
ألفيت هواك صفو عمرى ... أبغيه وإن عدا وآذى
آكاه إذا هراق دمعاً ... أغمضت وخلته رذاذا

ويبدو أنه كان يتخلص بآكاه كما فى آخر هذه الأبيات والتى تليها، كما أن تأثير الأدبين الفارسى والأردى واضح فى شعره فكلتا القطعتين نموذج كامل للغزليات التى تشكل أساس الشعر فى هذين الأدبين. ويمكن إضافة هذه المحاولات الى محاولات التجديد التى تحدثنا عنها. يقول الشاعر فى قطعة أخرى :

فى كاظمة أو ذى سلم ... قد ضل فؤادى بالسدم
كالريح يجول بسرحه ... كالنار يلوح على علم
بالمدمع يحكى غاديه ... بالزفرة يشبه بالضرم
قد أبصر فيها بهكنة ... بالنجم رزت بالمتبسم
لو واجه غرتها شمس ... لغدت أسفا رهن الندم
لو شافه طرتها قمر ... لتحير فى جنح الظلم
لله قساوة مهجتها ... لا تحسب كالحناء دمى

مـــرت وأصـــارتنى جنفـــاً كـــالأثر طريحـــاً فى اللقم
لا أدرى أيـــن محلتهـــا فبقـيت حسيـراً كـالوجم
لا تنظـــر قــط إلـــى أسـفى لا تسـأل حـالـى فى الألم
آكـــاه تناهـــت حيـرتـــه أدركـــه إلهـــى بالكـــرم

وله قصيدة عارض بهاء الدين محسن العاملى وأحمد بن محمد الشروانى اليمنى كما قال عبد الحى اللكنوى فى النزهة. (١)

ومن أشعر شعراء عصره الشيخ فيض أحمد البدايونى (ت ١٣٧٤هـ) كان له ديوان قال عبد الحى اللكنوى إنه رآه وكان كله فى مدح الشيخ عبد القادر الجيلانى صاحب الطريقة المعروفة، ثم نقل عنه هذه الأبيات:

لا يفـزعنك أنواء وسـاعـــات ولا يهمنك أيـــام وليـــلات
ولا تظن لنجم سـعـداً أو نحسـاً فـإنهـا لـوجود الحق آيات
ولا تعلق بهجو الدهر والشـهـر فـإنما هـى أوقـات وآنــات
وناد شـيخك واستشفع به عجلا ولا تؤخـر ففى التأخيـر آيات
تبـارك الله لا سكر ولا صحــو فـإنـه من كـؤوس الوصل نشـوات
وجمع جمع وجمع الفرق والجمع له عن اللـــه أحـوال عليـات
ومن يعاديه تلك النار موعـده حـيـاتـه موتـه والحى حيـات
رأى الإله بعين الحق موجـوداً وليـس طور ولا شـرط وميـقـات
حوجاً لمن كان محتـاجاً ونـاداه فليس يبقى له فى الدهر حاجات
بكل حين وآن ذكـــره فـــرض لا كـالصلاة لها شرط وأوقـات
نـور من الله فى الآفـاق منتشر مصباحه صبحه والشمس مشكاة
ملك السمـــاوات أجرام منورة يحملن أنواره فهى الزجاجات (١)

١- نزهة الخواطر، ٧/ ٩٧.
٢- نزهة الخواطر : ٧/ ٣٩٠ - ٣٩١.

وممن لهم دواوين أيضاً السيد حيدر علي الرضوى (ت ١٣٠٢هـ) وكان من مجتهدى الشيعة ذكر عبد الحى اللكنوى أن له أيضاً مجموعاً فى الإنشاء العربى، ثم ذكر نموذجاً واحداً من شعره وهو جزء من قصيدة بعث بها إلى المفتى محمد عباس التسترى يقول فيها:

أسرت بسجن البعد فى دار غربة بـه رق لـى إنسان عينى باكيا
أقلب جنبى فى المضاجع كربة بدمع سكيب أحمر اللون قانيا
أحس بصدرى نار وجد تأججت نوائرها قد كاد تحرق باليا
ولكن جرى العين كالعين فى النوى لأطفى ضراماً أوقدت بفؤاديا
وكلت الى الله أمورى جميعها رضيت به فليقض ما كان قاضيا
كفانى دنوى من مراحمه وإن أبت بقلى دهرى عن الأهل نائيا
وثوقى بمن عم البرايا نواله ويدنو الى من قد نأى عنه عاصيا
فربى كفيلى فى رجائى وشدتى يجيب دعائى لا يخيب راجيا
ألا دمت للدين المبين مؤيداً مدى يبتغى أهل الوداد التلاقيا
بمن حبهم فرض على كل عاقل وذكرهم الأسنى يزين النواديا
عليهم سلام الله ما طار طائر فلاذ بأغصان الحدائق شاديا(١)

ولعل أشهر أصحاب الدواوين فى شبه القارة هو فيض الحسن السهارنبورى الذى مر بك ذكره وقد توفى سنة ١٣٠٤هـ وترك كثيراً من المؤلفات الأدبية العربية منها شروح على المعلقات وديوان الحماسة وسيأتى ذكره مرة أخرى فى باب شروح الشعر. ولقد كان السهارنبورى أستاذاً للغة العربية عاشها كأديب واستخدمها للتعبير عن أحاسيسه لا كوسيلة لتحصيل العلوم الدينية. وكان فى ذاته مدرسة أدبية تتلمذ على يديه جيل من الشعراء كالفراهى والروحى وغيرهما، ولم نجد ممن جاد شعرهم أحداً إلا وتتلمذ عليه أو تأثر به او استفاد منه بعد وفاته. ومن حسن حظنا أن ديوانه بين أيدينا ومع كثرة ما به من أخطاء وقعت من الناسخ الا أننا نستطيع اكتشاف هذه الأغلاط فى أكثر الأحوال.

١- نفس المصدر، ٨/ ١٣٠.

ونحن في ديوان الفيض - كما سماه صاحبه - نجد شاعراً انساناً يخطئ ويعترف بخطئه ويؤوب ويتوب ويكثر لهذا من المدائح النبوية ويستغفر ربه. يقول في قصيدة يمدح فيها النبي (ﷺ) :

بليت ولم يكد يبلى شبابي ... فنيت ولم يزل عني حبابي
أحب نواعماً وأحيد عما ... يراد فلا أحيد عن التصابي
ألاعبهن ثم أبيت ليلى ... على لهو بجارية كعاب
أقبل ثم أرشف مستلذاً ... وما شئ ألذ من الرضاب
أطيب بها وكيف أطيب عنها ... على وجدي وما أدراك ما بي
وحور قد خلوت بها خلياً ... نشيطاً بات في طيب وطاب
فعدت تقول لي لا زلت حياً ... ولا سلمت ثيابك من ثيابي
لهوت وما صحوت وعدت ألهو ... ولا ألهو وقد صفرت وطابي
فهل داء كدائي إذ عراني ... وهل قلب كقلبي إذ طحا بي
طحا بي قلب صب مستهام ... شديد الوجد مبتول مصاب
هوت أمي هويت الى حسان ... فدأبي حبهن وبئس دابي
وأصطاد الظباء ولا أبالي ... وقد ناب البلى ظفري ونابي
وما كاذبت نفسي مذ تمنت ... وليت الصدق لي في ذا الكذاب
لعمرك طالما أوجفت فيها ... فلا خيلي نفدن ولا ركابي
أراني غير صاحِ عن هواها ... فأني أوبتي ومتى متابي
فلا أنا أبتغي مرضاة ربي ... ولا أنا أتقي يوم الحساب
فان لم يهدني ربي ويرحم ... رسول الله يدركني عذابي [1]

١- ديوان الفيض : ص ٧.

ثم يتحول بهذا البيت الى مدح الرسول واستغفار ربه مما فعل. ولقد نظم السهارنبوري رحمه الله في موضوعات لم ينظم قبله فيها أحد من أدباء العربية في شبه القارة في علمنا مما يجعلنا نعتقد أنه أول من جدد في الموضوعات وتعامل مع الشعر والأدب من حيث هما كذلك. استمع اليه وقد أصيب بعرق النسا ووجع الأذن فيقول :

داء عراني فلا رجلي ولا راسي ... ولا طبيب يداويني ولا آسي
وضارني مذ عراني وهو ملتصق ... ما لم يضرني عدو قلبه قاسي
قد كنت أمشي وظهر الأرض يحملني ... ومركبي اليوم فيها كاهل الناس
لقد ضعفت وما ضعفي بمنتقص ... حتى تغير إحساسي بأنفاسي
لا أستطيع ركوب الظهر مستوياً ... فلا أبالي بآبالي وأفراسي
ولي سهاد سليم بات في قلق ... شدت جفوني إلى فوق بأمراس
كأن أنجم ليلي وهي راكدة ... قوم ضعاف بفلك راكد راسي
قد كنت أشرب اذ ما كان بي مرض ... واذ مرضت فلا خمري ولاكاسي
لو كان مابي من كرب ومن قلق ... برأس طود سرى في أصله الراسي
ويل لأمك يا لاهور من بلد ... أوهى عظامي وإني طاعم كاس
لا خير فيك ولا جدوى فأنت لنا ... سجن وويلك من سجن على الناس
وتلك أرض على أن قد مرضت بها ... بليت فيها بأنذال وأنكاس
فسوف أظعن منها غير مكترث ... لا مخطئ أنا في أمري ولا ناسي
ماذا أؤمل منها بعد ما ضعفت ... قواي فيها وإن لم يقو إفلاسي
ولا يبالي الفتى بالمال مكترثاً ... بالنفس والمال أقصى مطمع الناس
قد يصبر المرء عن مال يضار به ... فما على بصبري عنه من بأس
ينظرن شزراً الى اليوم من كبر ... وطالما كن في بيتي كأحلاس
مضى الشباب وخانتك الحسان فدع ... عنك الحسان وكن منها على يأس
وتب إلى الله واستغفر لما كسبت ... يداك، واصبر على مسح وكرياس[1]

١- ديوان الفيض : ص ٢٦ - ٢٧.

ويتوسل بالنبي في خمسة أبيات تالية أنهى بها القصيدة. ولعلك ترى معي أن الشاعر لا يستطيع أن يصف مشاعره وهو مريض به وجع شديد إلا إذا كان حس اللغة قد تمكن من مشاعره.

على أن أزمة السهارنبوري النفسية تبدو واضحة في كثير من الأبيات، وهي أزمة رجل كان في عز ورغد وسط ديار تربى بها، لها من التقاليد المختلفة والحضارة المهذبة، ثم انتقل الى بلدة تختلف في ناسها وطبائعهم وحضارتهم وعاداتهم وأخلاقهم، فدلهي حاضرة الحضارة الهندية في زمن المسلمين كانت - وما زالت - تختلف عن لاهور قلب البنجاب، وأهل دلهي ولكنو أهل آداب و«اتكيت» وذوق يختلفون في هذا عن أهل البنجاب. وواضح من الديوان أن السهارنبوري لم يستطع التكيف مع البيئة الجديدة ولا مع ناسها. قال يهجو لاهور وأهلها:

لقد حللت على بالي وبلبالي ... ببلدة ما بها عمي ولا خالي
ببلدة لا ترى فيها فتى كملت ... جيرانه وجليساً ناعم البال
ببلدة قد خلت عن كل مكرمة ... وهل سمعتم بمصر فارغ خال
ببلدة ما بها مجد ومأثرة ... وما بها من كريم النفس مفضال
إلا كلاب وثيران وأحمرة ... ومن يماثلنا من دون أمثال
ويلمها دار سوء دار منقصة ... سكانها شر أرزال وأنذال
من كل مكتسب للذم مجتلب ... للعار مختلب للناس محتال
وكل خب لئيم خادع غدر ... وهي الفعال سخيف القول بطال
قوم لهم كل مخزاة ومنقصة ... وكل ذم وعار خلف أذلال
تراهم ولهم صدق وليس لهم ... أصل فهم كلهم أنياب أغوال (١)

١- ديوان الفيض : ص ٥٤ - ٥٦.

إلى آخر القصيدة التى تنبئك عن مأساته في لاهور ، وقد عانى فيها الكثير والكثير حتى أن أحد تلاميذه سرق منه كتاباً ونسبه لنفسه فقال يهجوه :

رب خصم مكاشح مغتاظ	جعظرى مستكبر جواظ
عابث عايث مليم ملوم	عائب كاذب بذئ جماظ
باطل القول واهن الفعل واهي الـ	ـرأى مستحسن الخنا لظلاظ
كل ما فيه من شمائل سوء	ناله من جدوده الأوشاظ (١)

إلى آخر ما قال في القصيدة، وكثيراً ما يترك السهارنبورى العنان لقريحته معبرا عن مشاعره بصدق واضح، يقول مثلا :

أنا مدنف منهوك	أنا بائس صعلوك
لكن فى قلبى غنى	لم يحظ منه ملوك
فلن ترانى باكياً	إذا تعبنى ضحوك
قدنى من اللحمان ما	يكفى فمنه ألوك
وملابسى يوم الشتا	ء من الفراء مسوك
طلقتها حسناء إذ	هى ناشز وفروك
واهاً لمن هو تارك	وكم امرئ متروك
ولقد عمرت يخافنى	حامى الذمار نهوك
قاتلتهم حتى علا	سيفى دم مسفوك
وكان لى سيف ونهـ	ـد هيكل محبوك
أغدو به من قبل أن	كانت تصوت ديوك
وأشك بالرمح المثقف	من له فيها شكوك
قد كان لى ما كان إذ	كان الشباب يحوك

١- ديوان الفيض، ص ٣٧.

لكن أرى شمسي تغيب إذا استقام دلوك
وأنى الحمام وحان أن تسفي علي سهوك
وأبيت في بيت مخوف حوله مافوك
أشكو صداعاً موجعاً كالشوك حين يشوك (١)

ويقول في قصيدة أخرى يصف فيها حاله :

أشكو إلى الله بيض الناعمات غدا مما فعلن بأمثالي وأشباهي
لي صاحب من فؤادي لا يفارقه حب النواعم دون المال والجاه
ينهى عن الخير والحسنى ويأمرني بالسوء ويل له من آمر ناه
قد ضقت ذرعاً وصدري من حريق هوى يغلي كما بات يغلي مرجا الطاهي
حب النواعم داء لا دواء له وقد تعيا به ذو فطنة واه (٢)

ولقد رثى السهارنبوري كثيراً من رفاقه وشيوخه ، ومن أشهر قصائده في هذا الميدان مرثيته في وفاة أستاذه فضل الحق الخيرآبادي التي يقول فيها:

عمي دار سلمى فاسلمي ثمة اسلمي وإن لم تحيريني وإن لم تكلمي
سقاك غواد ما بقيت هواطل وآخر دعوانا انعمي ثمة انعمي
عفاك البلى حتى نكرناك بعدما عرفت ولم نعرفك قبل التوهم
كأن لم يكن عهد لنا بك سابقاً ولم نك يوماً فيك نلهو ونرتمي
كأن لم يكن فيك اصطفاق مزاهر ولم تسقنا كاساتها ذات مبسم
ولما تبسم عن اقاح منور ولما تمس فينا بكشح مهضم
كأن قينة عزافة لم تغننا ولم تلهنا عنا بحسن الترنم
فيالك من دار عفتها روامس ولو كان فيها أهلها لم تهدم

١- ديوان الفيض : ص ٥٠ - ٥١.

٢- ديوان الفيض : ص ٧٤ - ٧٥.

على رحبها كانت تضيق إذا انتجى بها الناس لا يبقى بها وضع سمسم
تذكرنا والذكر نار ذكية ليالى كنا فى بدور وأنجم
خوت فعفت من كل طل ووابل إذا جاد لم يقصر ولم يتصرم
فعادت كأن لم تغن فينا نواعم حسان سمان من أولات التنعم
نقضن عهوداً لى عليها شواهد فرحن فمن يرثى لصب متيم (١)

فهذه النماذج من شعر مولانا الشيخ السهارنبورى تبعث فى نفوسنا طعماً آخر غير ذاك الطعم الذى ذقناه فى النماذج السالفة، ففى شعر السهارنبورى سهولة وجدة وتلقائية وخفة ظل لازمت تعبير الشاعر عن نفسه ومشاعره فى المواقف المختلفة، حزناً وفرحا، جداً وهزلاً.

أما إمام التزيين والتزويق المفتى محمد عباس التسترى فكان له أيضاً ديوان بعنوان رطب العرب كما له رسائل وقد مر بك بعض ذلك، وسنمر عليه مرة أخرى عندما نتحدث عن نظم العلوم، وقد ذكرت المراجع نماذج قليلة من ديوانه المطبوع. يقول التسترى المتوفى ١٣٠٦هـ :

ألا يا طالبى كنز الكمال أقلوا النوم فى دهم الليالى
وخوضوا فى بحار الفكر خوضا لكى تستخرجوا منها اللآلى
وكونوا قانعين بما تأتى من الأرزاق بالوجه الحلال
ومهما أشكلت شبه عليكم فلا تستنكفن من السؤال
فإن عاتبكم السفهاء جهلاً فلا تأسوا على قيل وقال
وإن حسنت بكم منهم ظنون فلا تستحسنوا خفق النعال
ولا تؤذوا معلمكم بقول وفعل فيه شائبة الملال
وغضوا عن مساويه عيوناً ولا تخفوا محاسنه بحال

١- ديوان الفيض : ص ٦٣ - ٦٥.

عليكم بالتأمل في حديث الـ ... حقوق فقد رواه في الأمالي
إلى كم تفخرون بما تعبتم ... وكم تستكثرون من الجدال
وفيكم من له سبق عليك ... إلى كسب المعارف والمعالي
لقد أتعبت في الليلات نفسي ... إلى أن صار قدي كالهلال
وكم جبت الفلا في يوم قيظ ... ليثلج من زلال العلم بالي
فكان الشمس تلفح حر وجهي ... وتغلي أم رأسي بالرمال
وإن قد كنت في بلدي مقيماً ... ولم أحتج إلى شد الرحال
ولكن كان لي فج، عميق ... أشق على من قلل الجبال
لما ربيت في عيش رغيد ... أليفاً بالمرابع والظلال
وكم من ليلة أسهرتها في ... مطالعة ومن عندي رثى لي
وكنت مماطلاً في حلق رأسي ... لما قد كان فيه من اشتغال
ويعجبني الرغيف بلا ائتدام ... أقوت بذاك من بعد المطال
فقت على كثير من شيو ... ولم أك بالغاً حد الرجال
وكنت إذا أناظر بعض صحبي ... فما إن كنت أغلظ في المقال
ولم أردد على الاستاذ شيئاً ... ولم أغضبه قط بما بدالي
وكنت أحبه حباً شديداً ... وأوثره على نفسي ومالي
وأقفوا إثره في كل أمر ... لما قد كان محمود الخصال [1]

وهذا النموذج لا يمثل الزخرفة التي ولع بها التستري وإنما هو مقطع سلس من المقاطع التي ينظمها الشعراء للتعبير عن أنفسهم وذواتهم بعيداً عن الكلف بالمحسنات التي كانوا يتبارون فيها. وسنرى فيما سيأتيك في الفصول لنفس الشاعر لوناً مختلفاً عن هذا كل الاختلاف.

١- المنتخب : ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

ولم يبرز فى شعر العشق الالهى أحد مثلما برز طلا محمد البشاوري المتوفى ١٣١٠هـ ، فله ديوان مطبوع بعنوان نشأة الطرب فى أشواق العرب وهو ديوان مشهور لم يقع فى يدنا.وقد امتاز طلا محمد بالنفس الطويل وشعره فى معظمه عشق إلهى رائق، وكانت طبيعته تنفع للمنظومات الطويلة لكنه لم يتجه اليها أو يلتفت. وقد أورد عبد الحي اللكنوى فى ترجمته بعض أشعاره ننقلها عنه. يقول طلا :

راحت سليمى فقلبى اليوم فى قلق ومهجتى من لهيب الوجد فى حرق
علياء فى نسب غيداء فى طرب لمياء فى شنب كحلاء فى الحدق
إذا بدت فى أناس قال قائلهم سبحان من خلق الإنسان من علق
فبارك الله فى حسن إذا طرحت على المناكب فوديها ذوى الحلق
كأنها الصبح فى نور وفودتها سرادق الليل قد سيطت على الفلق
البين أرقنى والوجد أحرقنى والقلب فى دهق والعين فى أرق
كأننى تحت أقدامى لفى جمر لا أستطيع على حال من القلق

ويقول فى قصيدة أخرى :

قاسى بمحمل سلمى وارتقى شجنى وأسقم الهجر فى أشواقها بدنى
أضنى الهوى بنيتى فى العشق يا أسفاً لولا على من الأثواب لم ترنى
فما لجفنى لم ينظر إلى أحد وما لقلبى لم يرغب الى سكنى
قد زاد همى وعيل الصبر أجمعه إذ طافنى طيفها وافتر عن وسنى
فلا أنيس اليه منتهى جذلى ولا صديق إليه مشتكى حزنى

ومن قصيدة أخرى قوله :

قفا برياض الشعب خير المنازل بدمع غزير فى الصبابات سائل
لتبك ربوعا شتت البين أهلها وأقفرها بالقطر تسكاب وابل
منازل حسن لا محا الله رسمها وعمرها عوداً بتلك القبائل

ألماً على آثار ليلى وربعها ... ودار حموها بالرماح الذوابل
فداء لها نفسى وقلبى ومهجتى ... وخالص أموالى وسربى ونائلى
أيا سمرات الحى من أرض حاجر ... سقتكن وسمى الحيا بالهواطل
عهدت بكن الحى فى خير منزل ... فيا طيبه أكرم به من منازل (١)

ومن أصحاب الدواوين البارزين أيضاً عبد المنعم الشاتكامى المتوفى ١٣٣٣هـ، وقد ذكر عبد الحى اللكنوى فى النزهة أن له ديوانا عربيا وساق أمثلة منه كقوله فى المديح :

جرى دمعى المهراق شجواً بمنزل ... رأينا به داراً ترآت كعوكل
وروضاً بهوج الريح صارت غصونه ... أيادى ندب فوق رأس لعيطل
ذكرت بها سلمى أؤمل وصلها ... وكيف الرجا يا قلب لى فى عقنقل
فقلت لعينى سامحينى بعبرة ... فلبت فجاءتنى بدمع مسلسل
رأينا بها عيناً تولت فلم تعد ... كدأبك مذ هاجرتنى لم تحول
فهل بعد صد زورة منك خفية ... تداوى بها قلب الكئيب المذلل
أعينى بسجع يا حمامة ضارعاً ... معنى وقد أعياه نوح التعزل
تراكمت الأحزان والقلب واحد ... تزاحمت الأثقال فى كور مجمل
وما عيش من قد بات يبكى تقطعاً ... بناب جديد أنشبت أم رنقل
وكيف التذاذ الراح ممن تصادمت ... عليه مراز لم يطق صدر أعبل
صعود العلى همى وما كنت خائباً ... تنفس صعدانى ترى غير أسفل
تقبلنى الأيام تقليب قلب ... تحولنى الأحوال تحويل حول
أيا دهر هل لى منك لطف تداركا ... لبلبال بال المستهام المقتل
فإما تدارك أو أشد مراجعا ... زمامى إلى باب النبيل المبجل

١- نزهة الخواطر : ٨/ ١٩٨ - ٢٠٢.

ومن قوله فى المديح النبوى:

إليك رسول الله أهدى ثنائيا ... وأبغى به قرباً وإن كنت نائيا
أقرب نفسى من جنابك سيدى ... عسى أن أرى روحاً على البعد دانيا
عسى تكشف البلوى وكم بك فرجت ... غوائل إذ نوديت أدرك غياثيا
أؤمل منك العطف عطف عواطف ... وإن كنت عما يجلب العطف قاصيا
فإنك شمس يستضاء بنورها ... وما كل شئ يقبس الضوء صافيا
أتيتك أرجو من نوالك رشحة ... وما خاب مستسق أتى البحر صاديا

وله من قصيدة أخرى :

يا ليت لى بمراتع الآرام ... من نزلة تطفى اضطرام غرامى
كانوا الضياء وفارقوا فبقاعهم ... بعد الضياء تبرقعت بظلام
رحلوا وقد رحل الحبيب لظعنهم ... قد خلفوا الأكباد بالآلام
رحلوا وقد سلبوا العقول وأضرموا ... نار الجوى بجوانحى وعظام
لهفى على دار ترى بقطابهم ... قطبت بعيد تهلل بسآم
لا خير فى عيش الفتى وحبيبه ... مستنكر لمودة الأحلام
لاموا المشوق وأشفقوا من حبه ... لضنى به وكآبة وسقام

ومن أصحاب الدواوين أيضاً الأديب الكبير عبد الأول الجونبورى (ت ١٣٣٩هـ) وقد ذكر له صاحب النزهة ديواناً ولم ينقل عنه سوى بضعة أبيات هى قوله :

لعمرك ما الدنيا بذات تودد ... فلا تبغ فيها عيشة قم ومهد
ألم تر أسلافاً مضوا لسبيلهم ... وما أخبروا عن حالهم مثل جلمد
وياتو عن الدنيا وعن دورهم نأوا ... وأنت تلاقيهم فأعرض عن الدد
ولم أر مثل الموت للناس منهلاً ... ويأتى ولو كانوا بقصر مشيد

ألا فاذكرن ضيق القبور ووحشة | وراقب منوناً بالتقى والتزود
ولا تفخرن بالجاه تلق الأسى به | ألا فاعبدن وازهد لنفسك تسعد[1]

ولعلم ترى معى أن معظم موضوعات هذه الدواوين لم تخرج عن الإطار التقليدى من مدح الشيوخ والأساتذة والمدائح النبوية ورثاء الأصدقاء والمعانى الصوفية. وقد مر بك ديوان خفيف أغلبه شعر سياسى نظمه عبد الحميد الفراهى المتوفى ١٣٤٩هـ، واخترنا لك منه نظماً غير سياسى قال فيه :

أما للناس أحلام | أهم فى السكر نوام
وهم وراد حوض المو | ت أصرام فأصرام
فآباء وأبناء | وأخوال وأعمام
وإخوان وخلان | وأخدان وأحلام
فخانتهم قرابات | وأنساب وأرحام
وريب الدهر يبريهم | وتوهى العظم أسقام
فحبل الموت ممدود | وحبل العيش أرمام
وهم باللهو واللذا | ت مشغولون ماداموا
بجمع الوفر منهومو | ن والآثام هيام
لهم بالبغى تهمام | وبالفحشاء إبرام
وهم لا بد محشورو | ن يوماً وهو أيام
عن النعماء مسئولو | ن والسائل علام
سؤالاً فيه إيلام | وإلزام وإفحام
وتفجيع وتقريع | وتخضيع وإرغام[2]

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٣٢ - ٣٣.
٢- ديوان الفراهى : ص ٢ - ٣.

ويتحدث عن القرآن ونوره فيقول :

أو كـل من عشـق استـحق مـلامة ... لا والـذى بيـديـه كـل زمـام
مـالـى ألام على الهـوى وددت لو ... أقـحـمـت فـيـه عـواذلى ولـوامى
أألام فـيــه على الحـمـام وإتننـى ... أحـبـبت لو لاقـيت فـيـه حـمـامى
لـو يعلمـون من الذى أحـبـبـتـه ... مـا لامنى على الهـوى لوامى (١)

وفى يدنا ديوان آخر عنوانه ديوان أحمد وصاحبه أحمد حسين الرسولبورى (ت ١٣٥٩هـ). والديوان منسوخ باليد نسخه قبل طبعه - على ما يبدو - ناسخ لا يعرف شيئاً عن العربية فجاء الديوان مليئاً بالأخطاء والتصحيفات ولقد قرأته مرات لأخرج منه بما يجذبنى أو يجذب القارئ، موضوعات الديوان إما مدائح أو مرثيات أو تقاريظ كتب، وسوء الكتابة جعلنى أتوقف فى الحكم عليه او الاستشهاد بكثير منه ومع ذلك فقد اخترت قصيدة منه خفيفة الموضوع والوزن يقول فيها :

خـرجت فـى الميـدان ... يومـا مـن الأشـجـان
منفـرداً وحـيـداً ... مـتنزهـاً مـزيدا
أسـلو همـوم قلبـى ... تشـبـثت بلبـى
وسـلبت سـرورى ... وأفـلت بـدورى
أبلـت ثـيـاب فكـرى ... وازدحـمـت بنكـرى
ضـاق علـى صـدر ... كـاشـتـاض ظهـرى (كـذا)
أجـرى ركـاب سـيرى ... وأركـض بعـيـرى
مـراتـع الحـيـوان ... بـل بـرح الإنـسـان
نبـاتهـا مـخـضـرة ... وبعـضـهـا محـمـرة (كـذا)
حـصبـاتهـا يـاقـوت ... نـاظـرها مبـهـوت
أشـجـارهـا مـزدحـمـة ... مـسـودة مـرتكمـة
مـصـفـوفـة الصـفوفـا ... لا سـيـمـا الإنسـان

١- نزهة الخواطر ٣١٢/٨ - ٣١٤.

تقـــــــــر للأعـيــــــــان مـهـفـهــــف وكـثـــــة (كــــذا)
نجـومــــــــــه المنبـثــــــة فـــــــــى أوجـــــــه الأنهــــار
منشـــــــــقـــــة الأزهـــــــــار تـــــــزيد فـــــــــى الحـيـــاة
تذكـــــــــــر الجنـــــــــــات والـــــورد فـــى البســــتـــان
شـــــــقــائـق النعـمـــــــان كــأنـــــــه طلــع الســـهـــا
ازداد حـــــــنـاً والبـــــهـــا مـعـجـبـــــة الطــروفــا (كــذا)
أو كــــــوكب فــــوق الســـمـــا فـــى الليـــل لما قــد بدا (كـــذا)
مـــتـــى تهــــب الـــــريح وتخــــــفق الطلــــــــــوح
يميـــــــل مـيـــــل الســـكرى قـضـبـانهـا المخـضـرا (كذا بالألف)
تفــــــوح أرجـــــا أطيـبـــــا اعـجــــا حـبـــــا (كـــذا)
ثـــــم خطــــوت خطـــــــوة حـتـــــــــى ولجــــت نحــــوه

ثم يذكر خمسة أبيات بالفارسية على نفس الوزن ثم يتبعها بقوله :

فــحــمـــــــت فـــى الأرجـــــاء الخـــضـــــر والحـــمـــــــراء
حـــتــــــــى رآنـــــى أخـــــرم فــقـــــال خـــيــــر مـقـــــدم
فـــــــــرحـــــب وبشـــــــــر وحـــســــن قـــــول نشـــر (١)

وواضح من هذا النص أن الشاعر تأثر بالمثنوى (المزدوج) الفارسى من ناحية القالب وإن خانه التعبير عن مراده في لغة سليمة وقد سقناه هنا كنموذج لمن خاض فى الأمر دون أن يتخذ له عدة كافية.

١- ديوان أحمد، ص ٤٧ - ٤٨.

ومن أشهر أصحاب الدواوين أيضاً السيد ناصر حسين اللكنوى تلميذ المفتى محمد عباس التستري. وقد توفى السيد ناصر حسين فى عام ١٣٦٠هـ وذكر عبد الحى اللكنوى له ديواناً بالعربية وديوان خطب وكتاباً فى الإنشاء والرسائل بعنوان الأثمار الشهية فى المنشآت العربية وكتباً أخرى فى سيرة الأئمة من آل البيت عليهم السلام ومسائل الفقه الشيعي. وذكر اللكنوى من ديوانه الذى لم نعثر عليه نماذج منها قصيدة فى مدح الإمام على عليه السلام يقول فيها :

وجف الفؤاد بلذع حب معنف ... من ناحل صب كئيب مدنف
كلف بخالسة القلوب خريدة ... ترنو بلحظ كالصوارم مرهف
فتاكة بنفوس أرباب الهوى ... عجالة لهم بحتف مذعف
قمراء وجهاً فى تحندس شعرها ... عفراء لوناً ذات قد أهيف
أضمت له قلباً معنى بالجوى ... إذ أرسلت طيفاً بليل مغضف
قد بات فيه يمص ريقاً سلسلاً ... أهنى وأشهى كاحتساء القرقف
من بعد جفوتها وطول صدودها ... سمحت بذاك فصار كالمترشف
حتى إذا صاح الديوك وخفقت ... زهر النجوم درى بأن لم تسعف
بل كان ذا منها لتسعر لوعة ... فى قلبه المصلى بنار شفشف
فمضى وهام يئن أنه مشتك ... ويضج ضجة ذى رزاح مزرف
يبكى على دار تطمس رسمها ... لم يبق منها غير حقف مشرف
سارت ظعائنها فما تركت بها ... غير المها وسوى نعاف نعف
هلا سلوت عن الصبو إلى الدمى ... وبكى الطول بحرقة لا تنطفى
فلقد أسفت على العلوم تأسفاً ... يحكى زفير المرمض المتلهف
لما رأيت ربوعها قد أقفرت ... عن أهلها طراً كقاعة نفنف
درست معالمها وبادت أهلها ... أطلالها محيت بسيل مجحف

لله أهلوها الذين تحملوا   عنها بتحثيث المنايا المرعف
قد ساقهم عن عقرها وفنائها   قدر الإله إلى نعيم مترف
كانوا لها كالشمس يقبس نورها   والآن تكسى بالظلام المسدف
زالت دعائمها وخر أساسها   ظلت شرائعها كأرض حرشف [1]

قال عبد الحى اللكنوى كان من أكابر علماء الشيعة ورث عن والده مكتبة حافلة بنوادر الكتب والمخطوطات وحافظ عليها وزاد فيها واشتهرت باسم المكتبة الناصرية وأمها العلماء والباحثون من بلاد بعيدة. ومع ذلك فأنت ترى أن شعره لم يخرج عن مدائح الشخصيات الدينية، وهذا كله من آثار ارتباط الأدب العربى بالدين عبر المدارس والدراسات الإسلامية.

١- نزهة الخواطر : ٨ / ٤٨٨ - ٤٩٠.

الفصل الثانى

شعراء بلا دواوين

نعرض فى هذا الفصل لنماذج لأشهر الشعراء الذين عثرنا لهم على قصائد ولم يذكر لهم أحد دواوين أو مجاميع، وإن كان هذا لا يعنى عدم وجود دواوين لبعضهم ربما خفيت عن مؤلفى التراجم والطبقات الذين أرخوا لحياتهم.

ولم نثبت فى هذا الفصل كل من وجدنا له شعراً، بل اخترنا منهم المشاهير، ورتبناهم بحساب سنى وفاتهم صاعدين بهم الى الأقرب من عصرنا. وهذا الفصل فى اعتقادنا مربوط بما قبله ليعطيك صورة عن موضوعات الشعر فى الأدب العربى فى شبه القارة، مما قد يساعد فى استنباط سماته الفنية أيضاً لأننا نعتقد أن فى حالة كحالتنا ونحن نكتب كتاباً نفتتح به مجالاً، لابد من الإكثار من النماذج حتى يتضح شكل هذا الأدب خصوصاً وأن معظم إنتاج شعرائنا لا يتوفر لنا ولا لغيرنا من المقيمين فى المنطقة العربية.

ولقد تركنا عمداً إلا فى قليل، لمس التفاصيل وتخصيص العام وتفصيص الأبيات تحليلا ثم استحساناً أو استهجاناً حتى لا يتسع الكتاب، وحتى نعطى فرصة لدراسات تفصيلية قادمة يقوم بها الباحثون متى شاءوا وأينما شاءوا.

أول شاعر فى هذا الفصل هو أحمد بن محمد التهانيسرى المتوفى سنة ٨٢٠هـ وكان أديبا مفلقا تتلمذ على يد شاعر فحل هو عبد المقتدر الشريحى المتوفى ٧٩١هـ والذى ستطلع على شعره فى باب المعارضات الشعرية ومن هنا جاء التأثير - فى أغلب ظننا -

فإن الشريحى كان كفضل الحق الخيرآبادى وفيض الحسن السهارنبورى صاحب مدرسة تخرج فيها كثير من الشعراء فى شبه القارة. يقول السهارنبورى فى مدح النبى :

أطار لبى حنين الطائر الغرد — وهاج لوعة قلبى التائه الكمد
واذكرتنى عهوداً بالحمى سلفت — حمامة صدحت من لاعج الكبد
باتت تؤرقنى والقوم قد هجعوا — من بين مضطجع منهم ومستند
مازار طرفى غمض بعد بعدكم — ولا خيال سرور دار فى خلدى
ليت الهوى لم يكن بينى وبينكم — وليت حبل وداى غير منعقد
كانت مواسم أيام وغرتها — ولت سراعاً على رغم ولم تعد
عشنا بها وعيون البين راقدة — والقلب فى جذل والدهر فى رقد
والهم منصدع والكرب مندفع — والجد مرتفع كالأنجم السعد
والشعب ملتئم والعهد منهز — والشمل منتظم لم يرم بالبدد
حتى استهل غراب البين فارتحلوا — عند الصباح وشدوا العيس بالقتد
من كل هوجاء مرقال عذافرة — تبدى النشاط على الإعياء والنجد
كأنه لم يكن بين الحمى أنس — إلى اللوى وكأن الحى لم يفد
صاروا أحاديث تروى بعد ما ملأوا — مسامع الدهر بالألفاظ كالشهد
بقيت فرداً وراح الناس كلهم — كالسيف يبقى بلا إغماده الفرد
لا عيش بعد ليلات اللوى رغد — ولا وصول إلى ذاك الحمى بيدى
خل الأحاديث عن ليلى وجارتها — وارحل إلى السيد المختار من ادد
وليس فى الدين والدنيا وآخرتى — سوى جناب رسول الله معتمدى
بر رؤوف رحيم سيد سند — سهل الفناء رحيب الباع والصفد
رب الندى والجدى والصالحات معاً — طفلاً وكهلاً وفى شب وفى مرد

بالعلم مكتنف بالحلم متصف | باللطف ملتحف بالبر متسد
الخلق مشتمل بالرفق مكتحل | بالحق متصل بالصدق منفرد
بالشرع معتصم للدين منتقم | في الله مجتهد بالله مقتصد
بالفقر مفتخر بالزهد مشتهر | بالشكر متزر بالحمد منجرد
خطّاب مفصلة وضّاع مكرمة | دفّاع مظلمة عن كل مضطهد
العدل سيرته والفضل طينت | والبذل شيمته في الوجد والويد[1]

والشاعر بدأ هنا بلا شك بداية متينة راسخة، فما أن تحول بعد ذلك إلى مدح الصفات حتى صار عاطفياً فلم يظهر في شعره من الجودة الفنية بقدر ما ظهر من العاطفة، ومع هذا فالقصيدة تشير إلى تمكنه وجودة نظمه.

ومن أبرز الشعراء أيضاً غلام نقشبند اللكنوي شارح القصيدة الخزرجية في العروض وقد توفي سنة ١١٢٦هـ ومن شعره في مدح شيخه :

خليلي هل هاتان دارة جلجل | ودارة سلمى في قفاف عقنقل
عليها سواري المزن سحت مطيرة | فمحت مبانيها محوح المهلهل
أربع الحبيبة صار للوحش موطناً | فيا عجبا من صنع دهر محول
أمنزل سلمى هل تفرج غمتي | وتكشف عما ظعن ذات التدلل
على أي أرض خيمت ذات هولة | تهول بوجه كالضحا متهلل
فمنذ غداة البين قد بت في الهوى | بصدر جوى أو بقلب مقتل
أعيني مهلاً عبرة الوجد والجوى | أئنكما أزمعتما اليوم مقتلي
وهل ينفع المبكي عيوناً ذوارفا | إذا وجهت سلمى ركاب التبتل
حبيب إذا ما جود الغنج عينها | فيا للمهيمن لات حين معول

١- نزهة الخواطر : ٣/ ٩ - ١٣.

إذا لمحت من وجـهـهـا يوم أبـرقـت   فـمـاء المحيـا فـيه واجـد مـوئل
لهـا عـارض تبريقـه غـيـر عـارض   أسيل صقيل حسنه كالسجنجل
إلام تمنينـي وفـيك تلـون   وحتـام تلهيني بوعـد مـخـيل
مـواعـيـد عـرقوب تقرمط بينهـا   كـقـرمطـة النحـلان نحـل المنول
له همـة عليـا تتوف على السـمـا   ومـجـد مـجـيد نيله لم يسـهـل
بجـيل جليل من شفـيع كـاسـمـه   ومن جـده خـيـر الورى خـيـر مـرسل
لزهرة زهـراء ووردة حـيـدر   ويهـزأ خلقـاً عطـر دار التجـمـل
لنور به الأفـلاك والأرض نـورت   وتشـويد تسويد شـرق مكلل
إذا مـا هداة الناس عـدت فـراسـهم   وهاديهم المقدام مـن كل أمـثـل
وبينا سبيل الحق يمشون ظلمة   إذا انبلجت شمس هداه فتنجلي
معـارفـه جلـت مـعـاليـه قـد علت   أشـم جـبـال يـا لفـخم مـفـضل
لديه علـوم لا يـرام فناؤها   وأسـرار لوح في الأسارير تجتلي
ولـم يؤثـر الدنيـا الدنى نعيمـهـا   وينعـم عند الله أحسن مـفـضل
لقـد دام بالرحمن حظ شـهـوده   تجنى جنا العـرفـان غـيـر مـعلل
تجلـى لـه في كل آن تجليـاً   لديـه تجلي الطـور لم يتـجـمـل
ومن سـره قـد ذاق يعلول طاهر الـ   ـسـراثر منه فـهـو بالنور ممتلي
شفيعي ليوم الحشر حرزي وموئلي   ووجـهـة قلبي غـوث كل مـؤمل
لكل عـصـام واعتصامي بفضله   كـفـانـي قـوامـا ذات يوم التجلجل
مـآثره لا يهـدين بعـدهاومحصي   الحـصـا مـحـصـى الرمـال وجندل
يطوف حـواليـه المكارم والعلى   طواف حجيج حول بيت مبجل (١)

١- نزهة الخواطر : ٦/ ٢١٥ - ٢١٦.

والشاعر هنا أراد أن تكون قصيدته فى مدح شيخه محمد شفيع معلقة كمعلقة امرئ القيس فوضع أمامه المعلقة العربية ونسج على منوالها نسجاً واضحاً، والنص يفيدك فى التعرف على أثر الشعر الجاهلى على الشعر العربى فى شبه القارة فإن المعلقات حاكاها كثير من شعرائنا هنا. والقصيدة لا شك متينة البنيان عربية المزاج، فى ا لبيت الأخير منها صورة جيدة.

ورفيع الدين الدهلوى المتوفى عام ١٢٣٣هـ - وهو ابن الشيخ ولى الله الدهلوى وأخو عبد العزيز الدهلوى - ربما اشتهر اسمه فى العلوم الإسلامية أكثر مما عرف فى الأدب والشعر، ومع ذلك فقد عثرنا له على قصيدة عارض فيها عينية ابن سينا ستمر عليها مرة فى باب المعارضات أما هنا فنسوق نموذجاً من قصيدة مدح للنبى عليه وآله السلام قال فيها :

يا أحمد المختار يا زين الورى	يا خاتما للرسل ما أعلاكا
يا كاشف الضراء من مستنجد	يا منجياً فى الحشر من والاكا
هل كان غيرك فى الأنام من استوى	فوق البراق وجاوز الأفلاكا
واستمسك الروح الأمين ركابه	فى سيره واستخدم الأملاكا
عرضت لك الدنيا وداعو ملة	نسخت ببعثك طامعين رداكا
فرددتهم فى خيبة عن قصدهم	الله صانك عنهم ووقاكا
واخترت من لبن وخمر فطرة الـ	إسلام بالهدى إليه هداكا
قعدت لك الرسل الكرام ترقبا	فعلوت مغبوطاً لهم مسراكا
وأممتهم فى القدس بعد تجاور	منهم بأمر الله إذ ولاكا
ويكى الكليم لما رآك علوته	ومنافسوك يحق منهم ذاكا
وتزينت حور الجنان بشاشة	بك سيدى شوقاً إلى لقياكا
وتبشبش العرش العظيم لاثما	رجليك نال الفضل إذ آواكا
خلفت روح القدس عند السد	رة القصوى يخاف من الجلال هلاكا[1]

١- نزهة الخواطر : ٧/ ١٩٩ - ١٨٩.

والشعر يحتاج الى كثير غير العروض والأوزان، هذا مع افتراضنا صحة الحديث المذكور وإمكانية رؤية الله وغير ذلك من الأمور التى نظمها الشاعر فى هذه القصيدة وليست مراد بحثنا.

يأتيك بعد ذلك شاعر آخر هو القاضى أحمد بن مصطفى الكوباموى المتوفى سنة ١٢٣٤هـ وكان له ديوان بالفارسية وقصائد عربية منها قوله :

تغـــيـــرت المودة فى الرجـــال   وشـــاع الحـــقـــد فى أهل الكمـال
قـــد انهـــدمـت بأمطار الرزايـا   مـــقـــاصـــيـــر المروءة والنـــوال
وإن فى الدهر ذو شـــرف ومـــجـــد   ســـوى مـــحكوم ربـات الحـــجـال
فليس الآن يانفس اكـــتـــســـاب   يعـــاون مـــاعـــدا شـــد الرحـال

ومـــن شـــعره كـــذلك :

ظلمـــت وكنـــت بين الظالمينا   تـرحـــم يـــا ولـــــى المؤمنينا
أضعت العمـــر فى كسب الخطايا   وصـــرت بما اكـــتـــســـبت به رهينا
أطلعت النفس حينا بعد حـــين   وإن النفـــس شـــر الحـــاكـــمـــينا
أنخت النـــوق فى بيـــداء غى   ولـــم أســـمع لـوعظ الواعظينا
فـإن جـــازيتنى شيـراً بشـــر   فـــعـــدل منـك رب العـــالمينا
وإن جـاوزت عن ذنبى فـــعـــفـــو   وفـــضل ربنا فـضـلاً مـــبـــينا(١)

ومن أهم الشعراء أيضاً فى شبه القارة الشيخ عبد العزيز الدهلوى المتوفى سنة ١٢٣٩هـ، وقد نمر على شئ من شعره فى باب المعارضات، وله قصائد نبوية منها :

ألا يا عـــاذلى دم فـى مـــلامـــى   فـــانى لا أحـــول عن الغـــرام
فـــجـــفنى ســـاهر مـــا دمت حـيـاً   وقـلـبـــى هـائـــم والـدمـع هـامـى

١- نزهة الخواطر : ٧/ ٣٧.

فيا ريح الصبا عطفاً ورفقا إلى ذاك الحمى بلغ سلامى
وقل يا أهل ودى فى هواكم مضى شهرى وأيامى وعامى
وصرت ببعدكم كالعود جسمى على نار ودمعى فى انسجام
إلام تظاهرون على كئيب كسير القلب صب مستهام
إلا الهجر والإعراض عنى وحتام التمادى فى الخصام
غرامى ثابت غض طرى وحبكم على طرف الثمام
نسيم عهدكم يا أهل ودى كأنا ما التقينا فى مقام
فإن عدتم لوصل والتئام فأهلا بالعناق وباللزام
وإن جرتم على فلى غياث بباب المصطفى خير الأنام (١)

وتصوير احتراق المحب بالعود بدلاً من الشمعة تصوير جديد فيه أثر البيئة الهندية ومقبول بلا شك لدى الذوق العربى.

ولقد نظم أوحد الدين البلكرامى المتوفى سنة ١٢٥٠هـ قصائد غرام كثيرة لكنه رغم جودة الصياغة لم يأت بخيال جديد أو صور مبتكرة فتشبيه المعشوق بالغصن، وتصوير انهمار الدمع من المحب وقت الفراق بالمطر، ونحول جسمه من العشق ، ووصف رموش عينى الحبيب بالسيوف ووجهه بالقمر أو الشمس، وشعره الأسود بالليل. كل هذا معاد مكرر، يقول مثلاً :

ميّاسة القد ما ماست وما خطرت إلا وقلبى بحبل الود قد أمرت
نشوانة من رحيق الحسن قد سفكت دمى بمقلتها عمداً وما حذرت
كأنها غصن بان صيغ من ذهب فى خدها روضة أنوارها زهرت
خريدة ما رنت إلا ومقلتها حسام لحظ على عشاقها شهرت

١- نزهة الخواطر : ٧/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

الله الله كـم جـور علـى دنـف   أظـن طينتـهـا بالجـور قـد خـمـرت
جسمى تردى ثيات السقم مذ بعدت   عنى وبالقلب نار الشوق قـد سعـرت
لا تسـألوا عن دمـوعى يا أحبـتنا   يوم الوداع من العـينين كـيف جـرت
بحـر تموج باليـاقـوت فى مـقلـى   أم ممطرات بأجـفـانى قـد انحـدرت

ومن شعره أيضا :

يا سـائق الظعن قل لى أنت ما الخبر   أأنزل الركـب حيث الـريم والعـفـر
أمـا مـررت بحى فيـه لـى رشأ   تكلف الشـمـس أن تحكيـه والقـمـر
غـصن رطيب رشـيق زانه هيـف   شـمس الى وجـهـهـا لـم يمكـن النظر
مـذ بان عنى لم تدر الكرى مـقلـى   أرعى النجـوم ودمع العـين منهـمـر
من لى بـه وهو ظبى جل منشـأه   يسـل لحظاً لقـتلـى ثم يعـتـذر
بدر إذا ما بدى فالشمس فى خجـل   أو مـاس فـالغصن فى الأوراق يستـتر
وافى إلى فـسـر القلب حين دنـا   وصـد عنـى فـزاد الهـم والكـد

له أبيات يقول فيها :

بدا فـغـارت نجوم الليل فى الأفـق   ومـاس فـاختـطف الأغـصـان فى الورق
لا غـرو إن قـتل العـشـاق ناظـره   فكم سـبـا مـهج الآسـاد بـالحـدق
وا سـوء حظى وحـالى مـذ شـغـفت به   فـالجـسم فى ألم والقـلب فـى قلق
لولا مناه بقـتل الصب مـا لبـسـت   خـدوده حلة مـن حـمـرة الشـفـق
يـا لائمـى لا تـلـمنـى فـى هـوى رشـأ   ذرنى فـقلبـى أسـيـر غـيـر منطلق
الوجـه صبح بليل الشـعـر مـسـتتر   يفوق حسناً ضياه البدر فى الغسق[1]

١- نزهة الخواطر : ٧/ ٦٨ - ٦٩.

ونظم فيٓ العشق أيضاً أحمد بن الحسن القنوجي المتوفى ١٢٧٧هـ فقال :

نسيم الصبا وافى محيراً مطيبا | فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا
كأنك أنفاس المسيح بعينها | فأحييت صبا لم ينل قط مطلبا
فديتك يا نعم الصبا خير مقدم | فكل حمام حين أقبلت رحبا
تحاكى لك الأغصان بالوجد راقصا | تضاهى لك الأطيار بالسجع مطربا
وتنفخ فى الاشجار روحاً تميلها | فيا لك ما أزهاك صنعاً وأعجبا
أهل جئت من تلك الربى برسالة | فإن الصبا نعم الرسول لمن صبا

وقال أيضا :

لسلمى أرانا الله مولاى دارها | عوالم حسن ما رأينا ديارها
فان لها بدرا يسمى جبينها | وإن لها شمسا تسمى عذارها
اذا غطت الوجنات أقبل ليلها | إذا كشفت عنها رأينا نهارها
هممت بثدييها فمرت فقلتها | فما خير نخل قد منعنا ثمارها
فقالت أما لا كل سوداء تمرة | تبسم عن در يصفن بحارها

وقال على غرار عينية ابن الفارض:

أغيم بدا من جانب النجد هامع | أم انهملت منك العيون الدوامع
ونار تلظت فى فؤادك أشرقت | أم البرق فى قلب السحائب يلمع
أمنهدم هذى القصور لبلها | أم انشقت الأحجار إن كنت تجزع
أتنحب من كرب النوى وبلائه | أم الرعد من فوق الغيوم يقعقع

وله أيضاً :

تذكرت أيام الصبا والليالیا | بغم أرق الشوق منك القوافيا
إذ العيش أشهى ما يكون من المنى | وأطيب لذات تسوء الأعاديا

إذ الـــربع ربـــع الخـزرجـيـة آهل ... بعـــين كـــآرام ألفـــن المغـــانيـــا
مـخـضـرة الأطـراف رواقـــة اللمى ... رقــاق الثنايا بهكنـــــات غـوانيـــا
وجارت بخلف الوعد بعـــد وفائـــه ... وضنت بما يعـرى الوشاة الأسـاعـيـا
كـأن لم يكن بين الحـــبيب وبيننا ... عـهـود ولم نـرع العـهـود المواضيـا
فـإني فتى أرعى العهود لصاحبـي ... وإن لـم يكـن للعـهـد منه مـراعـيـا

ومن شعره فى تقلب الزمان :

يعـاقـبنى بؤس الزمـان وخـفـضـه ... وأدبنـى حـرب الزمـان وسلمــه
ومـا المرء إلا نهب يوم وليلـــة ... تلـــم به شـهب الفنـاء ودهمـــه
يعلله بـــرد الحـيـاة يمســـه ... ويغـتـــره روح النســـيم يشـــمــه
ألا إن خـيـر الزاد مـا سـد فـاقـة ... وخـيـــر بـــلادى الذى لا أجـمـــه
وإن الطوى بالعـز أحـسـن يا فـتـى ... إذا كـــان من كـسب المذلة طعـمـــه
وإنى لأنهى النفس عن كل لـــذة ... إذا ما ارتقى منها إلى العرض وصمه
وأعـــرض عن نيل الثـريا إذا بدت ... وفـى نيله ســوء المقـام وذمـــه (١)

وشعر أحمد القنوجى رقيق وفى بعضه ملح كقوله «فإن الصبا نعم الرسول لمن صبا» لكن الصورة الوصفية أيضاً مكررة ليس فيها جدة ، وقد كرر القنوجى ما قاله أوحد البلكرامى وغيره من الشعراء وليس فى وصفهم مثل صورة آزاد التى وصف فيها ضفائر المعشوقة فى قصيدته التى خصصها لوصف جسدها حين قال:

أو ليلـــتا العيدين أقبلتا معـــا ... أو مــــن قصائدهـــم معلقتان

فالصورة فى المصرع الثانى من هذا البيت جديدة حقاً.

١- نزهة الخواطر : ٧/ ٢٤ - ٢٥.

والنموذج الغريب حقا هو شعر الشيخ المفتى اسماعيل بن الوجيه المراد ابادي أو اللندنى كما كان يعرف. ولم نقف على عام وفاته مع كونه حديثاً لكن صاحب النزهة أورده فيمن عاشوا فى القرن الثالث عشر الهجرى. وقد عرف باللندنى لأن نصير الدين الحيدرى ملك سلطنة أوده الهندية بعثه سفيراً له فى بريطانيا. وكان من المفروض أن تغير البيئة الأوروبية مشاعره وتصقل شعره العربى، وكان من الممكن أن يستفيد هو من ذلك فى نظم شعر فيه شئ من لمسات الغرب وحياة المجتمع الأوروبى لكن ذلك لم يحدث. فالسفير ترك الغرب وبيئته جانباً ووضع أمامه معلقة امرئ القيس ثم أنشد يقول :

خليلى عوجا عن شـــمال العقنقل ... وحطا رحال العيس فى عض عوكل

فندعو رباعاً لا تحيـر دعاءنـا ... لما قد عفت من سجم غيم مظلل

عفا الله أهضاباً سعت فى خرابها ... فباتت طلولاً بـادرات التعطل

ألا عوجا فى العوج روحى فداكما ... فمهـلاً ورفقاً بالكئيب المؤمـل

فتلك رباع عطلت عـن أهيلها ... قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

ولم يكتف كما ترى باقتفاء امرئ القيس فى معلقته بل ضمن قصيدته بعض شعره الذى تحول فيه بعد البيت الأخير الى المديح. ومن شعره فى الرثاء قصيدة وصف فيها حاله، ورثى من يحبها فى آخرها فقال :

لحـى الله دهراً قد رمانى بغربة ... وطـول صدود لاح لى بعد قربة

إلى الله أشكو من زمان يجورنى ... هـو اللـه مولانا إليه لشكوتى

إذا سرنا يوما أساء بنا غـداً ... وألقـى علينا شدة بعد شدة

إذا فرجت آناً همومى فعاد بى ... مصـراً بضيم لحظة بعد لحظة

إذا رمـت شكلاً أولاً وانتظمته ... رمانـى بضرب أول ذا نتيجتى

ولـى من صعوبات النوائب مبلغ ... كثيـر فلا يحصى بعد وعدة

إذا زال هـم نـاب هـم منابه ... وهـذا لشأنى فى نوائب سفرتى

ولولا همومي ألحقتني من الأسى … لما بنت من لي وأهلي وأسرتي
ولا سيما من ربني وهو والدي … ولا سيما أمي وشقي وشقتي
إلام فؤادي ذائب بفراقهم … وحتام أبكي في صدود وفرقة
فشمرت للأسفار ذيلي مكابداً … خطوب كروب قد جفتني بسطوة
تحملت كلاً من رخاء وزعزع … تقلبت في شأني رخاء وبؤسة
بليت بغم وانتياب من النوى … ولا زلت أطوي بلدة بعد بلدة
فجربت أقواما وفحصت أمرهم … وأدركت شأن الناس في كل أمرة
فنجالست كلا من شريف وماجد … وطالت بهم دهراً عهودي وصحبتي
ومازجت كلاً من ذكي وحازم … وفي ذاك قد ضيعت وقتي وفرصتي
ونادمت كلاً من أمير ومترف … ونضرتهم طراً ببشري ونضرتي
ووافقت كلاً من كريم وذي ندى … ضربت على أبواب كل بصكة
ولاقيت كلاً من أريب وحاذق … يحل بفكر صائب عضل عقدتي
فما ألمعي فاق إلا وزرته … نديماً له مستبقناً كل نكتة
فما أوحدى حاز كل فضائل … ونلت به إلا ولي منه حصتي
فزاولت في كل الفنون ودرسها … ومارستها في كل يوم بليلة
فأصبحت بحراً زاخراً في جواهر الـ … علوم وأمواجي أفكار فطنة
وأمسيت طوداً شامخاً من نفائس الـ … فنون ومن منكم رأى طرف ذروتي
وإني أنا شمس العلوم وبدرها … وقطب درايات ومركز دريا
كلامي شفاء للغواية إذ جرت … وقولي قانون النجاة بجملا
كنايات تقريري رموز إلى النهى … إشارات تحريري عيون لحكمـ
ولكن دهراً سد بابي بأقفل … فهل فتح باب سد لي تحت قدرتي
ولا غرو إن أرخى الزمان زمامه … إلى فإني أهل ذاك لعظمتي

اذا مـا أريد الشئ يأتــى بضـده ... ولم يأت طوراً مـا يوافق منيـتى

فمـا لــى نقص من هموم تهمنـى ... ولا لى مـحيص من شـدائد نقـمتى

فهل لى على الأرضين من صارخ يغيـ ... ثنى رحمة فيما عرت من مصيبتى

وهل لى من أوب إلى بلـدة لهــا ... صعـود وفى بعدى عنها لشقوتى

وتلك التى قـد مـس جلدى ترابها ... وفـيهـا لمن جيـدى نيطت تميـمتى

وتلك هى الأرض التى طاب ماؤهـا ... وراق هواها فـهى طابت كطيـبـة

ويكفــى لهـا مجداً وفخـراً ورفعة ... ثـواء أبى فـيهـا وأمى وإخـوتى

فهم فى حماها كالنجوم إذا بـدت ... وهم فى رباها كـالشمـوس المضيئـة

فرقاهم المولى الى المرتقى العلــى ... وصـان حـمـاهم من طروق البليـة

ولا زال فى خضل حدائق مجدهـم ... بماء رضـاء سـاح من بحـر رحـمـة

إلهى لئن أوليـتنى جـملة الجـدى ... فـمـا راحـتى إلا بلقيـا عـشـيرتى

ولقـياهم عندى رياض من المـنى ... ووصلتـهم لى نعـمة بعـد نعـمـة

إذا سرت يا ريح الصبا نحو موطنى ... ولاقـيت من رهط هناك وجـيـرتى

فأسرر إليهم ما ترى من أسـيتى ... وحى لهم عنى بعظمى تحـيـتى

وسلهم أيا رهطى هـل غـاب عنكم ... ضجيعى وكمعى بل فؤادى ومهجتى

إذا حن قـمرى علـى غـصن أيكـة ... بكيت بكا الثكلى بذكرى حبيبتى

ورجعت ألحانى على ذكر عـهدهـا ... فـجـاويت ورقـاء على البـان حنت

ورددت أصـواتى بـوجـد أهاجنــى ... فـهـيجت أحزان الحـمـام بنوحتى

وهـل ينفع الترديد من بعـد بينهـا ... ومـن بعـد مـا راحت إلى دار تربة

سـقى الله مثـواها وطاب ثراؤهـا ... وأدخلهـا فى سـوح روضـات جنة

علــى اللـه تكلانى هو البر للورى ... وبالله حـولى وهو رب البـرية (١)

١- نزهة الخواطر : ٧ / ٦٤ – ٦٦.

وأثر تائية ابن الفارض على هذه القصدية واضح .وقد أطلق الشاعر العنان لقلمه ليصور أزمته النفسية ومشاعره تجاه الزمن والناس وحنينه الى وطنه ، ولم يعط الرثاء الا أبيات قليلة لكنها ملئت حزنا ورقة.

ومن أبرز الأدباء في شبه القارة علي عباس الشرياكوتي المتوفى ١٣٠٢هـ وان كنا لم نعثر له على أبيات كافية تبرز للقارئ موهبته رغم كثرة تآليفه في الأدب العربي كما سترى في ترجمة حياته. وجدنا له أبيات قال فيها يقرظ كتاباً :

يا من لقد كان يشكو ضيعة الأدب	أبشر فقد زاح ما بالنفس من وصب
أشكاك تأليف شفن لوذع فطن	من لا ضهى له في العجم والعرب
أعطاه في ذا الزمان الله جل علاً	من المفاخر ما الإنسان لم يهب
إن شئت حب رسول الله فادل به	لابد للصرح والأفلاك من عتب
فيا من كتاب جامع سير الـ	رسول أرسله لي بالصارم الذرب
لا تعجبوا إن علا كتب الذين مضوا	فإن في الخمر معنى ليس في العنب[1]

ومن أبرزهم كذلك محمد بن أحمد الطوكي المتوفى سنة ١٣١٤هـ وله مصنفات أدبية كثيرة منها شروح على ديوان الحماسة وديوان المتنبي ولامية الشنفرى وكتاب في العروض وغير ذلك. ورغم كثرة شعره لم نجد له ديواناً ووجدنا بعض الأمثلة منها:

هواكم بقلبي والجوى في تمدد	وشوق للقياكم مقيمي ومقعدي
أبى القلب أن يسلو الأحبة صابراً	وأن يرتضي نوما بجفن مسهد
أناجي نجوما طول ليلي كأنني	أطارت كرى عيني ليلة أرمد
لقاؤكم المطلوب أجلى من الكرى	وأشهي من العيش اللذيذ المرغد
وكم بت أبكي من تذكر جيرتي	وأرعى عهوداً كن في خير معهد

١- نفس المصدر : ٨/ ٢٣٠ - ٢٣١.

بكت عين قلبى بالدماء تحزناً ... إذا ذكرت أيام وصل مبعد
رحلتم فبالله كم من حبائل ... تصيد فؤادى من أغانى المغرد
سلبت لذيذ العيش لاعيش بعدكم ... أعيش وعيشى عيش جيران أكمد
أقاسى أواماً فى هجير غرامكم ... ولم أرض غير الوصل والدهر موردى
وأنتم شفائى لا دوائى غيركم ... ومنكم أرجى الفوز فى نيل مقصدى
فمنوا على من يرتجى بقدومكم ... حياة فؤاد بالسرور المجدد
وإن لم تلاقونى بأنس ورغبة ... فيا وجد لا تذهب ويا حسرة اشهدى
ومالى لا أبكى وقد حازنى النوى ... ولم أعط منكم نظرة المتزود
أطارت تباريح الهوى كل بنيتى ... ومل طبيبى طول سقمى وعودى
إلى كم أقاسى شدة من فراقكم ... أذوب بنار فى الحشا متوقد

ويقول فى قصيدة أخرى :

إلى الله أشكو المشركين ببلدة ... بليت بها منهم بكرب وغربة
أقمت لديهم مدة فى ديارهم ... كئيباً حزيناً من أذاهم وجفوة
أصبت بحقد منهم وقلائهم ... فكم شدة قاسيتها وبلية
أقضى الليالى ساهراً متفكراً ... مخافة كيد منهم وخديعة
وضاقت على الأرض جداً برحبها ... هجوماً لأنواع الخطوب الملمة
وجدتهم عمياً عن الحق والهدى ... ومقتحمى لجج الضلال وبدعة
فنبهتهم عن غفلة ودعوتهم ... إلى دين رب العالمين وشرعة
وذكرت بالقرآن سراً وجهرة ... ورغبتهم فى الاتباع بسنة
نصحتهم باللين كى يأخذوهما ... ويصغوا إلى قولى بأنس ورغبة

وأخبرت عن بطلان تقليد مذهب وعرفتهم ما جاءنا بالأدلة
وكررت تذكيرى رجاء لنفعهم ورددت نصحى مرة بعد مرة
وأسمعتهم فيما أمرنا بأخذه أحاديث ترغيب وآثار رتبة
فلم يذعنوا للحق بل زاد زيغهم وطغيانهم دون الرجوع وتوبة
ولم ينتهوا عن غيهم وضلالهم وساءهم منى مذمة بدعة
وأغضبهم إنكار تقليد مذهب وعزهم إنكار زور بكثرة
فأعرض عنى كلهم وتأخروا وقد أنفوا عن أخذ نهج طريقتى
ولو كان من يدعوا إلى الزيغ والهوى أجابوا الى التقليد من غير فترة
وكيف تلقوا بالقبول هدايتى وقد آمنوا بالجبت من طول مدة
أصروا على ما ضل آباؤهم به ولم يأخذوه عن دليل وحجة
مذاهب اختاروا برأى معوج على الملة الغراء غير محجة (١)

النموذج الثانى من شعره جزء من قصيدة سماها القصيدة البديعة فى ذم المقلدة الشنيعة فى مائتين واثنين وثمانين بيتاً أتعب نفسه فيها ليذم من التزموا التقليد فى المذهب الحنفى وكان الطوكى سنياً مثلهم يرى الالتزام بالحديث لا تقليد أبى حنيفة، ومع ذلك سماهم المشركين كما فى صدر القصيدة، فلم يظهر لك فيها فن وأدب بل ذم وتكفير. وهذا من أثر ارتباط الأدب العربى بالمدارس الدينية فى بيئة شديدة الانقسام والتمذهب مثل شبه القارة التى لم تتخلص حتى الآن من هذا الداء. ولو تفرغ الطوكى للأدب من حيث هو كذلك لأنتج أفضل من هذا.

وكان الشيخ أحمد عبد القادر الكوكنى من أبرز الشعراء والعلماء وقد توفى فى سنة ١٣٢٠هـ وكان بينه وبين اللكنوى صاحب نزهة الخواطر صلات ومراسلات، فسجل فى كتابه بعضا من القصائد التى أرسلها له ومنها قصيدة مدح نبوى على غرار البردة قال فيها :

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٣٨٥ - ٣٨٧.

يا شـوق بلغ إلى جـيـران ذى سلم ـ سـلام ب سـليـم الـهـم
واستـمطرن من ندى ألطافـهم شبـمـاً ـ يطفى لظى لاعج فى القلب مـضطرم
وقل لهم أرسلوا طيـفـا فطيـفـهم ـ روح المحـبين يحـيـى مـيت النسم
من لى بـه وسـهـادى ظل يمنعـه ـ أو بـالكرى وهو مـدفـوع ببـينهم
لولاهم مـا كـلأت الليل مكتـئبـاً ـ أرعى النجـوم حليف الوجـد والسـقم
ولاجرى دمع عـينى كـالعقيق على ـ ذكـر العـقـيق وذكـر البـان والعلم
لولا اضطراب فـؤادى من مـسـامـهم ـ مـا زاده خـفـقـانـاً بارق الظلم
ولا صـبـا القلب أوهاج البكا وصـبـاً ـ إن هب ريح جـرت من رقـمـتى إضم
يا لائمى وشـراب الحب أسكرنى ـ لـو ذقت لـذة كـأس الحب لـم تـلـم
ألست تعلم أن العـذل فى مـهج الـ ـ عشـاق يفـعل فـعل الزيت فى الضرم
أعان شوقى جوى قـد شب فى كبدى ـ وخاننى فى الهـوى صبرى ومـعـتـزمى
هوى سرى فى دمى قـدما فـلا عـجب ـ إن ضن عـينى بدمـعى وهو عين دمى
والدهر لم يكفـه أنى الجـريح بـه ـ حـتى رمـانى بداء غـيـر منحـسم
لم يصف لى مشرب فى عيشتى أبداً ـ فـسمم عـوفـيت بـالآلام والنـقم
ضاعت بضاعـتى المزجـاة صفـوتهـا ـ ومـا اكـتـسبت سوى حمل من التـهم
يا ليت شـعـرى لم الخـلاق أنشـأنى ـ أللتـحـسـر والآلام والـندم
هبنى ذنوبى قـد جـمـعت أليس لهـا ـ من الرسـول شـفـيع رحـمـة الأمم
مـحـمـد بهـجـة الدارين نورهـمـا ـ سـر الوجـود وعين الجـود والكرم

وفى قصدية يصور حاله فيها وقد بلغ الأربعين من العمر تعاكسه الأيام وتنهكه الأسقام يقول الكوكنى :

تلوى شباب العمر والرأس أشيب ... عليه سلامى كلما جن غيهب
مضت من سنيك الأربعون مشيعة ... فيما خيبة الآمال إذ لات مكسب
نشرت من الأسباب والحرص غالب ... بساطاً ذواه القدر والقدر أغلب
مضت فى هموم أشمئز لذكرها ... فهل من بقايا العمر لى بعد مرغب
جناحى قد ثصت ورجلى تقيدت ... وما لامرئ عما قضى الله مهرب
أحن إلى دار الحبيب ودونها ... ألوف جبال دونها الشم أظرب
وبالى وبالى منذ حالى تحولت ... وعقلى عقالى منذ ذا القلب قلب
عتبت الليالى فى معاناتى الجوى ... وأنت خبير أنها ليس تعتب
أردت من الأيام ما ليس عندها ... مدام بلا غش وخل مهذب
لحا الله ذى الدنيا دماء طلابها ... لها مشرب عذب فيا بئس مشرب
إلى ما أقاسى من زمانى شدائدا ... وحتى متى يمتد لى ذا التقلب
وتبعد عنى كالثريا مطالبى ... ويقرب منى كل ما لست أطلب
يساورنى دهرى فهل أنا قوته ... تساور صقر بليلاً وهو يطرب
كأن بنى حواء أمثال لعبة ... عليها بنات الدهر تلهو وتلعب
وقد ضاق صدرى من هموم تراجعت ... على أنها من وسعة الدهر أرحب
تسلسل أمراض ودورى نقائص ... وعكس أمان حيث يصدق يكذب
ولى من زمان وامتداد زمانتى ... حياة غدت ثقلاً بها الظهر أحدب
على فرش ذات القتاد تقلبى ... ونار الغضا بين الجوانح تلهب تغالب
أحاول تعديل المزاج ودونه ... ميل الطبع والطبع أغلب
وقد زعموا المرطوب يكثر نومه ... فما بال عينى وهى بالدمع أرطب
ولو عرض لم يبق دون محله ... فأين سقامى حل والجسم أغيب
وقال طبيبى ما لدائك حيلة ... خلا عند قانون الشفاء المجرب

فلو كان ربى عاجزاً كنت واجماً وجوم منادى اللات حين يخيب
ولكن ربى قائل ادعنى استجب فأدعوه حتى يستجيب وأندب
ولست بيعقوب فأصبر صبره ولو كنت أيوباً لما كنت أنحب [1]

وشعر الكوكنى ينم عن موهبة كبيرة، فهو شعر متين سهل فيه صنعة متقنة بلا تكلف وصور جيدة مثل قوله :

هوى سرى فى دمى قدماً فلا عجب إن ضن عينى بدمعى فهو عين دمى

وقوله :

وبالى وبالى منذ حالى تحولت وعقلى عقالى منذ ذا القلب قلب

وقوله :

كأن بنى حواء أمثال لعبة عليها بنات الدهر تلهو وتلعب

كما أن الكوكنى استخدم تعبيراً شائعاً فى اللغة الأردية استخداماً عذباً بلا شذوذ فسهل فهمه على أهل العربية كقوله :

عفى الديار ديار العلم قاطبة قحط الرجال وأيم الله قد عدموا

فقحط الرجال شائع فى لغته، وقد أحسن هنا استخدامه.

ومن أهم وأنبغ الأدباء فى شبه القارة عبد الحميد الصادقبورى العظيم آبادى المتوفى سنة ١٣٢٣هـ قال عبد الحى اللكنوكى إنه لقيه فوجده «بحراً زاخراً فى العلوم الحكمية والمعارف الأدبية، وكان ينظم القصيدة الفائقة فى لحظة مختطفة بحيث لا يصدق بذلك إلا من له مزيد اختبار» ونقل له نموذجاً من قصيدة طويلة نظمها ارتجالاً على مرأى منه ومسمع :

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٢٣ - ٢٥.

فـــو أســـفـــاً ونحن بنو كـــرام	توارث فـــيـــهم علم وجـــود
ذوى الأعـــلام والأقـــلام طراً	يـــزيـــنـــهم المـــكـــارم والجـــنـــود
وهم قـــد ســـخـــروا شـــرقـــاً وغـــرباً	من الأقـــطار وافـــاهم وفـــود
وقـــد كـــانوا مـــلاذ الناس طراً	لكل مـــصـــيـــبـــة خـــصـــوا ونودوا
وقـــد كـــانوا أولى طول وملك	تطيـــعـــهم العـــســـاكـــر والجنود
وتخـــضع عند رؤيتـــهم رقـــاب	وترتعـــد الهـــزابر والفـــهـــود
فـــصـــرنا نحن فى وهن وهون	يرق لنا المعـــانـد والحـــســـود
سـعى فى الأرض طغـيـانـاً وعـدوا	مع الأحـــزاب شـــيـطان عنود
يشـــيع البـغـض بيـــن المؤمنـــيـن	فـــفـــر الجـــمع وانهـــزام الجنود
وكـــان الناس قـــبـــلاً فى شـــقـــاق	ونار الضـــغن يوقـــدها الوقـــود
وشب ضـــرام نيـــران النفـــاق	ونار البـــغى ليس لهـــا خـــمـــود
وفـى أعنـاقـــهم أغـــلال غـل	ومن حـــقـــد بأرجلهم قـــيـــود
وهم عن صـــالح الأعـــمـال رغـــبـوا	وقـد بعـدوا كـمـا بعـدت ثمـود(١)

وهذه مشاعر أديب عاصر الثورة الهندية ضد الإنجليز ١٢٧٣هـ وقد ضاع فيها ما كان يملك من مال وكتب. وبعدها كسرت شوكة المسلمين وحكم الإنجليز شبه القارة.

ومن هؤلاء أيضاً نذير أحمد المتوفى سنة ١٣٣٠هـ وهو أديب مشهور فى اللغة الردية له كثير من المصنفات قيل إنه كان عالى الكعب فى الفنون الأدبية العربية. وله روايات كثيرة بالأردية مشهورة مثل بنات النعش ومرآة العروس وتوبة النصوح وابن الوقت وغيرها وهى روايات تعليمية اخلاقية. قال يمدح السير وليم ميور الإنجليزى :

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٢٢٧ - ٢٢٨.

تمنيت أن القلب كان لساني ... يبوح بسر يحتويه جناني
فإني إذا ما رمت إظهار شكركم ... تقصر عنه منطقي وبياني
ولم أر قبلي قط من نال غاية ... تخلف عنها أهل كان زمان
يلاطفه بحر الندى وعبابية ... ويكرمه ليث الوغى وطعان
دعاني فأدناني وأعلى محلتي ... وأجلسني من قربه بمكان
وزودني ما إن تنوء بعصبة ... أولي قوة لهذ أشق عوان
نقودي فلي في إلفه ألف حاجة ... قضاء ديون وافتكاك رهان
وغيرهما ما لا أكاد أعدها ... وذا ساعتي صيغت من العقيان
أقلدها جيدي ليعلم أنني ... لسر وليم في ربقة الإحسان [1]

ومن تلامذة السهارنپوري في الشعر السيد محمد عرفان الطوكي المتوفى سنة ١٣٣٢هـ له أشعار رقيقة منها ما قاله يعاقب صديقاً له :

ما لي أراك نسيتني وتركتني ... من بعد حب خلته مستحكما
وعيادة مسنونة وزيارة ... منكم أخي تلطفاً وترحما
أظننت أني قد رئت قصدكم ... وزعمت شيئاً لم يكن أو يزعما
يا صاح إني أشتد دائي بعدكم ... يوماً فبت توجعاً وتألما
وشربت يوماً مسهلاً لي ثالثاً ... قد كان أمر الله أمراً مبرما
وقعدت ضعفاً بعده ونقاهة ... قد صد أن أمشي وأن أتعلما
ما كان ضرك لو أتيت فزرتني ... وجلست عندي ساعة متكلما

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٤٩٥ - ٤٩٦.

وقال يرثي ابن عمه :

جل المصـــاب وعم خطب فـــادح	حـــزن القلوب وفـاضت العـــينان
إنا رزئنا خــيـــر إخـــوان لنا	من آل عـــثـــمـــان ومن عـــرفـــان
إنا رزئنا من يعـــز نظيـــره	فـــينا ومن هو نخـــبـــة الإخـــوان
قـد كـان محـمـوداً مـهـدياً ومن	آل النبي خـــلاصـــة الإنســـان
قـــد كـــان ذا رفق بنا وطبـــيـــبنا	عـــضـد العـشـيـرة عـمـدة الجـيـران
قـــد كـــان ذا خلق يمازح دائمـــا	طلق المـيـــحـــا ضـــاحك الأسنان
فليـــبكه المرضى الذين إذا أتوا	ذهبـــوا به مـــعـــهم بكل أوان
قـد كـان يخـدم من يداوي خـدمـة	بيـــديه والرجلين ثم لســـان
ولـربمـا أعـطى الـداو مـن عـنـده	لله مـــحـــتـــســـبـــاً ليـوم ثان

ومن شعره يناجي ربه :

يا ســـيـــدي يا ســـيـــدي	ارحم وخـــذ كـــرمـــاً يدي
أنـــت الـــكـــريم المـــرتجـى	ذو رحـــمـــة بالأعـــبـــد
وفـــق لمـــا تـــرضـى لـــنـــا	يا ربـنـا وتـهـــجـــد
واغـــفـــر لعـــبـــدك مـــا جنى	بخطائه وتعـــمـــده (١)

وقد مر بك شئ من نثر ألطاف حسين حالي المتوفى عام ١٣٣٣هـ، ولم يكن يعرف بين أدباء العربية بل حاز كل شهرته بسبب شعره ونثره في اللغة الأردية. لكن نماذج شعره التي جمعها الحافظ يعقوب تدل على رسوخ قدمه في النظم العربي. يقول في قصيدة بعث بها إلى شخه شاه عبد الغني وكان يقيم في المدينة المنورة :

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٤٤٠ - ٤٤٣.

هوى الحوار بلوى كل حبور نادب　　وفتنة قسيس وزلة راهب
وهزم لمنصور وفتح لخاذل　　وعز لمغلوب وذل لغالب
وما من نساء الحى للعز مخلص　　بلمح فقد استأسرن أهل التجارب
وليس بداء كاد يشفي سيقمه　　صبابة قلبى بالعذارى الكواعب
قد اختطفت لبى وروعى مليحة　　بلطف مدار لا بعبس معاتب
معطلة الآراء من غير رقية　　مقتلة الأحشاء لا بالمضارب
وصاحبة العشاق لا فى مكارة　　وكاذبة الميثاق لا بالمراقب
لفى نظرة منها وغمز ولمحة　　بلاء لذى ورع إلى الله تائب
وكم من حياء دونها وتصخب　　وحسن من التقوى وخوف العواقب
عجبنا لما خر موسي صعقه　　ولكن رأينا عند كشف الجلانب
ذهبنا لنلهيها بنا عن مشاغل　　فجاءت وألهتنى عن الاشتغال بى
أشد بلاء وصلها من فراقها　　إذا كان عند الوصل خوف المراقب
أراقب وقت الوصل من غير موعد　　أصدق فى إقدامها قول كاذب
أليلاى ما أغناك عن شأن مولع　　له أنت فى دنياه قصوى المآرب
تناسيت فى ذكراك علماً وحكمة　　لأنضيت أياما إليها ركائبى
ذهبت بصبرى يوم أقدمت في الحمى　　نزلت وما أنزلت حمل المراكب
شغلت بلحظ قلبنا عن مشاغل　　صرفت برمز قصدنا عن رغائب
يغشى على أبصارنا منك جلوة　　كأنك فى الأستار من غير حاجب
عتابك حلو فى المذاق فعاتبى　　وضربك حتى للرقاب فضاربى
ودونك قلب العاذلين بنظرة　　لك الدين عند العاشقين فطالبى
أحبة لا تشكوا حزيناً فربما　　تهيج للأصحاب رنة صاحب
ذرونى وقلبى بالرزايا فإنه　　مصائب أخرى ذكر تلك المصائب

لقد قل عونی فی أخٍ وكثيرة كأنی غريب بين خل وقارب

ولی من موال إنما أنا بينهم بمنزلة الكرار بين النواصب

وفيما إلى سلمی وصولی فاننی ضللت سبيلی فی ضياء الكواكب

لا صبح يوم البين كالليل مظلما كأن صباحی قطعة من غياهب

كما أظلمت دهلی بتغريب كوكب مضئ على عرب عن الهند عازب

عروف غزير العلم هاد ومرشد جليل المساعی مستفيض المناقب

صبور على البلوی شكور على اللهی نفور من الدنيا إلى الحق راغب

مدار كمال مقتدی كل كامل محط رحال منتهی كل طالب

إذا ما قضی عدل صدوق إذا روی مصيب إذا أفتی إذا قال صائب

وحيد الوری عبد الغنی الذی له أوائل مرآة لكشف العواقب (١)

وشعر حالی كما تری فيه سلاسة وطرافة وفيه صور جيدة كقوله مثلاً :

ولی من موال إنما أنا بينهم بمنزلة الكرار بين النواصب

وقد أرسل إلى أصدقائه من لاهور بعد ما جاءها قادماً من دلهی ليرأس قسم الترجمة قصيدة قال فيها:

هل من يبلغ عن محصتور لاهور عن مبتلی فيه بعد الكور بالحور

إلى ديار بها سلمی وأهليها إن لم يكن فی زمان البين من خی

هل فيكم من يواسی حائراً أسفاً بما مضی من دوام والقرب الزور

ولم يزل حدثان الدهر يزعجنی يوماً بنجد ويوماً كنت فی غور

لكننی راسخ فی حبكم قدمی فلن أحول عن طور الی طور

إنی أحب وأهوی أن ألاقيكم وإن لم يكن نحوكم مسعای أو سيری

١- ضميمه اردو كليات نظم حالی : ص ١٢٥- ١٢٨.

إنى أرانى وقد أنضيت من نصب | بحيث لم أبق أن أمتاز عن غيرى
وإذ رأيت قضاء الله محتكما | رأيت نفعى طوى فيما يرى ضبرى
أرجو من الله بعد العسر ميسرة | إما على مهلة ما أو على فور(١)

وعبد الرحمن الغازيبورى المتوفى ١٣٣٤هـ كان أديباً شاعراً له ديوان بالأردية وقصائد عربية رقيقة منها قصيدة يقول فيها :

ظعنت سليمى فالسرور قبيح | والعين تذرف والفؤاد جريح
الصبر فى يوم الفراق محرم | أو ما ترى ورق الأراك تنوح
تسعى العواذل فى سلو صبابتى | او ما علمن بأننى لجموح
سأموت تبريحاً وما من عاشق | إلا ويفنى بالجوى ويطوح
العشق أمر لو أبوح بسره | تالله لم يك فى الدنيا مريح
لا عيب فيها غير أن فؤادها | إذ قيل جودى بالوصال شحيح
هى شادن أحوى وإن غذاءها | قلب المشوق المبتلى لا الشيح
شمس بها شمس السماء مضيئة | مسك اذا مرت عليك تفوح
وعيونها من وحش وجرة مطفل | ولها ترائب كالصباح تلوح
فى حبها قد جبت قفراً مورده | فى أرجل الخريت فيه بذوح
ما جاء مقو فيه قبلى واحد | تعوى الذئاب به ولى تسبيح
يا ويلتى ما فزت قط بمقصدى | بل مسنى من قطعة التبريح
لم يسمح الزمن المعاند بالذى | أغدو له متأسفاً وأروح
فالآن يا نفسى اشغلى بثناء من | ذكراه للقلب الحزين مريح(٢)

١- نفس المصدر : ص ١٢١ - ١٢٢.
٢- نزهة الخواطر : ٨/ ٢٤١ - ٢٤٢.

وشعره كما ترى فيه صور حلوة كقوله :

لا عيب فيها غير أن فؤادها ... إن قيل جودي بالوصال شحيح

ومن مشاهير العلماء في شبه القارة مولانا أنور شاه الكشميري (ت ١٣٥٢هـ) وقد مر بك شئ من شعره وله مؤلفات كثيرة في مجال الدراسات الاسلامية وقصائد عربية منها قصيدة يمدح فيها شيخه رشيد أحمد منها قوله :

قفا يا صاحبي عن السفار ... بمرأى من عرار أو بهار
يسير بنشرها نفحات أنس ... ورياً عند محي من قطار
يفيض لروحها رشحات قدس ... حياة للبراري والقفار
وقد عادت صباها من رباه ... بأنفاس يطيب بها الصحاري
فيسري في قلوب الصحب وجد ... بأطراف الحديث لدى اعتبار
أطيب لنشره نفساً ونفساً ... فأروي من روايات الكبار
أتابعهم ويميلني دموعي ... حديثي من شيوخي لادكار
أجلهم وأبجلهم مقاماً ... أبو مسعود هم جبل الوقار (١)

ومنهم كذلك عبد الغفور الدانابوري قال عبد الحي اللكنوي إنه كان صديقه ولم يعثر له على تاريخ وفاة لكنه ذكره في أعيان القرن الرابع عشر الهجري، وأورد له نموذجاً من شعره قال فيه :

بانت سليمى فما شئ يسلينا ... ولوعة البين يشوينا ويصلينا
قامت تودعني والهجر يمنعها ... وقمت عانقتها والحزن يبكينا
تقول صبراً جميلاً لا تمت أسفاً ... أعطاك ربي غداة البين تسكينا
فيا لها تركتني هائماً قلقاً ... وودعتني وداعاً لا تباليـنا
القلب ملتهب والعين ذارفة ... وشب نار الهوى والدمع يروينا

١- نزهة الخواطر : ٨ / ٨٣ - ٨٤.

غـيـداء فـاتنة هيـفـاء ناعـمـة تحكى نسيم الصبا أعضاؤها لينا
شـمس اذا طلعت برق إذا برزت فـتـانة بسـهـام العين ترمينا
كـأنهـا فى ظلام الليل إذ خـرجت برق تنور من تلقـاء بلقـينا
خـود غـدائرها طالت إلى قـدم والفـرع يحكى سـواداً من ليـالينا
نفديك شوقاً تعالى واسمحى كرماً اللحظ من طرفك المراض يشفينا
حـتـام نشكو بقلب نازح قلق متنا وإن لقـاء منك يحيينا
مـاذا جنينا وليس الحب معصية بأى ذنب هداك الله تقلينا
مـالت إلينا فـولت بعد مـا ركنت صدت فسلت لنا سيفاً وسكينا[١]

وشعره مسبوك كما ترى لو توفرت نماذج أخرى منه لربما وجدنا فيها جمالا أكثر من هذا. وواضح أن الشاعر وضع أمامه قصيدة ديوان الحماسة التى مطلعها «انا محيوك يا سلمى فحيينا» ونسج على غرارها.

والسـيد محمد الحسينى الكالبوى تتلمذ فى الأدب على السهارنبورى أيضاً، ولم أقف على تاريخ وفاته إلا أن اللكنوى ترجم له فى رجال القرن الرابع عشر الهجرى وقال لـه قصائد غراء أنشده منها واحدة فى مدح النبى عليه وآلـه الصلاة والسلام هى قوله :

مـاذا على بدمع خـالط العلقـا أم ارتدى علقـا أو ألبس الشـقـقـا
هيـجت طوفـاناً إذا سـحت له أجـفـان عـينى والآمـاق والحدقـا
اختـرت حـبـا ولم أدرك عـواقـبـه يارب سـهل ويسر كيف مـا اتفـقـا
بئس الذى هو دون العشق مـصطبـر وبئس دون عـزاء القلب من عـشق
قـصـدى لقـاء سليمى قصـد مفتـقـد عندى النوى وغـراب البين قـد نعـقـا

١- نفس المصدر : ٨/ ٢٧١ - ٢٧٢.

إلى عني جـــزاها الله إذ نظرت ترمي بسهم أصاب القلب فانفلقا
لا الصدر لا القلب لا الأحشاء لا كبدى ما كان من لوعة الأشواق محترقا
يحكى الجحيم معاذ الله من خلدى ما دمت حياً فلى قد شاء مرتفقا
ما بال صب وكتم الحب مقصده أجفانه ذرفت والقلب قد خفقا
ماذا يفيد ملام الناس في رجل لم يترك الحب إلا روحه رمقا
تبـــأ للائم صب لا يزال به حب النبى رســول الله ملتص
بدر ســراج منيــر نيــر قم قد نور الأرض والأفلاك والأفقا
أنور بوجهك يا من حسنه عجب كأن وجهك شمس ضوؤها شرقا (١)

وفى هذه القصيدة صورة جميلة إذ قال :

ماذا يفيد ملام النـــاس فـى رجـل لـم يترك الحـب إلا روحه رمقا

أولئك هم أشعر وأشهر الشعراء ولا أظن أننى أتممت الحديث عن شعراء العربية فى شبه القارة لعدة أسباب :

الأول : أن كتاب الطبقات والتراجم أهملوا فى الغالب شعراء العربية الذين عاشوا فى المناطق الجنوبية من شبه القارة فى غولكنده وبيجابور وكيرالا ومدراس حيث قامت فيها دويلات مستقلة عن الامبراطوريات التى توالت على الجزء الشمالى من شبه القارة بسبب اختلافهم فى المذهب. فدولة كدولة العادلشاهية رعت الأدب والأدباء فى غولكنده والمناطق المجاورة لها لكن مؤلفى الشمال أغفلوا دورها. وقد وقع بصرى أثناء البحث على كتاب بعنوان «شعراء العربية فى غولكنده» ولم أقف على اسم مؤلفه، ولم أجده فى المكتبات هنا، ولو وجدناه لأضاف الكثير إلى بحثنا. ولا شك فى أن الاحاطة بشبه القارة كله أمر عسير. وكما اختفى عنا إنتاج الجنوب، استتر عنا كذلك إنتاج الشرق

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٤٠٠ - ٤٠٢.

فى البنغال وآسام والبنجاب، وقد رعت هذه المناطق فى زمن الدول الاسلامية والاستعمار الإنجليزى فيما بعد آداب اللغة العربية ، وفيها بالتأكيد عاش شعراء وأدباء أغفلت كتب الطبقات عند الشماليين ذكرهم. ولهذا السبب لا نعتقد أن بحثنا هذا تام كامل، لكن عزاءنا أننا حاولنا ولم نوفق، واعترفنا بالنقص، وأشرنا إليه. وكم كان بودنا الاطلاع على الآداب العربية فى كل أطراف شبه القارة لكى نقف على حقيقة صورتها ووضعها.

الثانى : أن كتب الطبقات التى صنفت هنا هى إما بالعربية واما باللغات المحلية، فأما التى باللغات المحلية فلم تعرض نماذج من الشعر العربى لكون ذلك غير مهم لقارئيها، وأما التى بالعربية فاختلفت مشارب أصحابها وأكثرهم لم يهتم بالجانب الأدبى بل بالناحية التاريخية، ولذلك لم نجد فيها ما يفى بحاجتنا. ولعل أهم هذه الكتب نزهة الخواطر التى اعتمدنا عليها كثيراً فى نقل نماذج الشعر لأن مصنفها عبد الحى اللكنوى لم يغفل هذا الجانب.

الثالث : أن منطقة مثل ساحل مليبار الذى يعتبر أول منطقة دخلها الاسلام فى شبه القارة تعتبر منطقة هامة إلا أننا لم نجد لها ذكراً فى طبقات أهل الشمال. وقد عثرت على كتاب واحد ألفه بعض أهلها فوجدته كنزاً يحوى بداخله جواهر عديدة فالتقطت بعضها كما سترى على صفحات الأبواب القادمة. ومن هذا اخترت نماذج شعرية لشعراء ساحل مليبار منها قصيدة غير منقوطة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم للقاضى عمر بن على المشهور بالقاضى البلنكوتى المليبارى قال فيها :

لاح الهـــلال هلال لامع العلم	لله داع رسول الله للأمم
الحاكم العادل الصدر المعد له	كل المكارم سمح واسع الكرم
مدعو كل هو المأمول موعده	حال كلاماً وصول واصل الرحم
معط مكارمه مول مساله	مصم مصادمه معطر الأدم
محمد أحمد مكرم علم	مؤمل كامل مسدد الكلم

روح العـوالم سـعـد الله حـامـده حـام لعـاص إمـام الرسل كلهم
الطاهر الأصل مـسـعـود وللملل مـاح مكمل سـعـد الحل والحـرم [1]

وله أيضاً قصيدة كل حرف فيها منقوط، منها :

جـفـتنى فـذبتنى فـغظت بغـيظة فـذبت بشـجن بين جنبى يخـفق
يشـقـقنى شـغـفى فـخـفت تجننى بـنشق شـذى فى نـبى ينشق
نبى نجى فـيض غـيض بذى شـجى شـفـيق ينجى ضـيق ضـيق يفـتق
جنيت ففى ذنبى تقضت شبيبتى قنى خيـفـتى فى ضجـة بى تضـيق
نجـيب بنى نجب تقى فـينتـخب فظنى بغـيث نخبـة فى يشـفق [2]

ولعبد القادر المليبارى قصيدة فى مدح النبى (ﷺ) رتب أول حرف من كل شطر من أبياتهاعلى الحروف الأبجدية متوالية فقال فيها :

الألـف أمـان للخـلائق كل حـال أمين ذو المكارم والمعـالى
البـاء بديع الحسن سامى المجد عال بهى الوجـه ثغـره كـاللآلى
التـاء تقى القلب خيـر الخلق فيـه تمام ملوك أرض كـالموالى
الثـاء ثمـال للأرامل واليـتـامى ثرور الجـود فى أهل امـتـثـال
الجـيم جليل النعت ليس له مـثـيل جـمـيل الذات بحـر للنوال
الحـاء حـوى كل المكارم والمزايا حـبـيب للاله ذى التـعـالى
الخـاء خليل الله أصل وجـود خلق ختـام الأنبـيـا عـالى العـوالى
الـدال دوام الـدهـر دام لـديـه فـض دهى إرسـاله أهل الضـلال
الـذال ذكـى ذهـنـه فـطـن بـلـيـغ ذرى كل الفـضـائل فـيـه عـالى

١- جواهر الأشعار وغرائب الحكايات والأخبار، عبد القادر بن يوسف الفضفرى المليبارى، ص ٢٨١-٢٨٢، طبع تروتانكور بالهند سنة ١٣٥٨هـ.
٢- جواهر الأشعار : ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

الـــرا،	رسـول الله اسـوة أهل دبر	رؤف المـؤمـنـين بـــلا زوال
الـــرا،	رمـام الخـيـر أجـمـعـه لديه	رهى فـوق كل فـى المـعـال
السـين	سـراج سـار كـالبـدر التـمـا	سـرى ليـلاً الى عـرش الجـلال
الشـين	شريف الأصل والنسب العريق	شـفـيع الخلق مـنج من نكال
الصـاد	صدوق القول ذو النطق الفصيح	صـفى الله ذو وصف الكمـال
الضـاد	ضـيـاء للوجـود له الظبـاء	ضـبـاب البـر شـاهدة المقـال
الطـاء	طويل نجاد سيف الفصل جداً	طبـيـعـتـه مـركـبـة الجـمـال
الظـاء	ظهـيـر للأقـارب والأباعـد	ظلام الكفـر أجلى بالقـتـال
العـين	عظيم القدر ذو الخلق العظيم	عـديم المثل فى خـيـر الخصـال
الغـين	غـيـاث للأنام وغـيث بر	غـزا الأعـدا بسـيف والجدال
الفـاء	فـتـو حـات الإله له كـثـيـر	فـضـائله تزيد على الرمـال
القـاف	قـديم النور قـبل أبى الأنام	قـبـاب جـبين آب كـالهـلال
الكـاف	كريـم لايـدانيـه كـريـم	كـحيل الطرف من غـيـر اكـتـحـال
الـلام	لئن شطراً لحسن نال يوسف	لأنت الأصل فـيـه بالكمـال
المـيـم	مـحـيـاك المليح لنا مـلاذ	مـلاح حـلاك تدعـو الوصـال
الـنـون	نحبك من صميم القلب حقاً	نعـادى من تعـادى لا نبـالى
الـواو	وإنك انت ذو جـاه عـريض	وسـيلتنا بدنيـا والمآل
الهـاء	هبـات صـلاة رب العـالمينا	هديات السـلام كـالغـوالى
اليـاء	يفيض عليك صبهما دواماً	ينابيـعـاً وأصـحـاب وآل (١)

وله تخميس للقصيدة المسماة بسمر السرى فى مدح خير الورى وأصلها فى نزهة المجالس فصل المعراج ونسبها بعضهم إلى البوصيرى ثم خمسهاعبدالقادر المليبارى سنة ١٣٤٧هـ وجعل أوائل مصاريعها كلها اسم محمد مجاراة للأصل. ومنها :

١- جواهر الأشعار : ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

محمد أفضل المخلوق ذو العصم　　محمد صاحب القرآن والحكم
محمد قاسم الأموال والنعم　　محمد أشرف الأعراب والعجم
محمد صادق الأفعال والكلم
محمد جاءنا للرسل خاتم　　محمد فائض النعماء وافرة
محمد منبع الخيرات راتبة　　محمد تاج رسل الله قاطية
محمد خير من يمشي على قد
محمد سائف للكفر جادع　　محمد راحم للخلق نافعه
محمد ساخط للذنب قاطع　　محمد باسط المعروف جامعه
محمد صاحب الإحسان والكرم
محمد للنفاق الكفر غالظه　　محمد هادم للشرك غائظه
محمد مظهر للحق لافة　　محمد ثابت الميثاق حافظه
محمد طيب الأخلاق والشيم (١)

هذه النماذج تقول باختصار إن فى جنوب الهند عامة وساحل مليبار بجنوب الهند خاصة تراثاً أدبياً عربياً لم يصل منه إلينا إلا القليل. وسيأتيك ذكر منظومة فتح المبين التى نظمها عبد العزيز الكلياكوتى المليبارى فى قصة دخول الاسلام الى هذه المنطقة واحتلال البرتغاليين لها وهى منظومة نادرة.

٢- نفس المصدر : ص ٢٨٥.

الفصل الثالث

شروح الشعــر

اشتـهـر من الأدب العربى وسط المدارس وبين الأدباء فى شبه القارة ديوان المتنبى وديوان الحماسة والمعلقات السبع وقصيدة بانت سعاد وقصيدة البردة، وذلك لأنها أدخلت فى مناهج الدرس فعرفت بين الناس كنماذج أدبية تحتذى.

من أجل هذا تناولها الأدباء بالشرح فوجدنا شرح ديوان المتنبى لإبراهيم بن مدين الله النكرنهسوى، وشرحه للشيخ أوحد الدين البلكرامى، وشرحه لمعشوق على بن غلام حسين الجونبورى وشرحه لعلى بن عظيم الدين الجهجرى وشرحه لعبد المنعم الشاتكامى وشرحه لمحمد بن أحمد الطوكى، وهذه الشروح كلها بالعربية علاوة على شروحه باللغات الأخرى.

أما ديوان الحماسة فقد شرحه عبد القادر الكوكنى والقاضى نجف على بن عظيم الدين الجهجرى وذو الفقار على الديوبندى وفيض الحسن السهارنپورى وشرحه هو أحسن الشروح وقد انتقد فيه التبريزى.

وشروح المعلقات السبع كثيرة منها شرح عبد الرحيم بن عبد الكريم الصفيبورى وشرح رشيد النبى بن حبيب النبى الرامبورى وشرح ابى الحسن بن نقى شاه الكشميرى وشرح بعضها عبد الأول بن كرامت على الجونبورى وشرح ثلاثة منها عبد الحى الحسنى اللكنوى، وشرح معلقة امرئ القيس بهادر يارجنك، وأحسن الشروح شرح فيض الحسن السهارنپورى.

وأما قصيدة بانت سعاد فقد شرحها كثير من الأدباء منهم القاضي شهاب الدولت آبادي ومحمد غوث بن ناصر الدين المدراسي وغيرهما.

كذلك تناول الأدباء قصيدة البردة بالشرح ومنهم القاضي شهاب الدين الدولت آبادي ونظام الدين اللاهوري ومحمد شاكر بن عصمة الله اللكنوي وذو الفقار علي الديوبندي وجان محمد اللاهوري ومنور بن عبد المجيد اللاهوري والقاضي ارتضا عليخان الكوباموي ونجف علي بن عظيم الدين الجهجري ويوسف علي بن يعقوب علي الكوباموي وغيرهم (١).

وقد اخترنا في هذا الفصل نخبة من الشروح وأضفنا إليها نماذج مما كتب عن غير هذه الدواوين والقصائد مما يتعلق بهذا الباب مثل كتاب شفاء العليل في إصلاح كلام المتنبي لآزاد، وكتاب الميمني عن المعري وكتاب الدكتور ظهور عن أبي العلاء اللاهوري.

ومن حسن الحظ أننا وجدنا شرح السهارنبوري لديوان الحماسة والمسمى بشرح (الفيضي) ضمن رسالة للحصول على الدكتوراة في اللغة العربية من جامعة البنجاب قدمها سعيد إقبال الأستاذ بالكلية الإسلامية في لاهور.

يقول السهارنبپری في مقدمة شرحه : «... وبعد فيقول الفيض الأثيم الملتجئ إلى ربه الكريم إن الحماسة كان كتابا متداولاً ولكن لم يكن شرحه الذي ألفه وأنشأه العلامة التبريزي متناولاً، لإهماله ما لا ينبغي أن يهمل، واشتغاله بما لا يجب أن يشتغل، ومع كونه أطول طويل لم يكن يشفي أكثر عليل. فكنت على أن أشرحه شرحاً لا يكون مملاً ولا مخلاً، ولا يرد شائقاً مطلاً، حتى فرضني عليه ما كان في نفسي من حب المدارس الإسلامية ولا سيما السهارنفورية والديوبندية وقاهما الله، فقمت مشمراً عن ساق الجد وباذلاً ما بي من الجهد، وباحثاً عن اللغات والصلات، وكاشفاً عن المشكلات والمعضلات ثم عن معاني الأشعار والقصص والأخبار، ومبيناً للأسماء والأنساب التي

١- الثقافة الإسلامية : ص ٥٦ - ٥٧ بتصرف.

لم يذكرها الشارح ولا المؤلف فيما بقى إلا قليلاً، ومظهراً للأغلاط الفاحشة بالتفصيل على قصد الإصلاح والتعديل، ومصرحاً بما ذكره الشارح من الأسماء والأنساب وما لم يذكره ليحصل التمييز ويرتفع الارتياب، ومشعراً بأن الشاعر جاهلى أو مخضرم أو إسلامى حتى أتمته، وأسميته «بالفيضى». [1]

ويقول بعد ذلك مثلاً :

«وقال بعض قيس بن ثعلبة

والصواب أنها لبشامة بن حزن النهشلي، وهو شاعر إسلامى، ويدل عليه قوله : (أنا بنى نهشل لا ندعى لأب)، فإن بنى نهشل من دار من مضر وبنو قيس بن ثعلبة من ربيعة وبينهما بون بعيد. وجواز أن يكون هذا الشاعر من بنى نهشل الذين هم بطن من ربيعة وهم المراد فى قول أبى النجم : (بين رماحى مالك ونهشل) لا يستلزم أن يكون من قيس بن ثعلبة، وإن كان من ربيعة. وقيل إن الأبيات الأول لبشامة بن حزن والأخر لمرقش الأكبر وهو من بنى ثعلبة فإنه عوف أو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، وقال فى الكامل : إنها لرجل من بنى نهشل يقال له أبو مخزوم، هذا وحقيقة العلم عند الله.

إنا محبوك يا سلمى فحيينا   وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

من ثانى البسيط والقافية متواتر. يقال حياه إذا سلم عليه أو قال له : حياك الله. وكاف الخطاب مكسورة ، وحيى أمر مخاطبة منه. يقول: إنا مسلمون عليك أو قائلون لك حياك الله يا سلمى فقولى لنا مثل ما قلنا لك. وإن سقيت كرام الناس فاسقينا فإنا نحن قوم كرام.

وإن دعوت إلى جلى ومكرمة يوما   سراة كرام الناس فادعينا

الجلى : الأمر العظيم، ويكنى به عن البأس الشديد. والمكرمة الجود والخير، وسراة كل شيئ أعلاه. يقول : وإن دعوت سادات كرام الناس إلى مدافعة الأعداء والبأس الشديد وقرى الضيوف مثلا فادعينا فإنا أجدر بذلك.

١- فيض الحسن السهارنبورى حياته وأعماله، ص ٥٨١.

إنا بني نهشــل لا ندعــى لأب   عنــه ولا هــو بالأبناء يشرينا

نصب بني نهشل على أنه بدل من ضمير المتكلم أو على المدح أو الاختصاص كما في قوله : (إنا بنى منقر قوم ذوو حسب) ويقال ادعى فلان عن أبيه إلى زيد إذا عدل عن أبيه في انتسابه إلى زيد فاللام بمعنى إلى، والشراء في معنى البيع، وكنى به عن الذل والهوان، فإن الإنسان لا يبيع شيئاً إذا كان عزيزاً عنده. يقول : إنا بنى نهشل لا نعدل عن أبينا نهشل بن دارم إلى أب آخر سواه فإنه كريم علينا وهو لا يبيعنا بالأبناء الآخرين فإنا كرام عليه.

إن تبتدر غاية يوماً لمكرمــــة   تلق الســـوابق منا والمصــلينا

الابتدار الاستباق والفعل مجهول. والسوابق جمع سابق هو الفرس الذى يسبق أفراس الرهان ويقال له المجلي وبعده المصلى ثم المسلى فإنه يسلى صاحبه ثم التالى ثم المرتاح ثم العاطف ثم المؤمل ثم الحظى بالمعجمتين ثم اللطيم ثم السكيت مصغراً. يقول: إن يسبق الناس غاية لمكرمة يوماً تلقى السوابق والمصلين منا وباقى الأقسام منهم.

وليس يهلك منا ســـيد أبــداً   إلا افتلينا غلاماً ســـيداً فينا

يقول لا يهلك منا سيد فى وقت من الأوقات إلا فطمنا رضيعاً مناً يستحق السيادة فيصير سيداً، أى كل طفل رضيع منا جدير بالسيادة فما ظنك بالشبان والكهول.

إنا لنرخص يــوم الروع أنفسنا   ولو تسام بها فى الأمــن أغلينا

الإرخاص ضد الإغلاء. والروع الخوف والحرب. والسوم قصد الشراء يقال سامه بسلعة، متعد. وأصل أغلينا: أغلين على أنه ماض مجهول من الإغلاء فالألف للإشباع، والضمير للأنفس. يقول : إنا لنجعل نفوسنا رخيصة يوم الفزع كأنها تباع بشئ قليل أى لا نعدها كريمة عزيزة ولو سامنا بها أحد فى زمان الأمن جعلت غالية، أى لا نبذل بها أصلاً، حاصله إنا نهين أنفسنا يوم الخوف ونكرمها يوم الأمن.

بيـض مرافقنا تغلـى مراجلنا   نأسو بأموالنا آثــار أيدينا

كنى ببياض المفارق عن سيادتهم ورياستهم فإن الملوك كانوا يستعملون المسك فى مفارقهم فيبيض مفارقهم ولذلك قال قائلهم :

ويظهر شيب العبد فـى نقرة القفا   وشيب كرام الناس فوق المفارق

ويجوز أن يكنى به عن انحسار شعر الرأس لكثرة لبس المغفر، قال :

قد حصت البيضة رأســى فما   أطعم غمضا غيـر تهجاع

وأسا الجرح : داواه، يقول : نحن ملوك كرام نستعمل المسك فى المفارق أو شجعان أبطال نلبس المغافر فى الحروب أسخياء تغلى مراجلنا للأضياف النازلين، أعزة نداوى جراحات أيدينا بالأموال أى نعطى الديات ولا يقدر أحد على أن يأخذ الثأر منا.

إنى لمن معشـر أفنـى أوائلهم   قول الكماة ألا أين المحامـونا

يقول : إنى لمن معشر كرام أفنى أباءهم وأجدادهم قول الشجعان خطاباً لهم او تعريضاً بهم أين الذين يحامون أحسابهم وحقائقهم ففطنوا بمرادهم وقاتلوا وقتلوا.

ولو كان فى الألف منا واحد فدعوا   من فارس ؟ خالهم إياه يعنونا

الضمير فى دعوا للألف أو الأعداء ، ومن استفهامية. وخالهم حسبهم، وعنى أراد والألف للإشباع والجملة جواب لو، يقول : لو كان واحد منا فى ألف رجل فدعوا من فارس فينا أو فيكم مبارز حسبهم إياه يريدون لا غير بما تقرر فى نفسه أنه فارس لا غير.

إذا الكماة تنحـوا أن يصيبهـم   حد الظباة وصلناها بأيدينا

الظبة حد السيف وأراد بها السيوف يقول : إذا اتخذ الشجعان ناحية من النواحى مخافة أن ينالهم حد السيوف وصلنا السيوف القصار بأيدينا الطوال فضلاً عن أن نقف أو نفر.

ولا تراهم وإن جـلت مصيبتهـم   مع البكاة على من مات يبكونا

يبكون فى محل النصب على أنه مفعول ثان للرؤية أو حال يصفهم بالصبر على المكاره ومقاساة الشدائد فيقول : ولا تراهم يبكون مع البكاة على من مات منهم وإن جلت المصيبة.

ونركب الكره أحياناً فيفرجه عنا الحفاظ وأسياف تواتينا

الكره المكروه وعنى به القتال، قال تعالى : «وهو كره لكم» والحفاظ محافظة الأحساب، والمواتاة : الموافقة. يقول : نركب القتال فيكشفه عنا محافظة الأحساب والأسياف التى توافقنا ولا تخالفنا بالخيانة والغدر». (١)

وواضح فى هذا النص ما قرره المؤلف لنفسه من منهج فى مقدمة الكتاب من تصويب للتبريزى وتبسيط لشرحه وتنبيه على ما ينبغى التنبيه عليه.

ومن شروح المعلقات ما كتبه محمد يارجنك بهادر (ت ١٣٦١هـ) لمعلقة امرئ القيس وهو شرح للشعر بالشعر إن صح التعبير. فالمؤلف يشرح ألفاظ القصيدة مستشهداً على كل لفظ بمعناه كما استخدمه شعراء العرب. وقد أسمى المؤلف شرحه هذا بأحسن السبك فى شرح قفا نبك، يقول مثلاً :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى

قوله «وليل» الواو واو رب والليل معروف وهو قطعة محدودة من الزمان من لدن الغروب إلى الطلوع ويجمع على ليالى، قال النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قوله «كموج» الكاف للتشبيه والجر والموج معروف وهو دفعات الماء التى تظهر على وجه البحر عند اضطرابه واحدته موجة ويجمع على أمواج ويكون من شدة الريح. قال بشر بن أبى خازم.

يمر الموج تحت مسخرات يلين الماء بالخشب الصحاح

وهو مشتق من الموجان وهو الاضطراب والحركة تقول ماج البحر والجيش يموج موجاناً وموجاً إذا تحرك واضطراب من كثرته. قوله «البحر» معروف وهو كل ماء مجتمع بعيد القعر والأطراف بحيث تجرى فيه السفن. قال جميل بن معمر.

١- فيض الحسن السهارنبورى : ٢ ٦١٧ - ٦١٩.

وددت بحبى يـا بثينــة أننا   على دسر فى البحر ليس لنا وفر

وجمعه أبحر وبحار وبحور وتصغيره بحير والبحيرة ماء يجتمع من الأمطار وغيرها متسع الجوانب قليل الماء بالنسبة إلى البحر تغلب عليه العذوبة والتبحر فى الشئ التوغل فيه والتضلع منه وأبحر اذا سافر فى البحر ضد أبر إذا سافر فى البر واستبحر الماء صار بحراً والبحر الشق ومنه سميت البحيرة لأنهم كانوا يبحرون أذنها أى يشقونها.

قوله «أرخى» من الإرخاء وهو الإطلاق والإرسال وتطويل المشدود وتوسيعه تقول أرخى الثوب والحبل وأرخيته إذا أرسلته أو طولته وأرخت المرأة برقعها وخمارها على وجهها وجسمها إذا أرسلته وسترته به وهو من الرخاوة وهى ضد الصلابة والشد والانقباض.

قوله «سدوله» السدول جمع سدل بالكسر وهو الستر والسدل بالفتح مصدر سدل يسدل أى ستر. قال الحارث بن عباد:

قامت تريك أثيث النبت منسدلاً   ومـاء عينين لم يأخذهما الرمد

منسدلاً أى ممتداً.

قوله «على» على حرف جر والياء ضمير يعود إلى المتكلم، قوله «بأنواع الهموم» الأنواع الأقسام والأصناف واحدها نوع والهموم جميع هم وهو ما يخطر على القلب من أمر المعاش وغير ذلك. قال قيس بن زهير العبسى :

فجعونـــى بمالك بـــن زهيـــر   وحملت الهموم ثم الغمومـا

ويختص الهم بالمستقبل والغم بالماضى وينتج من الغم غلبة النوم وقلة الكلام ومن الهم القلق والاضطراب والأرق ونحافة الجسم وتغير اللون. قال الشاعر ÷

إن الهمـــــــــوم صغيرهــــا   ممـا يشـــيب لـه الصغير

قال المتنبى :

والهم يخترم الجســوم نحافـة   ويشيب ناصية الصبى ويهـرم

والهم الاهتمام بالأمر وهو التهيؤ والاستعداد للشئ تقول هم بكذا إذا تهيأ وأراد أن يفعله وأهمنى هذا الأمر أى اوجب شغل فكرى واهتم بكذا أيضاً استعد وتهيأ وعزم.

قال ضابئ :

همت ولم أفعل وكدت وليتنـى ... تركت على عثمان تبكى حلائله

وإنما خص الليل بتوارد الهموم دون النهار لأنه لباس وسكن تهدأ فيها الأصوات والعيون وتستريح الأبدان ويتفرغ البال من الكد فى المعاش وهناك تطرأ جيوش وعساكر الغموم للخلو والفراغ وذلك بخلاف النهار لما ذكر. قال جميل بن معمر العذرى:

أقضى نهارى بالحديث وبالمنـى ... ويجمعنى والهم فى الليل جامع

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا ... لى الليل هزتنى إليك المضاجع

وإنما أتى بالجمع ولم يأت بالمفرد ليعلم أن الهموم مختلفة المصادر والأسباب كهم الفراق وهم الخوف وهم الغزو وهم اللذة وهم الملك وغير ذلك فأخبر بتعاور أنواع الهموم وأقسامها ليكون معذوراً فى الشكوى.

قوله «ليبتلى» أى ليختبر من الابتلاء وهو الامتحان والتجربة تقول بلوته وابتليته إذا جربته ومنه الحديث «إذا أحب الله عبدا ابتلاه». وقوله تعالى «ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع». وقول النابغة الذبيانى :

يأتى البلاء فلا نبغى بـه بـدلاً ... ولا نريد قضاء بعد إحكام

سكن الياء فى ليبتلى للوقف وأصله الفتح على النصب بأن مضمرة بعد لام كى.

والمعنى يقول ورب ليل كأنه فى شدة هوله وتعاور آفاته وتراكم ظلامه موج بحر زاخر قد أرخى على أطرافه وأستاره مع جميع أنواع الهموم وأصنافها ليبتلينى ويختبرنى أأصبر أم لا وفى هذا البيت التخلص وهو الانتقال من أسلوب إلى آخر يشبه الليل الشديد بالظلام الكثير الأهوال والغيوم والأمطار والرعود والبروق والرياح بأمواج

البحر. خص الأمواج بالذكر لترادفها واتصالها ببعضها وتسلسلها وعدم انقطاعها وارتفاعها وشدة جلبتها وهديرها وانزعاج النفس وغرقها فيها عند المشاهدة والدخول فى البحر خصوصاً إذا كان الأمر على ما وصف من احليلاك الليل وعظم أخطاره وكثرة أهواله. (١)

والنص بلا شك دليل على علو كعب المؤلف فى الشعر العربى وحفظه لكثير منه، لكن ما يؤخذ على هذا الشرح أن المعانى كثيراً ما تضيع فى زحمة الاستشهادات والأبيات، وإن كان مفيدا لمن اهتم بجمع وحفظ الشعر العربى لشرح معانى الألفاظ.

ومن أطرف الشروح وأنفعها لقصيدة كعب بن زهير بانت سعاد ما صنفه شهاب الدين الدولتآبادى المتوفى ٨٤٩هـ وكان يلقب فى عصره بملك العلماء وكان تلميذاً للقاضى عبد المقتدر الشريحى، وكان الدولتابادى أديبا بارعا، لعلك تذكر اسمه الذى تردد كثيراً ونحن نتكلم عن فنون الأدب وشروح الكتب العربية. والطريف فى شرحه لقصيدة كعب وقد سماه «مصدق الفضل» أنه لم يكتف بتناول القصيدة من جانب واحد بل نظر فيها ثم علق على كل بيت ببيان ما فيه من البديع والعروض واللغة والنحو والصرف والبيان والمعانى فجاء شرحه وافياً شافياً فاق ما قبله وتربع على عرش شروح هذه القصيدة التي اهتم بها أهل شبه القارة كثيراً. يقول الدولتآبادى :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول.

(البديع) وفى ذكر النور والاستضاءة وذكر السيف والسل مراعاة النظير وفى قوله لنور يستضاء به مبالغة مقبولة على وجه كما عرفت ومن المحسنات المعنوية فى البيت إيراد بعض الألفاظ محتملة المعانى كما عرفت.

(العروض) كل مستفعلن فى البيت سالم إلا الواقع فى صدر المصراع الثانى فإنه مخبون على مفاعلن وفاعلن الثالث سالم والأول والثانى مخبونان على فعلن والرابع

١- أحسن السبك فى شرح قفانبك، نواب محمد يار حنك بهادر، ص : ١٣٠ وما بعدها، حيدآباد، الهند، ١٣٦٠هـ.

مقطوع على فعلن تقطيعه : مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن مفاعلن فاعلن مستفعلن فعلن (فالحاصل) أنه يمدح النبى (ﷺ) قائلاً إن الرسول لنور أو ذو نور أو مثل نور يستضاء به أو هاد يهتدى به المؤمنون أو لسيف قاطع للخصوم مهند من سيوف عظمها الله بنبل الظفر أو صاحب سيف مهند أو مثل سيف مهند أو قاهر الكفرة كائن من الذين خصهم الله بقهرهم ولله دره ما أعجب شانه وما أعظم مكانه جمع الفضائل قضها بقضيضها «كفى بلولاك لما خلقت الأفلاك» على ذلك شهيداً أو حسبك «إنى لست كأحد منكم» على عظمته دليلا (اعلم) أن هذا البيت بيت القصيد ومقصود الإنشاد رخلاصة النشيب حوى أصناف اعتبارات البلاغة واشتمل على أنواع جهات البراعة عند انشاده ظفر صاحب القصيدة بما ظفر من نيل نواله عليه الصلاة والسلام وبلغ حين بلغه ما بلغ من ثمن حسن الكلام.

(ذكر) الشيخ المرشد قدوة الألباء وعمدة الأصفياء شيخ الشيوخ قطب الأقطاب غوث الآفاق شهاب الملة والدين عمر بن محمد السهروردى تغمده الله برضوانه وأسكنه بحبوحة جنانه فى كتابه المسمى (بعوارف المعارف) أن كعباً لما بلغ هذا البيت أعطاه رسول الله (ﷺ) برداً كان عليه فلما كان زمن معاوية رضى الله عنه بعث إلى كعب أن بعنا بردة رسول الله (ﷺ) بعشرة آلاف دينار فرده وكتب إليه ما كنت لأوثر بثوب رسول الله (ﷺ) فلما فمات كعب رضى الله عنه بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفاً وأخذ البردة وهى كساء أسود مرقع وهى البردة الباقية عند خلفاء بغداد توارثوها كابراً عن كابر.

فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما اسلموا زولوا

(اللغة) العصبة من الرجال ما بين العشرة إلى الأربعين كذا فى الصحاح وقريش قبيلة أبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى دون ولد كنانة ومن دونه قال الفراء وهو من القرش وهو الكسب والجمع يقال قريش يقرش من حد ضرب كذا فى الصحاح والقول معلوم والبطن خلاف الظهر وهو مذكر وحكى أبو حاتم عن أبى عبيدة تأنيثه أيضاً دون القبيلة ومكة البلد الحرام كذا فى

الصحاح وهى بلدة معروفة شرفها الله تعالى وحرسها ولما على أربعة أوجة ظرف زمان بمعنى حين وحرف استثناء بمعنى إلا نحو «إن كل نفس لما عليها حافظ». وجازمة للمضارع لنفى الماضى المتوقع نحو لما يركب الأمير وتثنية ماض مضاعف من اللم وهنا على الأول والإسلام الانقياد وزال الشئ من مكانه يزول زوالاً وأزال غيره وزوله فانزال كذا فى الصحاح.

(الصرف) العصبة اسم موضوع على فعلة بضم الفاء وسكون العين وقريش فى الأصل تصغير قرش للتعظيم كدريهبة ثم سمى به. وقال ماض أجوف بالواو من باب نصر وقد قلته من قبل والقائل اسم فاعل منه وأصله قاول انقلبت الواو لوقوعها فى اسم فاعل أعل فعله ألفاً ثم قلبت الألف همزة تحرزاً عن اللبس بالفعل بحذف الألف للساكنين. والبطن اسم موضوع ومكة اسم علم مضاعف واسلموا ماض معروف من باب الإفعال لجمع المذكر الغائب من السالم وزولوا أمر المخاطبين من زال يزول وأصله تزولون سقطت النون بعد حذف حرف المضارعة علامة للوقف.

(النحو) قوله فى عصبة خبر آخر لإن، وقوله من قريش صفة قوله عصبة أى أن الرسول كائن فى جماعة كائنة من قريش أو مبعوث فيهم أو متعلق بقوله مسلول أى لسيف مهند مسلول فى عصبة من قريش وقوله قريش إن اعتبر علماً للمكان يصرف لعدم السببين وإن اعتبر علماً للبقعة أو القبيلة يمنع من الصرف للعلم والتأنيث المعنوى ووزن البيت مستقيم على كلا الوجهين كما ستعرف فى علم العروض وقائلهم فاعل قال، والجملة صفة أخرى لقوله عصبة وإضافة قوله قائلهم معنوية بمعنى اللام لأنه إضافة الصفة إلى غير معمولها والضمير عائد إلى العصبة ويمكن أن يكون صفة أخرى لقوله عصبه وقوله ببطن مكة ظرف قال، والباء بمعنى فى أى من قريش كائنة فى بطن مكة قال قائلهم لما أسلموا زولوا ويكون تقديم وتأخير وفصل فيكون من باب التعقيد اللفظى فالأول أولى ثم البطن إن كان بمعنى وسط الشئ فإضافته بمعنى اللام، ولما ظرف زمان لقال، والجملة بعده أعنى قوله أسلموا مجرورة المحل على الإضافة، والجملة أعنى قوله زولوا مقول قال قائلهم فى بطن هو مكة أو فى وسط مكة وقت إسلامهم زولوا عن هذا المكان وهاجروا إلى مدينة. وقيل كان القائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله

عنه قال عبد الله بن عمر حدثني ابراهيم بن المنذر قال حدثني محمد بن الضحاك بن العثمان الخزاعي عن كعب لقوله قال قائلهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(المعاني) نكر قوله عصبة للتفخيم أو للتقليل أي في جماعة قليلة ووصفه بقوله من قريش وبقوله قال قائلهم للتخصيص وأورد المسند أعني قال فعلاً للدلالة على أحد الأزمنة مع اخصر وجه، وعرف المسند إليه أعني قوله قائلهم بالاضافة لأنها أخصر طريق إلى إحضاره وقيده بالظرفين والمفعول لتربية الفائدة وعرف مكة بالعلمية تعينها باسم يخصها ابتداء، وقوله زولوا من باب الإنشاء الطلبي وهو صيغة أمر أريد به الالتماس لوروده على سبيل التساوي لأنها قول بعض الأصحاب لبعضهم ويحتمل أن يحمل على السؤال لدخول النبي (ﷺ) وأبي بكر رضي الله عنه في العصبة المقول لهم زولوا فيكون هذا القول من عمر رضي الله عنه على سبيل السؤال دون الأمر والتساوي.

(البيان) البطن بمعنى الوسط يحتمل أن يكون مجازاً مرسلاً من البطن بمعنى خلاف الظهر لاستلزامه التوسط وهذا البيت شروع في مدح أصحاب النبي (ﷺ) ورضي الله عنهم، ووصف العصبة بكونها من قريش وقوله قال قائلهم زولوا كناية عن كمال قوتهم وغاية شجاعتهم : الأول فلأن قريشاً في كونهم شجعاناً أقوياء متهورون بأسرهم فكون العصبة من قريش يستلزم قوتهم وشجاعتهم وأما الثاني فلأن الجرأة على الهجرة والعزم على هجران الأوطان والخروج عن جماعة الأعداء مع كثرتهم واختيار المحاربة معهم في أرض الغير من أعلى مراتب الشجاعة وكلتا الكنايتان من باب الكناية المطلوب بها الصفة وفي قولهم قال قائلهم إشارة إلى أن الهجرة كانت بمشاورة الأصحاب واختيارهم اياها لمصلحة اعترتهم لا للجبن والفرار.

(البديع) وفي قوله قال قائلهم رعاية الاشتقاق.

(العروض) كل مستفعلن في البيت سالم إلا الواقع في صدر المصراع الثاني فإنه مخبون على مفاعلن وهذا على تقدير صرف قريش، وأما على تقدير منعه فمستفعلن الثاني أيضاً مخبون كالثالث وفاعلن الأول سالم وأما الثاني فمخبون على فعلن بالكسر والرابع مقطوع على فعلن بالسكون.

تقطيعه على تقدير صرف قريش :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن　　　مفاعلن فعلن مستفعلن فعلن

وعلى تقدير منعه :

مستفعلن فاعلن مفاعلن فعلـن　　　مفاعلن فعلن مستفعلن فعلن

(فـالحـاصـل) أنه يمدح النبى (ﷺ) لأنه بعث فى جماعـة قـوية كائنة من قـريش اختـاروا الهجرة وقصدوا الخروج من جماعـة الأعداء المحفين بهم مع كثـرتهم على عزم قتـالهم لا على وجه الفرار فقهروهم بعد ذلك ونالوا الظفر عليهم كما يحكى عن ذلك حديث البدر ويكشف لك صورته صورة الفتح. (١)

وقد مر بك فى بداية هذا الفصل ذكر كثير من شروح ديوان المتنبى لكننا نقف هنا عند كتـاب لآزاد البلكرامى بعنوان شفاء العليل فى الإصلاحات على أبيات أبى الطيب المتنبى. يقول فى مقدمته :

« ... ثم الناقدون لكلامه والناثرون لنظامه اقتنعوا بتحرير ما رأوا فيها من الخطل، واقتصروا على تفسير ما وجدوا فيه من الخلل، ولم يلتفتوا إلى إصلاح ما فسد وإيثار النافق على ما كسد، إلا أنهم أصلحوا قليلاً من العشرات كما أوتينه فى ضمن هذه الصفحات، ولا يخفى على الطبيب المعارف بمعالجة الأمراض أن منصب الإصلاح أعلى وأرفع من منصب الاعتراض فوقع فى خاطرى أن أصلح ما فى كلامه من الفساد، وأشفى ما فى فلذ كبده من الكباد، وأسهل ما فيه من التعقيدات، وأبدل قدر الوسع سيئاته بالحسنات فبذلت ما بى من الجهد البالغ والسعى الجميل وجمعت هذه الرسالة التى سميتها (شفاء العليل) ». (٢)

١- مصدق الفضل، القاضى شهاب الدين الدولت آبادى، ص ٢٠٧ وما بعدها، الهند ١٣٢٣ هـ.

٢- شفاء العليل، بتحقيق الدكتور نثار أحمد الفاروقى، مجلة ثقافة الهند ، المجلد ٣٥، العدد ٢، ص ٦٠ - ٦١، وقد طبع الكتاب فى الهند عام ١٩٨٦م.

وآزاد يضع نفسه - مرة أخرى - موضع الطبيب الذى سيعالج بزعمه أمراض المتنبى وأسقامه. ويشير الى أن مقامه أعلى من مقام الصاحب بن عباد والواحدى وغيرهما ممن انتقدوا على المتنبى بعض كلامه، ثم يبدأ فى الإصلاح فيقول :

قال المتنبى وهو مطلع قصيدة يمدح بها محمد بن عبيد الله العلوى :

١- أهلاً بدار سباك أغيدها   أبعد ما بان عنك خردها

قال الواحدى : الأغيد : الناعم البدن .. وأراد ههنا جارية وذكر اللفظ لأنه عنى الشخص يقول : أبعد شئ فارقك جوارى الدار. أقول : فى البيت علة للأبعدية ولم يذكرها ابن جنى ولا الواحدى وهى : حياء الحبائب لأن الخرد كركع جمع خريدة وهى الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المستترة، كما فى القاموس، وعلم بهذا التفسير أن التستر داخل فى ماهية الخريدة وقد تقرر فى أصول الفقه أن ترتب الحكم على المشتق يدل على علية مبدأ الاشتقاق له نحو : أكرم العالم فإنه يدل على علية العلم للإكرام. يخاطب نفسه ويقول : أبعد شئ فارقك جوارى هذه الدار لأنهن خرد لا يرجى لقاؤهن بشدة الحياء فيهن فالقرب من كل شئ فارقك لوجود القرب منهن، غير مرجو. هذا هو وجه الأبعدية للخرد، ثم هذه القصيدة فاتحة ديوان المتنبى إذ ليست قبلها قصيدة، بل عدة أبيات، ولا يخفى أن تذكير اللفظ مكان التأنيث وارتكاب التأويل فى مفتتح الديوان لا سيما فى المطلع، لا سيما فى صدر البيت ليس بمستحسن، ويمكن أن يصلح ويقال :

أهلا بدار رناك يرصدها   أبعد ما بان عنك خردها

الرنا : مقصورة الرنو وهو إدامة النظر بسكون الطرف، والرصد : الترقب، والمعنى على تقدير الإصلاح أنه يخاطب نفسه ويقول : لحظك يترقب الدار ويتمنى أن يراها لأنه إذا لم يتمكن من الخرد يترقب أن يرى مسكنهن لأن مسكنهن أيضاً يسلى الخاطر فى الجملة، كقولى :

فوزى بدولة وصلها متعذر   فغدوت مقتصرا على جدرانها

وقولى:

أنى وصولى إلى فـردوس ناديها　　　من الغنائم إلمامى بواديها

لا يخفى أن المعنى المدار عليـه فى البيت ليس إلا أبعدية الخرد عن العاشق ، أما «سباك أغيدها » فلا حاجة للمعنى إليه وبدله فى الإصلاح أعنى «رناك يرصدها » أفاد معنى لطيفاً زائداً على الأصل فالإصلاح مشتمل على الحسنى وزيادة.

وقال فى هذه القصيدة :

٢- أشد عصف الرياح يسـبقه　　　تحتى من خطوها تأيـدها

يصف نعله وعبره فى البيت السابق بالناقة وأرجع الضميرين إليها، والعصف: شدة هبوب الرياح، والتأيد : أراد به التأنى، وهو الفاعل يسبق ويقول أهون سير ناقتى يسبق أشد سير الريح.

قال الواحدى : «التأيد تفعل من الأيد وهو التقوى ، وليس المعنى على هذا وإنما أراد التفعل من الاتئياد بمعنى الرفق واللين .. وحقه تأودها .

وقال وهو مطلع قصيدة يمدح بها ممدوحاً :

٣- كفى اراني ويك لومك ألوما　　　هم أقام على فؤاد أنجما

أرى فعل ماض من الإراءة وهى تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، مفعولها الأولياء المتكلم، والثانى : لومك، والثالث : ألومها، الفاعل : هم، وإنما أضاف الإراءة إلى الهم لأن المحزون لا يطيق استماع الملام فيكون اللوم فى هذه الحالة أوجع به فكأن الفاعل هو الهم وويك : مخفف ويلك، وقع معترضاً بين الجملة، يقول للعاذلة ويك كفى وأتركى عذلى فقد أرانى .. هم مقيم على فؤاد ذاهب مع الحبيب لومك أوجع بى.

قال الواحدى : «يقال : أنجمت السماء أقلعت عن المطر، وأنجم المطر : أمسك، ولا يقال أنجم الفؤاد ولا فؤاد منجم، لكنه استعمله فى مقابلة أقام على الضد».

أقول : لو كان يقول يمما مكان أنجما لتخلص عن التكلم بخلاف المحاورة، لكن ما سمح خاطره إلا بتلك القافية، يقال : يممته : أى قصدته والمعنى : فؤاد قصد الحبيبة أى ذهب إليها ، ولعمرى أن هذا المطلع لبعيد عن شأن المتنبى وذلك حركنى أن أنظم مطلعاً فى هذا الروى، قلت :

لا تعذ لـــى لله صباً مغرمـــاً   من ذا الذى يرضى مقالاً مؤلما

وقال فى قصيدة يتغزل فيها فقط :

٤- فاسقنيها فدى لعينيك نفسى   مــن غزال وطــارقى وتليــدى

من غـزال : بيـان لكاف الخطاب، مـثـل أفـديك من رجل، وقـوع الخـبـر الذى تمت به الجملة وهو نفسى فاصلاً بين كاف الخطاب وبين بيانها ، وهو مـن غزال، وقـوع من غزال فاصلاً بين المعطوف عليه وبين المعطوف، تعقيد أيما تعقيد، ويمكن أن يصلح ويقال:

فاسقنيها فدى لعينك من ظبـــى   فـــؤادى وطـارقـــى وتليدى

الضمير راجع إلى الخمر المفهومة من دم العنقود فى البيت السابق.

وقال فى هذه القصيدة :

٥- فرموس الرماح أذهب للغيــ   ظ وأشــفى لغل صـدر الحقود

الغل بالكسر : الحقد، والحقود كصبور: الكثير الحقد، يقـول : ذهاب الغيظ برءوس الرماح، أى قتل العدو، أكثر من ذهابه بالصلح، وأشفى لحقد الحقود على أعدائه.

قـال أبو الفتح بن جنى : كـان الوجـه أن يقـول أشـد إذهاباً للغـيـظ، لأنك تقـول : أذهبت الغـيظ ولا تقـول : ذهبتـه. إنما تقول : ذهبت به، ولكنه جاء بـه على حذف الزائد ثم أصلحه وقال لو قال أذهب بالغيظ استغنى عن هذا.

وقال يمدح أبا القاسم عبيد الله :

٦- تمثلـــوا حاتماً ولـــو عقلـــوا   لكــنت فى الجود غايــة المثل

قـال الواحدى : أراد تمثلوا بحاتم فى الجود، فحذف البـاء ضرورة، أقـول : يمكن أن يصلح ويقال : تخيروا حاتماً أى أختاروه غاية المثل فى الجود.

وقال فى أبيات يهجو بها شخصاً:

٧- خليلى ما هذا مناخــاً لمثلنــا   فشـــدا عليها وارحلا بنهار

أى فشد أرحالنا على الإبل، قال الواحدى : فى قوله فشدا عليها، نوعان من الضرورة : حذف المفعول، والكناية عن غير مذكور. أقول : يمكن أن يصلح ويقال : فشدا رحالاً وارحلا بنهار.

وقال فى تشبيب قصيدة يمدح بها شجاع الأزدى يصف الموتى:

٨- خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا   إن الكـلام لهـم حلال مطلق

قال الواحدى : يريد أنهم موتى، لا يجيبون من ناداهم، كأنهم يظنون أن الكلام محرم عليهم لا يحل لهم أن يتكلموا، ولو قال : خرس إذا نودوا لعجزهم عن الكلام وعدم القدرة على النطق، كان أولى وأحسن مما قال، لأن الميت لا يوصف بما ذكره .

أقول : يمكن أن يصلح ويقال :

خـرس إذا نـادى مناد حولهـم   إذ ليس فى فمهم لسان مطلق

وقال فى تشبيب قصيدة يمدح بها على بن أحمد الخراسانى:

٩- حشاى على جمر ذكى مـن الهوى   وعيناى فى روض من الحسن ترتع

قال الواحدى : إنما لم يقل «ترتعان» لأن حكم العينين حكم حاسة واحدة، لا تكاد تنفرد واحدتهما برؤية دون الأخرى، فاكتفى بضمير الواحد.

أقول : لا شك أن الكلام السالم من التأويل أحسن من الكلام المفتقر الى التأويل ، فلو كان يقول عينى مكان عيناى لسلم من التأويل.

وقال فى هذه القصيدة :

١٠- بما بين جنبى التى خاض طيفها   إلى الدياجى والخليون هجع

الباء للتفدية والمراد بما فى الجنبين القلب، والخلى : الخالى من الهوى، والدياجى منصوب على الظرفية، سكن الباء للضرورة، يقول : أفدى بقلبى المرأة التى سرى طيفها إلى فى ظلام الليل والذين خلوا عن الحب كانوا نياماً، لا يخفى أن المتنبى أيضاً كان نائماً لأن الطيف لا يتراءى إلا فى النوم، والطيف مما لا يراه الناظر ولا يشعر بمجيئه، فلا فائدة فى كون الخليين نياماً، إنما الفائدة فيه إذا تزور نفس الحبيبة المحب لا طيفها، وهى أن لايرى الخليون مجيئها إليه، فظهر أن قوله (والخليون هجع) فى غير محله، يجب التقاطه. أقول : يمكن أن يصلح ويقال :

بما بين جنبى التى خاض طيفهـــا إلى وثوب الليل أسود أسفع

أسفع : تأكيد لأسود، كما فى قول أبى تمام، يذم المشيب :

له منظر فى العين أبيــض ناصــع ولكنه فى القلب أسود أسفع

وقال فى هذه القصيدة :

١١- أتت زائراً ما خامر الطيب ثوبها وكالمسك من أردائها يتضوع

جعل (زائرا) حالاً من ضمير أتت، وهو لا يصح لعدم التطابق بينهما وأوله الواحدى وقال : زائراً نعت خيال محذوف، تقديره أتت خيالاً زائراً، يعنى أن الحال خيالاً وزائراً نعت له، لا حال من ضمير أتت.

أقول : يمكن أن يصلح ويقال : أتت فى الكرى ما خامر الطيب ثوبها.

وقال فى هذه القصيدة :

١٢- فيا ليلة ما كان أطـول بتهـــا وسم الأفاعى عذب ما أتجرع

استعمل أفعل التفضيل بدون الأمور الثلاثة المذكورة فى كتب النحو، فقال الواحدى: أراد ما كان أطولها فحذف الضمير وذلك يجوز فى الشعر.

أقول : يمكن أن يصلح ويقال :فيا ليلة فى غاية الطول بتها

وقال فى هذه القصيدة:

١٣- أبحر يضر المعتفين وطعمــه زعاق كبحر لا يضر وينفع

الهمزة للاستفهام الإنكاري، والمعتفى : السائل، والزعاق : بالزاء والعين المهملة كغراب : الماء المر الغليظ الذى لا يطاق شربه.

يفضل الممدوح على البحر ويقول : هل بحر يضر الواردين بالغرق وهو مر الطعم، لا يطاق شربه، كبحر ينفع الواردين بالعطاء ولا يضرهم، عطف المتنبى ينفع على لا يضر، ويحتمل عطفه على يضر، فلهذا قال ابن جنى : فيه قبح .وقال الواحدى : لو قال ينفع ولا يضر كان أحسن، حتى لا يتوهم نفى الضرر والنفع جميعاً، لكنه قدم لا يضر لإثبات القافية.

أقول : يمكن أن يصلح ويقال :

أبحر يضر المعتفين وطعمه زعاق، كبحر يمنع الضر ينفع ؟

ومنع الضر أبلغ فى المدح من عدم الإضرار بنفسه، لأن من يمنع غيره أن يضر أحداً لا يضره بنفسه البتة». (١)

وما غاب عن آزاد هو أن المتنبى كان كوفى المذهب ومن ثم عاداه البصريون وخطأوه فى حين أن ما اعتبروها أخطاء لها توجيهات فى النحو الكوفى. وبعض إصلاحات آزاد قد تقبل وبعضها أفسدت الجزالة التى يلمسها ويحسها أهل الذوق فى كلام المتنبى كما فعل بالبيت الرابع والثامن والثانى عشر.

ومن حق آزاد أن يتعالى على المتنبى إذ لا يستطيع أن يمنعه أحد وهو حر أيضاً فى أن يرى فى شعره ما يرى فالأمر راجع فى النهاية إلى الذوق، إنما ما يهمنا فى هذا المقام إثبات حقيقة تنصف آزاد وهى أن محاولته الإصلاح دون الاكتفاء بالنقد محاولة جريئة مهما كانت نتائجها، خاصة ركوبه الصعب بإصلاح - أو الجرأة على إصلاح - كلام المتنبى. ومن هنا تأتى قيمة هذا الكتاب وقيمة جهد آزاد الأعجمى.

وأمامنا أديب آخر سلك مسلكاً آخر مع شعر وشخصية شاعر عربى آخر تنازع أمره نقاد العرب وهو أبو العلاء المعرى. وأديبنا هو الأستاذ عبد العزيز الميمنى المتوفى

١- ثقافة الهند، المجلد ٣٥، العدد ٢، ص ٦١ - ٧٤.

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، صاحب أعظم كتاب عن المعرى واسمه (أبو العلاء وما اليه) إذ دافع الميمنى عن اتهامات النقاد لأبى العلاء، مستشهداً فى دفاعه بأشعاره، راداً للأقاويل بأسلوب مقنع لا يردد ما يقال وإنما يفحص ويفند. يقول الميمنى بعد عرض أقوال الجارحين للمعرى والمعدلين له ومن وقفوا فى أمره فى منزلة بين المنزلتين :

«هؤلاء الأئمة تناقضت أقوالهم وتباينت مناهجهم فى دين الرجل ولعل هذا الداء سرى إليهم من شعره ففيه كل شئ وضده كما يقول هو بنفسه :

ولكل ما أصبحت تدرك حسه   ضد وكبرة من ترى كصغار

ويعترى النفس إنكار ومعرفة   وكل معنى له نفى وإيجابُ

وانظر النظرة حتى تشاهد مقالنا برأى العين. ولست أعنى تخطئتهم بأجمعهم فإنهم لم ينفشوا إلا بما رأوه فى شعره، فكلهم إذا مصيب فى مزعمه. إلا أننى أريد أن أرعى كل ما رأيت له فى وقت واحد رعاية رجل لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها حتى لا أبخسه حقه فى نعمة أسداها كما أننى لا أريد أن أنفى عنه شنائع أتاها وجرائم جناها.

لا غرو أن له كثيراً من الشعر فى اللزوم واستغفر مما يرمى إلى المروق كالاعتراض على حكمة البارى سبحانه وإرادته الخير وإنكاره النبوات والاستخفاف بأنبياء الله وبالشرائع وإنكار البعث والمعاد والقول بقدم العالم والذهاب إلى آراء الفلاسفة فى أن العالم كالنبت يزهر ثم يذبل وجناية الوالد على الأولاد وتحريمه أكل كل ما لا ينبته الأرض كاللحم والشحم واللبن والجبن والعسل واختياره إحراق الميت على دفنه وغيره مما يطول بنا سرده.

ولكن لا يوجد له شئ فى غير . ل. من هذا النحو لا فى س ولا فى مُلقىَ السبيل ولا إن شاء الله فى سائر كتبه مما لم يصلنا. اللهم إلا نزر يسير لا يصرح إلى الغرض فلا حاجة لنا إذاً به.

وليكن منك على ذكر أن له فى اللزوم وأيضا مما يضاد عامة الأمور المذكورة شيئاً ليس بالهين له لعله يفضل على السابقة فى الكمية والكيفية فانظر النظرة.

ولكن الطبيعة البشرية مفطورة على الانجذاب إلى ما فيه استطراف أو جدة. فنراهم حكموا عليه بتاتاً بعدة كلمات له سردوها فى الزندقة وأضربوا عما يضادها صفحاً بالمرة. كما أن الذين أرادوا تبرئته وإنقاء جبينه اقتنعوا على ما يضادها فقط. فأى الفريقين أحق بالأمن.

والذى يتخلص من كل ما له أن الرجل لما رحل إلى بغداد كان يرتجى من دنياه أن تواتيه ومن حياته أن تساعفه. ولكن لما رأى بها أعراض الحياة وزهراتها منقادة للطغام معرضة بوجوهها عن الكرام علم أن الدنيا ليست إلا حظاً وبختاً وأن فوائدها لا تحصل بالكد والعمل أو السعي والاجتهاد. ولم يكن يرغب فى الدنايا حتى يكتفى بها عن المعيشة الفاضلة فنقب عن العلماء والنساك لعله يجد دواءه عندهم فرآهم حريصين على المطامع والمطاعم. مولعين بالاستهتار بالمعاصى غير آخذين أنفسهم بالواجب واللازم. وكأنه كلما أنكر عليهم منكراً وندد بسوءأعمالهم أغراهم بنفسه وأثار منهم دخلة فاسدة فرموه بالعظائم. وأحالوا على الشريعة والدين حتى يتخلصوا عن لومة كل لائم. فرماهم رشقا واحداً. ووقع فيهم وفى أديانهم جاهداً. فأخذوا بعض كلامه وطاروا به ورموه به بكل قبيحة. قال أمين الحلوانى المدنى : لعل أبا العلاء كان فى زمان مثل زماننا هذا يعنى كل أمرى، أنكر المنكر برمونه بسوء الاعتقاد ليغروا به الملوك كما قال الامام ابن حزم : أنا طريد الملوك لأنى اقول الحق ولا أبالى.

فلم يكتفوا بما وجدوا له بل عملوا بعضاً من الأشعار وضمنوه ما يرمى إلى المروق. نقلوا عن ابن العديم فى العدل والتحرى قال قرأت بخط أبى اليسر المعرى فى ذكره وكان رضى الله عنه يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه وإيثاراً لاتلاف نفسه (ثم أورد ثلاثة أبيات له اهوان. وانظرها فى الفائت) وترى فى الفائت بعض كلمات ركيكة لا تشبه سائر شعره ولعلها من هذا الجنس. ومر خبر تحريف رجلين بيتاً من اللزوم وتأليف أبى العلاء رسالة الضبعين وإرساله اياها إلى معز الدولة على بن صالح تنصلاً.

ولدينا شواهد على أنهم لم يعملوا بالتحفظ والاحتياط فى عزو بعض أمور إليه مما هو براء منه كما مر قول الزمخشرى فى بيتين من س أنه عارض بهما قوله تعالى إنها ترمى بشرر الآية. وقد دفعناه فى صدره ورددناه عليه. وهذا ابن السبكى روى بيتين لابن الراوندى وعزاهما إلى المعرى ثم قال فقبحه الله ما أجرأه على الله عز وجل (ثم ذكر لهما نقيضة) فهل من متأدب لا يجزم بأنهما لابن الراوندى وروى ابن سعيد فى المغرب من قصيدة للجمال أبى الحسين الجزار قوله :

وفى علم العروض دخلت جهلاً ... وعمت بخفتى فى كل بحر

فأذكرنى بـه التفعيل جهلاً ... تضمن نصفه الشيخ المعرى

مفاعلتن مفاعلتن فعولن ... «حديث خرافة يا أم عمرو»

والمصراع عجز بيت لبعض مشركى مكة كما هو معروف، وصدره :

أموت ثم بعث ثم حشر.

ولكن هذا الاستدلال لا يغنى عنه إلا فى المنحول وأما الثابت الذى دونه بنفسه فى ل فهو أيضاً كثير فكيف يسلم من معرته؟ وهاك أموراً تجلو من الحقيقة شيئاً :

إن حُب الظرف والاستطراف هو الذى حدا به على أن أنشأ كل صنف من الشعر وولج فى كل باب منه لما اشتهر به الزنادقة من الأدب والتظرف قال ابن القارح ولكنى اغتاظ على الزنادقة والملحدين الذين يتلاعبون بالدين ويرومون إدخال الشبه والشكوك على المسلمين ويستعذبون القدح فى نبوة النبيين صلوات الله عليهم أجمعين ويتطرفون ويبتذؤن إعجاباً بذلك المذهب تيه مغن وظرف زنديق اهـ . ولو كانت هذه آرا له منقحة وأفكاراً محققة لم نجد لها من الأضداد هذا القدر الجم. وقد ورد فى مقدمة بعض النسخ من اللزوم مقدمة بسيطة تبرأ فيها من قصد الإلحاد بأوضح بيان وقال إن غرضه التفنن بالشعراء ويشهد له ما جاء فى ثبت كتبه من أن بعض الجبال تكلم على أبيات من لزوم ما لا يلزم يريد بها التشرر والأذية فالزم أبا العلاء أصدقاؤه أن ينشئ هذا (يريد كتاب زجر النابح) فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره اهـ. فهذا صريح فى أن أصدقاءه لم يكونوا

يعرفون اللزوم كتاب إلحاد كما عرفه الأباعد وأن مذهب الإلحاد لو كان فيه غرضاً مقصوداً لم يحتج إلى الرد على ذلك الجاهل فنفث الرجل بكل ما تخالج فى قلبه من الشكوك التى لابد للإنسان منها وهذا ابراهيم عليه السلام قال ولكن ليطمئن قلبى وهذا معنى قوله من. ل :

يسمى غوى من يخالف كافراً   له الويل أى الناس خال من الكفر

فلم يأت أمراً بدعاً بل هو على مذهب غيره من الشعراء كالمتنبى وابن هانئ وأبى نواس بل هو أصدق منهم لهجة وأتم منهم نسكاً وزهداً وقناعة وإيثاراً وتعبداً واستقلالاً بالآراء. وغاية الأمر أن لم يكن وضح له بعض العقائد فكان منها فى شك وحيرة على ما ينم به شعره وكان يود أن لو لقى رجلاً يزيل عنه الشكوك ولكنه أخفق فيما هو الظاهر فلم يزل يذكرها ذكر من لايسيغها ولا يلفظها. والدليل على ذلك أنه لم يزل قائما بما لم يشك فيه كالمواظبة على الصلوات وإحياء الليل والذكر والتسبيح واجتهد أن يتوفى على هذه الحالة كما قال فى ثبت كتبه، وكما شهد به الذين لقوه، وعلى صوم الدهر والمروة والفتوة والعفاف والطهارة ونقاء الجيب عن سفاسف الأمور. وقد قالوا إن صاحب كل فن يحتاج إليه فقط وأما المتأدب فإنه يحتاج إلى كل العلوم والفنون وينبغى له أن يطرق كل باب ويلج فى كل ساحة.

وهؤلاء ملاحدة العالم من جميع الأديان لا يشبه مذهبه فى الحياة مذاهبهم على ما أورد كثيراً من أخبارهم فى الغفران. فهم يأنفون عن التكاليف الشرعية ويستنكفون من العبادات ويستخفون بها ويستهزئون ويسخرون ويولعون بالهزل ولا يأخذون بذوات نفوسهم بله المسترشدين. على أن جلهم كانوا داعين إلى مقالتهم التى أنشأوها حتى يتمكنوا من زهرة الحياة ويقدروا على لذائذ الدنيا فإنها غرضهم الوحيد. ولم ينقل أحد ولا من أعدائه عنه أنه كان يرغب فى شئ من رغائب الدنيا أو يدعو أحداً إلى مقالة فى الدين يكون انتحلها وهؤلاء تلامذته ملأوا أقطار البسيط ليس فيهم أحد على مذهب شيخه ولا نقل أنه دعاه إلى دين غير الإسلام ولو كان داعية لم يعدم منهم مؤمناً به ولا أعوز عليه تابع منهم. كما لم يعوز على أغمار الملاحدة وطغام الزنادقة قبله وبعده. وقد

كتب إليه ابن القارح مذام الملاحدة وآفاتهم فهل نراه سخر منه؟ ولكن ذكاء صاحبنا لا يخلينا أن نظن به الجهل عما يراد به، ولا نظن ابن القارح عرض به وبمروقه مع اعتقاده فيه كل جميل.

ولم أر في معارفه وهم خلق لا يحصون أحدا قرفه بما قرفه به الأجانب وهذا لعمرى عجب عاجب. وهذا التبريزى وغيره من التلامذة وغيرهم من زواره بالمعرة ومنهم شيخ الإسلام الصابونى والقاضى عبد الوهاب المالكى ومن البغاددة أبو الطيب الطبرى وأبو حامد الاسفرائنى المجدد قبلوا هداياه أو نزلوا عليه أو رغبوا فى اصطافته ووده. والأندلسيون معرفون بالصلابة فى أمر الدين ولم أر لهم كلمة فى القذف وما ذاك إلا ضناً منهم بدينهم أن يتهموا بريئاً فظهر مصداق قول ابن العديم إن الذين لقوه وصفوه بكل جميل والذين لم يلقوه ولا عرفوه رموه بكل قبيح». (١)

إلى آخر دفاع الميمنى وقد مر بك شئ منه، وبعض نظمه. والكتاب معروف مشهور فى المكتبة العربية منذ سنين، تلقاه الباحثون بالقبول مما يغنينا عن مزيد من التعليق عليه.

ومن أدباء شبه القارة من عرفنا بأديب أو أكثر من أدبائها. من هؤلاء الدكتور ظهور أحمد الذى قدم لنا أبا العلاء اللاهورى وشعره فى كتابه عنه. ومع وجازة الكتاب إلا أنه أول كتاب يعرف بهذا الشاعر وانتاجه شعراً ونثراً وصلته بأدباء عصره. يقول الدكتور ظهور أثناء الحديث عن صلة أبى العلاء اللاهورى برفيقه مسعود سعد سلمان :

«ومن أمثال العرب السائرة قولهم : جليس المرء مثله وأيضا يقولون : من عرف بشئ نسب إليه ! وهذا مما يطبق على أصدقاء الرجل وأصحابه وأخلائه وزملائه الذين نشأ بينهم وترعرع وعاش فيهم واكتسب منهم، تأثر بهم وأثر فيهم فعرف بهم وعرفوا به وهو مما لاشك فيه ولا ريب لأن التجارب البشرية قد حققته والتاريخ الإنسانى قد أثبته عبر العصور!

١- أبو العلاء وما إليه، عبد العزيز الميمنى، ص ٢٨٩ - ٢٩٥، مصر ١٣٤٤هـ.

فإذا كان كذلك فإن أصدقاء أبى العلاء عطاء ابن يعقوب اللاهورى وأخلاءه وزملاءه لجديرون باهتمامنا حتى نعرفهم وبالتالى نعرف شخصية أبى العلاء ومكانته فى المجتمع الإسلامى في العصر الغزنوى. إن الرجال الأصدقاء لأبى العلاء قد كانوا غرراً فى جبين الدهر وقدوة فى المكارم والمحاسن وكانوا كراماً وأئمة وأعلاماً وعن هؤلاء يقول أبو العلاء اللاهورى :

قد كان دهرى جنة فى ظلهم ساروا فأضحى الدهر وهو جحيم

قد خانهم صرف الزمان لأنهم كانوا كراماً والزمان لئيم

ومن هذه النخبة المختارة لأصدقاء أبى العلاء : منصور بن سعيد الغزنوى وأبو الفرج الرونى ومسعود اللاهورى، أما الأول فقد علت به الكفاءة ورفعته الأقدار وساعده حظه حتى أصبح وزيراً ناجحاً من وزراء السلاطين الغزنويين، وأما أبو الفرج الرونى فقد ذاع صيته وامتازت مكانته بين الشعراء المعاصرين له حتى حاز إعجاب السلطان ابراهيم الغزنوى فقربه وأفاض عليه من خزائنه وجعله من خاصته ونال منصب شاعر البلاط، وأما الثالث وهو مسعود اللاهورى فقد نال مكانة فى تارخ الآداب العربية والفارسية لشبه القارة ما لم ينله أى شاعر غيره سواء كان فى عصره أو فى العصور التى تلته فقد قدر لهذا الشاعر العظيم أن يحظى بمنصب الأولية فى انتاج الشعر من الطراز الأول فى اللغات الثلاثة : العربية والفارسية والهندية». (١)

بهذا تكون قد استوفينا القول عن أنواع شروح الشعر وسير شعراء العربية والباب واسع فيه عشرات الكتب التى أنتجها أدباء شبه القارة، والمقام مقام الاختصار فاكتفينا بهذه الأنواع وما ذكرناه منها من عينات.

١- أبو العلاء اللاهورى : ص ٣٧ - ٣٩.

الفصل الرابع

الشعر القصصي والتاريخي

قلنا فيما مضى إن الأدب العربى فى شبه القارة خلا من نظم القصص بأنواعها تاريخية كانت أو عشقية أو حكمية على لسان الحيوان. والواقع أن أدباء العربية فى شبه القارة لم يستفيدوا من تراث الأدب الفارسى الذى راج عندهم فى إدخال المثنوى أو المزدوج لنظم قصص فى هذا الموضوع أو ذاك، ولئن تحرج هؤلاء من النظم فى موضوعات العشق لاعتقادهم أن اللغه العربية مقدسة لا ينبغى استخدامها لهذه الأغراض، فلم يكن هناك ما يمنعهم أو يسبب لهم ذلك الحرج لو أنهم نظموا فى الحكمة والمواعظ وبالجملة لا يمكن إعفاء هؤلاء الأدباء من جريمة إهمال المثنوى وموضوعاته وهم ينظمون بالعربية. والمثنوى فى بلاد العرب استخدمه الشعراء فى نظم العلوم كالنحو والبلاغة وغيرها لكنهم أبقوه على أوزان الرجز التى ربما ظنوا أنها شكله البدائى أو أصله القديم، وقد حاول شوقى فى العصر الحديث أن يخرج به عن موضوعاته التقليدية فنظّم به تاريخ العظماء، لكنه أيضا أبقاه فى سجن الرجز فلم ينتشر، إذ الرجز عند العرب دنئ محتقر. وبالجملة لم ينجح المثنوى فى الأدب العربى على عكس الحال فى الأدب الفارسى منذ زمن الشاعر العبقرى الرودكى فى العصر السامانى حيث نظم كليلة ودمنة. ثم طور الفرس هذا الفن بما يناسب بيئتهم القصصية الشاعرة لأنه يناسب قصص العشق والملاحم والحربيات والتاريخ والحكمة وهى موضوعات راجت فى بيئتهم، ووضعوا له أوزاناً راقصة كالمتقارب المثمن المحذوف الآخر الذى نظم فيه الفردوسى ملحمته الشهيرة المعروفة بالشاهنامة، ونظم فيه نظامى الكنجوى سكندرنامه كما نظم فيه سعدى الشيرازى البوستان. وكالهزج المسدس المحذوف أو المقصور آخره الذى نظم فيه الجامى

يوسف وذليخا والكنجوى خسرو وشيرين وقد خصص الفرس هذا البحر للعشقيات. وكالهزج المسدس الذى نظم عليه الكنجوى ليلى والمجنون، وكالخفيف المسدس المخبون الذى جعلوه للحكم والمواعظ ومعانى التصوف وقد نظم فيه سنائى الغزنوى حديقة الحقيقة، وكالرمل المسدس واستخدموه لنفس الغرض وكالسريع المسدس الذى نظم فيه العطار منطق الطير وبندنامه كما نظم فيه جلال الدين الرومى مثنويه المشهور، وكالسريع المسدس الذى نظم فيه الكنجوى مخزن الأسرار ونظم فيه الجامى تحفة الأبرار وهو بحر يناسب كل الموضوعات إلا ما تعلق منها بقصص العشق. ومن أجل هذه الأوزان راج الفن وتغنى به الشعراء فأبدعوا فى الأدب الفارسى على اختلاف مشاربهم منظومات تغنى وتمثل.

وكان أحرى بشعراء العربية فى شبه القارة أن يستفيدوا من تطور هذا الفن بعد أن وصلهم مكتمل الملامح راسخ البنيات لكنهم لم يفعلوا، ولم ينظموا أصلاً إلا فى العلوم وفى بحور الرجز، فقلدوا العرب ولم يجددوا أو يأتوا بشئ كان من الممكن أن يعلى ذكرهم فى الأدب العربى جملة. فليلى والمجنون قصة عربية اهتم بها الفرس فنظموها أكثر من مرة من جوانب شتى وبوجهات نظر تتفق والمشارب المختلفة، ولم يعتن بها العرب أو الهنود المستعربون.

وأثناء البحث عثرنا على محاولة طريفة هى ملحمة تحكى قصة دخول الإسلام ثم الاحتلال البرتغالى لجنوب الهند وإسقاطهم لحكومة المسلمين فى المليبار وما جرى بين الطرفين فى أوائل القرن العاشر الهجرى وهى منظومة فتح المبين لمحمد بن عبد العزيز الكليكوتى وكان معاصراً لهذه الأحداث فسجل لنا جانباً من بطولات السامرى الذى هزم البرتغاليين. وقد ظلت هذه الملحمة حبيسة الأوراق المخطوطة حتى نشرها مطبوعة عبد القادر المليبارى فى كتابه جواهر الأشعار قبل أكثر من نصف قرن، وأهمية هذه الملحمة تكمن فى :

أولاً: أنها جمعت بين القصة والتاريخ فهى وثيقة حية لأحداث قد لا نجد عنها مواد كثيرة فى المراجع العربية خاصة وأنها أحداث جرت على تراب اسلامى وضد شعب مسلم، فهى تصور مأساة من المآسى التى وقعت وتقع بعيداً عن عيون المؤرخين.

ثانياً: أنها من حيث الموضوع قد تكون المحاولة الأولى من نوعها في الأدب العربي، ولا يحق لأدباء العرب في ديار العرب أن لا يطلعوا عليها.

ثالثاً: أنها لا توجد في المراجع العربية الرائجة في دول العرب، فهي قطعة نادرة قد لا تتوفر لطلابها هناك.

ولهذه الأسباب رأينا أن ننقل هنا جزءاً كبيراً منها لنعطى الفرصة لمن شاء الاطلاع عليها وتقييمها سلباً كان تقييمه لها أو إيجاباً. وقد تركنا ما بحواشيها وهوامشها من توضيحات بسيطة لتعين الدارسين على فهم أحداث القصة التى حدثت فى ديار مجهولة لدى أغلب العرب والمسلمين. يقول محمد بن عبد العزيز الكليكونى :

الحمد لله القوى القادر	المالك المغنى العلى القاهر
القاصم الملوك والجبابرة	وكاسر القيول والاكاسرة
وهو الذى ما شاءه يكون	وكل ما لا فهو لا يكون
ثم صلاة الله مع سلام	على النبى المصطفى التهامى
محمد و أله الأبرار	وصحبة والتابع الأخيار
وبعد حمد الله والصلاة	على النبى وأله الهداة
فإن هذى قصة عجيبة	فى شرح حرب شأنها غريبة
واقعة فى خطة المليبار	ومثلها لم يجر فى الديار
بين محب المسلمين السامرى	وبين خصمة الفرنج الكافر
ثمت لما كان نظم النثر	يعبر الفضة مثل النضر
كذاك نظم المرء للإفادة	يكون عند الله كالعبادة
نظمت بعضها ومالك الملوك	ليسمع القصة سائر الملوك
لعلهم إذا سمعوا يفتكرون	فى الحرب أو لعلهم يعتبرون
وعلها تسير فى الأفاق	لاسيما فى الشام والعراق

ويعلموا لهمة السلطان ... السامرى المشهور فى البلدان
صاحب كاليكوت المشهورة ... لازال من فضل الغنى المعمورة
وهو محب ديننا الإسلام ... والمسلمين بين ذا الأنام
ناصر ديننا ومجرى شرعنا ... حتى بخطبة على سلطاننا
والمسلمون كلهم رعيته ... وإن يكن فى أى أرض بلدته
ولا يقوم فى يمينه أحد ... فى العيد إلا مسلم إلى الأبد
وإنما يقوم رأس المسلمين ... الشاه بندر مع جميع المسلمين
مولى ملوك الأرض فى مليبار ... ومالك ملم الجبال والبحار
وارث سلطان المليبار الذى ... أعطى له السيف وقال خذ بذى
حين أتاه بعد قسمه البلاد ... جميعها لمن يليه والعباد
فصار من ذا السيف يأخذ البلاد ... ثمت لا يردها إلى التناد
يخرج هذا السيف عند الحرب ... فيحصل النصر له بالرعب
وراثه أربعة لكلهم ... مملكة وعسكر خص بهم
لا ينقصون أبداً عن أربعه ... متى نقص تكمل هذى الاربعة
وكلما يموت شخص يرتقى ... مكانه من بعده ممن بقى
مرتباً كدرجات المنبر ... أصغرهم يكون تحت الأكبر
بيدقه يقاوم الفرسانا ... أكثرهم يبارز السرحانا
غربانه تجرى على البحار ... مثل خيول الفرس فى البرارى
عادتهم لو أمروا بالموت ... على امرئ لا يرجعوا عن موت
لا يأخذ المال بغير جرم ... وليس يؤذى أحداً بظلم
لا يأخذ البلدان ممن دونه ... وإن عصوا يعفو بما يهدونه
وليس يعفو لو عصى ملك كبير ... إلا بأخذ بلد ولو صغير

وصـــيـــة ممن مـــضى من السلف ... ومـــا نسى ذلك من كـــان خلف

لا يقـتـل الملوك غـيـر السـامـرى ... خـشـيـة مـوت جنده كـالشـائر

ولا يـطـيـع عــسـكر لمن قُـــتِل ... سلطانه لكن عليــه يقـتـــتـل

ويخـبـر الأعــداء بوقت حـربه ... ليـسـتـعـد خـصـمـه بحـز به

فـخـراً لدى الملوك بالشـجـاعـة ... إذ حـرب غـيـر السـامـرى بالخدعـة

ثم السـلاطين الصـغـار فى القـرى ... يخـدمـه فى الحـرب مـثل الأمـراء

يصـرف بـالعـشـور والجـريمة ... على وجـوه الخـيـر والأطعـمـة

ذو الرأى والتـدبيـر والشـجـاعـة ... والصـبـر والعـفـو لدى الشـفـاعـة

وكـان فـى زمـان مـوسى سـامـرى ... كـان هذا جنس ذاك السـامـرى

وهو الذى أول من تسـبـبـا ... عـبـادة العـجـل فـصـار مـذهبـا

له من الألـواح كـالتـابوت شئ ... فـيـه من النصـرة عند الحـرب شئ

واللـه يـهـديه هداية الأبد ... ويجـرين أمـوره على السـدد

فواجـب علـى جميـع المسـلمين ... أن يـدعوا بمثـل ذا يـا مسلمين

لأنه مع كـفـره يحـارب ... والملـك المسـلم لا يحـارب

لأجـل ديـنـهم وديـن المسـلمين ... لكنهم قـد صـالحـوا للمـافـرين

فـاسـتـمـعـوا قـصـة حرب السـامـرى ... يا أيهـا النـاس بقلب حـاضـر

وذاك أن أخـبـث الخـلائق ... المقـتـدى لأنجس الطرائق

أعـدى عـدو الله والرسـول ... ودينـه وأمـة الرسـول

وهو الفـرنجى عـابد الصلبـان ... وسـاجـد الصـورة والأوثـان

كـريهـة الهـيـئـة والأشكال ... أزارق العـينين كـالأغـوال

يبـول كـالكلب يطهـر ... فـخـارج عن دينه فـيـزجـر

ذو المكر والطغـيـان والخـديعـة ... أبعـد خلق الله عن طهـارة

لما أتى في الهند كالجراد ... متجراً بنية الفساد
ليجعل الفلفل والزنا جيل ... لنفسه وللورى كالنار جيل
عام ثلاث بعد تسعمائة ... من هجرة المختار بين النسمة
وجاء عند السامرى بالتحفة ... ورام أن يكون كالرعية
وقال إنى أعمر البلادا ... وأدفع الاعداء والفسادا
فخصه من جملة البرايا ... ورد قول سائر الرعايا
وحين قالوا إنه يخرب ... بلادنا وقولنا مجرب
فقام كالعبيد حتى يجتمع ... قوته كاملة ثم ارتفع
وقمع البلدان حتى الصين ... والهند والسند بغير مين
ثم أتى فى كَمَرانٍ وعدن ... فأخذ الأروام أنفسا والسفن
وثانياً راح كذا فى جدة ... فأخرج السلمان كل العدة
كذاك فى سيلان والسواحل ... ولم يدع أرضاً قريب الساحل
وعمر القلعة فى بعض البلاد ... ومد كفه إلى ظلم العباد
كذاك أجرى ما جرى من أمره ... ولا نطيق حصره بذكره
من حرق بلدان وهدم مسجد ... وجعله للخلق مثل الأعبد (١)
وقتلهم من غير ذنب صادر ... وظلم كل وارد وصادر
ثم غدا مخالفاً للسامرى ... من بعد ما كان كعبد صاغر
ولم يزل يفعل ما يضره ... ويسعى إلى الذى يغره
ككلب من رباه لانتفاعه ... وهو يعض دائماً لرجله
حتى ببيت السامرى غدراً دخل ... فصار مقتولاً جميع من نزل

١- قوله من حرق بلدان الخ من جملة ذلك إحراق مسجد مثقال وكان ذلك ودخوله فى بيت السامرى سنة خمس عشرة وتسعمائة هجرية كما وجد بخط الناظم - (مؤلف جواهر الأشعار).

وظن أن ملكه له حصل ... فجا على الافرنج جيش ودخل
فحصل الغيرة للعساكر ... فوقع الخلاف بين السامرى
فحاربوا ثلاثة من السنين ... جميع كل كافر والمسلمين
ثم أتى معتذراً فيما فعل ... وطلب الصلح وأخلص العمل
وقال إن قنبطان الفرتكال (١) ... ما كان آمراً بهذه الفعال
وهو يقول من يخالف أمركا ... أدب وقد جعلت أمرى أمركا
لابد أن تسكنهم فى بلدتك ... لأن يكون كلهم فى قبضتك
فالسامرى أعطى له بالقلعة ... فى أرض كاليكوت وسط البلدة (٢)
وثيقة منهم على الرعية ... لما رأى فيهم من الخديعة
فكلما يعلو بناء القلعة ... يبدى خلافاً وقبيح النية
حتى إذا ما بلغ التماما ... قد رام أن يؤذى بها الأناما
وطلب العشور للافيال ... كذا أموراً لا يجى بحال
ومنع المراكب المكية ... وكان ذا من اعظم البلية
وقال أعطيك من العشور ... أضعاف ما يأتى بلا كسور
ثم دعا للسامرى بالحيلة ... إلى مكانه لقصد الخدعة
وقال إن عندنا للسامرى ... هدية لائقة للسامرى
فينبغى للسامرى أن يقبلا ... بنفسه مكر ما مبجلا
فالسامرى راح بوسط قلعته ... فخلص الله له بمنته
فوقع الخلاف بين السامرى ... واجتمع الوزراء بالعساكر

١- يقصد قبطان البرتغال - المؤلف.

٢- وكان بناء الإفرنج قلعتهم فى كاليكوت سنة عشرين وتسعمائة كما فى خط الناظم - (مؤلف جواهر الأشعار).

وقـــال كل [1] لو يكن قـــرارا لصـــار أكـــثـــر الورى نصـــارى
ثم دعـــــا لواحـــــد من وزرا وأمـــر الحـــرب له فـــشـــمـــرا
وهو وزير صـــــاحب الزنار [2] ذو الرأى والتـــدبيـــر والأفكار
وصـــرف الأمـــوال والخــزائنا ووضع الغـــربان والســـفـــائنا
وجـــمع المسلم والنيـــــارا وأحـــضـــر المدافع الكبـــار
فـحـاصـروا القلعـة نحـو سنتين ونبـــشـــوا الخندق بين الجـــهـــتين
وأهل كل جـــهـــة فى جـــهـــتـــه مـــرابط فى يومـــه وليلتـــه
ثم رمـــــوا بالمنجنيق والطفق حـــتى أبادوا بهـــمـــا كل طبق
فاجتهـدوا فى الحرب مثل النمر ولم يملوا من هلاك العـــســـكر
حـــتى ســـمـــعنا أنه فى ليلة قـد مـات ألف عـسكر فى سـاعـة
فـــتــرك القلعـــة ليـــلا وهرب بنفـــســـه لما رأى من العطب
وكـــان فـــتـــحـــهـــا بمحض المنة عـــام ثلاثين وتســـعـــمـــائة
ثم أتى إلى عـــدو الســـامـــرى فـــرام منه أن يضـــر الســـامـــرى
وذاك سلطان كـــثـــيـــر العـــسكر صـــاحب كـــشى من كـــبـــار البندر
وكـــان دائمـــاً يخـــاف السامـــرى وحـــربه بقـــوة العـــســـاكـــر
عـــادته إذا تولى ســـامـــرى يدخل فى كـــشى مع العـــســـاكـــر
لما أتى إليـــه هذا الفـــرتكال أكـــرمـــه مـــشـــمـــراً على القـــتـــال
وقـــال إن الســـامـــرى يضـــرنى أعطيك مـــا تريد لو تنصـــرنى
فـــعـــمـــر القلعـــة فى بلدته فـــازداد قـــوة على قـــوته

١- أى الافرنج - (مؤلف جواهر الأشعار).
٢- وهو مغادتشن (مؤلف جواهر الأشعار).

فازداد غيظ السامرى فحاربا ... إلى الفرنجى نحو كشى مغضبا
فساعد الإفرنج حتى قتلا ... ثلاثة من الملوك مقبلا
لما اجتمع كلاهما والسامرى ... عاد إلى مكانة كالثائر
قوى لمن بعدهم على القتال ... بالمال والسلاح أيضاً والرجال
فصار هذا مفسداً فى البر ... وهكذا الافرنج فى ذا البحر
فعوق الركوب فوق البحر ... لاسيما للحاج والمعتمر
وأحرق البلدان مع مساجد ... وصير الخلق له كالأعبد
ثم بنى القلعة فى كَدُ نْكَلُور ... لأن يكون حاجزاً له كسور
وخصص الفلفل والزنا جيل ... لنفسه وللورى كالنار جيل
ومن أراد حبة للمرق ... يربطها مدقوقة فى الخرق
وكل من سافر دون خطه ... فى مركب عذبهم بسخطه
يكتب فى الخط جميع ما فيه ... حتى سلاحهم ورأس من فيه
عبارة الخطوط ان المسلمين ... عبيده المملوك يا للمسلمين
وقصده الأعظم جعل المسلمين ... فى دينه أو قتلهم يا مسلمين
فالسامرى ارسل هذا الخبرا ... إلى السلاطين مراراً تترى
شكاية لطلب العمارة ... ليستريح الخلق فى الحماية
ومرتين جاء من كنباية ... عمارة كانت بها كفاية
ومن ملوك مصر جاء أولاً ... أميره الحسين مع جيش ملا (١)
ومن ملوك الروم سلمان باشا ... آتى وبعده سليمان باشا
والمصطفى والقنبطان الفيرى ... وكم رئيس جا وكم أمير

١- مجئ الأمير الحسين كان فى سنة أربعين وتسعمائة كما فى نقل عن خط الناظم - (مؤلف جراهر الأشعار).

وكلما العمارة المنصورة   تأتى مع الإمارة المعمورة
فالسامرى يرسل للأغربة   إليهم تلقياً بالحرمة
أيضاً لئلا يتفرقوا بلا   وليهم فى الكالكوت وجلا
قصار كلما تجئ الأغربات   من السلاطين بقرب جزرات
يلحقها ما قد جرى فى الأزل   لأن حكم الله لم يبدل
وكلهم تفرقوا من الطريق   ولم يروا لكالكوت من طريق
بحيلة الافرنج والبر طيل   ثم غدا يسد للسبيل
فأولاً كان جميع المسلمين   على الفرنجى كيد محاربين
فصالح الأفرنج أهل كنُّنور   لأجل دنياهم وأهل تانور
وأخذوا لخطه فى السفر   وقد جروا فى البحر دون الضرر
فوقع الخلاف بين المسلمين   أى بعضهم بعضاً كمثل الكافرين
فاحرقوا مركب من قد سافروا   بخطه مصالحا وكفروا
ثمت لما لم يفز بالفتح   ولم يكن بد بغير صلح
فالسامرى أعطى له فى الشاليات   بقلعة ثم بناها عاليات
كيلا يراها السامرى كالأول   كأنه يحفظ حكم الأزل
وصاحب التانور كان ساعياً   لأن يكون من آذاه ناجيا
وأن يكون بين بلدتيهما   قلعته مصالحاً بينهما
فتلك حصن مالها نظير   فيما حكى الرائى ومن يسير
ولا بنى الإفرنج فى مليبار   فيما سمعنا مثل هذه الحصار
لأنها محكمة مشيدة   ذات مدافع كبار جيدة
موضعها جزيرة وحولها   نهر فصار النهر كالسور لها
بروجها أربعة مربعة   متصل ما بينها مرتفعة

والجانب الغربى قرب البحر ... وينتهى الأيمن جنب النهر
أسفلها مخازن علوها ... ذات طباق مع سلالم لها
وبابها محوط بالجدران ... كذا بخشب باب تلك الجدران
لكل مصراع له باب صغير ... وفوق ذاك الباب صنعة كثير
منفذها كمحفص الزنبور ... وبيرها فى وسط المعمور
ثم الديار حولها منفصله ... وحول تلك الدار سور شمله
أيمنها أصاب ماء النهر ... والجانب الآخر قرب البحر
والافرنج إذ رأى المدافعا ... وقوة القلعة والخلق معا
حام حوالى الظلم والتعدى ... واصطاد للمسلم بالتصدى
فأكثروا الصولة والعنادا ... وأظهروا الطغيان والفسادا
وهدموا مبانى الإسلام ... كذا محوا شعائر الأحكام
ثم تسلطوا على الملوك ... تسلط المالك فى المملوك
وملكوا بسطوة بلادهم ... وملأوا من خيفة اكبادهم
حتى أزالوا وسمهم واسمهم ... وأخرجوا دموعهم ودمهم
وخربوا أجلة البلاد ... وعطلوا معايش العباد
كم مسلم فى حبسهم مقيدون ... وأى محنة بها يعذبون
كم أيتموا بقتلهم ولدانا ... كم أرملوا الإماء والنسوانا
كم من مراكب بنار أحرقوا ... كم من سفائن ببحر أغرقوا
كم صيروا من مسلم نصارى ... حتى من السادات كالأسارى
ومنعوا للمسلمين الطرقا ... براً وبحراً لم يزالوا فرقا
فصار يمشى الناس فوق الجبل ... لكن يمرون بها بالوجل
وأحرقوا المصحف والمساجدا ... ثم بنوا لهم بها المعابدا

ويضرب المسلم بالنعال	وينجس المسجد بالأبوال
ونبشوا بظلمهم قبورا	وعمروا بها لهم قصورا
وهتكوا لحرمة النسوان	بين محارم وزوج عانى
يقود فى الأسواق كالأسارى	معذباً مقيداً حيارى
يأمرهم قهراً بحمل النجس	وهكذا يحبسهم فى النجس
ويقتل المسلم بالمنشار	وبعضهم بكلب ونار
وتارة بالجص والدخان	ومرة بالخيل والصبيان
ونزلة يطعمه بلحمه	ودفعة يهدفه لسهمه
وكرة يخنقه بالحبل	وحالة يقطع كل وصل
وهكذا يغرقه فى البحر	مرتبطاً فى الكيس مثل الأنجر
وبعضهم يذبحه بالمدية	من بعد ما يربطه كالهدية
ويربط المسلم فوق الدقل	حياً منكساً بإحدى الرجل
يفعل هذا فى حضور المسلمين	ولم يطيقوا منعهم يا مسلمين
ثم يبيع ميتهم للمسلمين	ليدفنوهم فى قبور المؤمنين
وشوش المراكب المكية	وكان ذا من أعظم البلية
وكل هذا نبذة مما جرى	من ظلمه وكله فقس ترى
فالسامرى غالباً يحارب	لظلمهم وماله مصاحب
ولم يزل يحصد جند زرعه	فى كل عام بجهاد ربه
ودائماً يخرج للأغربة	فى البحر تجرى فى جميع الجهة
ما بين سيلان وبين سند	ويأخذ الإفرنج مثل العبد
فالسامرى ما بين صلح وسفر	وبين حرب وقتال وضرر
وربما صالحهم للمصلحة	من فقد من يعينه والأسلحة

ثم إلى سلطان أشى قد كتب ... شكاية فلم يجد سوى التعب
لكن على هذا مضت سنينا ... أزمنة تبلغ أربعينا
وكلما الشكوى أتت لديه ... فالسامرى لم يلتفت إليه
وكل من يأتى إلى السلطان ... يوصيهم بالصبر والتوانى
واحتج أن طردهم لا يمكن ... ما بقيت لهم بهند مسكن
وكان من جملتهم نصرانى ... كلباً عقوراً اسمه أتدونى
ومعه جماعة قد ظلموا ... يرعون مرعى الظلم حيث حلوا
فنال منهم ضرر عظيم ... وتعب لمسلم جسيم
وقتلوا الحجاج والمسافرين ... كذاك كل مسلم والكافرين
حتى أشادوا رسم خصم السامرى ... وقطعوا زنار بعض الكافر
فازدادت الشكوى إلى أعتابه ... وقد سعى جميع من فى بابه
وكان عند ذاك عاد لشاه ... شاور حقا مع نظام شاه
ليجريا إلى حصار كووة ... وحصن شيوول الذى ذو قوة
فاتفقا وعاهد الله على ... حرب الملاعين وأن يستأصلا
فأرسلا للسامرى خطهما ... لأخذ حصن الشاليات جازما
فقلب الله لقلب السامرى ... فاختار حرب الإفرنج الكافر
فأرسل للعسكر مع وزيرين ... وسلم الأمر إلى الوزيرين
فالأول الأصيل للوزارة ... والثاني وهو ناظر الخزانة
إلى حصار الشاليات عازما ... مع جنود كافراً ومسلما
وصاحب التانور حقاً كانا ... من جملة الوزرا له معوانا
وذلك الملعون لما علم ... وصولهم للافرنج أعلما
وكان حول قلعة سوق كثير ... كذا ديار حولهم سور كبير

فأدخلوا في قلعة من حولها | مع مال هم من نعمة حفظا لها
وادخروا من الأرز ما وجد | قهراً ومثل ذاك حيثما وجد
ثم أتوا لحبس كل المسلمين | أعني المطيعين لهم كالميتين
فأرسلوا الأخبار للعساكر | ولم يكن وزيرهم بحاضر
فدخلوا البلدة بائسينا | وحاصروا القلعة مصبحينا
فأحرقوا في ساعة ما حولها | فأصبحت مثل الصريم يا لها
فبقي القلعة فرداً وحدها | كشجرة قد قطعت أغصانها
وبينما ذا الحرب قام بهما | اذ وقعت خصومة بينهما
وصاحب التانور ذا اللعين | آتاهما كأنه يعين
فسكن الحرب بغير ما سبب | وبعضهم يقول في هذا سبب
لأن ذاك الشخص ذا الوجهين | قد مد كفه إلى الجهتين
وأنه ببذل ما في يده | يجعل كل من رأى في يده [1]

وطبيعي أن المنظومات التاريخية والقصصية يقل فيها الاعتناء بالمحسنات لأن الناظم يضع نصب عينيه الأحداث اتساقها وتسلسلها قبل كل شئ، يهتم بها ويعطيها خياله دون عناية كبرى بالبدائع والصنعات ومن ثم جاءت بهذه المنظومة سقطات يعرفها أهل الفن.

وما يؤخذ على هذه المنظومة أن صاحبها وضعها في قالب الرجز أيضاً، ولم يخرج بها إلى ساحة بحور المثنوي الطلقة. فكأنه جدد في المثنوي العربي من حيث الموضوع لكنه التزم القالب القديم ونظن ظناً أن هذا من الأسباب التي تعوق انتشار أمثال هذه المنظومات. على أنني أعترف بصعوبة فهم بعض المواضع دون الرجوع إلى التاريخ النثري الذي كتبه زين الدين بن علي المليباري عن نفس الوقائع وأوردنا لك جزءاً منه في باب النثر عند حديثنا عن التاريخ.

١- جواهر الأشعار : ص ٢٣١ وما بعدها.

وأيا كان الأمر فإن المنظومة - التى تقع فيما يزيد عن خمسمائة وخمسين بيتاً - محاولة جديدة فى النظم العربى حاولها صاحبها قبل خمسة قرون وأردنا فى هذا الفصل تعريف أبناء العربية بها تاركين تفاصيل نقدها لمن أراد ذلك.

ومن أطراف المنظومات أيضاً قصيدة نظمها الأستاذ أبو محفوظ الكريم معصومى عام ١٩٨٥ وهو من أدباء العربية فى مدينة كلكتة فى شمال شرق الهند، وموضوع القصيدة حياة وأعمال الأديب عبد العزيز الميمنى. هى باختصار ترجمة لحياة الميمنى بما فى ذلك تلاميذه وشيوخه وأسفاره وتنقلاته وعلاقاته وأعماله الأدبية وغير ذلك فى قالب شعرى. والمنظومة تقع فى حوالى مائة وستين بيتا يقول فيها :

تحدث عن الحبر المشاطر للبحر — وعن لجج البحر المساير للحبر
حديثك عن حبر تصدر لافظاً — بدر ومرجان حديث عن البحر
سواء إذا لقبته البحر، طامياً — أو الحبر غواصاً على ناصع الدر
فلقبه إما عبقرياً، حلاحلا — وإما سرياً قسطرياً يد الدهر
سمى (ابن مروان) الأمير على (مصر) — على أنه حقاً سمى أبى (البكرى)
إخال (أبا الحجناء) وافاه منشداً — (العبد العزيز) المطلع الغض بالجهر
فهبنى (نصيباً) عن سمى أميره — تحدثت ما استطاعت مطاوعة الفكر
إذا كان حيا، لم أزره مشافهاً — فجاء قريضى اليوم منجبر الكسر
عبارتنا عنها سنا البدر فى غنى — فهل نحن عشنا فى غنى عن سنا البدر
يفوق الفتى أقرانه، فكأنه — حكى القمر السارى لدى الأنجم الزهر
تجلى عباراتى عن البدر زاهياً — فهبه رديف (الميمنى) على ظهر
له منن فى جيد فصحى لغاتنا — قلائدها ازدانت بملتمع الشذر
تباهى به (الهند) الكريمة موطناً — فقد أنجبته (الراجكوت) من (الجزر)
أقام (بدلهى) فى ذرا أدبائها — وفى (رامفور) عند أعيانها العز

شــــيوخ الميمنــى :

فــــــــمنـهـم (نـذيـر) ألمـعـى أوانـه ... و(طيـبـهـم) بل أصـمـعـيـهم العـصـرى

إلى شــيـــخـــه (المكى) هذا تـتــابعت ... رحــال بلاغــات الســحــابنة الخــضــر

علاقة الشاعـر بالشيخ المكى :

إليـــــه انتمى نزرى بـواسطـــة فـــلا ... أهـيم بـه دون التـــبـــــجح بـالـنـزر

تلاميذه الشيخ المكى قبل الميمنى:

فـتلمـيـذه، شـيـخـى كـبـيـر (ولاية) ... سـمى (حـسين) من جـهـابذه العـصـر

ورافق شـيـخى (السـورتى) أخـو النهى ... و(أحـمد حسين) الفـردكالكوكب الدرى

أخى، شـيــخــه، هذا الأخـيـر رأيتـه ... ولم أسـتـفـد من علمـه الجم للصـغـر

فـشـقف منادى شـقـيــقى، وهكذا ... طريقــان ضـمــانى إلى (طيب) النشـر

وهل كــان إلا (طيـبــاً) فى صـلاته ... لهــا نفـحـات من لطيـمـتـهـا تسـرى

مجئ الميمنى إلى شيخه المكى:

نحـارير، جـاء (الميـمنى) بعـقـبـهـم ... ألى (طيب) أو منتـهى الزصل والنجـر

فـشـاركـهم فـيـمـا احـتـوه من السنا ... بلا تعـب دون المرام ولا قـــســـر

وعــــاد بأوفى حـــــفظه وبأثلة ... تأثلهـــا من جـملة الفـضل بالكبـر

شيخ ثالث للميمنى :

روى عن (حسين) مـا روى عن علومه ... إذا مــا حــوى شطراً أكب على شطر

اختصاصه باللغة العربية :

لقد اتقن الفـصحى الكريمة فـاسـتـوى ... ضليعاً يبارى (العرب) فى حلبة الفخر

أديبــاً كــلام (الضـــاد) طوع بنانه ... ولا يحـتـذى إلا بفـصـحى (بنى فـهـر)

حـوى من تراث الأقـدمين عــيـــونه ... ويتلو نصوص (ابن العلاء، أبى عـمرو)

له مكرمـات الصـدر، ألقت بعـاعـهـا ... لدى بابه العـالى، فـيـاسـعـه الصـدر

رحلته إلى استنبول ومصر :

حزائن (استنبول) و(الدار) حاسهـ — عـــرامـــاً باعـــلاق الـنوادر والزبر
وكم غــرراً مطمــورة فى عـيــاهب — من السقع والديدان والعث والخـــدر
أطاف بها تطواف (صعصعة) التقى — فـــخلص مـــوؤدات علم من القـــبـــر
أبى الله إلا أن يعــشن عـــرائســـا — مـــجـــررة الأذيال فى الخـــز لا الطمـــر
أتاهن طبـــا بالمداواة شـــافـــيـــا — فـمن علل شتى وقـاصـمـة الظهـر
كـأن رواة الشـعــر والنثـر واللغى — حفافيه قاموا فى صفوف بلا عذر
حـــواليـــه من آثارهم نيـــراتهـــا — دواليه من أسفارهم منتقى الذخر
فلو أنه لاقى (الفــرزدق) طمـــه — لأفـحـمـه مرآه، فـضـلا عن القـعـر
أنامله انضـمت على مـزبر جرى — مـغـدا فـهل تنضم إلا على السحـر
فـقـاد بطامى علمـه جن (عـبـقـر) — وساد بسـامـيـه، عـبـاقـره العـصـر

أمكنة أـقام بها مدرســـا:

قـضى مـدة من عـمـره فى (بشـاور) — وفى بلد (اللاهور) أخرى من العـمـر
(لهـاور) جـلاها (الصـغـانى) ناشـئـا — تجلى بهـا (ثانيـــه) فى آخـر الدهر

مســيره إلـــى عليكـــر :

سنا (آفتـاب) اقـتـاد شمس معـارف — أم اسـتنزل العنقـاء من ردحـة الوكـر
فـبـوأه خـيـر البــلاد، (على كـر) — ليـسحب أذيال الـفـخـار على (النسـر)
فـأضـفى على أضـوائهـا من ذكـائه — وزاد على آلائهـــا رونق الظهـــر

أبو العلا وما إليه :

تحـدث عن (شـيخ المعـمـره) باحـثـاً — فنقب عن مـغـزى الحـقـائق والسـر
وحـــاك من اللفظ الأنيق منمنمـــاً — على حوك نهـر مـر بالسـهل والوعـر

سمط اللالى :

وحــاول تنضـيـــد (اللآلى) وسـردها — فـأقبل (بالسـمط) المضئ على النحـر

انتصاره للقالى فى السمط :

وأمـا فـتى (قـاليـقـلا) فلو انه ... رأى البطل الهندى قـواه بالنصـر
وعن حـوضـه أضحى يدافع شـاعـراً ... مـهنده فى وجـه جـيش أخى (بكر)
لحـيـاه تسليم البـشـاشـة لائـمـاً ... يديه وقـد هزته عـاطفـة الشكر
وقـد همت (الزهراء) ينشـر أهلهـا ... سـروراً بهـذا قـبل آونه النشـر

مأخـذه على البكـرى :

ولو شاهد (البكرى) مهوى انقضاضه ... عليه لهالته مغـافصـة الصـقر
فكم حـملة (للمـيـمنى) يشنهـا ... على جحفل (البكرى) بالكر والفر

إعجاب علماء العرب بالميمنى :

أقـرت رجـاب (القـبلتين) بفـضله ... على ثلة المسـتـعـربين أولى الأمـر

رد الميمنى على غواة الاستشراق :

وكم عـوج (للمسـتـشرقين) أقـامـها ... لهم بالتـحـرى فى مـعـالجـة الصـر

ثـلة مـن أخلائـه :

أخـلائه منهم (سليـمـان) عـصـره ... أجل فـحـول الدهر علمـاً أولى الخـير
ومنهم (خليل) (سـالم) و(مـعظم) ... بهم أكتـفى خوف استطالة منجرى (١)

إلى آخر ما قال. وموضوع القصيدة بلا شك طريف جديد والمشكل فى هذا النوع من النظم أنه يحتاج إلى حواشى كثيرة كما ترى لتوضيح ما ذكر، وتفصيل ما أجمل. ومع هذا فالقصيدة دليل على طول نفس المؤلف فى النظم العربى. وتمثل نموذجاً من الأدب العربى فى الشمال الشرقى لشبه القارة (بنغلاديش) حالياً.

١- مجلة المجمع العلمى الهندى، المجلد العاشر، العدد الخاص بالميمنى، ص ٢١٤ - ٢١٧.

الفصل الخامس

نظــم العلــوم

قلنا قبل ذلك إن أدباء العربية فى شبه القارة لم يخرجوا عن إطار العلوم فى منظوماتهم، ومن هذه المنظومات مثلاً منظومة فى العوامل النحوية للشيخ عبد القادر بن خير الدين الجونبورى ومنظومة فى التصريف لبدر الدين اسحاق الدهلوى المتوفى ٦٩٠هـ ، والمتشعب المنظوم فى الصرف لحميد الدين بن غازى الكاكورى المتوفى سنة ١٢١٥هـ ، ومنظومة فى البلاغة لعبد الكريم الحنفى الطوكى.(١)

وقد نظم آزاد قصيدة على وزن وقافية البردة سماها القصيدة البديعية كل بيت منها فى نوع من أنواع البديع وفنونه. يتحدث آزاد عن هذه القصيدة - وعن نفسه أيضاً - فيقول :

قد عرضت على جناب الأدباء وساحة الكملاء ما أردت إيراده من المحسنات الكلامية والبدائع الأقلامية ثم مشيت على آثار أصحاب البديعيات ونظمت قصيدة فائقة على الأزهار الربيعيات وأخرجت من عمق البحر غرر الدرر وجددت البديع فى المائة الثانية عشر وأبيات قصيدتى مائة وواحد سالمة من تكرار اتفاقية حافلة للمطالب الوافية وما التزمت فيها تسمية النوع فإنها قاطعة لطريق الوصول إلى المعانى وسد ذى القرنين بين العشاق والغوانى وقد طالعت أربع قصائد بديعيات مشروحات وهن حاضرة حالة التحرير. الأولى للشيخ صفى الدين الحلى والثانية لابن حجة الحموى والثالثة للعلوى والرابعة للسيد على معصوم المكى وهو سماها أنوار الربيع فى أنواع البديع

١- الثقافة الإسلامية، ص ٢٢، ٢٦، ٤٠.

أورد فيها تسع قصائد بديعيات واحدة لنفسه والبواقي للشيخ صفي الدين الحلي وابن جابر الأندلسي والشيخ عزالدين الموصلي والشيخ تقي الدين ابن حجة الحموي والشيخ اسماعيل ابن المقري والشيخ عبد القادر الطبري وهؤلاء الجماعة كلهم عرب عرباء وأئمة أجلاء وأنا سلكت منهج تقليدهم وسللت المهند بتأييدهم وربما يفعل الضعيف فعل الأقوياء والنسيم العليل يفرح أمزجة الأصحاء والأدباء الكملاء إن التفتوا فهو غاية الإحسان وإن أعرضوا فهو تنبيه على النقصان، وقلت :

نظمت قصيدة غـــراء فيهـا   صنائـــع كامـــلات فـــي البهـاء
تعالوا واسمعوا ملح الأغانـي   عـــــن الـــورقاء ثـــم الكوكلاء

التفاؤل بالفعل

الحمد لله لاح البرق في الظلم   سأرتني مبسم الحسناء من إضم

أرتني افتعال من الرؤية ومما لابد من معرفته في هذا المقام براعة المطلع وهي عبارة عن أن يكون المطلع عامرا بأعذب الألفاظ وأنجبها وأعلاها معنى وأحسنها سبكاً وشرطوا أن لا يكون له تعلق بما بعده وأن يكون بين المصراعين تناسب تام بحيث لا يكون أحد الشطرين أجنبياً عن الاخر والمطلع أول شئ يقرع الآذان ويصافح الأذهان فإن كان على شروطه تهتز به الطبائع وتلتذ به المسامع وتشتاق إلى الكلام المستقبل وإلا تمجه وتثني عنان التوجه عنه لما يصادف خلاف التوقع وإن كان ما بعده في نهاية الحسن وقد سمي ابن المعتز براعة الاستهلال حسن الابتداء وفي هذه التسمية تنبه على تحسين المطلع وأورد في هذا الباب قول النابغة الديباني :

كليني لهم يـــا أميمة ناصـــب   وليــل أقاسـيه بطـي الكواكـب

وأنا قلت في هذا الروي:

أحن إلى بدر النقا في الغياهب   وأسفح أشباه النجــوم الثواقب

وفي هذه القصيدة أقول :

أروم من الزوراء تقبيل أرضهـا   سقى الله إياها سجوم السحائب
تربيتها الريا إليـــها تعطشـــي   وصورتها في القلب ضـربة لازب

التريبة تصغير تربة. ويقال طين لازب أى لازق وصار ضربة لازب أى لازماً ثابتاً وقد وقعت ضربة لازب فى البيت بحيث لم يسبق إليها يعرفها صاحب النظر العالى.

التفاؤل بالقول

نادى منادى ليلى فاســتبان لنــا فأل لعود ليالينا بــذى سـلم

الغبطـــــة

أحب ضــم مهاة قد فتنــت بهــا هب لى إله البرايا دولة العصم

العصم جمع عصمة بالكسر وهى القلادة وتضم تشبيه الاحتراز عن الوصف الحسن.

شميسة فى صباح الوعد ما رجعت هى التى تبتغض الايفاء بالذمم

الشميسة تصغير الشمس ورجوع الشمس على وقت الوعد حتم لا تتخلف عنه والمحبوبة تحرز عن إيفاء الوعد مع كونها شمساً.

تشبيه الاحتراز عن الوصف السيئ

بــدر تحير فيه النـــاس قاطبــة لما تعالى عن النقصان بالسحم

السحم بالسين والحاء المهملتين محركة السواد والمراد به كلف البدر واللام فى قولى لما تعالى جارة تعليلية وما مصدرية.

الانتــزاع

تكون البرق من إشراق مبســـمها لولا تبسمت الحســناء لم يشم

إلحاق التاء بالمصادر المزيد فيها للمرة جاء فى كلامهم. روى البخارى فى كتاب النكاح فى باب «موعظة الرجل ابنته لحال زوجها» حديثاً طويلاً فيه فتبسم النبى (ﷺ) تبسمة أخرى وفى رواية الكشميهنى تبسيمة أخرى من باب التفعيل.-شام البرق نظر إليه أين يقصد وأين يمطر.

عكس الانتزاع

غزالة من ضياء الشمس قد خلقت بها فشمل الدرارى غير منتظم

الضرب الأول من تشبيه الاجتهاد وهو أن يبلغ المشبة به شأو المشبه.

سعـــى الكمائم طـــرأ فـــى تفتحهـا   حتى حكت من سليمى حسن مبتسم

الضرب الثانى منه وهو أن لا يبلغ :

غرس الرياض سعى كى أن يشابهها   ومثل قامتها الميساء لـــم يقم

تشبيه الاستدلال

والشمع فى حبها كالبـــرق مكتئب   ألا ترى يسفحان الدمع من سدم

السدم بالسين والدال المهملتين محركة الهم.

تشـبيه السـلب :

فعل اليواقيت إطفاء الصدى غلـط   الفاء فى شفة اللمياء ذوق فـــى

الصدى بالقصر العطش. اللمى سمرة فى الشفة تستحسن وهو المى وهى لمياء ومن خواص الياقوت والعقيق تمكين العطش حين يجعلها العطشان فى الفم. قال أبو بكر الاسفرارى من شعراء دمية القصر :

وعطشى ياقوت فيـه فلـم أقـــل   بتدوية الياقوت من غلة الصدى

الصدى فى هذا البيت كفرح العطشان.

تشـبيه الاسـتفادة :

الضرب الأول من تشبيه الاستفادة وهو استفادة المشبه به من المشبه

تـرى الأهلة طرأ تســـتفيد سـناً   عما يلـوح بسـاقيها من الخدم

الخدم جمع خدمة محركة وهى الخلخال. الضرب الثانى منه وهو استفادة المشبه من المشبه به.

خريـدة أيقن الراؤون أن كـسـبـت   من التصاوير وصف الصمت والصمم

الخريدة الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة كذا فى القاموس.

ابو قلمون فى استخدام المظهر

الا حبيبتا هنـد ومسـكننا هـل تسليان أسـير الهجر بالأمـم

الهند اسم امراة بالعربية وإقليم هو لسان أهله الأمم محركة القرب.

ابو قلمون فى استخدام المضمر

لقد طغى ماه عينى عند رؤيته نعـم زيادة مـد البحـر بالجلـم

طغى السيل عظم وجاوز الحد وطغى البحر هاجت أمواجه من فعل يفعل بالفتح فيهما كذا فى لوامح النجوم وذكر صاحب القاموس طغى الماء ارتفع من باب رضى لا من ذلك الباب مع أنه وقع فى القرآن العظيم قال عز من قائل «وأنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية»، الماه الماء وبالفارسية القمر وضمير رؤيته راجع إليه بالمعنى الثانى [1] والمراد به المحبوبة وتذكير الضمير باعتبار لفظ الماء الجلم محركة القمر. [2]

ويستمر آزاد على هذا النهج الى آخر قصيدته فى بيان ألوان البديع التى لا يعرفها العرب، وفى إصلاح ما يراه هو عند العرب خطأ ومخالفاً. وقد مر بك رأينا فى كلامه فلا نكرره.

ومن أطرف المنظومات أجناس الجناس للمفتى محمد عباس التسترى وقد مر ذكره فهذه المنظومة تناول الشاعر فيها موضوعات مختلفة من موضوعات الحياة كالزهد والإسراف والشعر وموت الأولاد والأحبة والصبر والمرض والصحة وتقلب الزمان وخداع أهل الغدر والبخل والغيبة والنميمة، والصلاة والصوم وما إلى ذلك من موضوعات اجتماعية وعبادية.

١- هذا نموذج آخر من تهنيد آزاد وتفريسه للعربية إذ لا تذوق ما فى هذا البيت من صنعة إلا من كان من العرب يعرف الفارسية وقليل ما هم - المؤلف.

٢- سبحة المرجان : ٢/ ٢٨٤ وما بعدها.

لكن الشاعر لم يهدف الى تناول هذه الموضوعات من حيث هى كذلك، بل تناولها عرضاً وكان قصده أن ينظم منظومته فى صنعة الجناس حيث جاء فى كل بيت من أبياتها بلون من ألوان الجناس، ولذلك سماها أجناس الجناس.

ولهذا السبب أدخلناها فى نظم العلوم باعتبار هدف المؤلف وقصده، وقد أجاد الشاعر فى التفنن فى منظومته، والتلاعب بالألفاظ على نحو يدل قطعاً على تمكنه من اللغة، وقد مر بك شئ من نثره وشعره وقلنا آنذاك إنه مفتون بهذا اللون من الكتابة المرصعة والأسلوب المزوق المزخرف. يقول الشاعر فى منظومته عن الزهد مثلاً :

خليلى هل إلى الزهاد هاد ... قعود فى الزوايا والوهاد
وكم من جائع لما بلونا ... وجدناه يحاكى العشب لونا
وما إن ذاق من دنيا لماقا ... فعز ولو شرى عرضاً لماقا
دع الدنيا وما فيها زهيدا ... وكن للصبر والتقوى عهيدا
فإن تظفر ليومك بالطعام ... فكل لا تدخر أقساط عام
ولا تجزع إذا ما حل بوس ... فحرب الدهر ما فيها لبوس
لقد سلكت بهذا النحو سادة ... وما ثنيت لهم أبداً وسادة
وليس الزهد إلا فى المشاعر ... چه خوش حرفى كه زد از خامه شاعر(١)
إخال الشيب لى فقراً فمالى ... وللدنيا ولو أغنت بمال
وما نفع الغنى غير الوبال ... بجسم صار شناً وهو بال
وما حب الشراب ولا الكباب ... بأفحش من هوى مال كبابى
ولكن هالنى إبلاس آلى ... فأحوجنى الظنون الى سؤال
وذاك مذلة من فوق ذل ... وليس من التذلل منقذ لى (٢)

١- معنى الشطر الثانى وهو بالفارسية : ما أجمل ما قال الشاعر، لكن الشاعر حرص على أن يكون ثمة جناس بين آخر الشطرين العربى والفارسى، وقد تكرر هذا فى منظومته. المؤلف.

٢- أجناس الجناس : ص ٢٦.

ويقول عن الشعر والشعراء :

وكم من شاعر ما طال باعه غوى لا يجوز لنا اتباعه
كثيراً يتبع الجهال غيه وما فى شعره إلا لغيه
وقد ملك امرء القيس الفصاحة فصاحت فى النسيب به الفضاحة
وكم من شاعر فى الفن عال يحل بفقره صف النعال
ويطرد فهو فى بيت كميت وإن يك مادحاً مثل الكميت
وكيف الفوز بالفكر الدقيق لمن لم ينج من فكر الدقيق
فلا تقرض لجلب المال شعرا فتمنعه ولو بلغت شعرى
وكم من مفلق طلق مدل خفيف الوزن بالفقر المذل
تراه سالماً قولاً ودينا تهدم ركنه فغدا مدينا
ويبقى دون مطوى الحصول بلا سبب كمحذوف الأصول
يطير إذا شدا طرباً قصيداً فإن عرضوا عليه الرزق صيداً
هموم الرزق للغرثى قروح وكيف بقاؤهم والرزق روح
وليس لنا يد حتى نواسى وإن يك مخجلاً لأبى نواس
فإن ترفع له خيم الفواضل بأسبابَ وأوتاد فواصل
وهندى تجشمها فهانا وإن بلغ العراق وأصفهانا
وقد ذقنا كلام البلجرامى فما تمراته غير الجرام
ترى أنفاسه مسكاً ذكية وفيها بعد نتن الهندكية
كلام غير حر وهو حر (١) فتغير اسمه الأصلى ضر

١- آزاد معناها حر بالفارسية والأردية ولعلك نرى أن الشاعر هنا يهجو آزاد البلجرامى أو البلكرامى بينما يبكى حال نفسه وإن كان أجود منه شعراً - المؤلف.

بلى أثر اسمه بالقطع باق | وما التغيير إلا للإباق
بجرم النصب أهجو البلجرامى | وهذا أصل إجرام جرام
عجب دارم كه تويا اين تباهى [1] | بما لفقت من شعر تباهى
أتفتل سلك نظم كالجبال | ولم تعمد الى تفريح بال
كشفت معميات والأحاجى | ولم تقصد بذاك قضاء حاج
وإن قضاءها كشف الكروب | لقاضيها وصاحبها الكريب
ألا كل يحملنى قريضاً | ومن يعرف بشعر راق ريضا[2]

وهذا النص يظهر لك مخالفته لآزاد البلكرامي واستخفافه بشعره «الملفق» حسب تعبير التسترى، ويطالعك أيضاً على خلافات القوم المذهبية كعادة أهل شبه القارة من قديم وحديث.

هذه النصوص من منظومة التسترى تريك عدة أمور :

أولها : أن الشاعر اختار لمنظومته وزناً راقصاً، لكنه لم يختر لها موضوعاً، فكأنه جدد فى شكل المثنوى العربى وخرج به من بحور الرجز الى البحور التى استخدمها الفرس فى منظوماتهم .ومن هنا بقيت منظومته ناقصة بينما بقيت منظومة الكّليكوتى غير تامة لجودة الموضوع وتقليدية القالب.

وثانيها : أن الشاعر لم يدر بخلده قطعاً وهو ينظم منظومته أن العرب سيقرأونها ، ولذلك ضمنها أبياتاً فارسية فتراه يجانس بين نهايات مصاريع فارسية ونهايات مصاريع عربية فيأتيك بنصف البيت فارسياً ونصفه الآخر عربياً. دون إخلال بالمعنى. أو يأتيك ببيت فارسي وقد جانس بين شطريه.

١- معنى الشطر الأول وهو بالفارسية إنى لأتعجب أنك مع هذه الكارثة، ولاحظ الجناس فى آخر الشطرين. المؤلف.

٢- أجناس الجناس : ص ٤١ - ٤٣.

وثالثهـا : أن المنظومة من هذه الناحية قد يصعب على العرب الاستفادة من أجزائها التى وردت بها المجانسات الفارسية فهى تحتاج الى من يعرف اللغتين. وقد كانت الفارسية رائجة فى شبه القارة أكثر من العربية وكان يعرفها ويعرف شعرها كل أحد ولهذا وافقت المنظومة مزاج الثقافة فى شبه القارة لكنها بعدت عن المزاج العربى.

ورابعهـا : أن المعانى تاهت وسط ازدحام الصنعة اللفظية بحيث لا يخرج القارئ لها إلا بتدريب عقلى إن استلذه المحبون لمفارقات الألفاظ استمجه الباحثون عن شئ مفيد.

وخامسها : أن المنظومة بلا شك لا تثبت إلا قدرة ناظمها على تطويع الألفاظ كيف يشاء يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً كى يصل إلى مراده، فهو أستاذ فى الصنعة اللفظية بلا منافس.

هذه المنظومات التى عرضنا لك أجزاء منها تؤكد أن أدباء العربية فى شبه القارة اقتفوا أثر العرب فلم ينظموا إلا فى البلاغة والنحو والصرف، وجاءت محاولاتهم ناقصة من جانب أو آخر حتى ليخيل إليك أنهم لم تكن لديهم رؤية أدبية واضحة لما أرادوا أن ينظموه، وأى قالب ينبغى لهم أن يختاروه.

الفصل السادس

المعارضات الشعرية

المعارضات الشعرية باب معروف فى الأدب العربى، والمعارضة المقابلة. وأدبنا العربى فى شبه القارة ملئ بهذا النوع لأن أدبا ءنا كما ذكرنا لك كانوا يضعون أمامهم أنماطاً عربية ثم ينظمون على غرارها محاولين الوصول إلى شئ يشبه الأصل. ولو تتبعنا هذا لوجدنا عشرات القصائد التى قرضها أدباء العربية فى شبه القارة مضاهين بها معلقة هنا أو هناك أو قصيدة لهذا أو ذاك على نفس الوزن والقافية. لكننا اقتصرنا فى هذا الفصل على نموذجين اثنين هما لاميتا العرب والعجم للشنفرى والطغرائى وما نظمه أدباؤنا فى معارضتهما. والنموذج الثانى عينية الشيخ الرئيس ابن سيناء وأدخلنا لامية الشنفرى على رأى من لم يشترط اتحاد الوزن والقافية للمعارضة. وسنتبع ذلك بتعليق عام على المؤتلف والمختلف فى هذه القصائد.

يقول الشنفرى الأزدى فى لاميته المعروفة بلامية العرب :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم ... فإنى إلى قوم سواكم لأميل
فقد جمت الحاجات والليل مقمر ... وشدت لطيات مطايا وأرجل
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل
لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرئ ... سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل
ولى دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

هم الأهل لا مستودع السر ذائع ... لديهم ولا الجانى بما جر يخذل

وكل أبى باسل غير أننى ... إذا عرضت أولى الطرائد أبسل

وإن مددت الأيدى إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

وما ذاك إلا بسطة عن تفضل ... عليهم وكان الأفضل المتفضل

وإنى كفانى فقد من ليس جازيا ... بحسنى ولا فى قربه متعلل

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع ... وأبيض اصليت وصفراء غيطل

هتوف من الملس المتون يزينها ... رصائع قد نيطت إليها ومحمل

إذا زل عنها السهم حنت كأنها ... مرزأة عجلى ترن وتعول

ولست بمهياف يعشى سوامه ... مجدعة سقبانها وهى بهل

ولاجبّإ اكهى مرب بعرسه ... يطالعها فى شأنه كيف يفعل

ولا خرق هيق كأن فؤاده ... يظل به المكاء يعلو ويسفل

ولا خالف داريّة متغزل ... يروح ويغدو داهناً يتكحل

ولست بعل شره دون خيره ... ألفّ إذا ما رعته اهتاج أعزل

ولست بمحيار الظلام إذا انتحت ... هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل

إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمى ... تطاير منه قادح ومفلل

أديم مطال الجوع حتى أميته ... واضرب عنه الذكر صحفاً فأذهل

وأستف ترب الأرض كيلا يرى له ... على من الطول امرؤ متطول

ولولا اجتناب الذأم لم يلف مشرب ... يعاش به إلا لدى ومأكل (١)

إلى أخر القصيدة، وقال عارض الطغرائى المتوفى ٥١٣هـ لامية العرب بلامية عرفت فى الأدب باسم لامية المعجم قال فيها :

١- أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى، ص ٤ - ٧، القسطنطينية ١٣٠٠هـ.

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل ... وحلية الفضل زانتنى لدى العطل
مجدى أخيراً ومجدى أولاً شرع ... والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل
فيم الإقامة بالزوار لا سكنى ... بها ولا ناقتى ولا جملى
ناء عن الأهل صفر الكف منفرد ... كالسيف عرى متناه عن الخلل
فلا صديق إليه مشتكى حزنى ... ولا أنيس إليه منتهى جذلى
طال اغترابى حتى حن راحلتى ... ورحلها وقر العسالة الذبل
وضج من لغب نضوى وعج لما ... ألقى ركابى ولج الركب فى عذلى
أريد بسطة كف أستعين بها ... على قضاء حقوق للعلى قبلى
والدهر يعكس آمالى ويقنعنى ... من الغنيمة بعد الكد بالقفل
وذى شطاط كصدر الرمح معتقل ... بمثله غير هياب ولا وكل
حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت ... بشدة البأس منه رقة الغزل
طردت سرح الكرى عن ورد مقلته ... والليل أغرى سوام النوم بالمقل
والتركيب ميل على الأكوار من طرب ... صاح وآخر من خمر الكرى ثمل
فقلت أدعوك للجلى لتنصرنى ... وأنت تخذلنى فى الحادث الجلل
تنام عنى وعين النجم ساهرة ... وتستحيل وصبغ الليل لم يحل
فهل تعين على غىّ هممت به ... والغى ينجر أحياناً عن الفشل
إنى أريد طروق الحى من إضم ... وقد حماه رماة من بنى ثعل
يحمون بالبيض والسمر اللذان به ... سود الغدائر حمر الحلى والحلل
فسر بناء فى ذمام الليل معتسفاً ... فنفحة الطيب تهدينا إلى الحلل
فالحب حيث العدا والأسد رابضة ... حول الكناس لها غاب من الأسل
نوم ناشئة بالجزع قد سقيت ... نصالها بمياه الغنج والكحل
قد زاد طيب أحاديث الكرام بها ... ما بالكرائم من جبن ومن بخل
تبيت نار الهوى منهن فى كبد ... حرى ونار القرى منهم على القلل (١)

١- جواهر الأدب، أحمد الهاشمى : ص ٩٨٦ - ١٩٦، بيروت ١٩٨٣م.

إلى نهاية القصيدة، وقد عارض القاضي عبد المقتدر الشريحي المتوفى ٧٩١هـ بلامية عرفت بلامية الهند وتناقلتها كتب الأدب في شبه القاره قال فيها

يا سائق الظعن في الأسمار والأصل ... سلم على دار سلمى وابك ثم سل
عن الظباء التي من دأبها أبداً ... صيد الأسود بحسن الدل والنجل
وعن ملوك كرام قد مضوا قدداً ... حتى يجيبك عنهم شاهد الظل
أضحت إذا بعدت عنها كواعبها ... أطلالها مثل أجفان بلا مقل
فدى فؤادي أعرابية سكنت ... بيتاً من القلب معموراً بلا حول
من نور وجنتها من حسن غرتها ... من طيب طرتها من طرفها الثمل
الشمس في أسف والبدر في كف ... والمسك في شغف والريم في خجل
بخيلة بوصال المتسهام بها ... والجود في الجود مثل البخل في الرجل
كأنها ظبية لكن بينهما ... فرقاً جلياً بعظم الساق والكفل
خيالها عند من يهوى زيارتها ... أحلى من الأمن عند الخائف الوجل
كيف السبيل إليها بعد أن حفظت ... بالبيض والسمر في أعلى ذرى الجبل
طرقتها فجأة والليل في جدل ... والذئب في كسل والقوم في شغل
قالت : لك الويل هلا خفّت من أسد ... له براثن كالعسالة الذبل
فقالت : إني مليك صيده أسد ... وصيد غيري من ظبي ومن وعل
قالت : فما تبتغي لا منع، قلت لها : ... كلا فإني عفيف القول والعمل
وإنني رجل من معشر سحبوا ... ذيل التبتل والتقوى على زحل
لا يطمعون ولكن كان ديدنهم ... إعطاء ما ملكوا كالعارض الهطل
أسد إذا سخطوا أفنوا عدوهم ... قوم إذا فرحوا أعطوا بلا ملل
ما قال قائلهم يوماً لواحدهم ... «لو كنت من مازن لم تستبح إبلي»

يا طالب الجاه فى الدنيا تكون غداً ... على شفا حفرة النيران والشعل
يا طالب العز فى العقبى بلا عمل ... هل تنفعنك فيها كثرة الأمل
يا أيها الطفل أنت الطفل فى أمل ... وشمس عمرك قد مالت إلى الطفل
يا من تطاول فى البنيان معتمداً ... على القصور وخفض العيش والطول
لأنت فى غفلة والموت فى أثر ... يعدو، وفى يده مستحكم الطيل
واقنع من العيش بالأدنى تكن ملكاً ... إن القناعة كنز عنك لم يزل
ثم اغتنم فرصة من قبل أن ضعفت ... قواك من سطوة الأمراض والعلل
ولا تكن لمزيد الرزق مضطرباً ... واقنع بما قسم القسام فى الأزل
لا تغترر أنت بالدنيا فإن بها ... من عز بز فكن منها على وهل
أكالة أكلت كالهر ما ولدت ... حيالة قتلت من جاء بالحيل
ولامناص من الله العزيز، وإن ... فررت منه إلى الدأماء والقلل
يا أيها الناس إن العمر فى سفر ... وإن أوقاتكم والله كالظلل
إن المنايا بلا شك لآتية ... وأنتم فى المنى والمين والكسل
لله در فقير مالك أدباً ... وذى خصاص بفضل الله مكتفل
ولم تكن فخره إلا بعزة من ... أغنى الأعاجم والأعراب بالدول
محمد خير خلق الله قاطبة ... هو الذى جل عن مثل وعن مثل
له المزايا بلا نقص ولاشبه ... له العطايا بلا من ولا بدل
له المكارم أبهى من نجوم دجى ... له العزائم أمضى من قنا البطل
له الفضائل أجدى من عصا كسرت ... له الشمائل أحلى من جنا العسل
له جمال، إذا ما الشمس قد نظرت ... إليه، قالت : ألا ياليت ذلك لى
النصر قادمه والفتح خادمه ... كلاهما عن حماه غير مر تحل
يا أعظم الناس من حاج ومعتمر ... وأكرم الخلق من حاف ومنتعل

أتيــتنا بكتـــاب جل منفــعــة ... وجــئــتنا بســبــيل ناسخ السبل
بعـثت بالملة البـيـضـاء راسـخـة ... عــفــا بهــا ســائر الأديان والملل
أفـحـمت كل بليغ بالكتـاب كـمـا ... جـادلت بالسـيف أهل الجد والجدل
أضحى طلوعك يا شمس الضحى أبداً ... وقـــد غنيت عن الميــزان والحـمل
أم التنمى إذا جـــاءتك ســـائلة ... أرجعـتـهـا وهى فى عقـر مع الحمل
نداك أكـــثــره لا ينتــهـى أبداً ... لكن أدناه أدنى من ندى الســبـل
وعـــرف طيـــبك للفكار ضــائرة ... مسـيـرة الشـهـر مثل الورد للجـعل
بصـــحـبك الغـر باق فـضلهم أبداً ... وفـــضل أمـــتك الزهراء لم يزل
وأهل بيـــتك فـينا رحــمــة نزلت ... أهل الطهـــارة عن رجس وعن دخل
يا ســيــد المرسلين المكرمين، أدم ... شـفـاعـة لعـبـيد ضـارع وجل (١)

ثم جاء آزاد بلامية قال بعثتنى عليها لامية العجم - أى قصيدة الطغرائى - وزعم أنها تعرف بلامية الهند، وليست كذلك إنما المشهورة لامية الشريحى قبل آزاد بأربعة قرون على الأقل - يقول آزاد :

سـبـحـان من أرق العشـاق فى الأزل ... وزان نـاظرة الغـــزلان بـالكحل
هو الذى جـعـل الأكـبـاد راضـيـة ... بأســـهم من ذوات الأعين النحل
أصـابنى بالعـوالى سـهم رامـيـة ... شـــهـــيــرة بمهـاة من بنى ثعل
من لى بفـاتنة صـينت كـمـقلتـهـا ... بمرهفـــات مـــعـــراة عن الخلل
مضى زمـان لقينا فـيـه جـيـرتنا ... عــفــا المهــيــمن عن أيامنا الأول
نعـد شـوقـاً وإخـلاصـاً مناقـبـهم ... بســبــحــة من لآلى أبحـر المقل
تئن إثر حـداة العـيس أفـئـدة ... يا ليـتـهـا تجـعل الأجـراس للإبل
أيا حمام أطلت السجـع فـى فـنن ... تعـــال نبك و لو أنا على الطلل

١- سبحة المرجان : ٢/ ٧٦ - ٨٠، نزهة الخواطر : ٢/ ٧٠ - ٧١، الهند ١٣٥٠هـ.

لعل ساكنة الوعساء ترحمنا   نرجو المحال وهذا منهج الثمل
عود الكواكب حتم إثر ما أفلت   فما لعزة لا تبدو من الكلل
ألم بى طيف من أهوى ليشفينى   أ ترتوى كبد الظمآن بالبلل
إلى م يا أيها اللوام تعذلنى   يضر كلم فؤادى مرهم العذل
رأى الأساة مريض فى معالجتى   إلا التى تركتنى فى يد العلل
طال السقام إلى أن صرت محتضراً   يا رحمة للمنى عمودى على عجل
وقبل أن تدخلى بيتاً سكنت به   لا شك يبرأنى صوت من الحجل
إن المجاز وايم الله قنطرة   طوبى لمن جاز محفوظاً عن الزلل
فانظر إلى من تجلى فى مظاهره   سبحانه وتعالى منتهى الأمل
غرست لله تسبيحاً وأرقب أن   أنال أثماره فى أقصر المهل
بجاه من أثمرت أشجاره عجلا   عوناً لعبد عتيق حار فى العمل
هو الذى دلنا لطفاً على شجر   يفيد فى كل حين يانع الأكل
محمد زينة الأفلاك عنصره   ووشى أردية الأسحار والأصل
فوق العباد وبعد الرب مرتبة   وجوهر نزه عن وصمة المثل
سناه مبدأ أشياء مكونة   والابتداء مدار الحكم فى الجمل
أئمة الناس طراً مقتدون به   هذا الجناب المعلى قبلة القبل
تبارك الله بدر لا محاق له   وخاتم فصه نور بلا حول
لقد رأى الفقر إقبالاً بنصرته   حتى غدا غرة فى جبهة الدول
أراد خيّر الورى زيدت مناصبه   إلقاء حضرته العليا من القلل
فالله من صهوة الأفلاك مكنه   جزاء ما رامه فى ذروة الجبل
لا غرو إن أخر الخلاق بعثته   هو المقدم فى المعنى على الرسل
فمبدل منه فى الإنشاء توطية   وإنما نظر المنشى إلى البدل

فازت بفصل ربيع شاة معبرة ... كأنما الشمس حلت دارة الحمل
وأطفأ النار نار الفرس وهو غداً ... ينجى عصاة البرايا من يد الشعل
أظله الغم فى آناء هاجرة ... سقاه فى الترب صوب العارض الهطل
الحمد لله رب الطول شرفنا ... بأشرف الخلق هادى أشرف السبل
جلا عروساً من الدين الجميل على ... منصة الدهر فى حلى وفى حلل
جاءت فعطلت الأديان ملته ... طلاوة البحر تمحو رونق الوشل
ما أخصر الدين والآفاق موطنه ... والسهم غايته قصوى من الأسل
خص الإله بأوفى الأجر أمته ... وإنما عملوا لله فى الطفل
حالت إلى أرغب البيتين قبلته ... ودينه أثبت الأديان لم يحل
لو قدم الله فى يونان حكمته ... لما تكلم أفلاطون بالمثل
لقد تشمر فى صف الجهاد على ... إقامة الدين بالعسالة الذبل
بحبله فثقوا يا قوم واحترزوا ... عن حبل هالكة فى حلقة الوثل
ما أدركت فئة عمياء رتبته ... ياليتها تثنى عن مسلك الجدل
بئس المريض الذى صفراؤه غلبت ... فبات يدرك طعم الصاب فى العسل
يا أيها المبدأ الفياض مرحمة ... أنت الحيا وأنا المكوى بالعلل
أروم فوزى بالزوراء ثانية ... إياى يحصل لى عل على النهل
المرتضى هو نفس المصطفى فلذا ... غلام خدمتك العليا غلام على
علا ثناؤك عن إحصاء مقولنا ... أيجعل البحر فى الإبريق بالحيل
إلى جنابك أهدى ورد معذرة ... ما أصعب الأمر لولا حمرة الخجل
مولاى آزاد بالتقصير معترف ... فاغفر له إن بدى شئ من الخطل
عليك منا تحيات مباركة ... ما شنفت أذن العشاق بالغزل (١)

١- سبحة المرجان : ٢/ ٨٠ - ٩٠.

وقد عارض لامية الطغرائى الشيخ عبد العزيز الدهلوى أيضاً ومن أسف أننا لم نعثر على قصيدته كاملة ونسوق لك هنا ما وجدناه منها، يقول فيه :

يا سائراً نحو بان الحى والأسل ... سلم على سادة الأوطان ثم قل
مازلت فى بعدكم كالنار فى شعل ... والأرض فى كسل والماء فى ملل
أريد لمحة وصل استضئ بها ... فى ظلمة الهجر ضاقت دونها حيل
إنى صليت على أنس وتذكرة ... لأهل ودى وخلق المرء لم يحل
فلا أزال بأبكارى أسائركم ... وإن خدمت كرام الخيل والإبل
ما العيش إلا خيالات أوجهها ... إلى ذراكم لدى الأسحار والأصل
أعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
لعل إلمامكم بالدار ثانية ... يدب منه نسيم البر فى العلل
أرجو اللقاء بميعاد وعدت به ... والخلف فى الوعد منكم غير محتمل
فإن عزمتم على إنجاز وعدكم ... سعيت فى طلب الأسباب والوصل
أردت تفصيل آمالى فعارضنى ... خوف السآمة فى الإكثار والملل
لازال مجدكم فى الدهر منبسطاً ... وظلكم فيه عنا غير منتقل [(1)]

وتأمل هذه القصائد يريك نقاطاً أهمها :

أولاً: أن قصيدتى الشنفرى والطغرائى وإن اختلفتا فى الوزن والقافية إلا أنهما اتحدتا فى الموضوع وهو قضية شخصية وأزمة ذاتية عكست ظلالها على شخصية الشاعر الذى عزت على نفسه الإهانة فراح يئن بأبياته شاكياً ارتفاع الوضيع وانخفاض العزيز الكريم، واصفاً نفسه ومبيناً ميزاتها مرتفعاً بها عن الانحطاط ونائياً بها عن سلوك السفلة. أما لاميتى الشريحى والبلكرامى فلم تخرجا عن

١- نزهة الخواطر : ٧/ ٢٨١- ٢٨٢.

المديح النبوى. وربما عنيا بالمعارضة - بل اليقين أنهما عنيا بها - اتحاد الوزن والقافية، أما الموضوع فلا.

ثانياً: أن موضوع لاميتى الشنفرى والطغرائي موضوع إنسانى فيه من الخلجات والمشاعر ما لا يبلى ومن هنا تجددت عندهما الصور والتراكيب فى جزالة. انظر إلى عظمة التعبير عند الشنفرى وهو يقول :

أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

إلى قوله :

وإلف هموم ما تزال تعود ... عيادا كحمى الربع أو هى أثقل

إذا وردت أصدرتها ثم إنها ... تثوب فتأتى من تحيت ومن عل

وإلى الطغرائى وهو يصف موضع حبه فيقول:

فالحب حيث العدا والأسد رابضة ... حول الكناس لها غاب من الأسل

وإليه مرة أخرى وهو يقول :

لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت ... برشقة من نبال الأعين النجل

إلى غير ذلك من الصور الجميلة المرأى العذبة المشرب الجزلة المبنى. أما قصيدتا الشريحى وآزاد فإن تقليدية الموضوع الذى نظم فيه كل شاعر فى شبه القارة جعلت القرائح لا تأتى بجديد.

والشنفرى يفتتح القصيدة افتتاحاً مباشراً داخلاً فى الموضوع رأساً، وكذلك فعل العميد الطغرائى. ومطلع لامية الطغرائى قوى كمطلع لامية الشنفرى. أما الشريحى وأزاد البلكرامى فبدآ بالتغزل ثم انتقلا إلى المديح النبوى. ولعل ارتباط الأدب العربى فى شبه القارة بالمدارس الدينية هو ما جعل شعراءه لا يحيدون عن هذا الموضوع طبعاً جاء من قرائحهم أم تطبعاً.

ثالثاً: أن قصيدة الشريحى أجزل وأمتن بنياناً من قصيدة آزاد وفيها صور حلوة كذلك كقوله مثلاً:

أضحت إذا بعدت عنها كواعبها أطلالها مثل أجفان بلا مقل

أما قصيدة آزاد ففيها مخالفات تحتاج إلى إصلاح منها مثلاً قوله :

إلى م أيها اللوام تعذلني يضر كلم فؤادى مرهم العذل

فلو تغاضينا عما فى الشطر الأول من ركاكة وجدنا بين شطرى البيت تناقضاً واضحاً، فالعذل اللوم، وأصله الإحراق، والعاذل لا يقدم مرهماً يداوى جراح العاشق أو يبردها فلا يصح أن يكون المرهم مقدماً من قبل اللائم للملوم. فالصورة بشكل عام فى هذا البيت لا طعم لها بل هى فى غير محلها شائهة فاسدة.

ومنها كذلك قوله :

المرتضى هو نفس المصطفى فلذا غلام خدمتك العليا غلام على

فالشطر الأول فيه إشارة إلى حديث المباهلة الذى اعتبر فيه الرسول (ﷺ) علياً مثل نفسه تفسيراً للآية «وأنفسنا وأنفسكم» فقال وهذا نفسى يشير إلى على عليه السلام. لكن الشطر الثانى فيه إشكال إذ تعبير خدمتك العليا تعبير هندى خالص. وما أراده آزاد فى هذا البيت أننى وان كنت غلام على (اسمه غلام على آزاد) إلا أننى غلامك وخادمك لأن علياً هو نفسك. وكان آزاد سنياً حنفياً. وقد عبر عن نفس الفكرة شاعر آخر هو غالب أبو الشعر الأردى الرومانسى والمتوفى ١٢٣٨هـ فقال : رائحة الحبيب تفوح من صديقه فأنا مشغول بالحق فى طاعتى لأبى تراب (أى على عليه السلام) فأين صورة آزاد من هذه؟ ولعل آزاد أخذها عن غالب فقد تعاصرا، لكنه أخرجها فى عربية مهندة جرياً على عادته المعروفة. وهناك إشكال آخر فى هذا البيت وهو استخدامه لكلمة غلام بمعناها فى اللغة الأردية فهى تعنى عبداً. يريد أنا وإن كان اسمى غلام على أى عبد على فأنا أيضاً عبدك لأن عليا هو نفسك. وغلام فى العربية لا تستخدم فى هذا المعنى. أما قوله :

غرست لله تسبيحاً وأرقب أن أنال أثماره فى أقصر المهل

فإنه استعمل التورية فى هذا البيت وأراد أننى غرست لله حبات السبحة وأرجو أن تورق هذه الحبات فأنال ثمارها وأجنيها فى أقرب وقت. لكن كلمة تسبيح تعنى فى الأردية السبحة التى يسبح المصلى بها عقب صلاته، ولا تعنى فى العربية نفس المعنى. ولذلك فسدت التورية لاختلاف معنى اللفظ فى اللغتين العربية والأزدية. فالعرب لا يشعرون بما فى البيت من تورية بل يفهمها فقط الهنود الذين يعرفون العربية. والإنصاف يقتضى أن نشير إلى صياغة آزاد لمثل هندى صياغة حلوة حين قال : أيجعل البحرَ فى الإبريق بالحيل. فهذا مثال جيد لنقل الأفكار الهندية إلى العربية. هذا قليل من كثير يمكن أن يقال عن قصيدة آزاد.

رابعاً: أن الطغرائى عارض الشنفرى فى الموضوع، أما آزاد والشريحى فقد عارضا الطغرائى وزناً وقافية.

وفرق كبير بين سبك وسبك، وشعر وشعر، وبيان وبيان، وطبع وتطبع :

وعادة السيف أن يزهى بجوهره　　　وليس يعمل إلا فى يدى بطل

أما لامية عبد العزيز الدهلوى فقد منعنا نقصها عن تقييمها ووزنها، وإن احتوت تضميناً جميلاً لبيت من قصيدة الطغرائى.

والقصيدة الثانية التى اخترناها نموذجاً للمعارضات هى قصيدة الروح لأبى على بن سينا وقد رد عليه الشيخ رفيع الدين الدهلوى بقصيدة تتحد معها فى الوزن والقافية والموضوع وترد على سؤال ابن سينا فى قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

هبطت إليك من المحل الأرفع　　　ورقاء ذات تعزز وتمنع

محجوبة عن كل مقلة عارف　　　وهى التى سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كره إليك وربما　　　كرهت فراقك وهى ذات تفجع (١)

١- جلاء العينين، خير الدين آلوسى زاده، ص ٩١، مصر ١٢٩٨هـ.

وقد رد عليه الشيخ رفيع الدين بقصيدة من مائة وخمسة عشر بيتاً قال فيها :

عـجـبـاً لشـيخ فـيلسـوف ألمعى ... خـفـيت لعـينيـه منارة مـشـرع
هلا تـفطن أن بـعث الـنفس فى الــ ... أبدان ينـشـأ من مـواطن شـفع
منهـا مـواطن عـامـات الحكم أو ... مـخـتـصـة مـتـرتبـات الموقع
ولكلهـا حكم وغـايات بهـا ... تستـوجب التـخـصـيص فى المتـفـرع
وجـمـيـعـهـا للنفس غـايات على ... أن التـفـاوت ثابت لم أمنع [١]

وابن سينا والدهلوى لم يهدفا إلى التبارى فى الصور والأخيلة، إنما استخدما القالب الشعرى لشرح مفاهيم فلسفية وعقدية وهو موضوع تصلح له المناظرات ولا ينفع له الشعر فذلك يفسده. ولعلك ترى معنا أن لذة الشعر غائبة عن القصيدتين، وروح الجدل والمناظرات الفلسفية غالبة عليهما. وليس من شأننا التعرض لآراء كل منهما. وكل ما نريد قوله إن الشعر شعر له موضوعاته وليس له صلة بالهيولى والصورة والعرض والجوهر وغير ذلك من اصطلاحات الإلهيين أو الفلاسفة. ومناقشة هذه الموضوعات أو طرحها عبر قوالب الشعر تفسدها وتفسد الشعر معاً إذ الشعر خيال وإبداع والمناظرة نقاش عقلى ودفاع وشتان مابين الاثنين.

وإن بقى شئ نقوله فهو إن القصيدة تثبت طول باع الدهلوى فى النظم والقصيد واللغة.

١- نفس المصدر : ص ٦١ - ٩٦.

الفصل السابع

الرسائل الشعرية

تبادل أدباء العربية فى شبه القارة الرسائل الشعرية فيما بينهم كما تبادلوا الرسائل النثرية. لكن الرسائل الشعرية لم تنتشر كثيراً فى الشمال بين الأدباء كما انتشرت بينهم فى الجنوب حيث كانت على ما يبدو شائعة بين أدبائه.

وقد استخدم الأدباء لرسائلهم قوالب المثنوى فى بحور الرجز كما استخدموا القصائد فى أوزان مختلفة. وقد جمع عبد القادر المليبارى فى كتابه جواهر الأشعار طرفاً من هذه الرسائل الشعرية المتداولة بينه وبين رفاقه وتلامذته تناولوا فيها موضوعات مختلفة علمية واجتماعية. ومن هذه الرسائل اخترنا أمثلة منها ما كتبه إليه أحمد المولوى الشعرانى على وزن ألفية ابن مالك مضمناً رسالته بعض أبياتها، وقال فيها :

قال الفقير الشعرانى إلهامك	أحمد ربى الله خير مالك
ثم الصلاة والسلام صبّا على	محمد خير نبى أرسلا
وصحبه المجاهدين العرفا	واله المستكملين الشرفا
هذا كتاب موجز قد أخبرا	عن الذى خبره قد اضمرا
لعبد القادر شيخى قيلا	مستوجب ثنائى الجميلا
بعد فراقكم أنا فى العطلة	كلى بكاً بكاء ذات غضلة
فى كل وقت هائم فى خلل	مروع القلب قليل الحيل
أخبارنا فى الحال فى الإحسان	فذكر ذا وحذفه سيان

اقرأ من كضفرم تفسيرنا   ورجل من الكرام عندنا

ووصفكم دوماً بوصف فاخر   كطاهر القلب جميل الظاهر

لعدم المجئ كنت معذرا   وجوز والتقديم إذ لا ضررا

لكن قريباً يحصل الوصال   مالم يكن فى لامه اعتلال

وحبكم فى البال دوماً هطلاً   للمح ما قد كان عنه نقلا

جرت دموعى فى الخدود واثر   كذاك نحو تتجلى واستتر

والباقى بعد بالجواب اسرعن   من دون ليت ولعل وكأن

مرجونا منكم دعاء وعمل   بر يزين وليقس منا لم يقل

عليكم السلام دوماً وأتم   تبيينى الحق منوط بالحكم

لسيدى وعبد الرحمن   كابنين وابنتين يجريان

ولبكير أحمد السلام قل   ومسند للاسم تميز حصل

خطى مع العجز كتبت قد كمل   نظماً على جل المهمات اشتمل

مصلياً على النبى والعترة   وصحبه المنتخبين الخيرة

فرد عليه عبد القادر المليبارى :

يقول عبد القادر ابن الفضفرى   لله حمدى دائماً وشكرى

مصلياً مسلماً بالأدب   على الرسول الهاشمى العربى

محمد الهادى من الضلال   وجمع صحب ثم كل آل

وبعد خطك الشريف المتصل   وقت الضحى فى يوم جمعة وصل

فدونك الجواب منى الجانى   لخطكم يا أيها الشعرانى

فخطك العزيز كل حال   يكون ذا عز وذا كمال

بعد ذهابكم أنا فى الحزن   لفقد خل نافع للبدن

فى كل حين حائر مع الوجل   وروع قلب مع قلة الحيل

أنبـــاؤنا مـــعـــاشـــر الملاثر ... فى العـــز والكمـــال والمفـــاخـــر
وعـــبـــد رحـــمن بعـــيـــد صـــبح ... شـــرحـــاً لتـــهـــذيب قـــرا يصـــفح
فـــبـــعـــده التـــفـــســـيـــر للجـــلال ... مـــقـــروء شـــركـــاء لكم فى الخـــالى
فـــتـح المعين بعـــده قـــد قـــرأ ... قـــراء اشـــمـــونى لنا قـــد جـــرأ
فـــبـــعـــد ظهـــر ســـيـــد صـــغـــيـــر ... ألفـــيـــة يقـــرأ مـــعـــه الغـــيـــر
من بعـــدها أيضـــاً هى المقـــروءة ... من أول طلبـــهـــا القـــليـلة
مـــرشـــدكم يقـــرأ بعـــد عـــصـــر ... بنحـــو ورقـــتين دون قـــصـــر
فـــهـــو إذن لبـــاب صـــوم اتصل ... وفـــيـــه تحـــقـــيق أنيق قـــد حـــصل
تذكـــر الوصـــال قلبى اغـــرقـــا ... فى بحـــر عـــشق مـــا لنا فـــيـــه بقـــا
لـكـن بقـــولـكم يسـلى البـــال ... «لكن قـــريبـــاً يحـــصل الوصـــال»
يوم التـــلاقى البـــاقى إن كـــان القـــدر ... بجـــمع يوم قـــبل نوم قـــد كـــثـــر
ســـلامنا لأحـــمـــد الحـــاج قل ... جـــزاك رب العـــرش يوم الزلـل
أبيـــاتنا مـــصـــفـــوفـــة من الخـــشب ... أبيـــاتكم مـــصـــووغـــة من الذهب
مـــرتجـــلاً خطى خـــتـــمت حـــامـــداً ... مـــصـليـــاً مـــسلمـــاً ممجـــداً
عـليـكم الســـلام بالغـــفـــران ... مـــدة دوم شـــعـــر الشـــعـــرانى

وكتب إليه صديقه محى الدين بن أنيذ الفضفرى يقول :

وبعـــد فـــهـــذا الخط من عند جـــاهل ... يســـمى بمحى الدين خـدن التـغـــافـل
إلى حَـبـــه مـــحـــبـــوبه وفـــؤاده ... يســـمى بعـــبـــد القـــادر العـــاقل الجلى
لعـــينى ســـواد قطعـــة مـــتـــعـــاون ... شـــريك برى فـــاضل ذو التـــعـــادل
جـمـيـل نبـيـل فى الشـجـاعـة كـامل ... وبين الملاثر مـــتـــقن وفـــحـــول
عـــزال لـه جلد وفى الجلد نقطة ... يزيد بهـــاء حـــسنهـــا وجـــمـــال

وكـيف هو ابن العـالم الزاهد الورع بيـوسف يسـمى لم نجـده مماثل
ولما تفـارقـتم وإن كـان خـبـركم بأوقـات يعلم غص عـيـشى وهازل
لذكـر اللقـا أى بعـده بيـد أننى أسلى بذكـر الوصل وهو فـحـول
فـأقـرأ منه ذاك فـضل فـلاتكن حـزيناً ببـعـد الجـمع قط وصـال
وخـبـرى وحـالى طيب كله كـذا قـصـدتك حـقـاً يا شـريف الخلائل
ولكن كـتـاباً أقـرأ الآن اسـمـه سـفـاهة العظمى بباب السبـهلل
فـأرجى رجـائى أن يكون دعـاؤ كـا بجـمع وشـغل بالعلوم الفـضـائل
ولاسـيـمـا بالسـقى كـأس منيـة وفـيـه من الإيمان مـاء الهنى والحلى
ويا خط قل منى سـلامـاً على الذى هو الكبـد لى حـقـاً فـلا تك مـاطل

فأجابه عبد القادر المليبارى :

وبعـد فـهـذا الخط من عند قـاصـر يسـمى بعـبـد القـادر الغر فـضـفـرى
جـواباً لخط الخل قـرة عـيـننا يسـمى بمحى الدين مـحى المأثر
لقلبى سـر نازل فـيـه دائمـاً شـريك شـريف شـامل للـمـفـاخـر
جليم حكيم فى المهـارة فـاضل لدى كل طلاب شـبـيـه الغـضـنفـر
ولما تـوادعنا بقـرب حـبـيـبنا أتـانـا اضـطرار بالبكـاء المكـثـر
ومـقلة عـينى تكثـر الماء سـائلاً وأحـزان قلب الحب تـبـدو لزائر
وعـيـشى هنئ مـذ أتيت إلى هنا كـذاك بكم ظنى كـريم المعـاصـر
وأسـمـاء كـتب أقـرأ الآن أكـتب لتـدعـو لى فى كل وقت بخـيـر
فـدر لمخـتـار فـمـخـتـصـر لنا فـمـشكاتنا نفـحـتنا للتـذاكـر
حـزنت لعـدم الخط منكم إلى هنا ولكننى فى الحـال فى أحـسن الخـيـر
وأمـا تـوانى الخط منى إليـكم فـعـدم لعـرفـان المكان المقـرر
ومـرجـونا منكم تديمون دأبكم بل الزائد الموفـور أرجـو من الفـقـر

وأن تتركوا نسيانا بدعائكم　　بوصل ونيل للعلوم المحرر
وموت بإيمان وأمن من العنا　　ومكث بجنات جوار المبشر
وأن ترسلوا فى كل شهر خطوطكم　　تبين أحوالاً مفصلة الخبر
سلام وتفسير السلام سلامة　　تحية مشتاق وتحفة زائر
وأزكى تحيات وأعلى هدية　　على من غدا قلبى وسمعى وناظرى (١)

وهذا قليل من كثير أورده عبد القادر المليبارى من مراسلاته الشعرية مع رفاقه وأصدقائه وهو لون طريف من ألوان الأدب العربى فى شبه القارة وربما فى غيرها.

١- جراهر الأشعار : ص ٧ - ١٣.

الفصل الثامن

العروض والقوافى

أردنا أن نختم بهذا الفصل حديثنا عن الشعر وإن كان الموضوع قد كتب نثراً. وما ذلك إلا لارتباط العروض والقوافى بفن الشعر ومن ثم أردناه ها هنا.

ولأدباء العربية فى شبه القارة مؤلفات كثيرة فى العروض والقوافى منها شرح القصيدة الخزرجية فى العروض لغلام نقشبند اللكنوى المتوفى ١١٢٦هـ والرسالة المختصرة لرفيع الدين الدهلوى الذى مر بك شعره فى باب المعارضات، وميزان الأفكار وهو شرح لكتاب الطوسى المسمى معيار الأشعار كتبه المفتى سعد الله بن نظام الدين المرادآبادى. والتوجيه الوافى فى مصطلحات العروض والقوافى ليوسف على اللكنوى، والدراسة الوافية فى علم العروض والقافية للشيخ محمد بن أحمد الطوكى الذى اطلعت على شئ من شعره. والمورد الصافى فى علمى العروض والقوافى لمحمد بن الحسين المالوى، والميزان الوافى فى علمى العروض والقوافى لمحمد سليم بن محمد عطا الجونبورى ومختصر العروض والقافية لعبد القادر بن محمد أكرم الرامبورى ومختصر آخر لغياث الدين الرامبورى وثالث للسيد كرامت على الكجكانوى ورابع للسيد نعمت حسين، والوافية فى العروض والقافية لشمس الدين الفقير العباسى الدهلوى ومرآة العروض لنوازش على الحيدرآبادى ومجمع البحرين لتاج الدين بن غياث الدين المدراسى ومنظومة فى العروض لعبد القادر بن خير الدين الجونبورى ومفتاح العروض لعباس عليخان وزبدة العروض للسيد محمد مؤمن بن عبد الغفار الرضوى الموهانى وغير ذلك كثير.(١)

١- الثقافة الإسلامية : ص ٤١ - ٤٢ بتصرف.

ولم أعثر على شئ من هذا نثراً أو نظماً، ووجدت حاشية على محيط الدائرة سماها المؤلف بالرياض الناضرة وكتب لها مقدمة فى فنون الشعر سماها العيون الناظرة، والمؤلف هو مولانا محمد موسى الروحانى البازى المدرس بالجامعة الأشرفية بمدينة لاهور فى باكستان، وقد طبع الكتاب فى لاهور سنة ١٣٨٠هـ غير أنى لم أتمكن من معرفة شئ عن حياة المؤلف سوى أنه توفى منذ بضعة أعوام رحمه الله.

يقول الروحاني فى مقدمته :

«من أنواع الشعر الغزل وهو نوع مهم يسبر به حسن تخيل قائله وتفوق مناله وأقواله ويعرف به رقة طبعه وغور وأماء فكره وقوة اقتناص نظره. والغزل بفتح الزاء المعجمة لغة اللهو مع النساء والمحادثة، واصطلاحاً نوع من الأشعار يذكرون فيه المحبوب وحبه والخمر والكأس وقامة المعشوق والخال وسواد الأشعار والخلخال وجفاء الأحبة وجمالهم وبينهم ووصالهم وطول ليالى الفراق وشدائده وقصر ليالى الوصل وعوائده وإسالة العبرات وشكوى الصبابات. ولهذا قالوا لا يستحسن فى الغزل ذكر ما سوى العشقيات كالنصائح والمعارف والمدائح والترغيب والترهيب ويجعل غالباً فى الأغزال العربية الرجل عاشقاً والمرأة معشوقة وفى الفارسية الرجل الكبير محباً والأمرد محبوباً.[١]

وفى باشا سنسكرت لسان الهندكيين [٢] المرأة عاشقة والرجل معشوقاً وذلك لقلة رجالهم بالنسبة إلى نسائهن [٣]، وكل قليل محبوب وكل تافه مطلوب وفى الأردية الرجل طالباً والمرأة مطلوبة وبالعكس وربما يجعل فيها المعشوق المطلوب أمرد ووجه ذلك أن تلك الألسنة المتقدمة مأخذ اللسان الأردى وعناصره فاجتمعت فيه خصائصهن وانصبغت بصبغة جميعهن وأصبحت مجمع البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج بينهما برزخ لا يبغيان.

١- هذا قول فيه نظر وإن وجدت له أمثلة فى الشعر الفارسى غير أنه ليس قاعدة على الإطلاق كما يوحى بذلك النص هنا - المؤلف.

٢- يقصد بلغة البرج بهاشا السنسكريتية لغة الهندوس - المؤلف.

٣- هذا أيضاً فيه نظر ويصعب أن يكون ما ذكره من سبب أساساً لهذه الظاهرة إن صحت - المؤلف.

ثم إن مهرة الغزل يؤثرون القلة فى عدد أبياته إذ المعنى الشريف والخيال الدقيق يقل وجوده ويضيق دائرته والإصار الكلام مخذولاً ركيكاً سوقياً يباع بالخذف والحصاة. قالوا الأولى فى الغزل أن يكون عدد أبياته وتراً وأن يكون أقل من خمسة أبيات عند المحققين وقيل من ثلاث أبيات ولا أكثر من أحد عشر بيتاً وقيل من خمس وعشرين بيتاً لكنا رأينا فى الفارسية وغيرها أبياته. ثم لا مندوحة للغازل من معرفة بعض اصطلاحات الغزل.

فمنها أنه يجب كون البيت الأول مصرعاً ومنها يسمى البيت الأول منه المطلع ومطلع الغزل والبيت الثانى حسن المطلع وزيب مطلع. وزيب لفظ فارسى. وربما يتعدد المطلع فى غزل واحد ويسمى البيت الأخير فيه المقطع ومتمم الغزل. ومنها يعتاد ذكر التخلص فى المقطع. والتخلص لقب يختاره الشاعر لنفسه فى الأشعار ويسوغ أن يدرج التخلص فى المطلع والمقطع كليهما. ومنها أن أبيات غزل واحد لا يجب فيها اتحاد الموضوع واتفاق المطلب فيسوغ أن تتفرق معنى وموضوعاً بأن يذكر فى بعضها الوصال وبأن يشكو فى البعض جفاء المحبوب وقسوة قلبه ويشكره فى البعض على الوصل وحسن التوجه ورقة الفؤاد بل تنوع الخيال. وتلون المعنى ربما يصير أجلب للقلوب وأعلق بالعقول. ومنها أن قافية الغزل برديفه يسمى أرض الغزل وزمين غزل وزمين لفظ فارسى بمعنى الأرض يقال أرض هذا الغزل كذا وكذا ويراد به قافيته ورديفه.

هذا ونظير الغزل عند قدماء العرب التشبيب فى مبدأ القصائد الطويلة ولم يكن الغزل عندهم فناً مستقلاً منفرداً وأما عند المتأخرين من شعراء العرب والعجم فلا تسأل عنه قد ذاع وشاع وغور وأنجد وشرق وغرب هذا والله أعلم». [١]

بهذا نصل إلى نهاية عرضنا لفنون الأدب العربى فى شبه القارة، ونكون قد ألممنا به إلماما شاملاً إلى حد يمكننا من تفهم مزاجه وإدراك طبيعته وتخيل ملامحه وهذا هو قصدنا من تأليف هذا الكتاب. ولقد أوجزنا القول فى كثير من المواضع التى اقتضت التفصيل تاركين ذلك إلى أبحاث أخرى أدق، وربما تتاح لنا فرصة الاطلاع على ما فى مكتبات أخرى، أو استخراج بعض المخطوطات التى قد تتناول أموراً أدبية محددة تفرد لها أبحاث متخصصة.

١- حاشية محيط الدائرة مع مقدمة العيون الناضرة، محمد موسى الروحانى، ص ٢٣ - ٢٤ من المقدمة، باكتسان ١٣٠٨ هـ.

الباب الثالث

سير أعلام الأدباء
فى شبه القارة

هذا باب خصصناه لسير من ذكرناهم في كتابنا من أدباء العربية في شبه القارة دون غيرهم. وقد رتبناه على حروف المعجم، وغرضنا منه التعريف المختصر بهؤلاء الأدباء. ولم نذكر في هذا الباب كل أحد ورد اسمه، وإنما اقتصرناعلى من استشهدنا بشئ من أعمالهم الأدبية في فصول الكتاب.

١- أبو بكر باعبود :

السيد أبو بكر بن محسن باعبود العلوى قدم الهند من اليمن، ونزل بمدينة سورت فنسب إليها، وعرف بها. ولم يعرف تاريخ هجرته إلى الهند، ولكن أسلوبه في مقامات الهندى يدل على أنه وصل إليها في سن مبكرة وعاش بها حتى فسدت عربيته، وغلب عليه لسان الهند، كان من أهل الحديث كما مر بك اعترافه بذلك، ولقبه صاحب النزه بالشيخ العالم الكبير العلامة، ولم نجد له غير المقامات. كما لم تذكره كتب الطبقات إلا في قليل. ولا يعرف أيضاً تاريخ وفاته إلا أن عبد الحى اللكنوى قال إنه ألف مقاماته في سنة ثمان وعشرين ومائة وألف [١] وذكره في رجال القرن الثاني عشر الهجرى مما يدل على أنه كان حياً إلى هذا التاريخ ومات بعده. ويرجع نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب ولكنه ليس من أولاده من فاطمة عليها سلام الله بل من غيرها. ولم تذكر المراجع عنه أكثر من هذا.

١- نزهة الخواطر : ٦/ ٥.

٢- أبـو الحسـن النـدوى :

نجم آخر غني عن التعريف هو الأستاذ الجليل أبو الحسن على بن عبد الحى بن فخر الدين الحسني اللكنوى يرجع نسبه إلى الإمام الحسن بن على عليه السلام. وأجداده من العرب هاجروا إلى الهند فى منتصف القرن السابع الهجرى. ولد فى سنة ١٣٣٣هـ فى راى بريلى من أعمال لكنو فى أسرة متواضعة لكنها غنية بالعلم والفضل وكان والده صاحب نزهة الخواطر يعمل بالعلم والطب. لما توفى أبوه وساءت حالهم حنا عليه وعلى أسرته أبناء صديق حسن القنوجى. تعلم العربية من الشيخ خليل عرب واستفاد من أساتذة بلده مثل الخواجة عبد الحى الفاروقى والسيد طلحة. التحق بجامعة لكنو عام ١٩٢٧ وحصل على ليسانس الأدب العربى عام ١٩٢٩. اشتغل بالتدريس فى دار العلوم بندوة العلماء عشر سنوات حتى عام ١٩٤٤. ساح فى كثير من الدول العربية وانتخب عضوا بالمجمع العلمى العربى بدمشق. كتبه تملأ المكتبات العربية والأردية منها، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ورجال الفكر والدعوة والمدخل إلى الدراسات القرآنية ومذكرات سائح فى الشرق العربى وسيرة النبى الخاتم والقاديانى والقاديانية وغيرها كثير. [١] وللمزيد ارجع إلى كتابه كاروان زندكى.

٣- أبو عطاء السندى :

هو أفلح بن سيار، وقيل مرزكان مولى سندياً لأسد بن خزيمة ثم عمرو بن سماك ابن حصين. وكان لا يفصح وإذا تكلم لا يفهم كلامه إلا أنه كان من أحسن الناس بديهة، وأشدهم عارضة. له شعر عربى رصين جعل اسمه فى عداد شعراء العرب، مدح الدولتين بنى أمية وبنى العباس. وحارب مع بنى أمية كثيراً من معاركهم، وقتل غلامه عطاء الذى أعطاه له سليمان بن سليم الكلبى فى حرب ابن هبيرة ضد العباسيين ، وانهزم أبو عطاء.

١- كاروان زندكى : ١/ ١٥ - ١٦٦ طبع مجلس نشريات اسلام، كراتشى بدون تاريخ وفيه تفاصيل حياته كما كتبها بنفسه.

كان أبوه مولى سندياً، لكن أبا عطاء ولد ونشأ بالكوفة وعاش بين العرب وكانت به لكنة ولثغة لا يفصح معها كما كان داكن اللون، لما مدح ابن سليم أعطاه عطاء غلاماً يروى عنه شعره، فكان إذا أراد أن يتكلم بالشعر وقف عطاء - الذى تكنى به - حذاءه فتكلم أفلح وأبلغ عطاء عنه. لم يأبه بنو العباس به ولم يقربوه منهم حين مدحهم. كان شاعراً فحلاً، عدوه من المكثرين إلا أنه لم يحفظ شعره، ولم يروه عنه أحد فضاع ولم يبق منه غير نتف، تفرقت فى كتب الأدب والطبقات والتراجم كان حياً حتى ١٨٠هـ.[١]

٤- أبو العلاء اللاهورى :

أبو العلاء عطاء بن يعقوب الغزنوى ثم اللاهورى كان من أصل عربى وهاجر آباؤه فى عهد مبكر واستوطنوا مدينة الرى بإيران ثم رحلوا منها إلى غزنة عاصمة الملوك الغزنويين. كانت عائلته من بيوتات العلم والفضل، خدمت الغزنويين وارتقت فى مناصبهم. لم تصرح المصادر بشئ عن مولد أبى العلاء وحياته الأولى والأرجح أنه ولد بالرى ونشأ بها لأن كتاب التذاكر الإيرانيين يلقبونه بالرازى ثم الغزنوى. عمل أبو العلاء فى بلاط ملوك غزنة وتنقل فى المناصب والأماكن إلى أن عزله السلطان إبراهيم الغزنوى بتهمة التمرد والعصيان وحبسه فى حصن من حصون مدينة لاهور سنة ٤٦٣هـ. بقى عطاء بن يعقوب ثمانية أعوام فى السجن بلاهور إلى أن زارها السلطان إبراهيم فى ٤٧٢هـ وقيل له إنه برئ وما زال فى سجنه فعفا عنه وأطلق سراحه فاستقر فى لاهور حتى نهاية حياته عشرين عاماً أخرى لا يعرف عنها الكثير. كان ابو العلاء صديقاً حميماً لمسعود سعد سلمان وكان شاعراً فى الفارسية والعربية. وشعره نموذج لما حواه الشعر الفارسى فى العصر الغزنوى من خصائص. كما أن نثره العربى يمثل مدرسة الهمدانى. قيل إن له ديواناً عربياً وآخر فارسياً لم يصلنا من أيهما إلا القليل مما تفرق

١- فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبى : ١/ ١٣٤ - ١٣٧، مصر ١٩٥١. تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ١/ ٢٤٥ من الترجمة العربية، مصر ١٩٦٨. نزهة الخواطر : ١/ ٢٢ - ٢٣. نتف من شعر أبى عطاء، المقدمة ص ١- ٣. رجال السند والهند حتى القرن السابع لأبى المعالى أطهر المباركفورى : ص ٢٧١ مصر، دار الأنصار، بدون تاريخ.

فى كتب الطبقات. أثنى عليه العوفى فى لباب الألباب، ورضا قليخان هدايت فى مجمع الفصحاء والقاضى محمد بن محمود الغزنوى فى سر السرور وياقوت الحموى فى معجم الأدباء وأبو الحسن الباخرزى فى دمية القصر. وذكر بعضهم أن ديوانه العربى انتشر فى العراق ومصر وكان يباع بمائتين من الحمر الراقصات على الظفر كما كان ديوانه الفارسى يباع فى خراسان بأوفر الأثمان. توفى فى ٤٩١هـ. (١)

٥- أبو الفيض بن المبارك الناكورى :

أبو الفيض بن المبارك الناكورى ويعرف أيضاً بأبى الفيض الفيضى لم يكن له نظير فى عصره فى الشعر والعروض والقافية واللغة والتاريخ والإنشاء والطب. ولد بمدينة آكره سنة أبع وخمسين وتسعمائة وقرأ العلوم على والده ثم تفرغ للشعر واللغة العربية والطب. له ديوانان بالعربية الأول بعنوان طباشير الصبح فيه تسعة آلاف بيت، والثانى فيه قصائده. وكما برع فى الشعر العربى نبغ فى الشعر الفارسى ومن مؤلفاته فيه (مركز ادوار) و (نلدمن) وهما مثنويان قلد فيهما اثنين من منظومات نظامى الكنجوى الخمس. ومن مصنفاته كذلك (لطيفة فيض) وهى مجموعة رسائله، وموارد الكلم رسالة فى الأخلاق بالعربية غير منقوطة و (سواطع الإلهام) الذى مر بك شئ منه وهو أشهر مؤلفاته.

كان أبو الفيض حريصاً على جمع الكتب النفيسة وشرائها بالأموال الطائلة وقيل إنه جمع ثلاثمائة وأربعة آلاف من الكتب المصححة النفيسة أكثرها كانت مكتوبة بأيدى مصنفيها أو قريبة العهد بمصنفها. قالوا إنه كان ممن تفرد فى عصره بالفصاحة والبلاغة والمتانة والرصانة. رماه أعداؤه فى المذهب بالزندقة وذلك لم يثبت من مؤلفاته وتهم التكفير عادة تروج بين أهل شبه القارة وتمتلئ بها كتبهم، توفى سنة ١٠٠٤هـ، ودفن بمدينة لاهور على الأرجح وقيل بمدينة آكرة. (٢)

١- ملخص مما جاء فى كتاب (أبو العلاء اللاهورى) للدكتور ظهور أحمد نقلاً عن الكتب المذكورة.

٢- نزهة الخواطر : ٥/ ٢٧ - ٣٢. مأثر الكرام للبكرامى : ١٨٤ باكتسان ١٩٧١، تذكره علماى هند، رحمن على : ص ٤، الهند ١٩١٤م. سبحة المرجان لآزاد البلكرامى : ١/ ١١٧ - ١١٩.

٦- أبو محفوظ الكريم معصومي :

الأديب والشاعر أبو محفوظ الكريم معصومي ولد في بتنة باقليم بهار في شمال شرقي الهند سنة ١٩٢٨م، ودرس العلوم العربية والإسلامية على يد والده، مولانا محمد أمير حسن وكان عالماً جليلاً، ثم التحق بالمدرسة العالية الحكومية بمدينة كلكتة ودرس الأدب العربي على الأستاذ عبد الرحمن الكاشغري الندوي كما استفاد أيضاً من أساتذة عصره في منطقته مثل العلامة ولايت حسين والمفتي عميم الاحسان بركتي. حقق كتاب الغريبين للهروي مع الأستاذ حمد الجاسر وآخرين ولم يطبع بعد. ونشر بعض قصائد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس كما حقق ونشر ديوان أبي سعيد الرستمي المسمى بالرستميات. وله شعر رائق وقصائد كثيرة بالعربية لم تطبع. وهو ممن يجيدون العربية والفارسية والانجلزية والأردية.

وقد نشرت له مجلة المجمع العلمي الهندي ومجلة ثقافة الهند كثيراً من المقالات والأبحاث التحقيقية الخاصة بالأدب العربي وكذلك بعض قصائده العربية. ونشر مجمع البحوث الإسلامية باسلام آباد ديوان الرستميات عام ١٩٨٤م.

عمل أبو محفوظ أستاذاً للتفسير والحديث في المدرسة العالية بكلكتة أعواماً طويلة وهو الآن باحث كبير بالمجمع الآسيوي البنغالي بكلكتة. (١)

٧- أحمد التهانيسري :

الشيخ الفاضل والفقيه الجليل والأديب الفذ أحمد بن محمد التهانيسري. كان من شعراء الهند وأدبائها البارزين كما كانت له اليد الطولى في الفقه وأصوله. ولد ونشأ بدلهي حاضرة الهند، ولا يعرف على وجه اليقين تاريخ مولده. تتلمذ في العلوم الاسلامية والأدب العربي على القاضي عبد المقتدر الشريحي الكندي ثم أخذ التصوف عن الشيخ نصير الدين الأودي وصحبه مدة من الزمان. تأثر كثيراً بأستاذه الشريحي في الشعر العربي كما يبدو لمن قارن بين شعريهما.

١- هذه المعلومات أمدني بأكثرها أخوه الأكبر الدكتور محمد صغير حسن معصومي، وانظر المقدمة التي كتبها الدكتور صغير حسن لديوان الرستميات : ص ب - د، اسلام آباد ١٩٨٤.

روى القنوجي أن تيمورلنك حين استولى على دهلي رغب في لقائه واختاره للمجالسة حين توجه لفتح بلاد الروم إلا أن الشيخ تخلف عن الالتحاق بموكبه ، ثم هاجر من دهلي إلى كالبى واشتغل فيها بالدرس والإفادة إلى أن توفى بقلعتها سنة ٨٢٠هـ.

أما صاحب حدائق الحنفية فيروى هذه القصة بشكل آخر اذ يقول أن التهانيسرى حين دخل تيمور دهلى اختلف مع شيخه الخواجكى حول الخروج منها فى معية تيمور حتى اعتقل الأمير تيمور أهله وأقاربه. فلما هدأت الأحوال ذهب فى مجلسه ودارت هناك بينه وبين برهان الدين المرغينانى صاحب كتاب الهداية مناقشة حول نفس الموضوع، وكان تيمور يجل المرغينانى كثيراً، وانتهى النقاش برحيل الشيخ التهانيسرى مع أهله إلى كالبى التى استقر بها إلى أن مات. ولم تذكر المراجع له غير ما مر بك من شعر وإن اجمعت على علمه وفضله وتمكنه. (١)

٨- أحمد حسن القنوجي :

السيد أحمد بن الحسن بن على الحسينى البخارى القنوجي كان من أبرز علماء العربية والحديث فى زمنه. ولد سنة ست وأربعين ومائتين وألف وتتلمذ على يد أساتيذ عصره كالشيخ عبد الجليل الكوئلى والشيخ المحدث عبد الغنى بن أبى سعيد العمرى الدهلوى. كان ذكياً ألمعياً، قال صاحب النزهة كانت له اليد الطولى فى الشعر العربى والفارسى وكان ينظم فى ساعة نجومية قصيدة طويلة فصيحة المبنى بليغة المعنى قل من يقدر على إنشائها فى أسبوع. وقد فاق السيد أحمد القنوجي أقرانه فى الذكاء والفطنة وقوة الحفظ وجودة الذهن توفى عام سبعة وسبعين ومائتين وألف عن ثلاثين عاما وسبعة أشهر وعشرين يوماً أى فى ريعان شبابه بعد عودته من الحج إلى مدينة برودة بوباء الكوليرا على ما يبدو ودفن بها فى التكية الماتريدية عند ضريح السيد يحيى الترمذى كما ذكر أخوه صديق حسن القنوجي. (٢)

١- فقهاى هند لمحمد بهتى : ٢/ ٩٤ - ١٠٣، لاهور ١٩٧٥م. مآثر الكرام : ١٦٩. نزهة الخواطر : ٣ / ٨ - ٩. تذكره علماى هند، رحمن على : ١٨. أبجد العلوم : ٣/ ٢١٨. حدائق الحنفية لفقير محمد الجهلمى : ٣١٣، الهند ١٣٠٨ هـ.

٢- أبجد العلوم لصديق حسن القنوجي : ٣/ ٢٦٨، باكستان ١٩٨٣م. نزهة الخواطر لعبد الحى الحسنى : ٧/ ٢٣ - ٢٦. تذكره علماى هند لرحمن على : ١٤.

٩- أحمد الرسولبورى :

الشيخ أحمد حسين ابن الشيخ باب الله الرسولبورى المباركبورى الأعظمى. ولد سنة ١٢٨٨هـ وقرأ العلوم العربية والاسلامية على أخيه عبد العليم الرسولبورى ومحمد فاروق الشرياكوتى وأشرف على التهانوى وعبد الحق الخيرآبادي والشيخ محمد طيب العرب. اشتغل بالتدريس فى بنارس وغازيبور ودكا التى أقام فيها قرابة عشرين عاماً. كان عالماً زاهداً أديباً طبيباً.

له كتب باللغتين العربية والأردية منها سبيل الآخرة وحاشية على ملتقى الأبحر وحاشية على قصيدة البردة كما شرح قصيدة للفرزدق وله كتاب طريف جمع فيه ألوفاً من الألفاظ العربية ورتبها فى شكل معجم موضوعى على أساس ترادفها فكان يجمع المترادفات فى أسماء الرجال - مثلاً - التى تخصهم ثم يبدأ فى هذا الباب بالألف ثم الباء إلى أخر الحروف. وباب أسماء النسوة التى تخصهن باختلاف نعوتهن مرتباً ذلك أيضاً على حروف المعجم، وبينما كان يعد الكتاب للطبع وينسخه بيده سرقه منه سارق وبقيت منه مئات الورقات مخطوطة إلى الآن. توفى عام ١٣٥٩هـ عن بضع وسبعين سنة ومن أحفاده من ابنته حميدة القاضى أبو المعالى أطهر المباركبورى، وقد مر بك له كتابان فى كتابنا هذا الأول عن الحكومات العربية فى السند والثانى رجال السند والهند حتى القرن السابع. (١)

١٠- احمد بن عبد القادر الكوكنى :

أحمد بن عبد القادر الجيتكر الشافعى الكوكنى يرجع نسبه إلى طائفة من قريش خرجت من المدينة المنورة هرباً من اضطهاد الحجاج بن يوسف الثقفى، فوصلت بحراً إلى سواحل الهند وسكن بعض أفرادها فى مدراس بجنوب الهند وعرفوا بالنوائط وتوطن بعضها الآخر كوكن على ساحل الهند أيضاً وجميعهم شافعية.

١- مقدمة ديوان أحمد : ٦- ٩.

ولد عام ١٢٧٢هـ في مدينة بمباى. وكن معروفاً منذ صباه بالذكاء والفطنة. تتلمذ في العلوم العربية والإسلامية على يد علماء عصره من الشافعية كالقاضي محمد اسماعيل المهرى الكوكني والشيخ عبد الحميد باعكظة ومحمد على الكوكني ومن الحنفية كعبد الله الحنفي البديوني وعبد الحى بن عبد الحليم اللكنوى ومحمد شاه المحدث. برع في العلوم الأدبية لكنه أصيب بوجع في ظهره حتى انحنى وكان يشق عليه القيام والقعود والمشى. امضى أغلب وقته في المطالعة. أثنى عليه جماعة من الفضلاء منهم السيد علوى بن أحمد السقاف شيخ السادة بالحرم المكى وقال فيه : إنه ممن تشد إليهم الرحال ولو لم يكن لنا قصد في الخروج من مكة المشرفة والدخول في الهند سوى زيارته لكفى. توفي سنة ١٣٢٠هـ. وله شعر عربي رائق وكان بينه وبين صاحب النزهة مراسلات أدبية وصلات. (١)

١١- أحمد بن مصطفى الكوياموى :

العالم الفقيه أحمد بن مصطفى بن خير الدين العمرى الكوياموى ويعرف كذلك بالقاضي أحمد المجتبى ومصطفى على خان كان من العلماء البارزين في المنطق والحكمة والشعر. ولد ونشأ بمدينة كويامو، ودرس على يد الشيخ رحيم الدين الكوياموى وغلام طيب البهارى وحيدر على السنديلوى. حفظ القرآن في ريعان شبابه ثم سافر إلى مدراس بجنوب الهند وولى التدريس بمدرسة والا جاه بعد ذلك في مدينته كويامو، وظل يتنقل بينها وبين مدراس ثم ولى القضاء بمدينة ترشنابلى إلى أن توفي محمد مستعد خان المدراسى قاضى القضاة فتولى مكانه.

كان عالماً صالحاً ديناً متواضعاً حسن الأخلاق والمحاضرة، حافظاً لكثير من الشعر والأدب. له ديوان شعر بالفارسية، كما له قصائد عربية. وكان تخلصه في الفارسية على عادة شعرائها (خوشدل) وتوفي بمدينة مدراس سنة ١٢٣٤هـ. (٢)

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٢٤ - ٢٥.

٢- نزهة الخواطر : ٧/ ٢٦ - ٢٨.

١٢- أحمد المولوى الشعرانى :

لم نهتد إليه. كل ما نعرفه عنه أنه - كما مر بك - كان معاصراً لعبد القادر المليبارى بينه وبينه مراسلات شعرية وأدبية. ويظهر من اسمه أنه كان شافعياً كبقية أهل ساحل مليبار.

١٣- اسماعيل بن الوجيه المرادابادى :

العالم الفاضل المفتى اسماعيل ابن المفتى وجيه الدين المرادآبادى، كان من فطاحل العلماء درس العلوم العربية والإسلامية على أيدى شيوخ مدينة لكنو التى قدمها فى صباه وعاش بها ثم تولى رئاسة العدل والقضاء بها حتى بعثه نصير الدين الحيدر ملك دويلة (أوده) سفيرا لدى بريطانيا فأقام بها زماناً ولقبه المخالفون باللندنى سخرية به واستهزاء، واتهموه فى عقيدته، كما هى عادة المشايخ مع كل من اختلف معهم .شعره الذى مر بك يبين أنه ما كان راضياً عن عيشته فى لندن وأنه كان فى ذلك مجبوراً. ولم يعرف سبب ذلك ولا غير ذلك من جوانب حياته رغم كثرة مؤلفاته. ولم يذكر صاحب النزهة تاريخ وفاته ولا مولده لكنه ذكره فى رجال القرن الثالث عشر الهجرى.

كان - كما يفصح عن ذلك شعره - شاعراً مجيداً رصيناً. ومن مؤلفاته حاشية على شرح التهذيب لليزدى وشرح على مقامات الحريرى بالفارسية وحاشية على شرح هداية الحكمة للميبذى وحاشية على تشريح الأفلاك للعاملى وشارك مجموعة من العلماء فى وضع معجم تاج اللغات وهو معجم ضخم فى سبعة مجلدات. (١)

١٤- مولانا أصغر على روحى :

الأستاذ الجليل والشاعر الرقيق مولانا أصغر على روحى، كان من علماء العربية والفارسية وله فيهما مؤلفات ضخام. تتلمذ على يد مولانا غلام بهيروى وفيض الحسن السهارنبورى والمفتى محمد عبد الله تولكى. تولى أصغر على روحى ابن القاضى شمس الدين بين ميان بير بخش بن ميان ركن الدين رئاسة قسم اللغة العربية

١- نزهة الخواطر : ٧/ ٦٣ - ٦٤.

والدراسات الإسلامية بالكلية الحكومية الإسلامية فى لاهور عام ١٨٩٢م وتقاعد إلى المعاش فى ١٩٤١م. كان عالماً فاضلاً متواضعاً وباحثاً جاداً. له مؤلفات عديدة بالعربية والفارسية والأردية أهمها ترجمة وشرح قصيدة البردة، وديوان شعر عربى صغير فيه خمسمائة بيت، وتفسير سورة ياسين وتفسير الجزء التاسع والعشرين من القرآن وترجمة نصيحة التلميذ للغزالى إلى اللغة الاردية وترجمة الداء والدواء لابن القيم إلى الأردية أيضاً بعنوان الجفاء والوفاء وله فى الفارسية «دبير عجم» كتاب مشهور فى النقد والبلاغة وله العروض والقوافى كتاب باللغة الأردية وما فى الإسلام كتاب فى مجلدين فى العقيدة وغير ذلك كثير.

كان أكثر شعره فى الفارسية حتى حوى ديوانه ستة آلاف بيت وهو ديوان ضخم مازال مخطوطاً محفوظاً فى مكتبة جامعة البنجاب بلاهور. توفى رحمه الله فى عام ١٩٥٤م. (١)

١٥- ألطاف حسين حالى :

الشاعر الأديب والشيخ الفاضل ألطاف حسين بن ايزد بخش الأنصارى من أشهر الشعراء فى شبه القارة ولد فى سنة ١٢٥٣هـ فى مدينة بانى بت القريبة من دلهى، درس العلوم الإسلامية وحفظ القرآن على يد الشيخ ابراهيم حسين الانصارى والشيخ على نواز الدهلوى ومولانا قلندر على وغيرهم. ودرس الشعر على يد غالب أبى الشعر الأردى فى شبه القارة وأعظم شعرائه ، وصاحبه واختص بصحبته حتى تفرغ للشعر وحده ، ودون منظومته المعروفة بمسدس حالى - وحالى تخلصه - والتى تلقاها الناس بالقبول وسارت مسيرة الأمثال فى البلاد وأولع الناس بها ولعاً عظيما وطبعت مراراً لا تحصى وهى ملحمة عظيمة تصور المد والجزر فى الإسلام وحال المسلمين وتنقلهم من النصر إلى الهزيمة ومن التقدم إلى الانحطاط. وقد صور فيها المجتمع الإسلامى

١- مولانا أصغر على روحى والدكتور صوفى ضياء الحق، مقال لمعين نظامى بالفارسية بمجلة (تحقيق) وهى مجلة كلية العلوم الإسلامية والشرقية بجامعة البنجاب بلاهور، المجلد ١٦، العدد ١- ٢ لسنة ١٩٩٣، ص ٥٥ - ٧٠. وانظر مولانا أصغر على روحى كے احوال وآثار رسالة للدكتوراة مقدمة من ذو الفقار على رانا.

تصويراً دقيقاً، ومن أسف أنه نظمها باللغة الأردية فحرم العرب الاستمتاع بها. كان حالي ناقداً عظيماً وشاعراً مرهفاً رقيقاً، سريع الانفعال غزير القريحة متألما لحال المسلمين في العصر الحاضر. اشتغل في لاهور زمنا ثم عل بالتدريس في دلهي ثم اعتزل وتفرغ للشعر. وكان من أشد أنصار حركة الإصلاح التي قادها السيد أحمد خان وقد مر بك هذا. له كتب عن حياة سعدي وذكرى غالب وترياق المسموم في الذب عن الملة الإسلامية وشكوى الهند ومناجاة أرملة، وله أرجوزات كثيرة. ولم يعرف حالي كشاعر من شعراء العربية في شبه القارة، إنما كل شهرته بسبب شعره الأردي ونقده للأدب، واكتشاف شعره العربي وما فيه من سلاسة وجمال كما رأيت لم يتيسر لمعاصريه. توفي رحمه الله في عام ١٣٣٣هـ. (١)

١٦- أنور شاه الكشميري :

العلامة المحدث أنور شاه بن معظم شاه الحسيني الحنفي الكشميري كان من كبار فقهاء الحنفية وعلماء الحديث في شبه القارة .ولد في سنة ١٢٩٢هـ في قرية بدوده وان من أعمال كشمير ودرس على يد والده ثم بعد ذلك على الشيخ اسحق الأمرتسري والعلامة محمود حسن الديوبندي والشيخ خليل الأنبهتوي ثم ولي التدريس بالمدرسة الأمينية بدلهي. انتهت إليه رئاسة تدريس الحديث بشبه القارة فبقي فيها ثلاثة عشر عاماً اشتغل فيها بتدريس الحديث في ديوبند، كان همه التوفيق بين الحديث والفقه الحنفي الذي دافع عنه وانتصر له كثيراً حتى حدثت فتنة في المدرسة لم يذكرها أصحاب التذاكر أدت إلى اعتزاله عن شياخة الحديث فيها فغادر ديوبند إلى دابهيل من قرى سورت حيث أسس له بعض التجار مدرسة سماها الجامعة الإسلامية فظل يدرس بها إلى أن مرض وضعفت صحته فعاد إلى ديوبند وتوفي بها في سنة ١٣٥٢هـ ودفن قريبا من بيته.

كان الشيخ أنور الكشميري نادرة عصره في قوة الحفظ وسعة الاطلاع، ومن مصنفاته تعليقاته المشهورة على فتح القدير لابن الهمام وعلى صحيح مسلم وعلى

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٦٥ - ٦٧.

الأشباه والنظائر ورسائله عن عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام ومشكلات القرآن وغير ذلك. (١)

١٧- أوحد الدين البلكرامى :

الشيخ أوحد الدين بن على أحمد البلكرامى درس على يد مولانا حيدر على بن عنايت على ودرس الأدب العربى والإنشاء على يد الشيخ أحمد الشروانى اليمنى الذى أقام بالهند. لم يذكر أصحاب التذاكر شيئا عن عام مولده ولا سنة وفاته رغم اشتهار اسمه وتعدد مؤلفاته. لكن المرجح أنه توفى فى القرن الثالث عشر الهجرى لأن صاحب النزهة ذكره فى رجال هذا القرن ولأن تاريخ بعض مؤلفاته يدل على ذلك. كان الشيخ أوحد الدين مهتماً كل اهتمام بالأدب العربى ولغته كما تدل على ذلك كتبه إذ له نفائس اللغات وهو أول معجم تناول بيان أصول الألفاظ المستعملة فى اللغة الأردية ومقترضة من اللغات الأخرى العربية والفارسية وغيرها وقد أتمه فى عام ١٢٥٣هـ وله أيضاً روضة الأزهار ومفتاح اللسان وتذكرة شعراء العرب وشرح لقصيدة بانت سعاد وشرح لديوان المتنبى وشرح لمقامات الحريرى. ويعتبر كتابه مفتاح اللسان فريداً فى أسلوبه إذ صاغ فيه مسائل الأدب العربى والإنشاء فى شكل سؤال وجواب، وقد ألفه سنة ١٢٤٧هـ. (٢)

ولا نعرف سبب إهمال أصحاب التراجم والطبقات الأدبية فى شبه القارة لتفاصيل حياته رغم كثرة تصانيفه، حتى لم يذكر آزاد منها شيئاً فى كتابه مآثر الكرام وهو تذكرة لأدباء بلكرام ومنهم أوحد الدين البلكرامى.

١٨- باقر بن مرتضى المدراسى :

باقر بن مرتضى الشافعى المدراسى أحد العلماء المشهورين موطنه الأصلى مدراس بجنوب الهند. قيل إنه من النوائط أى أجداده من العرب الذين فروا من الحجاج

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٨٠ - ٨٣. المنتخب من الشعر العربى : ٢٤٩- ٢٥.

٢- تذكرة علماء هند، الترجمة الأردية لمحمد أيوب قادرى، ص ١٣٦ - ١٣٧، كراتشى ١٩٦١م. نزهة الخواطر : ٧/ ٨٨ - ٨٩.

وسكنوا ساحل جنوب الهند. ولد في ويلور من أعمال مدراس في ١١٥٨هـ. تلقى العلوم الإسلامية والعربية على يد السيد أبي الحسن الويلوري وغيره من علماء الجنوب. كان نابغة حتى تأهل للإفتاء وهو دون العشرين وكان يناظر الكبار ويفحمهم وولي في العشرين من عمره ديوان الإنشاء عند الأمير نواب محمد علي الكوياموي في مدراس فلما ظهرت براعته أنعم عليه بإقطاعية كان إيراده منها في ذلك الوقت أربعة آلاف ومائتي روبية في السنة ثم أدخله في ندمائه. كان المدراسي غزير الإنتاج له عشرات الكتب بالفارسية والعربية والأردية في موضوعات فقهية وعقيدية وأدبية يهمنا منها ديوانه بالعربية وقصائده العشر التي مر بك ذكرها وهي على نهج المعلقات وقيل إن له ديواناً عربياً آخر غير الأول خصصه لمدح الرسول عليه وآله السلام كما له مقامات على منوال مقامات الحريري، وله رسائل حذا فيها حذو البديع الهمداني عنوانها شمائم الشمائل في نظام الرسائل. ومن أهم كتبه بالفارسية ديوان شعره وكتابه الذي استدرك فيه على آزاد، وانتقى له من شعره أربعمائة غلطة. توفي عام ١٢٢٠هـ ومن أسف أننا لم نعثر على شئ من إنتاجه العربي هنا. (١)

١٩- بهادر يارجنك :

النواب محمد يارجنك بهادر من الزعماء السياسيين والإسلاميين في شبه القارة ومن قادة حركة باكستان. ولد في سنة ١٣٢٢هـ في حيدراباد الدكن وصنع نفسه بنفسه عن طريق المطالعة بعد أن أتم تعليمه الاولي في المدرسة ثم على يد الشيخ أشرف شمسي والشيخ سعدالله خان. تجول في الدول الإسلامية كالعراق والشام وفلسطين ومصر وتركيا والحجاز وآسيا الوسطى وايران وأفغانستان وغيرها في أيام نشاط الحركة اليهودية وعاصر حركة السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله. لما عاد من جولته انضم إلى حركة الخدام (خاكسار) التي أسسها عنايت الله المشرقي، ثم أسس هو مجلس اتحاد المسلمين وجماعة المتطوعين وأقام مراكز تدريب عسكري للشباب في كل قرية. ثم لما أسس محمد علي جناح حزب الرابطة الإسلامية انضم إليه وصار من أبرز

١- تذكره علماى هند، رحمن على : ص ١٨٨. نزهة الخواطر : ٧/ ٩٣ - ٩٦.

قادته. كان يعرف اللغات الإنجليزية والفارسية والعربية والأردية وكان ذا فطرة شاعرة وطبيعة أدبية رقيقة لكنه لم يتجه إلى الأدب بل كان يكبح الشعر فى داخله ويقول : (أنا أكبح هذه العاطفة لأن الشاعر عموما بعيد عن العمل وأنا أريد أن أعمل شيئاً) كان خطيباً مفوهاً شارك فى كل حركة نهضة أدبية او ثقافية. قال السيد سليمان الندوى إن أجداده كانوا من العرب. توفى فى سنة ١٩٤٢م ويعتبر فى باكستان بطلاً قومياً. (١)

٢٠- حميد الدين الفراهى :

حميد الدين أو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج على الأنصارى الفراهى كان من أجلة العلماء الثائرين. اسمه الأصلى عبد الحميد لكنه اشتهر بحميد الدين. ولد فى سنة ١٢٨٠هـ فى قرية فريهة من قرى أعظم كره. تتلمذ على يد العلامة الأديب شبلى النعمانى والمولوى محمد مهدى ثم سافر إلى لكنو مركز الحضارة الإسلامية آنذاك وتلقى العلم على يد الشيخ فضل الله بن نعمة الله والعلامة عبد الحى بن عبد الحليم ثم ذهب إلى لاهور وتأدب عند فيض الحسن السهارنبورى ثم تعلم الإنجليزية ثم الفلسفة الحديثة التى حصل فيها على ليسانس من جامعة إله آباد بالهند، وحين أراد حاكم الهند اللورد كاريزون توطيد علاقاته بالعرب عمل له مترجماً تحت ضغط شديد من العلامة شبلى النعمانى. عمل أيضاً مدرساً للعربية بمدرسة الإسلام فى كراتشى وبعدها فى جامعة عليكرة ثم جامعة إله آباد وتعلم العبرية من المستشرق الالمانى هارويز مقابل تعليمه إياه اللغة العربية. ظل فى التدريس حتى صار مديراً لدار العلوم بحيدرآباد الدكن. اعتزل بعد ذلك وعكف على المطالعة وأسس قريباً من قريته مدرسة الإصلاح التى كان من أول أهدافها تحسين أسلوب تعليم اللغة العربية والتخصص فى القرآن. له مؤلفات أهمها تفسيره الحركى للقرآن بعنوان نظام الفرقان وتأويل القرآن بالقرآن ورسائل فى تفسير القرآن منها الإمعان فى أقسام القرآن

١- حيات قائد ملت ، محمد اقبال سليم ، ص ٣٢-١٦٢ ، لاهور بدون تاريخ . ياد رفتكان للسيد سليمان الندوى، ص ٢٣٤ ، كراتشى ١٩٨٣ .

والرأى الصحيح فيمن هو الذبيح وله أيضاً جمهرة البلاغة وديوان الشعر العربى الذى مر بك كما له ديوان بالفارسية ومنظومة بالأردية في الإعراب سماها تحفة الإعراب وغير ذلك. كان عالماً ثائراً، هم المسلمين أكبر همه، بارعاً في العلوم الإسلامية والأدب العربى والشعر الجاهلى بشكل خاص أثنى عليه معاصروه كالشيخ أبى الاعلى المودودى ورشيد رضا المصرى والسيد أحمد وشبلى النعمانى وغيرهم ، وقارنه بعض الباحثين بحسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين بمصر وكان من الموافقين له في الفكر. توفى فى عام ١٣٤٩هـ بمدينة متهرا ودفن بها. (١)

٢١- حيدر على الرضوى :

السيد حيدر على الرضوى كان من مجتهدى الشيعة فى شبه القارة قرأ العلوم الاسلامية على والده ثم على الشيخ تراب على السنى والشيخ أحمد على المخمدآبادى وأخذ الأدب عن المفتى محمد عباس التسترى وكان من أخص تلاميذه، كان يقوم بالتدريس مجاناً فى المدرسة الإيمانية بلكنو وكان ورعاً تقياً زاهداً عالى الكعب فى المعقول والمنقول، وله اليد الطولى فى الشعر والأدب العربى. من مؤلفاته ديوان الشعر العربى والحواشى على الصدرا بالعربية وحاشية على شرح السلم بحمد الله وشرح لزبدة الأصول وحاشية أخرى على اللمعة فى الفقه الشيعى. لم نعثر على ديوانه ولا على كثير من شعره وقد نقلنا عنه ما ذكره صاحب النزهة وقال فى آخره :توفى فى سنة ١٣٠٢هـ كما فى تذكرة بى بها للمولوى محمد حسين النوكانوى. (٢)

٢٢- الأمير خسرو الدهلوى :

أبو الحسن بن سيف الدين محمود المشهور بالأمير خسرو الدهلوى، من أشهر الشعراء فى شبه القارة وايران لقبوه بسلطان الشعراء وبرهان الفضلاء وكان موسيقاراً عالى الشأن أيضاً. ولد فى بتيالى بالهند عام ٦٥٢هـ وارتبط ببلاطات عديد

١- مولانا حمد الدين الفراهى، محمد عنايت الله سبحانى : ٧ - ١٩، لاهور ١٩٨٠م. نزهة الخواطر : ٨/ ٢٢٩- ٢٣٠.

٢- نزهة الخواطر : ٨/ ١٢٩ - ١٣٠.

من أمراء عصره وكانت طبيعته شاعرة خالصة. فأقبل على الشعر والموسيقى بكل اهتمام. بايع الشيخ نظام الدين أولياء من أقطاب التصوف والعرفان بشبه القارة - وهو من أدخل الموسيقى في الذكر الصوفي - ولازمه وصار أحد خلفائه من بعده ودفن معه في دهلي ونسبه الناس إليها فعرف خسرو الدهلوي. كان من أهل التصوف والعرفان استخدم شعره وموسيقاه وسائر الفنون التي أتقنها وبرع فيها في نشر طريقة شيخه.

كان من المجتهدين في البلاغة في شبه القارة وقد أوجد نوعاً من البدائع عرف باسم بوقلمون وهي لفظة تعني قماشاً رومياً ذا ألوان متعددة، وتعني في الاصطلاح البلاغي التورية المتعددة في أكثر من لغة. كذلك اخترع الأمير خسرو ألواناً من النظم في الفارسية والهندية كالقوالي والترانة والنقش والخيال والنكار وغيرها وكلها من فنون الراكني ولا يتسع المقام هنا لبيانها. له مؤلفات عديدة في البلاغة والشعر كالإعجاز الخسروي ومنظومات ودواوين كثيرة في الفارسية تصل إلى حوالي عشرين مؤلفاً، شعره العربي قليل وإن كان يدل على معرفة جيدة، توفي في سنة ٧٢٥هـ. (١)

٢٣- خورشيد رضوي :

الشاعر الرقيق خورشيد رضوي ولد في مدينة أمروهة وهي التي زارها ابن بطوطة. تاريخ ميلاده الحقيقي ١٩ مايو سنة ١٩٤٢م لكن أوراقه الرسمية تقول إنه ولد في ديسمبر سنة ١٩٤٠م ولا يعرف خورشيد من الذي فعل هذا ولماذا. هاجر إلى باكستان مع أسرته سنة ١٩٤٩م، أتم تعليمه الابتدائي والثانوي والعالي في ساهيوال ثم التحق بكلية الدراسات الشرقية في جامعة البنجاب بمدينة لاهور وحصل على ماجستير اللغة العربية ونال لتفوقه ميداليات ذهبية وفضية. أخذ اللغة العربية والأدب عن الدكتور صوفي ضياء الحق ثم عن الدكتور شيرزمان ومولانا نور الحسن والسيد أبي بكر الغزنوي وغيرهم من أساتذة الأدب العربي. ينظم الشعر باللغات الثلاث العربية

١- تذكرهء علماى هند : ٥٧، نزهة الخواطر ٢/ ٣٨ - ٤١ آب كوثر، الشيخ محمد اكرام : ١٩٧ - ٢٠٨، باكستان، شركة فيروز سنز، ١٩٥٢. Encyclopedia of Islam 2 / 980، ولمزيد من التفصيل انظر حيات خسرو لشبلي النعماني، سوانح حيات أمير خسرو لمحمد حبيب وحيات حضرت أمير خسرو لخان بهادر تقي محمد خان، وكلها كتب مطبوعة معروفة في شبه القارة.

والفارسية لم يطبع له دواوين إلا فى الأردية التى رأينا له فيها ثلاثة دواوين الاول بعنوان شاخ تنها طبع سنة ١٩٧٤ والثانى «سرابون كى صدف» وقد طبع عام ١٩٨١م والثالث بعنوان رائكان وقد طبع فى ١٩٩٦. حصل على الدكتوراه فى الأدب العربى من جامعة البنجاب عام ١٩٨١م. ترجم محاضرات الدكتور فؤاد سزكين (محاضرات فى تاريخ العلوم) إلى الأردية وله أيضاً عشرات المقالات باللغات الثلاث وبالانجليزية ترأس الكلية الحكومية فى سركودها، وهو الأن أستاذ اللغة العربية بالكلية الحكومية بلاهور. (١)

٢٤- ذو الفقار على الديوبندى :

الشيخ الجليل ذو الفقار على بن فتح على الحنفى الديوبندى كان من أكابر الماهرين بالعلوم العربية وفنونها الأدبية. ولد ونشأ بديوبند ثم انتقل إلى دهلى وتلقى العلم على مولانا مملوك النانوتوى، والمفتى صدر الدين الدهلوى ولازمهما ملازمة طويلة. وقد استفاد منهما كثيراً حتى برع وفاق أقرانه فى علوم المعانى والبيان والنحو والشعر. قلدته الحكومة تفتيش المدارس الابتدائية فبقى فى منصبه هذا إلى أن أحيل إلى المعاش. قال صاحب النزهة إنه لقيه بديوبند فوجده ماهراً بالفنون الأدبية.

ويبدو أن الديوبندى فضل نقل الآداب العربية إلى الأردية ليستفيد منها أهلها لأن الشروح التى كتبها للأعمال الأدبية العربية كانت كلها تهتم بهذا الجانب فله شرح لديوان الحماسة وآخر لديوان المتنبى وثالث للمعلقات السبع وله كتاب فى البلاغة وكل هذه الأعمال باللغة الاردية. وقد وجدنا له شرحاً لقصيدة البردة اسمه عطر الوردة فى شرح البردة شرح فيه الألفاظ العربية ومعانيها ونحوها وصرفها باللغة العربية ثم شرح معنى البيت بالأردية (٢) وكان له شعر متين بالعربية لم يصلنا منه إلا قصيدته التى مرت بك فى الأدب السياسى. توفى فى سنة ١٣٢٢هـ. (٣)

١- أكثر هذه المعلومات أمدنى هو بها نفسه.

٢- عطر الوردة، طبع كتبخانه اعزازية، ديوبند، الهند. بدون تاريخ.

٣- نزهة الخواطر : ٨/ ١٤٠ - ١٤١.

٢٥- رضى الدين الصغانى :

رضى الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن على بن اسماعيل القرشى العدوى العمرى الصغانى حامل لواء اللغة العربية فى زمانه. ولد بمدينة لاهور سنة ٥٧٧هـ ونشأ بغزنة ثم سافر إلى بغداد سنة ٦١٥هـ ثم إلى اليمن ثم عاد إلى بغداد ثم منها إلى الهند ثم إلى بغداد مرة أخرى. سمع من النظام المرغينانى. قال الذهبى كان إليه المنتهى فى اللغة. هذا ما ذكرته كتب الطبقات العربية أما صاحب النزهة فقد قال إنه ولد فى عام ٥٥٧هـ فى لاهور وعرض عليه السلطان قطب الدين أيبك القضاء بمدينة لاهور فرفض ورحل إلى غزنة ومنها إلى ديار العرب وقد خلع عليه الخليفة العباسى الناصر لدين الله وأرسله سفيراً بينه وبين سلطان الهند شمس الدين ايلتمش، ثم أرسله المستنصر بالله العباسى أيضاً فى سفارة إلى السلطانة رضية بنت ايلتمش.

كان صالحاً صموتاً عن فضول الكلام إماماً فى اللغة والفقة والحديث. أخذ عنه شرف الدين الدمياطى وابن الصباغ ونظام الدين بن عمر الهروى وغيرهم. بلغت مؤلفاته فى اللغة والأدب اثنين وثلاثين بين مطبوع ومخطوط ذكرها جميعا الدكتور اوغست هفنر فى ذيل الأضداد للصغانى. توفى رحمه الله عام ٦٥٠هـ قولاً واحداً، ودفن ببغداد ثم نقل بعد ذلك إلى مكة ودفن بها وكان قد أوصى بذلك واعداً خمسين ديناراً لمن يحمله. (١)

٢٦- رفيع الدين الدهلوى :

رفيع الدين بن ولى الله بن عبد الرحيم العمرى الدهلوى المحدث المتكلم من أسرة علم وفقه ولد فى دهلى سنة ١١٦٣هـ ونشأ بها وتعلم من أخيه الشيخ عبد العزيز. برع فى العلوم الإسلامية وتصدى للفتوى والتدريس وهو ابن عشرين ثم اشتهر أمره وعلا بين علماء عصره. له كتاب مشهور فى بيان بعض مسائل علم الحقائق

١- ثلاثة كتب فى الأضداد، نشر د. أوغست هفنر، ص ٢٤٩ - ٢٥٣، بيروت ١٩١٢م، نقلاً عن فوات الوفيات للكتبى وبغية الوعاة للسيوطى، وكشف الظنون لحاجى خليفة. وانظر تاريخ الأدب العربى، كارل بروكلمان ٢١٢/٦ من الترجمة العربية، ونزهة الخواطر : ١/ ١٣٧ - ١٤١. مآثر الكرام : ١٦٣. تذكرهء علماء هند : ٤٨.

الغامضة اسمه دمغ الباطل، وله أيضاً فى أسرار الحب الإلهى كتاب أسرار المحبة أثنى عليهما معاصروه من العلماء أصحاب القلوب والعرفان. وله غير ذلك رسالة فى العروض وأخرى فى التاريخ وثالثة فى إثبات شق القمر ورابعة فى الحجاب وخامسة فى غلامات القيامة وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة المشهورة فى شبه القارة كما له تخميس على بعض قصائد والده ولى الله الدهلوى وكتبه مازالت مخطوطة فى مكتبة رامبور بالهند. وله مؤلفات بالفارسية أيضاً، توفى رحمه الله فى عام ١٢٣٣هـ وليس كما قال رحمن على فى تذكرهء علماى هند فى سنة ١٢٤٩هـ حسب ما استدركه عليه صاحب الترجمة الأردية محمد أيوب قادرى. (١)

٢٧- زيـن الدين بن على المليبارى :

زين الدين بن على بن أحمد المليبارى الشافعى مذهباً ولد فى ٨٧١ أو ٨٧٢هـ فى مدينة كش من مدن ساحل مليبار بجنوب الهند. ولما عين عمه زين الدين أحمد المليبارى قاضياً لمنطقة فنان بجنوب الهند أخذه معه وقام بتربيته وتعليمه على يد شيوخ منطقته كالشيخ شهاب الدين أحمد ابن أبى الحل اليمنى وفخر الدين الشالياتى المليبارى وزكريا الأنصارى وغيرهم.

كان إمام عصره وعلامة دهره عاملاً محققاً عالماً ورعاً متبعا للسنن محارباً للبدع فى منطقته له كتب كثيرة منها مرشد الطلاب إلى الكريم الوهاب والمسعد فى ذكر الموت وشمس الهدى فى الموعظة وحاشية على ألفية ابن مالك وشرح على كافية ابن الحاجب وكفاية الطالب فى حل كافية ابن الحاجب شرح آخر لها وكتاب فى السير النبوية. وله كتاب فى أحكام الجهاد ألفه حين هاجم البرتغاليون منطقته اسمه تحريض أهل الإيمان على جهاد عبدة الصلبان وله قصيدة فيما يورث البركة وينفى الفقر مأخوذ من كتاب البركة للوصالى، وله قصيدة أخرى فى السلوك كما له رسائل نظماً ونثراً إلى الملوك

١- نزهة الخواطر : ٧/ ١٨٦ - ١٨٧. تذكره علماى هند : ٦٦، والترجمة الأردية : ٩٦ - ٩٧.

والأمراء فى عصره. توفى فى سنة ٩٢٨هـ وكان عالماً فاضلاً أسلم على يده فى منطقته خلق كثير.(١)

٢٨- شاه حسين حقيقت :

السيد حسين بن السيد عرب شاه كان أجداده ممن فروا من ظلم بنى أمية واستقروا فى بلخ وتركستان. يرجع نسبه إلى سيد الشهداء الحسين بن على عليه السلام. ولد سنة ١١٨٦هـ ١٧٨٢م ولما مات أبوه وهو فى الخامسة من عمره علمه ورباه جده لأمه فنبغ وعرف اسمه فى الأدب الأردى واشتهر باسم شاه حسين حقيقت. انتقل مع أسرته إلى كانبور حيث عمل رئيساً للكتاب لدى الدكتور هندرسون فى فتح كره.

كان شاه حسين حقيقت تلميذاً للشاعر المشهور جرأت الذى بقى معه زمناً طويلاً وتعلم منه الشعر، وعمل فى آخر عمره لحكام الإنجليز فى كلكتة ومدراس.

كان حقيقت أديباً بارعاً ذا مكان بارز فى الأدبين الأردى والفارسى. له ديوان أردى وكتب أدبية أخرى منها تحفة العجم وخزينة الأمثال الذى مر بك وصنم خانه جين وهشت كلزار وجذب عشق وتذكره أحبه وهفت نسخه وغيرها. توفى رحمه الله فى عام ١٢٤٩هـ.(٢)

٢٩- شهاب الدين الدولتابادى :

القاضى شهاب الدين بن شمس الدين عمر الزاولى الدولتابادى ولد فى دولتاباد وانتسب اليها وحصل علومه على يد القاضى عبد المقتدر الشريحى الدهلوى ومولانا خواجكى. حين توجه جيش الأمير تيمور إلى دهلى رحل عنها مع أستاذه الخواجكى الذى رحل إلى كالبى وسافر هو إلى جونبور حاضرة المملكة الشرقية آنذاك بالهند فأكرمه سلطانها إبراهيم الشرقى وعظمه ولقبه بملك العلماء فتصدى للدرس بجونبور وألف البحر المواج وهو تفسير للقرآن بالفارسية وحاشية الكافية وكتاب الإرشاد فى

١- فقهاى هند : ٣/ ١٨١ - ١٨٣. نزهة الخواطر : ٤/ ١١٨ - ١١٩.
٢- مقدمة خزينة الأمثال. تذكره علماى هند : ٤٩.

النحو وبدائع البيان فى البلاغة وشرح قصيدة بانت سعاد الذي مر بك وفتاوى ابراهيم شاهى ومناقب السادات وتقسيم العلوم وغيرها من الكتب النافعة.

حكى صاحب تاريخ فرشته أن القاضى شهاب الدين كان من غزنين وتربى ونشأ فى دولتاباد وكان السلطان إبراهيم الشرقى يجد فى تعظيمه وكان القاضى يجلس فى مجلسه على كرسى من فضة. ومرض القاضى ذات مرة فذهب السلطان لعيادته فلما دخل عليه ملأ كأسا بالماء وأدارها حول رأسه ثم شربها ودعا الله أن ينقل إليه ما به من مرض أياً كان ويشفيه. توفى فى عام ٨٤٩هـ ودفن بمسجد السلطان إبراهيم فى جونبور، أما صاحب حدائق الحنفية فقد قال إنه توفى فى سنة ٨٤٨ هـ وإن الشهرة التى حباه الله إياها لم تحصل لأحد غيره. وكان يتكلف فى أسلوبه العربى السجع وإن كان متيناً. وخص الجهلمى كتابه شرح الكافية ذكراً وقال : لم يعدله فى اللطافة والمتانة كتاب وقد نال شهرة عالمية فى حياة المؤلف. وشرحه لقصيدة بانت سعاد يدلك على تمكنه من العلوم العربية شعرا وبلاغة ونحواً وصرفاً بحيث إذا قلنا إنه أفضل وأشمل شرح لها لم نخطئ، وجملة كتب الدولتابادى مقبولة محبوبة لدى العلماء فى شبه القارة لا يختلف على هذا اثنان. (١)

٣٠- صديق حسن القنوجى :

السيد صديق حسن بن أولاد حسن بن أولاد على الحسينى البخارى القنوجى من أشهر مشاهير شبه القارة وأعظم عظمائها ولد سنة ١٢٤٨هـ فى مدينة بانس بريلى بالهند. توفى أبوه وهو فى السادسة من عمره فصار فى حضن أمه يتيماً فقيراً فقرأ مبادئ القراءة والكتابة فى كتاب وحفظ بعض أجزاء القرآن الكريم ثم تولى تعليمه أخوه أحمد حسن القنوجى. انتقل إلى دهلى فاعتنى به المفتى صدر الدين خان وكان أستاذ الأساتذة بها فانتظم فى تلقى العلم على يده إلى أن فرغ من الدرس وهو فى الحادية والعشرين فنزل بمدينة بهوبال للاسترزاق فأسند اليه الوزير جمال الدين

١- تذكرهء علماى هند : ٢٣٩ من الترجمة الأردية. مآثر الكرام : ١٧٠، فقهاى هند : ٢/ ١١٣ - ١٣١. حدائق الحنفية : ٣١٩. أخبار لعبد الحق الدهلوى : ١٦٩، الهند ١٢٧٨هـ.

الصديقى الدهلوى تعليم أسباطه ثم اختلفا بعد ذلك لسبب لم يذكره أصحاب التذاكر فنفاه الوزير من بهوبال فتوجه إلى طوك فتوسط له عند الوزير المذكور بعض أكابر علمائها فرده إلى بهوبال فولاه تحرير الوقائع وزوجه بابنته التى كان يعلم أولادها فى البداية. سافر إلى مكة واليمن وتلقى الحديث عن علمائها ثم عاد إلى بهوبال وتولى نظارة المعارف بها ثم تولى ديوان الإنشاء وأعطى لقب (خان). وكان بحكم عمله يتردد إلى النواب شاهجهان بيغم ملكة بهوبال ويمثل بين يديها فأحبته وقربته من نفسها وكانت أرملة اقترحت عليها الحكومة الانجليزية الزواج ليساعدها زوجها فى الحكم فتزوجته سنة ١٢٨٨هـ وجعلته معتمد مهام الدولة ومنحته إقطاعاً فلقبته الحكومة الإنجليزية بـ (النواب والا جاه أمير الملك السيد محمد صديق خان بهادر) ومنحته حق التعظيم فى أرض الهند كلها بإطلاق المدافع سبع عشرة طلقة وهذا كله يعنى بلغة العصر أنه أعطى البروتوكول الخاص برئيس دولة فعاش فى رغد من العيش يجمع فى يديه رئاستى الدولة والعلم. ثم ما لبث أن سعى به المندوب السامى لدى الهند ودبر له المؤامرات فاتهمه بتحريض الشعب على الجهاد والزام الملكة بالحجاب الشرعى ليستبد دونها بالأمر فسحبت منه الألقاب وجرد من البروتوكول سنة ١٣٠٢هـ وبعد ذلك منع من التدخل فى شئون الدولة. شمت به الأعداء لكن زوجته بقيت على وفائها تدفع عنه التهم وتقف جنبه فى محنته حتى أعادت له الحكومة ما سلبته منه سنة ١٣٠٧هـ لكنه كان قد اشتد به مرض الاستسقاء فتوفى بعدها بقليل ليلة صدر آخر مؤلفاته وهو كتاب مقالات الإحسان الذى ترجم فيه فتوح الغيب كتاب الشيخ عبد القادر الجيلى. وأمرت الحكومة الانجليزية بتشييع جنازته وفق ما يليق بالأمراء حسب المراسم والبروتوكولات الخاصة لكنه كان قد أوصى بأن تشيع جنازته ويدفن كما تنص السنة فنفذت وصيته وشيعه خلق كثير حتى أنهم صلوا عليه ثلاث مرات.

كان حاذ الذكاء سريع الفهم كريم الخلق سمح الطباع غزير العلم وافر الإنتاج له من المؤلفات العربية أكثر من خمسة وخمسين كتاباً فى الفقه والأصول والحديث والأدب واللغة. كان وهابى المذهب يسيئ الظن بأهل الفقه والتصوف خاصة بأبى حنيفة وآرائه.

وقد أنفق هو وزوجته الملكة أموالاً طائلة على طبع الكتب العربية من تأليفه وتأليف غيره. وبلغت مؤلفاته بكل اللغات ثلاثمائة. وقد جمعها ابنه على حسن فى كتاب عن سيرة والده بعنوان مآثر صديقى. كما فصل ذكرها ابنه الآخر السيد نور الحسن فى مقدمة كتابه نيل المرام فليرجع إليهما من شاء. (١)

٣١- الدكتور صوفى ضياء الحق :

صوفى محمد ضياء الحق ابن مولانا أصغر على روحى، وقد مر بك شئ من شعر كليهما. ولد فى لاهور سنة ١٩١١م ونشأ بها. كان عالما بالعربية والفارسية والأردية والإنجليزية نال درجة الدكتوراه فى اللغة العربية وهى آخر درجاته العلمية التى حصل عليها. عين أستاذاً للغة العربية فى الكلية الحكومية بجهنك سنة ١٩٣٧م وبقى بها حتى ١٩٤٢م. ثم بعدها فى الكلية الحكومية بساهيوال حتى ١٩٥٨م. ثم رئيساً لقسم اللغة العربية بالكلية الحكومية بلاهور حتى تقاعد إلى المعاش فى ١٩٧٠م .وكان يدرس أيضاً فى كلية الدراسات الشرقية فى جامعة البنجاب بلاهور. فكانت له مئات التلاميذ الذين تخرجوا على يديه فى الأدب العربى والدراسات الإسلامية. ونخص منهم الدكتور خورشيد رضوى. له مؤلفات عديدة لكن أهم عمل له الفهرس العام الذى أعده فى عشرين سنة لكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان حيث رتب فيه كل موارده من أحاديث وأشعار وآيات وأعلام وأمثال وأماكن وأنساب وقبائل ومباحث علمية. ليس هذا فحسب بل كتب تحقيقاً وافياً شاملاً لحياة المؤلف ومصادر مادة الكتاب وأكمل ما نقص من مصاريع الأبيات ونقد ما أمكن نقده، وقد قال المستشرق السير وليم جونز عن وفيات الأعيان إنه أفضل وأحسن تاريخ عام وضع حتى الآن على الإطلاق. ومن أسف أن هذا العمل لم يطبع حتى الآن. وله أيضا شرح القصائد الهمزيات العشر فى مدح سيد الجن والبشر وهو شرح جميل لهذه القصائد باللغة الأردية وهى قصائد

١- نزهة الخواطر : ٨/ ١٨٧ - ١٩٥. تذكره علماى هند : ٩٤ - ٩٥.

لحسان بن ثابت والبوصيرى وشاه ولى الله وأحمد شوقى ويوسف النبهانى ومولانا روحى والسيد عبد الحميد الخطيب وله شعر بالعربية والفارسية والأردية. توفى سنة ١٩٨٩م. (١)

٣٢- طلا محمد :

الشيخ العالم القاضى طلا محمد ابن القاضى محمد حسن بن محمد أكبر بن خان العلوم الافغانى البشاورى أحد العلماء المشاهير فى شبه القارة. ولد ونشأ فى أسرة علم ومعرفة فكان جده قاضى القضاة بأفغانستان وكذلك كان أخوه عبد الكريم وابن أخيه عبد القادر. كان طلا محمد والياً على دار الإنشاء فى مدينة كلكتة زمن الانجليز كما كان ولده محمد أسلم من كبار موظفيهم. تأدب على ذويه وأهل قرابته ثم أخذ الحديث عن المحدث المشهور السيد نذير حسين الدهلوى كما لازم الشيخ الصالح عبد الله بن محمد أعظم الغزنوى واستفاد منه. كان طلا محمد من أهل الحديث بارعاً فى العربية وآدابها له شعر رقيق وقصائد جميلة طويلة جمعت فى ديوان سماه (نشأة الطرب فى أشواق العرب). توفى سنة ١٣١٠هـ فى مكة المكرمة ودفن بالمعلاة. (٢)

٣٣- الدكتور ظهور أحمد :

الدكتور ظهور أحمد أظهر ولد فى قرية كهبيكى من قرى مقاطعة البنجاب الباكستانية سنة ١٩٣٧م وحفظ القرآن الكريم على والده ثم واصل دراسته كطالب غير منتظم. تخرج فى جامعة البنجاب من قسم الدراسات الإسلامية سنة ١٩٥٩م ثم حصل على ماجستير اللغة العربية عام ١٩٦١م ثم ماجستير الدراسات الإسلامية فى العام التالى ثم دكتوراه اللغة العربية من نفس الجامعة سنة ١٩٦٩م.

١- مجلة فكر ونظر، عدد يولية/ سبتمبر ١٩٨٩م. افتتاحية المجلة، علاوة على ما أمدنى به من معلومات تلميذه الدكتور خورشيد رضوى. ورأى وليام جونز مذكور فى تاريخ الأدب العربى لنكلسون.
A Literatry History of the Arabs, R.A. Nicholson, P. 452, Cambridge, 1956.
وانظر أيضاً مجلة تحقيق، ج١٦، عدد ١- ٢، لسنة ١٩٩٣، ص ٥٥ - ٥٦.

٢- نزهة الخواطر : ٨/ ١٩٩ - ٢٠٢.

عمل في حقل تدريس اللغة العربية منذ عام ١٩٥٦م وهو الآن رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بنفس الجامعة وهو - كمعظم أدباء شبه القارة يجيد العربية والفارسية والأردية - له مؤلفات عديدة مر بك بعض منها تصل إلى أكثر من عشرين. (١)

٣٤- عبد الأول الجونبوري :

الشيخ الفاضل عبد الأول بن كرامة علي بن امام بخش بن جار الله بن كل محمد بن محمد دائم الجونبوري من مشاهير الأدباء في شبه القارة. ولد سنة ١٢٨٤م بجزيرة سرنديب درس العلم على والده ثم على مولانا محمد نعيم بن عبد الحكيم النظامي اللكنوي ثم قرأ العقائد على السيد شير على البلندشهري ثم سافر إلىالحجاز وأخذ الحديث عن الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الكرانوي والشيخ عبد الله بن حسين وأخذ التفسير والعرفان عن الشيخ عبد الحق بن شاه محمد الإله آبادي.

كان واعظا فصيح اللسان ظاهر البيان حسن العبارة حلو الإشارة جيد القراءة سريع اليراع كما قال اللكنوي بلغت مؤلفاته مائة كتاب منها : الطريف للأديب الظريف، والمنطوق في معرفة الفروق، وعرائس الأفكار في مفاخرة الليل والنهار، والتليد للشاعر المجيد والرديف لتالي الطريف وأحسن الوسائل إلى حفظ الأوائل والطريق السهل إلى حال أبي جهل والبسطي في بيان الصلاة الوسطى وكانت له أشعار رقيقة بالعربية. توفي سنة ١٣٣٩هـ في مدينة كلكتة ودفن بها. (١)

٣٥- عبد الحكيم السيالكوتي :

الأديب الفاضل عبد الحكيم بن شمس الدين السيالكوتي من كبار الأدباء المشهورين في شبه القارة. ولد ونشأ في مدينة سيالكوت. تعلم على الشيخ كمال الدين الكشميري ولازمه وتخرج على يديه وكان عجيباً في الدرس والإفادة وقوة الحفظ. وزنه الملك شاهجان سلطان الهند المغولي بالفضة مرتين كما مر بك ومنحه ما جاء في الوزن وأنعم عليه بقرى متعددة ليعيش عيشاً رغيداً يؤلف ويصنف قال صاحب النزهة عن

١- منقول من تعريفه بنفسه على غلاف كتابه أبو العلاء اللاهوري.

مؤلفاته اتفق على فضله علماء الأفاق وسارت بمصنفاته الرفاق وكلها مقبولة عند العلماء محبوبة إليهم لا سيما علماء بلاد الروم يتنافسون فيها وهى جديرة بذلك. ونقل عن محمد بن فضل الله المحبى صاحب خلاصة الأثر قوله : كان رئيس العلماء عند سلطان الهند لا يصدر إلا عن رأيه ولم يبلغ أحد من علماء الهند فى وقته ما بلغ من الشأن والرفعة. ونقل عن محمد صالح فى كتابه عمل صالح أنه كان من كبار الأساتذة لم يدرك شأوه أحد من العلماء فى غزارة العلم وكثرة الدرس والإفادة إذ درس وأفاد ستين سنة. وللسيالكوتى مصنفات عديدة منها حواشيه على تفسير البيضاوى والمقدمات الأربعة فى التلويح والمطول فى البلاغة وعلى شرح المواقف وعلى شرح العقائد للتفتازانى وعلى شرح العقائد للدوانى وعلى شرح الشمسية وشرح المطالع فى المنطق وعلى شرح الكافية للجامى فى النحو وعلى مراح الأرواح فى الصرف وله الدرر الثمينة فى إثبات علم الواجب كما له كتب ومؤلفات أخرى .كان من كبار مريدى مجدد الألف الثانية الشيخ أحمد السرهندى وكان السرهندى يلقبه بشمس البنجاب. أثنى عليه معاصروه واشتهرت مؤلفاته في ديار العرب وإن كان من ملاحظة أدبية تلاحظ على أعماله فهي أن أغلبها حواشي إما على شروح أو على متون، ويبدو أن الشيخ فطن إلى أن الإبداع قد يضيع الاستمتاع لما يلزم له من إبداء الرأى الجديد فآثر الحواشي. توفى سنة ١٠٦٧هـ ١٦٥٦م فى مدينة سيالكوت ودفن بها. (١)

٣٦- عبد الحميد الصادقبورى :

عبد الحميد بن أحمد الله بن إلهى بخش بن هدايت على الهاشمي الصادقبورى العظيم آبادى كان من البارزين فى العلوم والمعارف الأدبية. ولد عام ١٢٤٥هـ ببلدة عظيم آباد. قرأ المختصرات على عمه الشيخ فياض على ، ثم انتقل إلى لكنو ودرس على المفتى واحد على البنارسى وأخذ عنه العلوم الحكمية، ثم درس الطب على يد الحكيم طالب على اللكنوى. نهبت أمواله وسرقت كتبه فى ثورة الهند سنة ١٢٧٣هـ

١- تذكره علماى هند : ١١٠. سبحة المرجان : ١/ ١٧٠. نزهة الخواطر ٢١٥/٥. ٢١٦. مآثر الكرام ١٩٣. فقهاى هند : مجلد ٤، جزء ٢، ٩٤ - ٩٨. تواريخ سيالكوت، غلام محمد عبد الصمد : ٨٣ - ٨٩، الهند ١٣٠٤هـ.

فعاد إلى عظيم آباد. صاحب النزهة لقيته مراراً فوجدته بحراً زاخراً فى العلوم الحكمية والمعارف الأدبية منطقياً ذا محاضرة حسنة ومناشدةطيبة، ما رأيت أحدا مثله في قوة الحفظ وجودة القريحة وسعة الاطلاع على أسفار القدماء وطول الباع فى التمييز بين الصواب والخطأ وكان ينظم القصيدة الفائقة فى لحظة مختطفة بحيث لا يصدق بذلك إلا من له مزيد اختبار. ثم ساق له قصيدة قال إنه نظمها ارتجالا على مسمع منه ومرأى، وقد مر بك بعضها. اشتهر بالطب والعلاج بعد عودته إلى عظيم اباد عقب ثورة الهند فبقى بها إلى أن توفى ودفن فيها عام ١٣٢٣هـ. (١)

٣٧- عبـد الحــى اللكنــوى :

رأينا أن ندخل عبد الحى اللكنوى فى أدباء شبه القارة وإن لم نستشهد بشئ من إنتاجه لما له من فضل على أهل العربية فى التعريف بأدباء شبه القارة مع إيراده لكثير منأعمالهم وأشعارهم.

هو السيد عبد الحى بن فخر الدين الحسنى العلوى منأبناء الامام الحسن بن على عليهما سلام الله. ولد فى سنة ١٢٨٦هـ فى زاوية السيد علم الله قرب راى بريلى من أعمال لكنو بالهند. قرأ العلوم العربية والإسلامية على أكابر مشايخ عصره كالشيخ محمد نعيم الفرنكى محلى والشيخ فضل اللهبلكنو والقاضى عبد الحق والشيخ السيد أحمد الديوبندى وحسينبن محمد اليمانى وابنه محمد وأخذ الطب عن الطبيب الشهير عبدالعلى، كل ذلك بمدينة بهوبال ثم رجع إلى لكنو واشتغل بالطب كان من أهم الشخصيات التى أسست وخدمت ندوة العلماء بمدينة لكنو حتى عين مديرا لها فى ١٣٣٣هـ. كان عالماً ورعاً متبحراً راسخ القدم فى الآداب العربية والفارسية والأردية وكان شاعراً لكنه لم يكثر، له مؤلفات عدة أهمها نزهة الخواطر كتاب عظيم فى ثمانية أجزاء عن رجال الهند حتى القرنالرابع عشر الهجرى. كما له كل رعنا وهو كتاب فى تاريخ الشعر الأردى وشعرائه وكتاب جنة المشرق ومطلع النور المشرق فى التاريخ الإسلامى وحضارة الهند وهو كتاب جليل وكتاب معارف العوارف فى أنواع العلوم

١- نزهة الخواطر: ٢٢٧/٨-٢٢٩

والمعارف بالهند وتطورها وشيوخها وكتاب الغناء وشرح للمعلقات السبع وياد أيام وهو تذكرة فى رجال كجرات وحضارتها وغير ذلك كثير . توفى رحمه الله فى ١٣٤١هـ ودفن بقريته. (١)

٣٨- عبد الرحمن الغازيبورى :

الأديب الفاضل مولانا عبد الرحمن بن جهجو الغازيبورى أحد الأدباء الأفاضل. ولد سنة ١٢٨١هـ في غازيبور وحفظ القرآن وتعلم العربية على يد المولوى عبد الأحد اللكنوى ثم أخذ العلوم عن خاله الشيخ عبد الله بن عبد الرحيم الغازيبورى وكان شيخاً جليلاً ثم ولى التدريس بمدرسة (جشمه رحمت) فى غازيبور فعمل بها مدة ثم استقال واشتغل بالتدريس بلا أجر.له ديوان شعر بالأردية وقصائد بالعربية مر بك شئ منها توفى سنة ١٣٣٤هـ . (٢)

٣٩- عبد الرحيم الصفيبورى :

العلا مة عبد الرحيم بن عبد الكريم الصفيبورى أحد العلماء البارزين فى النحو واللغة. م تذكر كتب الطبقات عنه شيئاً كثيراً على كثرة مؤلفاته التى منها أوضح المسالك وهو شرح ألفية ابن مالك الذى مر بك وشرح المعلقات السبع وهو مختصر لشرح الزوزنى، وغاية البيان فى علم اللسان بالفارسية في الصرف العربى والمسالك البهية فى القواعد النحوية، ومنتهى الأرب فى لغة العرب معجم في اللغة العربية ألفه بالفارسية فى أربع مجلدات، وضرورة الأديب فى المؤنثات السماعية فى اللغة العربية وهذه الكتب مطبوعة منذ زمن طويل كلكتة وكانبور وغيرها من بلاد الهند وقد رأيتها. اختلفوا فى تاريخ وفاته فذكر الزركلى أنه توفى فى ١٢٥٧هـ، وذكر عبد الحى اللكنوى انه مات فى ١٢٦٧هـ وقال رحمن على أنه لا يعرف تاريخ وفاته ثم نقل عن اللكنوى تاريخ وفاته المذكور. (٣)

١- مقدمة نزهة الخواطر، ترجمة المؤلف، ص : ض إلى ز - م.

٢- نزهة الخواطر٨/٢٤١-٢٤٢.

٣- الأعلام للزركلى :٣/٣٤٦. نزهة الخواطر٧/٢٦٤-٢٦٥. تذكره علماى هند.١١٩.

٤٠- عبد العزيز البرهاروى :

عبد العزيز أحمد البرهاروى ينتمى إلى أسرة أفغانية نزحت فى القديم إلى مقاطعة البنجاب وكان والده أحمد بن حامد من رجال التصوف .ولد عبد العزيز سنة ١٢٠٩هـ فى قرية برهار من أعمال مظفركره. تلقى علومه الأولية عن والده ثم انتقل إلى ملتان ولازم الشيخ محمد جمال الجشتى الملتانى. يقال إنه كان فى صغره تليمذاً بليداً متخلفاً فى دراسته مما كان يحزنه كثيراً، وطالما دعا الله أن يهبه فطنة، وقد استجاب الله له يوماً فأظهر لشيخه الجشتى ورفاقه ذكاء نادراً وعبقرية عجيبة. وفى هذا تتعدد القصص والروايات التى منها أن عبد العزيز جلس يوماً وحده يتحسر على بلادة ذهنه ويبكى فظهر له الخضر عليه السلام ودعا له ومسح على رأسه فانقلب حاله. اشتهر بعد ذلك عبد العزيز البرهاروى بالذكاء والفطنة وتحصيل العلوم حتى تحول إليه طلاب العلم تاركين غيره وكان على رأسهم الشيخ احمد الديروى الذى حقد على ما عند عبد العزيز من علم ومعارف فسحره ليتخلص منه وأعترف الشيخ البرهاروى بذلك حين حضرته الوفاة. وأيا كان الأمر فان هذه الأحقاد والضغائن واستخدام السحر كوسيلة للانتقام أمر شائع رائج فى منطقتنا ولا يستبعد ان يكون قد حصل فعلاً . والثابت أن البرهاروى لم يتصل ببلاط وكثر أعداؤه مما تسبب فى ضياع جل مؤلفاته. ومما صنف البرهاروى النبراس ونعم الوجيز ومرام الكلام واللوح المحفوظ والصمصام وكوثر النبى والسر المكتومو سر السماء والإكسير وجواهر العلوم وغيرها وهى مؤلفات فى البلاغة والتفسير والحديث والعقائد والنجوم والهيئة والطب. توفى رحمه الله فى عام ١٢٣٩هـ مسحوراً كما قيل وهو فى ريعان شبابه. (١)

٤١- عبد العزيز الدهلوى :

الشيخ عبد العزيز بن ولى الله بن عبد الرحيم العمرى الدهلوى الملقب بسراج الهند وحجة الله. ولد عام ١١٥٩هـ وأخذ العلم عن والده ولما توفى أبوه أخذ العلم عن الشيخ نور الله البرهانوى والشيخ محمد أمين الكشميرى والشيخ محمد عاشق

١- مجلة المجمع العربى الباكستانى، المجلد الأول : العدد الثانى : ٦٢ - ٧١.

البهلني وغيرهم من علماء عصره. تتلمذ على يديه جمهرة من العلماء بشبه القارة منهم أخوته عبد القادر ورفيع الدين وعبد الغني. كان عالماً فحلاً وأديباً كبيراً اشتغل بالتدريس وهو ابن خمسة عشر حتى صار علماً مفرداً وقطباً بارزاً يؤمه الطلاب من كل مكان. ابتلى وهو في الخامسة والعشرين بأربعة وعشرين مرضا منها العمى والبرص والجذام ومع ذلك لم يكف عن الوعظ والتدريس والإرشاد وقد صرح في بعض رسائله أن من الامراض التى اعترته أيضاً فقدان الشهية حتى كان لا يأكل لأيام طويلة. كان رحمه الله حسن المحاضرة رغم ما به فصيح المنطق مليح الكلام ماهراً بالفروسية والموسيقى والشعر، وكان يجمع في ذاته خصالاً كثيرة طيبة، يتوسط به المحتاجون إلى ذوى السلطان، ويلجأ إليه الغرباء وأبناء السبيل، حتى افتخر الناس بالانتساب اليه وإلى تلامذته. من أشهر مصنفاته الكثيرة تفسير القرآن المسمى بفتح العزيز ضاع معظمه في ثورة الهند، وتحفة الاثناعشرية كتاب متداول مشهور في الكلام، والفتاوى في المسائل المشكلة وبستان المحدثين وميزان البلاغة وميزان الكلام والسر الجليل في مسالة التفضيل وسر الشهادتين في شهادة الحسنين عليهما السلام بالعربية وهو من أعظم الكتب وقد أتلفه النواصب وقرأت ما تبقى منه. ورسائل في الرؤيا والأنساب وغيرها. وله رسائل كثيرة في المنطق والحكمة وشرح على أرجوزة الأصمعي وتخميس على قصائد والده البائية والهمزية. وفى رحمه الله فى سنة ١٢٣٩هـ. (١)

٤٢- عبد العزيز الميمني :

خادم الأدب العربي في شبه القارة ومعلمه وقطبه عبد العزيز الميمني الراجكوتي ولد في راجكوت سنة ١٨٨٨م في أسرة مزارعين .تلقى تعليمه الابتدائي في كتاتيب القرية ثم رحل إلى دهلي عام ١٩٠١م وتتلمذ على يد الأساتذة المعروفين آنذاك كالشيخ محمد بشير السهسواني والشيخ نذير أحمد الذى مر بك شعره - وكان يلقب بشمس العلماء - وعلى يديه قرأ الحماسة وديوان المتنبي والمقامات وسقط الزند

١- نزهة الخواطر : ٧/ ٢٧٥ - ٢٨١. تذكرهء علماى هند : ١٢٢.

وغيرها من كتب الأدب العربى وتعلم الفلسفة والمنطق على الشيخ محمد الطيب المكى فى رامبور والتحق بعد ذلك بجامعة البنجاب لدراسة العلوم الشرقية والاسلامية وحصل على شهادتيها (منشى فاضل ومولوى فاضل) عامى ١٩٠٨ و ١٩٠٩م بتفوق. كان يحفظ من الشعر العربى - حسب قوله - مائة ألف بيت وقد حفظ فى صباه المعلقات العشر وديوان الحماسة وديوان المتنبى وقسما كبيراً من كتب الأدب العربى كجمهرة القرشى والمفضليات والكامل والبيان والتبيين وأدب الكاتب وغيره. عمل الميمنى فى حقل تدريس اللغة العربية واللغات الشرقية فى عدة مؤسسات تعليمية كالكلية التبشيرية فى بشاور وكلية الدراسات الشرقية فى لاهور ثم فى جامعة عليكرة سنة ١٩٢٥م إلى أن ترأس قسم اللغة العربية فيها وبقى بها إلى أن تقاعد إلى المعاش فانتنقل إلى جامعة كراتشى وعمل رئيساً لقسم اللغة العربية فيها ثم رئيساً لقسم اللغة العربية بجامعة البنجاب فى لاهور سنة ١٩٦٤م لمدة عامين. زار الدول العربية كثيراً واستفاد من مكتباتها وأهلها واشتهر اسمه بأعماله فى الدول العربية فعين عضواً بالمجمع العلمى العربى بدمشق ومجمع اللغة العربية فى مصر. زادت أعماله الأدبية عن ثلاثين تأليفاً وتحقيقاً فأثرى المكتبة العربية وأحسن إليها. أهم مؤلفاته أبو العلاء وما إليه، وابن رشيق القيروانى ومن أهم ما حقق خلاصة السير للطبرى وديوان حميد بن ثور وديوان سحيم عبد بنى الحسحاس وديوان الأفوه الأودى وديوان الشنفرى وديوان ابراهيم بن العباس الصولى والفاضل للمبرد وسمط اللآلى وفائت شعر المتنبى ورسالة الملائكة للمعرى، والمداخل لأبى عمر الزاهد غلام ثعلب ومقالة كلا لابن فارس والمنقوص والممدود للفراء ونسب عدنان وقحطان للمبرد والوحشيات لأبى تمام وغير ذلك كثير. توفى رحمه الله فى عام ١٩٧٨م بعد أن سد ثغرات كبيرة فى المكتبة العربية. (١)

١- هذه المعلومات مأخوذة من مقالى الشيخ حمد الجاسر (ص ٢٣- ٣٥) ومقال الدكتور مسعود الرحمن الندوى (ص ١٥٨ - ١٦٢) من عدد الميمنى من مجلة المجمع العلمى الهندى، يونيه ١٩٨٥م. مجلة فكر ونظر عدد يونيه ١٩٨٣م. (ص ٢٨ - ٤٣) مقال الدكتور خورشيد رضوى.

٤٣- عبد الغفور الدانابوري :

الشيخ الفاضل عبد الغفور الدانابورى أحد علماء الحديث. قرأ العلوم على مولانا فيض الله المؤى وغيره من العلماء، ثم أسند الحديث عن السيد نذير حسين الدهلوى المحدث. قال صاحب النزهة كان من أصدقائى له مصنفات كثيرة وشعر حسن. ولم يذكر مصنفاته. وقال لم نعثر على سنة وفاته. [(١)] ولم تذكر الكتب الأخرى شيئاً عنه. وأورد اللكنوى ترجمته فى علماء القرن الرابع عشر الهجرى.

٤٤- عبد القادر المليباري :

أبو محمد عبد القادر بن يوسف بن صيفى بن محى الدين البرمكى الفضفرى المليبارى عالم راسخ وأديب جليل كان أجداده من العرب الذين فروا إلى ساحل مليبار وتوطنوا مدنه. ولد١٣١٣هـ فى «دارمد تدسى» واشتغل بالعلوم على والده الذى أحسن تعليمه ولما توفى والده التحق بمدرسة الباقيات الصالحات فى مدينة ويلور فدرس بها على يد الشيخ الشهير محمد بعد الجبار الويلورى والشيخ آدم بن عبد الرحمن والشيخ محمد بن عبد العزيز وغيرهم. له مؤلفات عديدة منها مجمع الفوائد فى فنون شتى وحاشية على شرح قطر الندى. عاد إلى مليبار ودرس فى المسجد الجنوبى فى ترورنكادى إلى أن ولاه الأمير خان بهادر محيى الدين رئاسة مدرسته المسماة معدن العلوم ثم ولى رئاسة التدريس بمدرسة دار العلوم الشهيرة لمدة سبع سنوات ألف فيها كتباً عديدة مثل مجموع الفتاوى وحاشية تخميس بانت سعاد وديوان الأشعار العربية والامثال العجيبة وجواهر الأشعار، وله قصائد فى الرثاء والمديح والتهنئة. ولم تقع يدنا إلا على كتابه جواهر الاشعار وهو مجموع قيم بلا شك يدل على وجود اهتمام عظيم ونهضة كبيرة باللغة العربية فى جنوب الهند الذى كانت لغات كثيرة من لغاتة تكتب بالخط العربى وأهمها لغة مليالم بتفح الميم وسكون اللام الأولى وفتح الثانية. ولا يعرف الكثير عن عبد القادر المليبارى ولم تذكره كتب الطبقات والرجال ولا يعرف تاريخ وفاته إلا أن كتابه جواهر الأشعار الذى أخذنا منه هذه المعلومات طبع فى عام

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٢٧١ - ٢٧٢.

١٣٥٨هـ وكان المليبارى حياً حتى ذلك الحين مما يعنى أنه ممن عاشوا فى القرن الرابع عشر الهجرى وتوفى بعد طبع الكتاب. (١)

٤٥- عبد المقتدر الشريحى :

القطب الولى القاضى عبد المقتدر بن محمود بن سليمان التهانيسرى الدهلوى كان من سلالة القاضى شريح الكندى المشهور. وكان جده قاضياً مشهوراً. ولد عبد المقتدر فى تهانيسر وتربى فى دهلى ولازم الشيخ شمس الدين محمد بن يحيى الأودى. اعتلى فى مدارج العرفان حتى صار خليفة للشيخ نصير الدين محمود الأودى شيخ الطريقة الجشتية . كان القاضى عبد المقتدر أستاذاً للقاضى شهاب الدين الدولتابادى وقد مر بك شعرهما. يقال إنه كان درويشاً كاملاً فصيحاً بليغاً بحراً من بحار العلم والمعرفة متمكناً من العلوم العربية والإسلامية. كان يشجع الطلاب على العلم والدرس ويقول مجلس علم أفضل من ألف ركعة تصلى كبراً ورياء .منحه الله من علم الباطن حتى قيل إن تلميذه النابغ شهاب الدين الدولتابادى وجد ذات يوم ذهباً فأمر امرأته بدفنه فى الأرض وإخفائه ثم توجه إلى مجلس القاضى عبد المقتدر فلما وقع عليه نظر الشيخ قال له أنت يا دافن الذهب متى تستطيع تحصيل العلم ؟ عاش أغلب حياته يدرس ويرشد.لم تذكر كتب الطبقات له كتباً غير قصيدته المشهورة بلامية الهند التى مرت بك. توفى فى عام ٧٩١هـ عن ثمان وثمانين سنة (٢) قال الناقد الجليل السيد سليمان الندوى عنه : لم تنجب شبه القارة فى عصورها بأسرها أشعر منه فإن كل شاعر فيها تشوب كلامه شائبة عجمة أما القاضى عبد المقتدر فرائع النظم ينظم الشعر على نهج فحول الشعراء العرب. (٣)

١- جواهر الأشعار : ٢٨٨ - ٢٩٠.

٢- مآثر الكرام : ١٦٦. نزهة الخواطر : ٢/ ٧٠ - ٧٦. تذكره علماى هند : ١٣٣. حدائق الحنفية للفقيه محمد الجلهمى : ٢٩٩ - ٣٠٠. أمجد العلوم لصديق حسن القنوجى. ٣/ ٢١٨. أخبار الأخيار لعبد الحق المحدث الدهلوى : ١٤٢.

٣- مجلة معارف : المجلد ٣٩. العدد٦، ص ٤٠٨.

٤٦- عبد المنعم الشاتكامى :

الشـيخ الفاضل الأديب عبد المنعم الشاتكامى أحد العلماء المبرزين فى العلوم والفنون الأدبية العربية والفارسية. العلم على أساتذة المدرسة العليا بكلكتة وولى التدريس بمدرسة دكا ثم شاتكام ثم صار ناظراً للمدرسة المحسنية بدكا. كان فاضلاً بارعاً في النحو واللغة والمعاني والبيان والعروض والشعر. له شرح لديوانه المتنبى اسمه تصويب البيان فى شرح الديوان وبعض رسائل فى الأخلاق بالفارسية وله ديوان شعر عربى. ولم نجد شيئاً من هذا مطبوعاً أو مخطوطاً فيما تيسر لنا فحصه. توفى سنة ١٣٣٣هـ. (١)

٤٧- على عباس الشرياكوتى :

على باس بن امام على بن غلام حسين بن سعد الله الشرياكوتى كان من بيت علم واجتهاد كان فاضل عصره ومتقى زمانه تعلم على يد عمه الشيخ احمد على عباس الرشياكوتى وكان من مشاهير علماء دوره.كان أعجوبة فى الذكاء والفطنة ذا طبيعة محققة مجادلة كان يمضى أكثر وقته في الجدل والمناظرة، ما ترك كتاباً إلا وقرأه وكان يدرس للطلاب كتب المناهج الضخمة بلا عون من شروح أو حواش ولما اكتمل علمه اهتم باللغة العربية وما لها من علوم فنظم أكثر مسائل المنطق والنحو. ذات مرة أقام الدنيا وفتح باباً عظيماً بين الطلاب والأساتذة للجدل لم يقفل إلى مدة طويلة تبادل فيها المخالفون والموافقون الكتب والرسائل فى تأييد ما ذهب إليه، وذلك حين قال فى إعراب (جئت زيدا) إن جئت فعل متعد وزيداً مفعول وأخيراً كتب فى الرد عليهم كتاباً أسكتهم أجمعين، ذهب إلى حيدر اباد الدكن ومدح أمراءها فلم يستجيبوا له فعاد خائبا وكتب قصيدة هجاء منها :

من حيدرآباد اهربن ولا تقم ۔۔۔ فيها فؤاد أولى المكارم يصدأ

ثم اتجه بعد ذلك إلى بهويال واتصل بملكتها السيدة سكندر فوصلته وبقى عندها زمناً إلى أن خالفه بعض أركان الدولة فعاد منها إلى وطنه طبقت شهرته الأفاق وصار

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٣١٣ - ٣١٤.

آنذاك علماً فاستدعاه والي حيداباد وأكرمه وخلع عليه العطايا فبقى هناك إلى سنة ١٠٣٢هـ ثم عاد فى نفس العام إلى وطنه وتوفى به. قال صاحب تذكرهء علماى هند إنه لقيه ووجده علماً إلا أنه لم يحظ بقبول علماء عصره بسبب طبيعته النقدية. له نبراس الفطنة فى المنطق والقيطوب فى المناظرة وخلاصة الصرف وأبحاث الصرف فى الصرف ورقية النجاة وحل الكافية فى النحو وله الإيجاد فى الإرشاد وميزان الأوزان والوسواس الخناس والهلالية والمكاتيب وغيرها من الكتب. (١)

٤٨- عمر بن على البلنكوتى المليبارى :

لم أجده فى كتب التراجم وقد ذكر له عبد القادر المليبارى فى جواهر الأشعار قصائد عربية مرت بك وهو من أدباء ساحل الهند الجنوبى.

٤٩- غلام على آزاد البلكرامى :

غلام على بن نوح الحسينى الواسطى البلكرامى المتخلص بآزاد كان من السادة الأشراف. ولد فى سنة ١١١٦هـ فى بلكرام ونشأ بها. قرأ الكتب الدرسية على الشيخ طفيل محمد الأترولوى وعلى جده لأمه السيد عبد الجليل البلكرامى وكان من أكابر العلماء وأخذ العروض والقوافى عن خاله محمد بن عبد الجليل ثم رحل إلى الحجاز وأخذ إجازة الحديث عن الشيخ محمد السندى والتقى بالشيخ عبد الوهاب الطنطاوى المصرى ولما عاد إلى الهند سكن مدينة أورنك اباد رفض منصب الإمارة حين عرضه عليه ناصر جنك ملك الدولة الآصفية. كان من المكثرين من الأدباء ولعلك صادفته فى مواضع كثيرة من الكتاب وقد بلغ شعره العربى أحد عشر ألف بيت. من أهم مؤلفاته سبحة المرجان فى آثار هندوستان وتسلية الفؤاد فى قصائد آزادوشفاء العليل فى إصلاح كلام المتنبى وغزلان الهند فى أنواع النسوان وسبعة دواوين خفيفة ومظهر البركات مزدوجة فى البحر الخفيف على وزن مثنوى جلال الدين الرومى تحتوى على سبع عشرة قصة قال صاحب النزهة إنه رآها فى خزانة السيد نور الحسن بن صديق حسن القنوجى مخطوطة، ومرآة الجمال قصيدة فى وصف أعضاء المعشوقة مر بك شئ

١- تذكرهء علماى هند : ١٤٤. نزهة الخواطر : ٨/ ٣٣٠.

عنها ومنها ومن مؤلفاته أيضاً مآثر الكرام والشجرة الطيبة وسند السعادات كلها فى الطبقات والرجال. أما مؤلفاته الفارسية فهى سروآزاد ويد بيضاء وخزانه، عامرة كلها فى أخبار شعراء الفارسية وأشعارهم وله أيضاً ديوان بالفارسية فيه تسعة آلاف بيت. وقد أورد رحمن على فى تذكرته مثنوى مظهر البركات ودواوينه السبعة فى مؤلفاته الفارسية والصواب أنها من مؤلفاته العربية. كان آزاد بلا ريب شاعراً متقناً لولا تهنيذه اللغة العربية وشعرها، ويبدو أنه فعل نفس الشئ فى أشعاره الفارسية الأمر الذى دفع كبار النقاد والأدباء إلى مخالفته والرد عليه وبيان أخطائه بل إن كتبه فى الطبقات أيضاً لم تسلم من النقد فقد ألف غلام حسين البلكرامى كتابه شرائف عثمانى ورد فيه على مآثر الكرام لآزاد وشنع عليه تشنيعاً بالغاً. وقد مر بك كتاب باقر المدراسى فى نقد شعره الفارسى. ونقد شعره العربى العلامة شبلى النعمانى. توفى سنة ١٢٠٠هـ. (١)

٥٠- غلام نقشبند :

العالم الجليل غلام نقشبند بن عطاء الله بن حبيب الله بن أحمد بن ضياء الدين بن شرف الدين بن نصير الدين بن الحسين العثمانى الأصفهانى الكوسوى اللكنوى، يرجع نسبه إلى أبان بن عثمان وقيل إلى عمر بن عثمان وكان جده حبيب الله قاضياً بمدينة كوسى أو جوسى. كان الشيخ غلام من كبار الأساتذة وفطاحل العالمين بالنحو واللغة والشعر وأيام العرب. ولد فى سنة ١٠٥١هـ بكوسى وقرأ العلم على مير محمد شفيع الدهلوى. لقيه السلطان شاه عالم بن أورنكزيب فعظمه وكرمه بمدينة لكنو. له مؤلفات عدة فى العلوم الإسلامية والعربية منها شرح للقصيدة الخزرجية فى العروض وتفسير غيركامل للقرآن وله فرقان الأنوار واللامعة العرشية فى وحدة الوجود. توفى رحمه الله فى عام ١١٢٦هـ. (٢)

١- تذكره، علماى هند : ١٥٤. حدائق الحنفية : ٣٥٤ - ٣٥٦. نزهة الخواطر : ٦/ ٢٠٣- ٢٠٦. مقالات شبلى: ٥/ ١١٢- ١٢٩. حركة التأليف : ١٣٠ - ١٤١. مآثر الكرام : المقدمة (ص ٥- ٢٠). روضة الألولياء لغلام على آزاد : ٤٥ - ٤٦. الهند ١٣٠١هـ.

٢- أبجد العلوم : ٩٠٢. نزهة الخواطر : ٦/ ٢١٤ - ٢١٦. مآثر الكرام : ٢٠٣. سبحة المرجان ١/ ٢٠١ تذكره، علماى هند : ١٥٨.

٥١- غورديال سنغ :

لم نهتد إليه ويبدو من اسمه أنه هندوسي.

٥٢- فضل الحق الخيرآبادي :

المجاهد الثائر فضل الحق بن فضل إمام بن محمد راشدالخيرابادي. ولد في سنة ١٢١٢هـ. تلقى العلم على والده وأخذ الحديث عن الشيخ عبد القادر الدهلوي وحفظ القرآن في أربعة أشهر وتخرج وهو في الثالثة عشرة. كان فريداً بين معاصريه في المنطق والحكمة والأدب والفلسفة والشعر. قال رحمن علي إن أشعاره بلغت أربعة آلاف أو تزيد. أفتى بأن موالاة الكفار حرام فوشى به أحباب الانجليز من مشايخ عصره وكان الزمن زمن الثورة الشهيرة عام ١٨٥٧م والتي يسميها الانجليز بالغدر أي الخيانة ويسميها المسلمون بحرب التحرير وقد تمكن الانجليز من احتلال شبه القارة بعد قمعها وخاضها المسلمون على أنها حرب مقدسة.

أصدرت ملكة بريطانيا عفواً عاماً عن المشاركين في تلك الحرب عام ١٨٥٨م فلما اطمأن ألقت شرطتها القبض عليه وحكموا عليه بالسجن مدى الحياة والنفي إلى جزيرة اندومان في ٤ مارس ١٨٥٩ فنقل من سجن لكنو إلى سجن على بور بكلكتة ومنها إلى جزيرة اندومان التي وصلها في باخرة في ٨ اكتوبر ١٨٥٩ وبقي فيها إلى أن توفي ودفن هناك في ١٨٦١م ١٢٧٨ هـ . من مؤلفاته الحسن الغالي في شرح الجواهر العالي وحاشية على شرح السلم للقاضي مبارك وتاريخ هندوستان ورسائل في الحكمة والطب وغيرها. كان معاصراً لغالب ومؤمن وشيفته وآزرده وصهبائي وغيرهم من كبار شعراء الأردية وله بهم صلات ود وأنس. (١)

٥٣- فيض أحمد البدايوني :

فيض أحمد بن غلام أحمد بن شمس الدين بن محمد علي العثماني الأموي البدايوني أحد الفضلاء في عصره. ولد في بدايون سنة ١٢٢٣هـ. قرأ العلم على خاله

١- باغي هندوستان : ١١ - ١٧٦. العلامة فضل الحق الخير ابادي، للدكتورة قمر النساء : ١٣٣ - ١٣٦، تذكرهء علماى هند : ١٦٤.

فضل رسول بن عبد المجيد البدايونى ولبس الخرقة عن جده لأمه وولى الإنشاء ببلدة إله آباد وأخذ عنه السير وليم ميور الحاكم الإنكليزى لولايات الشمال الهندية آنذاك قيل إنه كان يساعد الشيخ فيض فى التأليف ويجمع له المواد العلمية. من مصنفاته حاشية على شرح هداية الحكمة للشيرازى وحاشية على فصوص الفارابى وثلاثة دواوين فى اللغات الثلاث العربية والفارسية والأردية . قال صاحب النزهة رأيت ديوانه العربى فوجدته كله مدحاً وإطراء فى السيد عبد القادر الجيلانى شيخ الطريقة . [(١)]

٥٤- فيض الحسن السهارنبورى :

الشاعر الأديب والعلامة الفذ فيض الحسن بن على بخش بن خدا بخش القرشى الحنفى السهارنبورى كن من أعاجيب الزمان فى الذكاء والفطنة. ولم يكن فى عصره أعلم منه بالنحو واللغة والشعر وأيام العرب قرأ المختصرات على والده ثم رحل إلى رامبور وتتلمذ على العلامة فضل الحق الخيرابادى وغيره من العلماء ثم أخذ الحديث فى دهلى عن الشيخ أحمد سعيد العمرى الدهلوى والطب عن الحكيم إمام الدين صادر كان مدرسة أدبية وفنية فى ذاته تخرج على يديه كثير من أدباء شبه القارة فى الشعر العربى وقد مر بك جيل منهم فى هذا الباب. ولى التدريس فى آخر عمره بكلية الدراسات الشرقية فى لاهور وانتهت إليه رئاسة الفنون الأدبية كما قال صاحب النزهة. له مؤلفات عظيمة منها حواش على تفسير البيضاوى والجلالين ومشكاة المصابيح كما له شرح لديوان الحماسة رأيت نموذجاً منه وشرح على المعلقات السبع وشرح لديوان حسان بن ثابت وعروض المفتاح فى العروض وديوان الفيض فى الشعر العربى وغير ذلك من الكتب. توفى رحمه الله فى سنة ١٣٠٤هـ . [(٢)]

٥٥- كرامة حسين الكنتورى :

العالم الفاضل والباحث الجليل كرامت حسين بن سراج حسين المفتى محمد قلى الحسيني الكنتورى لغوى بارع محقق. ولد فى سنة ١٢٦٩هـ فى مدينة جهانى واشتغل

١- نزهة الخواطر : ٧/ ٣٨٩ - ٣٩٠.

٢- نزهة الخواطر : ٨/ ٣٦٦. وانظر لمزيد من التفصيل رسالة الدكتوراه المقدمة من سعيد اقبال عن السهارنبورى وأعماله وقد مر ذكرها.

بالعلم على والده وعلى كثير من علماء عصره كالمفتى أنور على الحسينى التهانوى والسيد محمد تقى بن حسين النقوى اللكنوى حيث أقام فى مدينة لكنو بعد عودته من الحج، والمفتى عباس بن على التسترى وعمه السيد حامد حسين الكنتورى ثم سافر إلى شركهارى وتعلم اللغة الانجليزية على أخيه الاكبر عنايت حسين وولى التدريس بكلية راجكمار ثم ولى الإنشاء ثم النظارة فى باونى ثم النيابة فى ترسنك كره وسافر إلى لندن لدراسة الحقوق وعاد إلى إله آباد واشتغل بالمحاماة ثم ولى التدريس بمدرسة العلوم فى عليكره ثم رجع إلى إله آباد وولى القضاء بمحكمة الاستئناف العليا بها إلى أن أحيل إلى التقاعد سنة ١٣٢٩هـ فقدم إلى لكنو وأسس مدرسة لتعليم البنات وقف عليها كل ماله وعقاره. كان مفرط الذكاء جيد القريحة سليم الذهن حلو المذاكرة كثير الاشتغال بالتدريس والتصنيف شديد الانهماك فى مطالعة الكتب غير متعصب لمخالفيه. له كتاب الحقوق والفرائض وعلم القانون ومبحث الهبة ثلاثتها بالانجليزية وله فقه اللسان الذى مر بك فى موضعه وكتابه فى الأمور العامة بالعربية وله كتابه فى علم الأخلاق بالفارسية والأردية وله الأفراد الكاسبة والدين والكون باللغة الأردية وغير ذلك من الكتب والرسائل. توفى رحمه الله فى مدينة لكنو سنة ١٣٣٥ه. (١)

٥٦- محمد بن احمد الطوكى :

الشيخ الفاضل أبو الرضا محمد بن أحمد الطوكي. ولد فى طوك سنة ١٢٧٣هـ ونشأ بها وقرأ كتب الدرس على أساتذة طوك ثم سافر إلى بلاد كثيرة وتتلمذ فى الأدب واللغة العربية على فيض السهارنبورى ورحل إلى دهلى وأخذ الحديث عن السيد نذيرحسين الدهلوى. كان مفرط الذكاء قوى الحفظ عالما متأدباً لكنه كان شديد التعصب ضد الأحناف يهجوهم ويشنع عليهم - وهو سنى مثلهم - فأدى ذلك إلى غضب النواب ابراهيم على خان أمير طوك عليه وحبسه حتى توسط له عمه عبيد الله خان فأطلق سراحه فجعل له النواب صديق حسن القنوجى أمير بهوپال منحة فبقى عنده ثم

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٣٧٢ - ٣٧٣.

رج إلى طوك. من مصنفاته شرح ديوان الحماسة وشرح لديوان المتنبى وحاشية على لامية العرب للشنفرى والدراسة الوافية للعروض والقافية وقصائد عربية عديدة مر بك بعضها. توفى فى طوك سنة ١٣١٤هـ . (١)

٥٧- محمد أفضل فقير :

من المعاصرين الذين لا يعرف عنهم الكثير سوى أنه تعلم العربية بجهوده الذاتية دون معلم وكان هدفه من ذلك أن ينظم بها شعراً. وهو شاعر فى الفارسية والأردية أصلاً. حصل على ماجستير الأدب الفارسى من جامعة البنجاب وعين مدرساً بالكلية الحكومية فى شيخوبوره ثم فى ديره غازى خان ثم غلب عليه المشرب الصوفى فاستقال من وظيفته وتفرغ للذكر والرياضة عام ١٩٦٣ . مرت بك تجربته فى نظم الرباعيات العربية فى أوزان الرباعى الفارسى وقلنا لك إنها لم تنجح. والمهم فى تجربته أنه نظم فى جميع أوزان الرباعى الأربعة والعشرين. (٢) صدرت له مؤخراً مجموعة رباعيات عربية وفارسية وأردية وبنجابية باسم «آب ورنك» وتوفى فى الثامن من يناير ١٩٩٤ أثناء تصنيف هذا الكتاب.

٥٨- محمد حسين اقبال القادرى :

هو محمد حسين اقبال بن جراغ دين. ولد فى ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧م فى احدى قرى فيصل آباد ودرس العلوم العربية حتى حصل على درجة الماجستير من جامعة البنجاب فى لاهور وعمل محاضراً بقسم اللغة العربية فى الكلية الحكومية فى مدينة توبه تيك سنج بين ١٩٧٥ و ١٩٨١ ثم بالكلية الاسلامية فى فيصل آباد بين ١٩٨١ و١٩٨٩ ثم أستاذاً مساعداً بقسم اللغة العربية فى الكلية الحكومية بسمن آباد فى مدينة فيصل آباد وما زال يدرس بها حتى تأليف هذا الكتاب. (٣)

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٣٨٤ - ٣٨٥.

٢- شآبيب الرحمة : ص٤ وما بعدها من المقدمة.

٣- انظر مقدمة ديوانه حديث النفس : ص ٧- ١٤.

٥٩- محمد حسين الكالبوى :

السيد الشريف محمد بن محمد هادى بن على أحمد بن خيرات على الحسينى الترمذى الكالبوى. ولد ونشأ بكالبى واشتغل بالعلم فى بلدته ثم رحل إلى كانبور وقرأ على علمائها ثم إلى غازيبور وأخذ فيها عن محمد فاروق العباسى الشرياكوتى ثم ذهب إلى لاهور وتأدب على يد مولانا فيض الحسن السهارنبورى ثم ولى التدريس فى المدرسة العربية بسيهور فى مالوه ثم انتقل إلى اجين وعمل فيها بالتدريس مدة. قال عبد الحى اللكنوى كان فاضلاً أديباً شريف النفس حسن الأخلاق صالح العقيدة والعمل له قصائد غراء منها ما أنشدنى فى مدح الرسول عليه وآله السلام ثم ساق بعض شعره الذى مر بك. [١] واستدرك فى الحاشية قائلا لم نعثر على تاريخ وفاته. وهو ممن ذكرهم فى القرن الرابع عشر الهجرى.

٦٠- محمد زمان خان :

العالم الجليل أبو الرجاء محمد زمان خان شاهجهانبورى الملقب بالشهيد ابن محمد عمر خان ولد عام ١٢٤٢هـ فى مدينة بور ثم تلقى تعليمه على مولوى بهاء الدين ثم أخذ عن الملا أحمد ولايتى فى رانبور والمفتى سعدالله فى لكنو وشاه سلامت الله الكشفى فى انبور وكرامت على الجونبورى فى جونبور. قتل سنة ١٢٩٢هـ فى الفتنة المعروفة بالمهدوية وهى من الفتن التى أشعلها الإنجليز بين المسلمين لشغلهم ولتسهيل قيادهم فى شبه القارة التى لا يعدلها مكان آخر فى كثرة فرقها، وكل حزب بما لديهم فرحون ولغيرهم مكفرون. أسس السيد عيسى المعروف بميان عالم الفرقة المهدية وطبع كتبه فى تخطئة ابن حجر وأئمة المذاهب الأربعة السنية ووزعها فى الأمصار لإثبات صدق عقائده فلما لم يرد عليه أحد أرسل عريضة إلى القاضى دلاور على خان قاضى حيدآباد يقول فيها إننا وزعنا كتبنا المشتملة على عقائدنا فى كل مكان ولما لم يرد

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٤٠٠ - ٤٠٢.

علينا أحد إلى الآن فنرجو إما تبيين خطأنا أو تأييد عقائدنا فأرسل القاضي العريضة إلى محمد زمان فكتب رسالة بعنوان هديه مهدوية في رد عقائد القوم فأعلن رئيسهم أن من قتله دخل الجنة فقتله شاب من أتباعه وهو يقرأ القرآن في المسجد بعد صلاة المغرب في ٦ ذي الحجة من العام المذكور. ولم يعرف قاتله رغم البحث الشديد ولاذ رئيس الفرقة بالسفارة الإنجليزية حسب رواية رحمن علي في تذكرته. له سفينة البلاغة الذي مر بك وخير المواعظ وبستان الجن وداستان جهان وهي قصة سياحته في الدول العربية وغيرها. (١)

٦١- محمد عباس التستري :

المفتي محمد عباس بن علي بن جعفر الموسوي الجزائري التستري اللكنوي كان من عظام العلماء والأدباء في عصره. ولد سنة ١٢٢٤هـ في لكنو ونشأ بها. وقرأ على الشيخ عبد الحنفي ثم أخذ اللغة العربية عن الشيخ عبد القدوس الحنفي ثم بقية العلوم والمنطق والحكمة عن الشيخ قدرت علي الحنفي وتعلم الطب على يد المرزا عوض علي والمرزا علي حسن خان ثم لازم السيد حسين بن دلدار علي اللكنوي وقرأ عليه الحديث والفقه ثم تصدى للتدريس بالمدرسة السلطانية في لكنو ثم ولي الافتاء في ديوان الوزارة ولقبه ملك سلطنة اوده واحد علي شاه بتاج العلماء وافتخار الفضلاء. رحل محمدعباس إلى كلكتة ثم عاد بعد مدة إلى لكنو وتفرغ للتدريس والتصنيف حتى توفي في ١٣٠٦هـ في لكنو ودفن بها. كان رحمه الله بارعا في الإنشاء والأدب نابغاً في الشعر يقرضه بالعربية والفارسية، حاد الذهن قوي البديهة سريع الجواب له مؤلفات أشهرها ديوانه العربي رطب العرب كما له معراج المؤمنين ورياض الشعراء والظل الممدود وغيرها وقد مر بك بعض من شعره ونثره . (٢)

١- تذكرهء علماى هند : ١٨٨ - ١٨٩.

٢- المنتخب من الشعر العربي : ٢٥٧ - ٢٥٨. نزهة الخواطر : ٢٠٩/٨ - ٢١٠.

٦٢- محمد بن عبد العزيز الكليكوتي :

لم نجد الكثير عن حياة الشيخ محمد بن عبد العزيز الكليكوتي المليباري سوى ما ذكره عبد الحي اللكنوي رغم شهرة الرجل في منطقته. قال اللكنوي إنه أحد العلماء المشهورين في بلاده له الفتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين أرجوزة في نحو خمسمائة بيت عن واقعة زاموري بين البرتغاليين والهنود سنة ٩٠٣ هـ توجد منها نسخة في مكتبة مكتب الهند بلندن. ولم يذكر تاريخ وفاته ولا شيئاً عن حياته لكنه كان معاصراً للواقعة المذكورة مما يعني أنه توفي بعدها.

٦٣- محمد عرفان الطوكي :

السيد محمد عرفان بن يوسف بن يعقوب بن ابراهيم بن عرفان الحسني الحسيني البريلوي ثم الطوكي ولد بطوك سنة ١٢٦٥هـ ونشأ بها وتلقى العلم على يد شيوخ بلدته كالقاضي امام الدين وغيره ثم سافر إلى ديوبند وقرأ بعض الكتب الدراسية على مولانا محمود حسن الديوبندي ويعقوب بن مملوك العلي النانوتوي ثم توجه إلى بهوبال وأكمل تعليمه عند الشيخ القاضي عبد الحق الكابلي والمفتي عبد القيوم البرهانوي وأخذ الحديث في دهلي عن السيد نذير حسين الدهلوي ثم سافر إلى سهارنبور وتأدب على يد الشيخ فيض الحسن السهارنبوري قال صاحب النزهة جمع العلم والعمل والشعر والزهد والفصاحة والورع وقيام الليل والعبادة والسداد في الرواية .كان حسن التلاوة جيد الصوت من أهل الحديث وكان له منزلة عظيمة عند أمير بلدته النواب ابراهيم علي خان الطوكي. وكان شعره رقيقاً سهل التركيب عذب النظم. توفي في طوك سنة ١٣٣٢هـ. ولم يذكر الحسني له مؤلفات. (١)

٦٤- محمد نبي بن محي الدين :

لم نهتد إليه وكان معاصراً لعبد القادر المليباري وبينهما مراسلات كما مر بك أي أنه كان ممن عاشوا في القرن الرابع عشر الهجري.

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٤٣٩ - ٤٤٠.

٦٥- محمد موسى الروحانى البازى :

لم نهتد إليه وقد ذكر فى كتابه الذى مر بك فى العروض أنه مدرس بالجامعة الاشرفية فى لاهور. بلغنى من بعض من يعرف اسمه أنه توفى منذ بضعة أعوام. رحمه الله.

٦٦- مرتضى الزبيدى :

محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق ينتهى نسبه إلى أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسينى بن على ابن أبى طالب عليهم سلام الله. اشتهر بالسيد مرتضى الزبيدى ويكنى بأبى الفيض وأبى الجود وأبى الوقت.وكان يلقب بمحى الدين. ولد فى مدينة بلكرام بالهند سنة ١١٤٥هـ. وذهب إلى الحجاز فى سن مبكرة فتعلم بها وأخذ عن كثير من شيوخها ونزلائها. ثم انتقل إلى مصر وتعلم بها. وكان الشيخ عبد الرحمن العيدروس هو الذى رغبه فيها وكان أكبر شيوخه دخل مصر سنة ١١٦٧هـ وتنقل بها شمالاً وجنوباً وأخذ عن شيوخ كثيرين كثيراً من العلوم وتنقل أيضاً فى فلسطين. علا صيته وبزغ اسمه حتى اتصل به السلطان عبد الحميد ومحمد باشا رئيس الوزارة . أمه الناس من كل مكان فاختار العزلة والاعتكاف. تزوج من مصر سنة ١١٨٢هـ على الأرجح. وكان يحب زوجته هذه واسمها زبيدة حباً شديداً فلما ماتت سنة ١١٩٦هـ حزن عليها أشد الحزن ودفنها عند ضريح السيدة رقية. وبنى على قبرها مقصورة ولازم قبرها أياما يجتمع عنده الناس ينشدون ويقرأون ثم اشترى بالقرب منه قطعة أرض بنى عليها منزلاً صغيراً وأسكن به أمها وكان يبيت فيه كثيراً وأغلب ظنى أنه عرف بالزبيدى نسبة إلى زوجته لا إلى زبيد باليمن كما قيل . تزوج مرة ثانية لكنه بقى مع زوجته الأولى بروحه حتى مات بالطاعون فى مصر سنة ١٢٠٥هـ ودفن بجوار زوجته الأولى عند قبر السيدة رقية واستولت زوجته الثانية على كل ما كان عنده إرثاً إذ لم ينجب منها ولا من الأولى.له تاج العروس شرح القاموس الذى مر بك كما له تكملة القاموس وعقود الجواهر المنيفة فى أدلة الإمام أبى حنيفة والقول الصحيح فى مراتب التعديل والتجريح وغير ذلك فى الفقه والحديث واللغة

والعقيدة والتصوف والتفسير والطبقات حتى بلغت مصنفاته أكثر من خمسة وستين ذكرها رحمن علي في تذكرته. (١)

٦٧- مسعود سعد سلمان :

مسعود بن سعد بن سلمان اللاهوري شاعر فذ أصله من همدان وقد هاجر آباؤه إلى غزنة حاضرة الحكم والثقافة في أدوار مختلفة. كان من أسرة أدب وعلم، وكان أبوه من أعيان الدولة الغزنوية وأصحاب الجاه فيها حتى ظل يحتل المناصب العليا هناك إلى مدة طويلة. ولد مسعود في مدينة لاهور سنة ٤٣٨هـ ولا يعرف الكثير عن حياته الأولى إنما الذي لا شك فيه أن والده رباه بالطريقة التي يربي بها رجال الدولة بنيهم فأتقن منذ صغره اللغات الفارسية والعربية والهندية حتى ترك في كل واحدة منهم ديواناً، واشتهر ديوانه الفارسي وأما العربي فلا يعرف أين هو، نشأ مسعود في أحضان أسرته في لاهور وعمر طويلاً حتى رأى ستة من سلاطين الغزنويين واحتل في حكومات بعضهم مناصب كبرى. اختاره السلطان ابراهيم الغزنوي معلماً لابنه لكن الوشاة أفسدوا عليه أمره وقالوا لإبراهيم إن مسعود يدبر له مؤامرة مع خصمه السلطان ملك شاه السلجوقي، فزج به في السجن عشرين عاماً بكى فيها في سجنه شعراً مذيباً عن آلام السجن وغدر الإخوان وفراق الأحبة.كان شاعراً رقيقاً قال عنه رشيد الدين الوطواط في حدائق السحر إن شعره لطيف سلس جامع لم يبلغ شأنه أحد من شعراء العجم في ذلك الوقت. توفي سنة ٥١٥هـ بمدينة لاهور ودفن بها. (١).

٦٨- محيي الدين بن آنيذ الفضفري :

لم نهتد إليه وقد كان معاصراً لعبد القادر المليباري في القرن الرابع عشر الهجري وبينهما مطارحات شعرية. وهو من فضفر بلد عبد القادر.

١- تذكره، علماى هند : ٢٢٤- ٢٢٦. مقدمة المحقق لتاج العروس، ص : و - ى وما بعدها. نزهة الخواطر : ٧/ ٤٧٠ - ٤٧٩.

٢- مأخوذ من أبو العلاء اللاهوري للدكتور ظهور أحمد : ٤٢ - ٤٥.

٦٩- ناصر حسين اللكنوى :

السيد ناصر حسين بن حامد حسين بن المفتى محمد قلى الحسينى الموسوى اللكنوى كان من العلماء الأجلاء. ولد سنة ١٢٨٤هـ ونشأ فى مهد علم وفضل قرأ نهج البلاغة على والده سبع مرات وحفظ أكثره وكان يتأدب فى العلوم والفنون الأدبية على المفتى عباس بن على التسترى حتى برع فيها وبز أقرانه وكان التسترى يحنو عليه كثيراً وأوصاه بالصلاة عليه وأجازة الرواية عنه فى كل الفنون .له مصنفات كثيرة منها ديوان الشعر العربى وديوان الخطب وكتاب فى الإنشاء بعنوان الأثمار الشهية فى المنشآت العربية جمع فيه رسائله واسباغ النائل بتحقيق المسائل ونفحات الأزهار فى فضائل الأئمة الاطهار فى ستة عشر مجلد وكتاب آخر فيما ظهر للامام على عليه السلام من فضائل يوم خيبر وغير ذلك. توفى رحمه الله سنة ١٣٦٠هـ فى لكنو، ودفن فى آكره. قال اللكنوى ورث عن أبيه مكتبته الحافلة بنوادر الكتب ومخطوطات المؤلفين وحافظ عليها وزاد فيها واشتهرت باسم المكتبة الناصرية وأمها العلماء والباحثون من بلاد بعيدة . (١)

٧٠- نذير أحمد :

الشيخ الفاضل نذير أحمد بن سعادت على بن نجابت على الأعظمبورى البجنورى ثم الدهلوى. غنى عن التعريف فى الأدب الأردى فهو أبو النثر فيه. ولد سنة ١٢٤٧هـ فى بجنو ر وقرأ المختصرات على نصر الله الخويشكي ثم ذهب إلى دهلى وقرأ العلوم على يد أساتذة المدرسة الكلية بها ثم ولى التدريس بكنجاه من مدن مقاطعة البنجاب ثم نظارة المدارس بكانبور وتعلم الانجليزية وأعان الولاة فى نقل قوانين العقوبات منها إلى الأردية وأصلح ما كان بها من خلل فى المعانى ووضع المصطلحات. استقدمه النواب مختار الملك وزير الدولة الآصفية إلى الدكن وولاه على بعض الأقطاع فأقام هناك عشر سنين إلى أن أحيل إلى المعاش فعاد إلى دهلى واعتزل فى بيته. كانت له اليد الطولى فى العلوم العربية وله تفسير للقرآن جر عليه نقد

١- نزهة الخواطر : ٨/ ٤٨٨ - ٤٩٠.

الناقدين كما فى كتابه أمهات الأمة الذى أحدث ضجة لأنه كان يخالف أهل الحديث ويجهل رواته كما قال صاحب النزهة. كان عصامياً صنع نفسه بنفسه وكان خطيباً بارعاً وناقداً لاذعاً كثير التهكم والسخرية من الشيوخ التقليديين وآرائهم. كان أيضا من المؤيدين لحركة التجديد التى قادها السيد أحمد خان. له مؤلفات كثيرة منها ما يغنيك فى الصرف، ومبادئ الحكمة فى المنطق والحقوق والفرائض كلها بالأردية كما له روايات أخلاقية تعليمية دينية مشهورة فى الأدب الأردى كمرآة العروس وتوبة النصوح وبنات النعش وابن الوقت وغيرها. توفى فى سنة ١٣٣٠هـ . (١)

٧١- وحيد الديـن العالى :

وحيد الدين العالى ابن المنشى محمد كلان، كان من أكابر الأدباء وحذاق الأطباء. ولد سنة ١٢٨٨هـ بحيدر آباد ونشأ بها وتعلم على أساتذة عصره فيها ثم رحل إلى البنجاب ودرس الطب على منصور خان المراد آبادى وصار من أشهر الأطباء. كان من أشعر شعراء العربية فى شبه القارة له ديوان يحتوى على قصائد مدح بعنوان الجواهر الزاهرة فى مدح النبى وآله الطاهرة طبع فى حيدر أباد ولم نعثر عليه. عين على تنقيح وتصحيح الكتب العربية التى تطبعها دائرة المعارف العثمانية صاحبة النهضة بالتراث العربى فى شبه القارة فبقى عاكفاً على هذا العمل الجليل حتى توفى سنة ١٣٤٤هـ بحيدرآباد ودفن بها. كان بارعاً فى الشعر والنثر الفارسى والأردى. أغفل ذكره صاحب النزهة وغيره من أصحاب التذاكر رغم علو شأنه فى الأدب العربى. (١)

٧٢- ولـى اللـه الدهلـوى :

شيخ الإسلام قطب الدين أحمد ولى الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمرى الدهلوى غنى عن التعريف فى ديار العرب والعجم. ولد فى بيت علم وفضل وتدين فى ١١١٤هـ أخذ العلوم عن والده الذى تعهده وتولى تربيته الفكرية والروحية وكان

١- مجلة نقوش عدد (شخصيات) اكتوبر ١٩٥٦م. مقالة حيدر أبادكى جند شخصيتين لتمكين كاظمى، ص ١٢٦٦، وما بعدها. المنتخب من الشعر العربى : ص ٢٤٥- ٢٤٦.

شيخاً من مشايخ الطريقة النقشبندية فأخذها عنه ولده .أقام بالحجاز عامين وأخذ عن شيوخها كالشيخ طاهر محمد بن ابراهيم الكردى بالمدينة والشيخ وفد الله المالكى وتاج الدين القلعى بمكة .كان بحراً فى علوم كثيرة عربية وإسلامية وقطباً فى زمانه تشد إليه الرحال. حباه الله من الكشف والفهم ما جعله فريداً فى نهجه. وجمع بين الحديث والتصوف.والكتب فى سيرته كثيرة متداولة تملأ المكتبة فى شبه القارة. له مؤلفات عديدة أحصى منها اللكنوى خمسة وثلاثين فى مختلف المعارف الإسلامية والعربية يهمنا منها فى موضوعنا ديوانه العربى الذى جمعه ابنه الشيخ عبد العزيز ورتبه ابنه رفيع الدين وأطيب النغم فى مدح سيد العرب والعجم شرح فيه قصيدته البائية التى رأيناها وقرأناها معاً وأنفاس العارفين رسالة فى سيرة أبائه ورجال أسرته. أما فى الأدب الفارسى فله رباعيات بالفارسية وشرح لها كما له سرور المحزون ملخص أنور العيون فى تلخيص سيرة الامين والمأمون لابن سيد الناس. وبالجملة فإن شاه ولى الله صاحب الحجة البالغة كما يعرفه العرب لم يشتهر فى مجال الأدب العربى ، وإنما مقامه الذى لا ينازعه فيه أحد فى شبه القارة جعله الله له فى العلوم الإسلامية والعرفان. توفى قدس الله سره فى عام ١١٧٦هـ. (١)

هنا ينتهى هذا الباب ولعلك أدركت أن أصحاب التذاكر وكتب الطبقات والرجال لم يهتموا كثيراً إلا بمن كان له شهرة فى العلوم الإسلامية، أما من وقفوا أغلب حياتهم على خدمة اللغة والأدب العربى فقط فقليلاً ما وجدنا عنهم وقليلاً ما ذكروهم مهما كان لهم شأن عظيم فى ميدانهم. ولعلك أدركت أيضاً أن أبناء الجنوب والمناطق البعيدة لم يجدوا من اهتم بهم وبأعمالهم وحياتهم إلا فى أقل القليل. كما أن أصحاب التذاكر ضخموا من والوهم فى المذهب وإن قل شأنهم، ويخسوا من خالفهم قدرهم أو لم يذكروا عنهم ما يستحق الذكر. وهذا حال كتب الرجال فى منطقتنا، وقد حاولنا جهدنا وذكرنا ما وجدنا ومع ذلك راعينا الاختصار قدر المستطاع راجين ممن أراد الزيادة أن يرجع إلى الكتب التى أحلناه إليها.

١- تذكرهء علماى هند : ٢٥٠ - ٢٥١. نزهة الخواطر : ٦/ ٣٩٨- ٤١٠. علماى هند كاشاندرا ماضى، لمولانا محمد ميان : ٢/١/ - ٤٢، الهند ١٩٦٣، ابجد العلوم ٩١٢ - ٩١٤. حدائق الحنفية : ٤٤٧ - ٤٤٨. ورد كوثر : ٥٢٨ - ٥٩٧، باكستان. ١٩٧٠م.

الخاتمة

أنهينا كتابنا عن الأدب العربي فى شبه القارة الهندية حتى نهاية القرن العشرين ولسنا عنه راضين إذ كان من الممكن أن يشمل أكثر مما شمل، فيقرب من أن يكتمل، ولم نرد بهذا الكتاب سوى التعريف المجمل بالأدب العربي فى شبه القارة مجرد تعريف، تماماً كأن نقدم لك بطاقة شخصية لنعرفك بشخص ما، والبطاقة لا يكون فيها غير مختصرات وصورة، أما سجل صاحبها وسيرته وحياته وتفاصيلها فليس موضع بيانه تلك البطاقة.

من أجل ما ذكرنا، نعتذر عما قد يجده الباحثون المدققون من عيوب غير مستورة فى هذا الكتاب العجالة. وإن كان من شكر ينطق به فهو الشكر الكبير لشيخنا الكبير الأستاذ الدكتور رجاء عبد المنعم جبر الذى لولا إصراره وإلحاحه ونفخه أنفاساً مشجعة أخرجتنا من شباك المشاغل اليومية وأجلستنا مجبورين خجلاً على مقعد التأليف لما خرج هذا الكتاب إلى قارئيه. وإن كان لنا من أمل ففى أن يواصل الباحثون العرب ما بدأناه لاكتشاف ما غمض وإظهار ما خفى. وليت بعض الأثرياء من أفراد أو حكومات أو منظمات يوقف بعض المال اليسير على نخبة من الباحثين العرب من ذوى العلم والخبرة لاستخراج ما هو محفوظ فى المكتبات العامة والخاصة فى شبه القارة، وتحقيقه وضبطه ونشره كما تفعل الأمم المتقدمة التى تهمتم بلغتها خارج حدودها لعلمها بأن رباط اللغة من أقوى الأربطة، ووشائج الثقافة من أمتن الوشائج قديماً وحديثاً.

وبعد ذلك فالكتاب قد صنف للوفاء بمقررات مادة الأدب العربي فى شبه القارة، التى يدرسها طلاب الجامعة الإسلامية الدولية، فراعينا أن لايرتفع مستواه عن مستوى الطلاب، كما أخذنا فى الاعتبار أموراً أخرى، وإلا لنحونا فى تأليفه نحواً آخر.

مصادر الكتاب

أولاً- المصادر العربية

- **أبجد العلوم**، صديق حسن القنوجى، باكستان، ١٩٨٣م.
- **أبو العلاء اللاهورى**، د. ظهور أحمد أظهر، السعودية، ١٩٨٢م.
- **أبو العلاء وما إليه**، عبد العزيز الميمنى، مصر، ١٣٤٤هـ.
- **أجناس السبك فى شرح قفا نبك**، بهادر يار جنك، الهند، ١٣٠٦هـ.
- **أعجب العجب فى شرح لامية العرب**، محمد بن عمر الزمخشرى، القسطنطينية، ١٣٠٠هـ.
- **الأعلام**، خير الدين الزركلى، لبنان/ دار العلم للملايين، بدون تاريخ.
- **الأمالى**، أبو على القالى، لبنان، ١٩٧٨م.
- **انتشار الإسلام فى العالم**، د. عبد الله مبشر الطرازى، السعودية، ١٩٨٥م.
- **البلغة فى أصول اللغة**، صديق حسن القنوجى، القسطنطينية، ١٢٩٦هـ.
- **تاج العروس**، مرتضى الزبيدى، الكويت، ١٩٦٥م.
- **تاريخ آداب اللغة العربية**، جورجى زيدان، لبنان، ١٩٨٣م.
- **تاريخ الأدب العربى**، د. أحمد حسن الزيات، دار الكتب الإسلامية لاهور/ باكستان، بدون تاريخ.
- **تاريخ الأدب العربى (الترجمة)**، كارول بروكلمان، مصر، ١٩٦٨م.
- **تاريخ الإسلام فى الهند**، عبد المنعم النمر، مصر، ١٩٥٩م.
- **تاريخ المسلمين فى شبه القارة**، د. أحمد محمود الساداتى، مصر، ١٩٥٧م.
- **الثقافة الإسلامية فى الهند**، عبد الحى الحسنى اللكنوى، سوريا، ١٩٨٣م.

- **ثلاثة كتب فى الأضداد**، نشر أوغست هفنر، لبنان، ١٩١٢م.
- **جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين**، خير الدين نعمان آلوسى زاده، مصر، ١٢٩٨هـ.
- **جواهر الأدب**، أحمد الهاشمى، لبنان، ١٩٨٣م.
- **جواهر الأشعار**، عبد القادر بن يوسف المليبارى، الهند، ١٣٥٨هـ.
- **حاشية السيالكوتى على المطول**، عبد الحكيم السيالكوتى، منشورات الرضى، قم/ إيران، بدون تاريخ.
- **حاشية محيط الدائرة**، محمد موسى الروحانى البازى، باكستان، ١٣٠٨هـ.
- **حدائق السحر (الترجمة العربية)**، رشيد الدين الوطواط، مصر، ١٩٥٤م.
- **حديث النفس**، محمد حسين اقبال، لاهور/ باكستان، ١٩٩٥م.
- **حركة التأليف باللغة العربية فى الإقليم الشمالى الهندى**، د. جميل أحمد، جامعة الدراسات الإسلامية كراتشى باكستان، بدون تاريخ.
- **حضارة الهند (الترجمة العربية)**، غوستان لوبون، مصر، ١٩٤٨م.
- **الدعوة الإسلامية فى الهند**، أبو الحسن الندوى، الهند، ١٤٧٨هـ.
- **ديوان آزاد (مختار)**، غلام على آزاد، الهند،١٣٢٨هـ.
- **ديوان أحمد**، أحمد حسين الرسولبورى، الهند، ١٣٥٨هـ.
- **ديوان عبد الحميد الفراهى**، عبد الحميد الفراهى، باكستان، ١٩٦٧م.
- **ديوان الفيض**، فيض الحسن السهارنبورى، الهند، ١٣٣٤هـ.
- **ديوان الوردى**، زين الدين عمر بن المظفر الوردى، القسطنطينية، ١٣٠٠هـ.
- **رجال السند والهند إلى القرن السابع**، أبو المعالى أطهر المباركبورى، مصر، ١٣٩٨هـ.
- **الرسميات**، **أبو سعيد الرستمى الأصفهانى**، باكستان، ١٩٨٤م.
- **روائع اقبال**، أبو الحسن الندوى، مجلس نشريات إسلام كراتشى/ باكستان، بدون تاريخ.
- **سبحة المرجان فى آثار هندوستان**، غلام على آزاد، الهند، ١٩٨٠م.

- **سفينة البلاغة**، محمد زمان خان، الهند، ١٣١١هـ.
- **سواطع الإلهام**، أبو الفيض المبارك، الهند، ١٣٠٦هـ.
- **شآبيب الرحمة**، محمد أفضل فقير، باكستان، ١٤١٣هـ.
- **شرح مقامات السيوطي**، سمير محمود الدروبى، لبنان، ١٩٨٩م.
- **شفاء العليل**، غلام على آزاد، الهند، ١٩٨٦م.
- **ظل ممدود**، محمد عباس التسترى، الهند، ١٢٨٨هـ.
- **العباب الزاخر**، رضى الدين بن حسن الصغانى، العراق، ١٩٧٨م.
- **عطر الوردة فى شرح البردة**، ذو الفقار الديوبندى، كتبخانه اعزازية ديوبند الهند، بدون تاريخ.
- **العلم الخفاق من علم الاشتقاق**، صديق حسن القنوجى، الهند، ١٢٩٤هـ.
- **غصن البان المورق بمحسنات البيان**، صديق حسن القنوجى، القسطنطينية، ١٢٩٦هـ.
- **فتوح البلدان**، أحمد بن يحيى البلاذرى، مطبعة الموسوعات. مصر، بدون تاريخ.
- **فضل الحق الخيرابادى**، د. قمر النساء، باكستان، ١٩٨٦م.
- **فقه اللسان**، كرامت حسين الكنتورى، الهند، ١٩١٥م.
- **الفن ومذاهبه فى الشعر العربى**، د. شوقى ضيف، لبنان، ١٩٥٦م.
- **فوات الوفيات**، محمد بن شاكر الكتبى، مصر، ١٩٥١م.
- **لف القماط على تصحيح ما استعملته العامة من المعرب والدخيل والأغلاط**، صديق حسن القنوجى، الهند، ١٢٩٦هـ.
- **اللغة العربية فى باكستان**، د. محمود محمد عبد الله، باكستان، ١٩٨٤م.
- **المسلمون فى الهند**، أبو الحسن الندوى، الهند، ١٩٨٧م.
- **مصدق الفضل**، شهاب الدين الدولتابادى، الهند، ١٣٢٣هـ.
- **مقامات الحريرى**، محمد بن على بن عثمان الحريرى، مصر، ١٣٠٥هـ.

- **المقامات (شرح مقامات الزمخشري)**، بتحقيق يوسف بقاعي، لبنان، ١٩٨١م.
- **مقامات الهمداني**، بديع الزمان الهمداني، مصر، ١٩٢٣م.
- **مقامات الهندي**، أبو بكر بن محسن باعبود، الهند، ١٢٩٢هـ.
- **نتف من شعر أبي عطاء السندي**، د. نبي بخش بلوش، باكستان، ١٩٦١م.
- **نـزهة الخواطـر**، عبد الحي الحسني اللكنوي، ج١ الهند، ١٩٤٧م - ج٣ الهند، ١٩٥١م - ج٤ الهند، ١٩٥٤م - ج٥ الهند، ١٩٧٦م - ج٦ الهند، ١٩٧٨م - ج٧ الهند، ١٩٧٩م - ج٨ كراتشي/ باكستان، ١٩٧٦م.
- **نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان**، صديق حسن القنوجي، الهند، ١٢٩٤هـ.

ثانياً- المصادر الأردية:

- **آب كـوثـر**، محمد اكرام شيخ، باكستان، ١٩٥٢م.
- **باغـي هنـدوستان**، عبد الشاهد خان شرواني، باكستان، ١٩٧٤م.
- **تذكرهء علماى هند (الترجمة الأردية)**، ترجمة محمد أيوب القادري، باكستان، ١٩٦١م.
- **تمدن هند پراسلامى اثرات (الترجمة الأردية)**، تاراچند، باكستان، ١٩٦٤م.
- **تواريخ سيالكوت**، غلام محمد عبد الله، الهند، ١٣٠٤هـ.
- **حدائق الحنفية**، فقير محمد الجهلمي، الهند، ١٣٠٨هـ.
- **حميد الدين الفراهي**، محمد عنايت الله سبحاني، باكستان، ١٩٨٠م.
- **حيات قائد ملت**، محمد اقبال سيلم، لاهور/ باكستان، بدون تاريخ.
- **رود كوثـر**، محمد اكرام شيخ، باكستان، ١٩٨٠م.
- ضميمهء اردو **كليات نظم حالي**، محمد يعقوب مجددي، الهند، ١٣٣٣هـ.
- **علماى هند كا شندارماضي**، محمد ميان، الهند، ١٩٦٣م.

- **فقهاى هند**، محمد اسحق بهتى، ج٢ باكستان، ١٩٧٥م- ج٣ باكستان، ١٩٧٦- ج٣ القسم الأول باكستان، ١٩٧٩م - ج٥ القسم الثانى، ١٩٨١م.
- **كاروان زندگى**، أبو الحسن الندوى، مجلس نشريات اسلام كراتشى/ باكستان، بدون تاريخ.
- **مآثر الكرام**، غلام على ازاد البلكرامى، باكستان، ١٩٧١م.
- **مقالات شبلى**، ترتيب السيد سليمان، الندوى، الهند، ١٩٣٦م.
- **نزهة الخواطر (الترجمة الأردية)**، عبد الحى الحسنى، ج٢ باكستان، ١٩٦٥م.
- **هندوستان كے سلاطين علما اور مشايخ كے تعلقات پرايك نظر**، السيد صباح الدين أحمد، الهند، ١٩٦٤م.
- **هندوستان مين اسلامى علوم وادبيات**، عماد الحسن آزاد الفاروقى، الهند، ١٩٨٦م.
- **هندوستان مين عربون كے حكومتين**، أبو المعالى اطهر المباركبورى، باكستان، ١٩٦٧م.
- **ياد رفتگان**، السيد سليمان الندوى، باكستان، ١٩٨٣م.

ثالثاً - المصادر الفارسية :

- **أخبار الأخيار فى أسرار الابرار**، عبد الحق الدهلوى، الهند، ١٢٧٨هـ.
- **تذكرهء علماى هند**، رحمن على، الهند، ١٩١٤م.
- **كاروان هند**، أحمد گلچين معانى، إيران، ١٣٦٩هـ.
- **مجموعة سخنرانيهاى سيمنار پيوستگيهاى فرهنگى إيران وشبه القاره**، نشر مركز تحقيقات فارسى باكستان، باكستان، ١٩٩٣م.
- **مقامات حميدى**، عمرو محمود البلخى، إيران، ١٣٦٢هـ. ش.
- **مقامه نويسى در ادبيات فارسى**، فارس ابراهيمى حريرى، إيران، ١٣٤٦هـ. ش.

رابعاً - المصادر الإنجليزيـــة :

Contribution of Indo- Pak to Arabic literature, Zubaid Ahmad, Pakistan, 1967.
Encyclopedia od Islam.
Literary History of the Arabs, R. A. Nicholson, Cambridge, 1956.

خامساً - المقالات والأبحاث :

- **إسهام شبه القارة فى نشر الكتاب العربى للدكتور أحمد خان**، مقال باللغة العربية قدم فى المهرجان الثقافى بالكويت فى نوفمبر ١٩٩٣م.
- **مولانا أصغر على روحى** بحث مقدم من ذو الفقار على رانا لنيل درجة الدكتوراه فى الأدب العربى (باللغة الأردية) من جامعة البنجاب ١٩٨٨م.
- **طلا محمد خان كے أحوال وآثار** بحث مقدم (باللغة الأردية) من محمد أشرف لنيل درجة الدكتوراه فى الأدب العربى من جامعة البنجاب ١٩٨٨م.
- **مولانا فيض الحسن سهارنبورى** بحث مقدم (باللغة الأردية) من سعيد اقبال لنيل درجة الدكتواه فى الأدب العربى من جامعة البنجاب ١٩٨٦م.

سادساً - المخطوطات :

- **رسائل الصغانى (مجموعة مقالات فى اللغة العربية)** لرضى الدين الصغانى برقم ٤٨٢ فى مكتبة مجمع البحوث الإسلامية باسلام آباد / باكستان.
- **تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم** لأبى المظفر فخر الدين يوسف ابن حموية مخطوط برقم ١١ فى مكتبة مجمع البحوث الإسلامية باسلام آباد / باكستان.

سابعاً - المجلات والدوريات والنشرات :

- **أفغانستان**، مجلسة شهرية باللغة العربية، إسلام آباد، عدد يولية ١٩٨٧م.
- **تحقيــق**، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والشرقية باللغتين الفارسيـة والأردية، مجلد ٣٦ عدد ١- ٢.
- **ثقافــة الهنــد**، الصادرة في نيودلهي باللغة العربية، مجلد ٣٥، عدد ٢، مجلد ٣٦، عدد ٢، مجلد ٣٨، عدد ١- ٢.
- **فكــر ونظــر**، الصادرة باللغة الأردية في إسلام آباد، عدد يونيـة ١٩٨٣م، عدد يوليـة/ سبتمبر ١٩٨٩م.
- **المجمع العربي الباكستاني** مجلة تصدر في لاهور/ باكستان باللغة العربية، مجلد ١ عدد ٢ نوفمبر ١٩٩٣م.
- **المجمع العلمي الهندي** الصادرة باللغة العربية في عليكره، العدد الخاص بالميمني، يونية ١٩٨٥م.
- **معــارف**، الصادرة باللغة الأردية اعظم كره بالهند، مجلد ٣٩، عدد ٦.
- **المنتخب من الشعر العربي** نشرة يصدرها قسم اللغة العربية في جامعة عليكره بالهند، عدد ١٩٩٠م.
- **نقــوش**، الصادرة باللغة الأردية في لاهور بباكستان، العدد الخاص بالشخصيات، أكتوبر ١٩٥٦م.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الباب الثانى
(الشعر)
٢٢١ - ٣٧٣

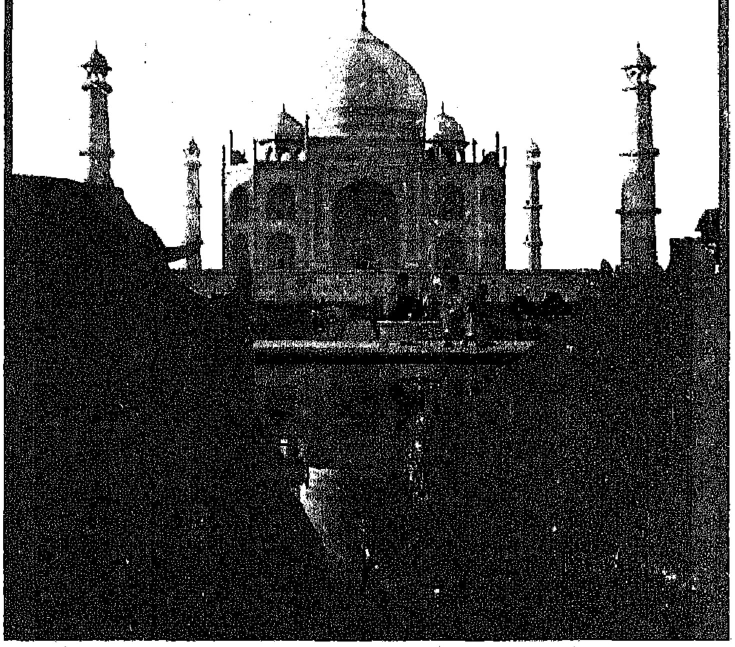
الباب الثالث
سير أعلام الأدباء فى شبه القارة
٣٦٥ - ٤٢٤

رقم الايداع : ٢٨٥١ / ٩٨
I.S.B.N 977 - 5487 - 85 - 4
طبع بمطابع الهداية - البراجيل - الجيزة

د . أحمد إدريس

الأدب العربى في شبه القارة الهندية

حتى أواخر القرن العشرين



للدراسات و البحوث الانسانيه و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES